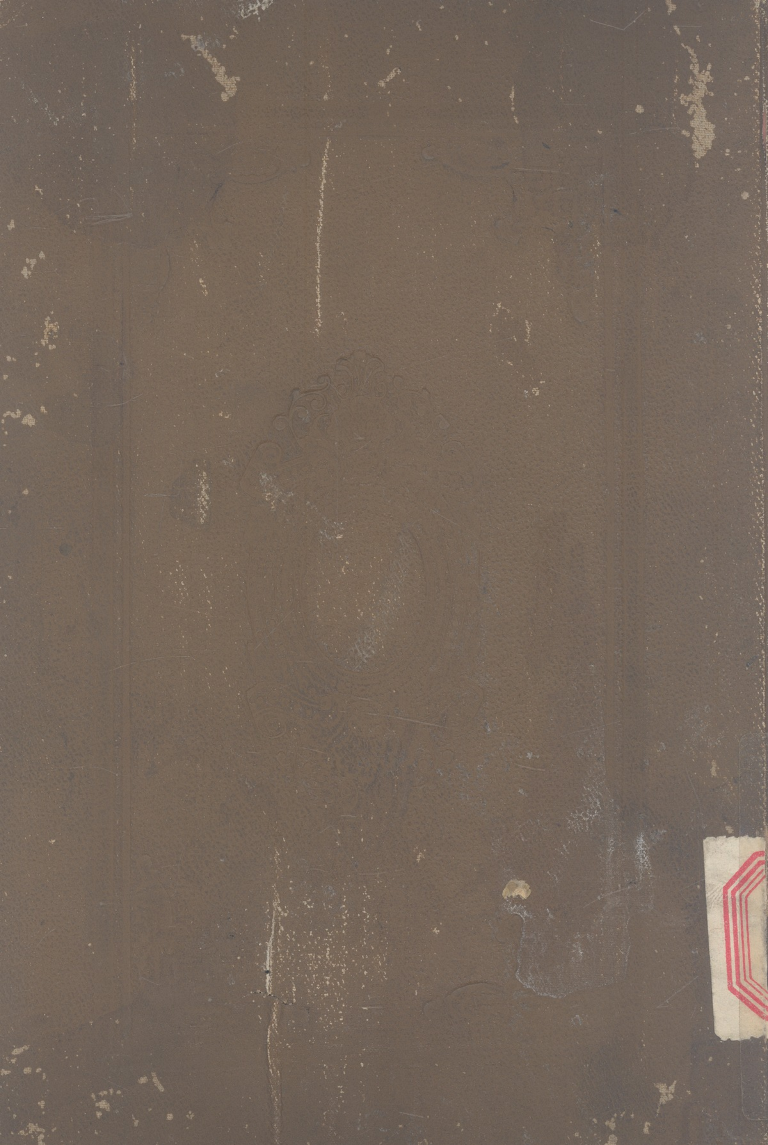
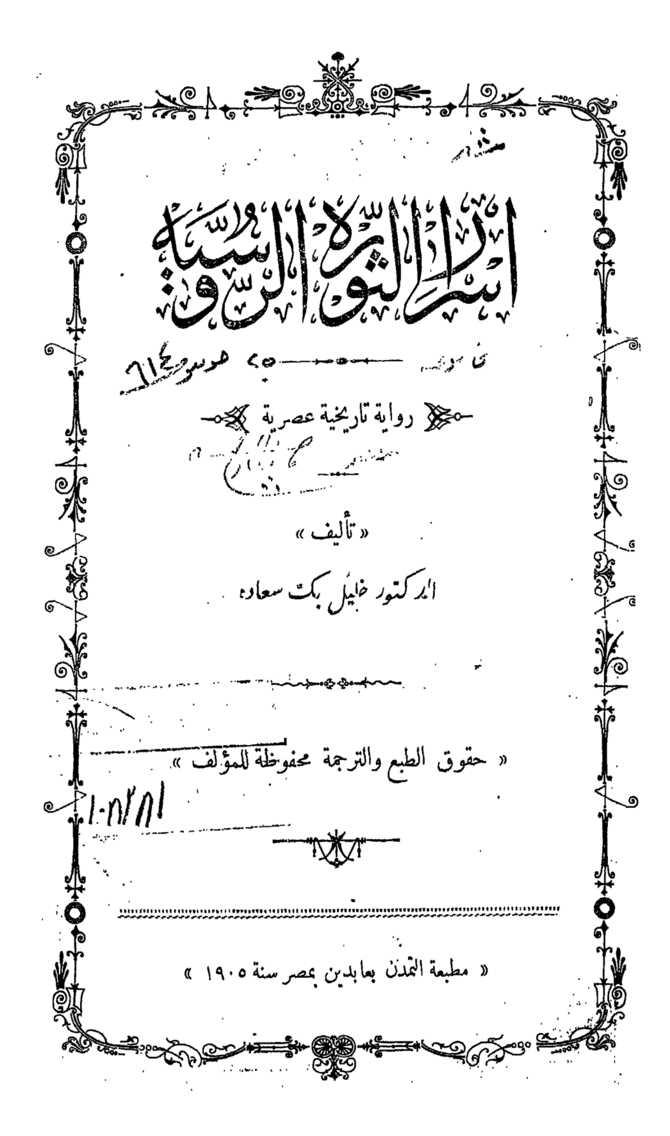




أسرار الثورة الروسية

رواية تاريخية عصرية

« تأليف »

الدكتور خليل بك سعاده

« مطبعة التمدن بعابدين بمصر سنة ١٩٠٥ »

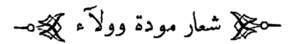
هدية الكتاب



الى

عطوفتلو أفندم

ادريس بك راغب



شعار مودة وولآء

توطئة

سيكون للثورة الروسية التي لا تزال حتى الساعة نارها في اضطرام واوارها في استعار من تغيير شؤون الجنس البشري ونهضة الامم ما كان لشقيقتها الثورة الفرنساوية في أواخر القرن الثامن عشر من الضرب على يد الجور الاثيمة وكسر أغلال الظلم وقيود الاستبداد والخروج ببني الانسان من دياجير الجهل والاوهام الى فضاء الحرية ومناهل العمران

وليست هذه الثورة طفرة ولكنها ثوران بركان عظيم في المجتمع الانساني يتمشى على سنن البراكين الطبيعية التي ظاهرها طفرة ولكنك اذا تحريت أسرارها وفقهت أسبابها ادركت انها نتيجة اضطرارية لاسباب طبيعية لبثت دهرًا طويلاً طيّ حجب الخفاء والكتمان فهي عبارة عن ضغط مائة وعشرين مليونًا من النفوس حولتها نار الاستبداد بخارًا في مرجل تلك الامبراطورية العظيمة فاذا هي لم تجد لها منفذًا انفجر ذلك المرجل انفجارًا هائلاً وتبعثرت اجزاؤه هباء منثورًا في الفضاء

ولقد أتينا في هذه الرواية على بيان الاسباب التي تعمل منذ قرون عديدة على تهيئة افكار القوم وخواطرهم حتى استعرت الآن ثورة اندلع لهيبها في بطرسبرج وموسكو وفنلندا وبولونيا والقوقاس وسائر أرجاء تلك الامبراطورية المتنائية الاطراف ثم اننا ألمعنا ايضاً الى مايقع على افراد الامة من حيف حكام المقاطعات واستبداد العمال وجور المديرين وفصلنا ضروب النكال والعذاب التي يلقاها المنفيون الى سيبيريا وأوضحنا أساليب الجاسوسية الروسية في تلك البلاد وسائر عواصم أوربا وأعمال النهلست الخفية

وجرائمهم التي دوت بها ارجاء اوربا وهلعت لهولها قلوب ملوكها وحسرنا لثام الابهام عن كثير من الاسرار التاريخية التي لبثت حتى الآن طي حجب الخفاء

ولا يظنن المطالع ان وقائع هذه الرواية من تخرصات الاوهام وصور الخيال بل هي وقائع تاريخية وقف عليها كل من له المام بحوادث الامة الروسية نحو مغيب القرن المنصرم وفجر القرن الحالي وقد أخذنا شيئاً كثيراً من كل ذلك عن ثقات الكتبة الذين انقطعوا الى هذه الابحاث وجابوا اقفار سيبيريا حتى بلغوا اقصاءها ووقفوا على مكنونات أسرارها وخبايا أهوالها وشاهدوا المنفيين في مناجمها ورأوا ما حل بهم من ضروب البلايا وأنواع العذاب رأي العين وعلموا تفاصيل مكايد النهلست واشراك مكرهم والجرائم التي يقترفونها للايقاع بالسلطة الامبراطورية أو ارهابها مما تناولت ذكره جرائد العالم المتمدن وفي صدرها جريدة التيمس الذائعة الصيت التي نشرت بهذا الصدد مقالات ضافية الذيول

ولقد نسقنا كل ذلك في قالب روائي يفقه منه المطالع أسرار الثورة الحالية ونظن ان هذا الكتاب أول رواية عربية نسجت على منوال عصري يتناول الحوادث الواقعية التي لا تزال حتى الساعة تردنا بشأنها مقالات الجرائد الاجنبية تباعاً وتتوارد التلغرافات تترى تنقل كل يوم حديثاً جديداً عن اندلاع لسان الثورة واضطرام سعيرها ووميض بروقها ولعلعة رعودها وما كل ذلك سوى آلام أمة يربو عددها على مائة وعشرين مليوناً من النفوس تتمخض بطفل لم ترَ له مثيلاً قط يسمى الحرية — طفل عمدته بماء العيون ودم القلوب وصراخ اليتامى ونحيب الارامل وبكاء الثكالى وزفرات الصدور حتى بلغ عويلها عنان السماء

المقدمة

يرى السائح بين هضاب لبنان وانجاده بناء فخماً على شاهق من ربوة تحف بها الأنجم والأشجار وتعلوها الرياحين والأزهار يجري في سفحها العقيق أخاديد في أعماق الوهاد وتجلى الطبيعة حولها ملكة بارزة في جلباب العظمة والجمال فانك اذا نظرت شرقاً رأيت جبل صنين وقد لبس تاجاً من الثلوج ينطح به هام السحاب وقد تابد الغمام فوقه جلابيب بعضها فوق بعض ثم تتبدى أمامك سلسلة من الجبال تخترقها الأودية وقد كساها النبات وغطت سفحها الأشجار واذا ادرت لحاظك غرباً وجدت البحر المتوسط منبسطاً رقعة زرقاء كأنه عند موطئ قدميك تتهادى أمواجه الطامية متلاحمة على سطحه فاذا قربت من البر تنفست زبداً وانبسطت على تلك الرمال حيث قائمة هنالك تلك العروس البديعة مدينة بيروت الجميلة التي قال بشأنها امبراطور المانيا عند وصوله اليها انها أثمن درة في تاج سلطنة آل عثمان

وهذا البناء الفخيم الذي أتينا على ذكره الآن انما هو معبد قديم العهد كان أولا بناء صغيراً لفئة من النسّاك الذين زهدوا عن الدنيا أُطلق عليه اسم دير مار ايلياس شُويّا وكان أول عهده بناية صغيرة تقي ساكنيها وقع الصواعق وتهاطل الثلوج المتراكمة وانهيال الأمطار الغزيرة فلما أتبعت الرهبنة سنة الارتقاء وكثرت أوقاف المعبد ودرت خيراتها وانهالت على الخزينة دنانير الزوار شيد أولئك النساك قصراً منيفاً اذا وقفت على سطحه رأيت منظراً من أبدع مناظر الطبيعة وأشدها وقعاً في القلوب والنفوس

ثم أن في جوار سفح هذا المعبد بلدة في مطمئن من الارض تسمى الشوير كانت أولاً غاباً كثيفاً يتفجر الماء منه زلالاً فاتخذ بعضهم منذ بضعة قرون هذه البقعة موطناً لهم فقطعوا الاشجار وابتنوا المنازل وكانت أوائل أمرها قرية ثم تدرجت حتى صارت الآن بفضل جد أهلها مدينة صغيرة كانت من أوائل

المدن التي طلع عليها فجر المعارف في لبنان وبزغت على أهلها شمس العلوم وقد اشتهرت مؤخراً روابيها بجودة المناخ وطيب الهواء حتى أصبحت مصحاً يقصدها الاعلاء من سوريين ومصريين وخصوصاً من كان مصاباً منهم بالعلل الصدرية وهي مسقط رأس المؤلف حيث صرف زمن الحداثة والصبوة

ولقد أتيح لي منذ برهة يسيرة زيارة هذا الوطن العزيز حيث دُعيت أن أصرف بضعة أيام في الدير الذي مرّ بيانه ترويحاً للنفس من مشاق العمل فالتقيت بين زواره والمقيمين فيه برجل طويل القامة براق المقلتين بالغ سن الكهولة قدم الدير حديثاً وكان يصرف أكثر أوقاته في العزلة والانفراد عن مجالسة القوم فاذا دخل المعبد للصلاة تأخر عن الجمهور ولبث جاثياً على ركبتيه وهو رافع يديه الى السماء ولا يخرج الا اذا أعياه الجثو

ثم علمت بعد ذلك أن الرجل روسي المحتد قدم ربوع لبنان بعد شبوب الثورة الروسية التي لا تزال حتى الساعة نارها في سعير فتاقت نفسي الى معرفة شيء من أمره واتفق بعد ذلك ان تعارفنا وتصادقنا وفيما كنا جالسين أصيل ذات يوم بجانب نبع يتفجر منه ماءه الصافي كذوب اللجين يسمى عين الصرفد وخطرات النسيم تحرك أغصان الأشجار وور يقات الأزهار ينتشر أريجها عبيراً ينعش الصدور ويشرح النفوس تطلع اليّ وقال

« انظر ما أبهى الطبيعة حولنا فان كل ما فيها جميل من نسيم بليل وماء كذوب البلور وأشجار باسقة وأنجم مزهرة وزهور متأرجة وطيور مغردة وجو صاف وشمس مشرقة ولكن الانسان جحود كفور بنعمة ربه يفسد عمل خالقه ويعيث في الأرض شرًّا ويملأ جوّها فساداً ويصبغ أديمها دماً ويأتي من المنكرات والموبقات والجرائم ما يندي له الجبين وتصطك المسامع »

فنظرت اليه باسماً وقلت

« أراك شديد التدين كثير الاستغفار تصرف نهارك راكعاً وليلك مصلياً فلو وُجد شخص آخر نظيرك في العالم لكفرتما باستغفاركما عن سائر سيئات الجنس البشري »

فأَنَّ الرجل انة خرجت من أعماق احشائه وأجاب

« لو وُجد رجل آخر نظيري في العالم لمـــا أشرقت الشمس على الارض ولحجب الله وجهه عن أبناء آدم »

و بعد أن تجاذبنا أطراف الحديث حيناً من الزمن استأذن الرجل بالانصراف فبقيت جالساً وحدي أفكر في أمره وفيما كنت أنظر حولي رأيت ورقة بجانب الصخر الذي كان جالساً عليه فلما فتحتها وجدت فيها ما يأتي

موسكو في ١٨ فبراير سنة ١٩٠٥

مولاي فلاديمير

ان لجنة الثورة هنا عقدت اجتماعاً الاسبوع المنصرم وقررت فيه عملاً بأوامركم السامية الاشتراك مع زعماء العمال في الرأي والاعتصاب العام عند ما تبلغنا أخبار اعتصاب العمال في بطرسبرج حتى تعم الحركة الثورية سائر الاصقاع الروسية دفعة واحدة ولقد جاءتنا الامدادات المالية التي تكرمتم بارسالهـا اغاثة للعمال أثناء الاضراب عن العمل وقيمتها عشرة ملايين روبل ولما شاع أمر الاعتصاب العام في بطرسبورج المعروف بيوم فلاديمير لم نلبث هنا ان اقتفينا أثركم ولمـا وزعنا الدراهم على العمال أثناء العطلة شاع على أثر ذلك ان هذه الاعانات انما هي من مصادر يابانية انكليزية وجاهرت الحكومة المحلية بذلك إذ لصقت اعلانات بهذا الصدد في سائر شوارع المدينة مما أفضى الى اعتراض سفير انكلترا اعتراضاً شديد اللهجة على ما أفدتكم في رقيم سابق بالتفصيل

والغرض من كتابة هـذا الرقيم الآن هو أن تحيطوا علماً بتفاصيل مقتل الغراندوق سرجيوس الذي دوت بخبره سائر الاندية السياسية في انحـاء العالم وهلعت قلوب العائلة المالكة فقد سبقت فأنبأتكم في التقرير السابق أن الحكم قد صدر عليه في اجتماعنا الاخير بالاعدام وللبلوغ الى هذا الغرض القينا قرعة كالعادة فوضعنا أوراقاً ملفوفة في كيس بعــدد الاعضاء المجتمعين وعـلى واحدة منها اشارة الاعدام المختصة بجمعيتنا ثم جرى السحب على هذا الاسلوب حتى لا يعلم أحد من هو الذي وقعت قرعة الاعدام عليه خوفاً من افشاء السر

لأنك أدرى انه ينخرط أحياناً في عداد جمعيتنا بعض من الاقوام لغرض الجاسوسية ولما انقضى سحب هذه الاوراق لم يبد على وجه أحد من الحاضرين ما يدل على أن القرعة وقعت عليه وكانت القنبلة التي أحضرتها الجمعية من لندرا لهذا الغرض موضوعة في صندوق في غرفة خاصة ولما انصرف الاعضاء لم تكن القنبلة هناك ولكن لم يعلم الرجل الذي استلمها أما تفاصيل ذلك المقتل فلا لزوم الى تبيانها لأنها أصبحت الآن حديث القوم وسمرهم

ثم اني أفيدكم أنه مع شدة هذه الاحتياطات التي اتخذناها قد وشى بكم واشٍ الى ادارة البوليس هنا وسلمها عنوان موضع اقامتكم ولما كان وجودكم في الاصقاع الروسية في مثل هذه الظروف محفوفاً بالمخاطر وجب عليكم تركها حين بلوغ هذا الكتاب الذي قد بعثنا به صحبة أحد الامناء خوفاً من وقوعه في أيدي عمال الحكومة وفي الختام أهديكم تحياتي واحترامي

رئيس لجنة الثورة في موسكو

موضع الامضاء

فما انتهيت من مطالعة هذا الرقيم حتى اعتراني ذهول شديد كدت أغيب فيه عن رشدي لاني علمت أن الرجل الذي اصبح لي لغزاً من الالغاز ليس سوى ذلك الرجل العظيم الذي طبقت شهرته الآفاق وتحدثت به عظام ساسة العالم الا وهو غورتشاكوف سرجيوس فلاديمير امبراطور النهلست او جنرالهم الكبير الذي أتت على تفاصيل أعماله أشهر جرائد العالم وبينما أنا على هذه الحال والعرق يتساقط من جبيني كالطل واذا بالرجل قد عاد فنظر اليّ نظرة لا أنساها مدى الحياة وكان لا يزال ذلك الرقيم المخيف في يدي فاختطفه وقال بصوت أسيف

أما الآن وقد أظفرك الحظ أن تقف على شيء من أسراري فانك دون ريب تفقه السبب الذي لأجله قلت لك اني أشقى البشر

فوقفت مذعوراً في موضعي كما لو كان أمامي أفعى وأجبته

« لو علمت انك ذلك الرجل الذي ذهبت جرائمه مثلاً بين الملا وانك قاتل سفّاحٌ وزعيم تلك الطغمة التي تعلمت منذ نعومة اظفاري أن امقتها وأحتقرها

لحسبت مكالمتي لك جريمة ومجالستي إياك اثمًا لا يغفر »

فأمسكني الرجل بيدي وقال

« أستحلفك بالله ألا تتهمني فقد كفاني من نفسي زاجرًا ومن ضميري موبخًا وهذا ما حدا بي الى استغفار ربي نهارًا وليلاً وبكرة وأصيلا بيد انك اذا أصغيت الى حديثي وعلمت جلية أمري فقهت الى أي حد يدفع الانسانَ جورُ الانسان فاجلس الى جانبي لأقص عليك ما تتوق الى معرفته أسمى رجال السياسة وأبلغ كتاب العصر مما لا يزال حتى الساعة طي الخفاء والكتمان والله على ما أقول شهيد»

ثم أمسكني الرجل بيدي وأجلسني الى جانبه وأخذ يقص عليّ بصوت يتقطع كآبة وأسىً الحديث الآتي

الفصل الاول

« الجور يلد اثمًا »

كنت في أوائل العمر من اسرة ذات ثروة طائلة وجاه بعيد الصيت وكان والدي أعظم تجار مدينة بطرسبرج وأكثرهم نفوذًا ولم يكن لي سوى شقيقة ربيت واياها الى أن ترعرعت و بلغت سن الرشد واذ ذاك اضطررت الى ترك الأهل ومغادرة الخلان للقيام بالخدمة العسكرية التي يقضي بها قانون البلاد وكان ذلك أمرًا عسيرًا عليّ لاني اعتدت الترف والرفاه ولكنني تجلدت وصبرت على ما قُدّر لي صبر الكرام

أما الموضع الذي ذهبت اليه لاتمام الخدمة العسكرية فهو بجانب سهول بحيرة كوبنسكوي المقفرة فتحملت المشاق صابرًا على مضض العيش وكانت الرسائل التي ترد عليّ من أسرتي تباعًا بلسماً شافيًا لكلوم القلب ومهمازًا للنشاط والاقدام ونورًا يبدد عن عينيّ ذلك الظلام الدامس إلا أنه ما انقضى عليّ سنتان من الزمن حتى انقطع ورود هذه الرسائل فجأة فبعثت أستنبئ الأهل دون أن

يردني جواب على الاطلاق فطيرت على جناح البرق رسائل استقصي بها الاسباب ولما لم يجدني ذلك نفعاً بعثت بكتب عديدة الى أخص الأصدقاء دون أن أظفر بطائل ولما أعيتني الحيلة تقدمت الى رؤسائي استميحهم الاذن بالذهاب الى بطرسبرج فذهبت أتعابي أدراج الرياح فاضطررت الى البقاء مرغماً وأنا على أحر من الجمر

واتفق صباح ذات يوم أن التقيت برفيق يتمشى وهو يطالع أحد أعداد جريدة النوفوفريميا الشهيرة فلما دنوت منه قبض على ذراعي وأشار الى فقرة من ذلك العدد وسألني « هل الرجل من ذوي قرباك ؟ » فما أجلت نظري في تلك الفقرة حتى علا وجهي الاصفرار وسقطت الجريدة من يدي ووقفت صامتاً وقد تولاني اليأس وكان فيها ما يأتي

«ان سرجيوس فلاديمير متري بطرسبرج الشهير كان في عداد المنفيين الى سيبيريا أثناء الأسبوع الغابر عملاً بالأوامر السامية الصادرة من الدوائر الرسمية بهذا الصدد »

ولما سكن جأشي وثاب اليّ رشدي وفقهت ما حل بوالدي استفزتني عاطفة الحنو لمعرفة ما جرى لوالدتي وشقيقتي على أثر هذه النائبة فألححت في طلب الاذن بالذهاب الى بطرسبرج فلم يُغن ذلك فتيلاً بل أُكرهت على البقاء الى أن أتممت الخدمة العسكرية فما صدقت أن انبثق فجر ذلك اليوم حتى ركبت القطار وبلغت مسقط رأسي ولا بد لاتمام هذا الحديث أن أقص عليك ما علمته بعد ذلك من شقيقتي أولغا

وشى بعض أعداء والدي وحساده به الى القيصر فأصبح من المغضوب عليهم لغير ذنب وبينا كان قصرنا ذات ليلة مزداناً بالأنوار والألحان الموسيقية تشنف الآذان والمدعوون في رقص وطرب اذا ببضعة نفر من رجال البوليس دخلوا على حين فجاءة فألقوا القبض على والدي ثم قضى عليه بعد اسبوعين بالنفي الى المناجم التي بجوار بحيرة بيكال دون تحرّ أو محاكمة وصودرت أملاكه وطردت والدتي وشقيقتي من القصر الى الأزقة والشوارع فاضطرتا أخيراً للذهاب الى بلدة صغيرة في مقاطعة موغهليف حيث أخذتا تشتغلان

بالتطريز قياماً بأودهما ثم حصل بعد وصولهما الى هناك قحط أوقع الأهالي في مجاعة شديدة ولما بلغت بطرسبرج للاستخبار عنهما كانتا في أسوأ حال وأنا لا أعلم لهما مقرًّا

أما والدتي فان الجوع قد بلغ بها مبلغا برّح بجسدها وأنهك قواها فاضطرت الى ملازمة فراش رث في غرفة شديدة البرد والزمهرير وتبدى عليها من لوائح الشحوب والخوار ما أيقنت معه ان شبح المنية واقف بجانبها وكانت شقيقتي اولغا واقفة امامها تذرف العبرات تلوَ العبرات حتى ابتلت اثوابها من الدموع وشعرها الجعدي مسترسلٌ على كتفيها وظهرها ثم انحنت على امها وقبلت وجنتيها الباردتين قائلةً « هل تشعرين يا والدتي العزيزة بالم شديد؟ »

فتطلعت اليها الام نظرة كلها انعطاف وحنان وقالت لها « يا اولغا ان انفاسي معدودة وعما قليل سأترك هذه الديار الفانية وستكونين من بعدي وحيدة شريدة لا معين لك الا الله فاتكلي عليه واستجيري به ساعة اليأس والقنوط وهو يسدد خطواتك ويظلك بجناحيه »

فاغرورقت عين أولغا بالعبرات وقالت « خففي كربك يا والدتي الحنونة ولا تتكلمي عن الموت فاني لا أطيق سماعه — كلا كلا انك لا تموتين — اني انتشلك من مخالب المنية ولا أتركك تموتين جوعاً ولو اضطررت للاستعطاء في الأزقة والشوارع كأفقر المتسولات وها أنا عائدة اليك بعد هنيهة بالطعام » ثم انبرت من الغرفة كالسهم المنطلق

فأخذت تسير هائمة على وجهها في الشوارع وعيناها لا تقعان الا على كل ضئيل الجسم شاحب اللون فاتر العزم من شدة الخوار وهي آثار القحط والجوع ولبثت على هذا المنوال تقطع شارعاً بعد شارع دون أدنى جدوى وهي تستعطي من أقوام هم انفسهم أحق بالشفقة والرثاء حتى بلغت أخيرًا طرفاً من الشارع كانت واقفة فيه سيدة حسنة البزّة والوجه وبيدها رغيف تطعم منه كلباً أمامها فتقدمت اليها وسألتها كسرة فنظرت اليها السيدة شذرًا وانتهرتها قائلة « أمثالك يعطى رغيف كلبي؟ »

فجثت أولغا على ركبتيها وقالت لها « أستحلفك بالله أن تسمحي لي بكسرة صغيرة فان أمي على فراش الموت وهي في حال النزع من الجوع » فنظرت اليها السيدة نظرة الاحتقار والامتهان وقالت لها « موت أمك ليس بخسارة عظيمة على الكون »

فلم تثني أولغا عليها السوءال بل وقفت من مجثاها وقوف الظبي النافر وقد صبغ احمرار الخجل خديها بلون الجلّنار ولكنها لم تسر زمية حجر حتى شعرت بيد كأنها من حديد وُضعت على كتفها وصوت أجش يقول لها «ماذا تفعلين هنا أيتها الشاردة ؟ » فالتفتت شقيقتي الى الوراء فاذا الرجل رئيس بوليس البلدة فلما رأته امتقع لونها وقالت له « أتيت الى هنا للحصول على بلغة من العيش فان أمي في حال الاحتضار »

— « اذا كان الامر كذلك فاني أنصحك أن تذهبي الى محافظ البلدة فان لديه أموالاً تصرف في هذا السبيل بعثتها اليه الحكومة تخفيفاً لويلات المجاعة فاسرعي ولا تقفي لحظة واحدة » فأحنت شقيقتي رأسها له علامة الشكر وأسرعت جهد الطاقة لبلوغ المحافظة لأنها أدركت أن أنفاس والدتها معدودات بالدقائق فما ابتعدت عن رئيس الشرطة قليلاً حتى تبسم حبوراً وهو يقول في نفسه « ان صديقي المحافظ خبير بملامح الجمال »

وكانت أولغا آية في الحسن طويلة القوام ممشوقة القد وردية الوجنتين جعدية الشعر لا تتجاوز ثمانية عشر ربيعاً من العمر ولم يكن لها معرفة بالمحافظ سوى ما كان يسمع عنه من فظاظة الاخلاق والاستبداد بالرعية فان للحكام والمحافظين في روسيا سلطة مطلقة على العباد يتصرفون بهم وبشوءنهم تصرف المالك بملكه لا ينازعهم منازع ولا يردعهم رادع فكان المحافظ اذا أغضبه أحد أمر بجلده بأسواط يدمي وقعها الجلود فاذا اتفق أنه أمر بقتل أحد دون تعذيبه وجلده أولاً حسب ذلك منه منة ورحمة للعالمين — هذا هو الرجل الذي ذهبت اليه شقيقتي تستغيث به من مخالب المجاعة والموت

فلما مثلت أولغا بين يديه تأمل فيها لحظة تأمل الحيرة والذهول ثم صرف

الخادم وتوجه الى الباب فقفله ثم نظر اليها قائلاً « ماذا تريدين أيتها الابنة ؟ »

فانحنت أمامه باحترام وقالت « بعثني الى سعادتك رئيس الشرطة »

« اني أشكره لأنه انتقى لي فتاة كلها جمال فتان »

فأغضت أولغا الطرف عن أقواله وأفادته أنها انما قدمت اليه تسأله شيئاً من القوت سداً لرمق والدتها التي أصبحت على وشك الموت فنهض من مكانه وأظهر لها شيئاً كثيراً من اللطف ثم طوق خصرها بيديه وقبلما أتيح لها التملص منه شعرت بشفتيه على خدها الوردي فذُعرت منه ذعراً شديداً وقالت له « لو علمت ان الفتاة التي أمامك هي ابنة سرجيوس فلاديمير لما تجرأت على كسر حرمة الأدب أمامها ولكن الدهر قد أخنى علينا بكلكله وعضنا الجوع بنابه فأرغمت على الحضور اليك وأنا على يقين أني في حضرة شهم لا يرد مثل هذا الطلب وخصوصاً لأن جلالة القيصر أبانا جميعنا قد بعث اليك بما فيه تخفيف ويلات المجاعة »

فاحمر المحافظ خجلاً ورانت عليه الحدة فقال لها « الست ابنة ذلك النهيلستي الذي تآمر على حياة مولاي القيصر وهو الآن في صحاري سيبيريا منفيّ يلاقي جزاء ما جنت يداه ؟ »

«ان هذا افكٌ يامولاي وما هو سوى وشاية كذب وبهتان قام بها اعداؤنا حتى انهم تمكنوا من ارسال والدي الى ارتسك دون ان يسمح لهُ بالدفاع عن نفسه »

« اتجسرين ان تتكلمي بمثل هذا عن عدل جلالة القيصر فان كلامك يشهد عليك انك نفسك من عداد تلك الطغمة الشريرة » فارتاعت اولغا وحسبت ان المحافظ يود ايقاعها في اشراك النهيلستية ويتخذ ذلك حجة على نفيها فأوجس الحاكم خيفة من هذا الارتياع وحاول تسكين روعها فدنا منها وقال لها « اني لأود ان ألحقك بوالدك » ثم انحنى نحوها وهمس في اذنها كلاماً نفرت منه نفوراً شديداً وقالت « معاذ الله — ان الموت لأحبّ اليّ من مثل ذلك » ثم تملصت منه في مثل غمض الجفن وتقدمت الى الباب ففتحته وخرجت لا تلوي على شيء

فاحتدم المحافظ غيظاً ولم ينبس ببنت شفة أما أولغا فانها عادت الى الجولان في الازقة والشوارع والمنعطفات ولبثت على هذا المنوال عدة ساعات تركض وراء كسرة من الخبز وتستعطف العابرين وتستغيث بالمارين تطارق البيوت وهي تتسول دون أدنى طائل وأخيراً لما أعيتها الحيل وسئمت ذل السؤال على غير جدوى عادت الى البيت فوجدت أمها جثة لا حراك بها

ركعت أولغا بجانب جثة أمها وانحنت عليها تقبل وجهها وشفتيها ثم لجّت طويلاً في البكاء وهي تتنهد تنهد الثكلى ولما فرّجت الدموع شيئاً من كربها انتصبت على قدميها ورفعت يديها نحو السماء وقالت « اليك أشكو يا مبدع الاكوان وفاطر السموات والارض جور الناس واستبداد الحكام العتاة فقد نفوا والدي الى أقاصي المعمور وقتلوا والدتي بين يديّ وهتكوا حرمة العذارى وتركوني شريدة وحيدة لا ملجأ لي سواك ولا مغيث لي إلاّك فان أخي بعيد عني والنور أصبح ظلاماً في عينيّ فانتقم لي بنقمتك من الظالمين المستبدين وخذ بناصري من الفجار والاقوياء وصب جامات انتقامك وسخطك على رؤوس الحكام العتاة انك أبي وأمي وأخي »

وما أتت على ختام هذا المقال حتى سمعت وراءها وقع أقدام فاذا بالمحافظ ملاكوف واقف وهو يضحك ضحك السخرية والهزؤ فنفرت منه شقيقتي نفرة الظبي الجريح وقالت له «أأنت ههنا — ألا يتاح لي التملص منك؟ ما أتى بك اليّ؟»

« لم يأت بي اليكِ سوى هيامي بك وشوقي الى لقياك » وهمّ بضمها الى صدره

« أبلغت بك القحة أن تتبعني الى غرفة الموت وتبدي لي حبك الممقوت وتهين العذراء أمام جثة والدتها ؟ »

« أما حان لكِ الآن أن تذعني بعد هذا الجفاء ؟» قال ذلك ودنا منها ليطوق خصرها بيديه

فانقلبت الظبية لبوة وتطاير شرر الغضب من مقلتيها فدفعته بيمينها وقالت له « أيها الظالم ملاكوف الحاكم العاتي والنذل المستبد انك وأمثالك عار على الانسانية والبلاد فأنتم علة شقائها وسبب خرابها والباعث على دمارها أنتم أنتم

الذين ترمون بهــا من حالق الى حضيض الذل والهوان وتأتون من المنكرات ما يندى منه جبين الادب بيد أنه ليأتين يوم سوف يرى فيــه الظالمون أي منقلب سينقلبون »

« اصمتي وإلا ندمتِ حيث لا ينفع ندم »

« أأصمت وأنت تحاول أن تلحق بي العار والشنار؟ — أأصمت وقد ضننت عليّ بكسرة من الخبز لسد رمق أمي التي أصبحت الآن أمامك جثة باردة ؟— انك أيها العاتي نذل مستبد يحاول انتهاك حرمة العذارى أمام أمهاتهن »

فتميز الجنرال ملاكوف غيظاً وتقدم اليها ليضمها بين ذراعيه فحاولت التملص على غير طائل ولما أعيتها الحيلة صرخت بأعلى صوتها « اليّ يا أصحاب الشهامة » فبادرها ملاكوف بضربة على فمها أدمته فأصابها على أثر ذلك دوار كادت تسقط بسببه الى الأرض ولكنها وجدت من الوهن عزماً ومن الضعف قوة فعادت الى العراك معه كلبوة في عرينها ولكن لم تلبث أن شعرت بخوار في عزمها واسترخاء في أعضائها لشدة الاعياء فتقدم اليها ورفعها عن الأرض ليحملها الى الغرفة المجاورة فلما علمت مراده عادت الى الجهاد والنضال وفي أثناء ذلك سقط من ملاكوف الى الأرض مسدس لم يتنبه اليه الا بعد أن التقطته أولغا ولما حاول اختطافه لم يكن الا كلمح البصر حتى أومض شهب تلاه صوت انفجار رهيب في تلك الغرفة المظلمة استرخت بعدها يد ملاكوف ومشى الى الوراء ليستند على جدار الغرفة وهو يقول « أتطلقين مسدسي عليّ ؟ » ثم علا وجهه الاصفرار وسقط على الارض منتهك القوى والدم يجري من جرح في كتفه

ولم يكن جرح المحافظ خطرًا لأنه بعد برهة يسيرة من الزمن تمكن من النهوض على قدميه ثم أخرج آلة من جيبه وصفر بها صفيرًا عسكريًا ترا كضت الى جهته الشرطة من كل جانب فلما بلغوا الموضع التفت ملاكوف الى رئيسهم وقال له « خذ هذه الابنة النهليستية الى السجن واحضرها صباح غد الى ساحة المدينة حيث تجلد علنًا سبعين جلدة أمام جمهور المدينة واياكم اماتتها على عجلٍ بل أرجئوا الجلدة القاضية حتى تأتوا على تتمة العدد » فقيدت أولغا من

حيث كانت راكعة أمام جثة والدتها الى السجن الذي يُزج فيه القتلة والمجرمون

وكنت في مساء ذلك اليوم لم أزل في مدينه بطرسبرج أتنسم أخبار عائلتي فذهبت أولاً الى بيتنا الذي كان قصراً منيفاً ايام كان لايزال والدي في قعس مجده وصهوة عزه فوجدته مقفلاً خاوياً خالياً لا أنيس فيه ولا جليس فتذكرت إذ ذاك زمن نعيمي ورغدي وأيام سعادتي وهنائي وتفرست في تلك القاعة الباذخة التي قادني اليها والدي يوم تلقينا خبر مقتل قيصرنا المحبوب اسكندر الثاني حيث أقسمت يمين الاخلاص لجلالة ولده وأضعاً يسراي على صورته ورافعاً يمناي نحو السماء و بينما كنت على هذه الحال دنا مني رجل لا أعرفه ولعله من رجال البوليس السري وقال لي « أفقدت شيئاً يارجل فاني أراك واقفاً وقوف شحيح ضاع في الترب خاتمه ؟ » فأجبته « لقد فقــدت يا مولاي أبي وأمي واختي وقصري وأملاكي » فوضـع الغريب يده على كتفي وناداني باسمي قائلاً « أنصحك يا غورتشا كوف سرجيوس فلاديمير ألاّ تمكث يوماً واحداً في بطرسبرج لانه متى وقع غضب القيصر على كبير أسرة وقعت جميعها تحت طائلة ذلك الغضب ولولا ما يختلج في صدري من عاطفة الحنان والشفقة لألقيت عليك القبض قبل أن تفوه بكلمة » ثم تركني وأنا في أشد الحـيرة والذهول وذهب في طريقه لا يلوي على شيء

ولما عاد اليّ رشدي بعد هذا الذهول همت على وجهي في شوارع تلك المدينة العظيمة وتوجهت الى بيوت بعض أصدقائنا القدماء لعلي أقف على أثر لوالدتي وشقيقتي فأنكروني وأنكروا أبي قائلين انهم لا يعرفون في سائر الامبراطورية الروسية رجلاً بهذا الاسم وكانوا يبتعدون عني و ينفرون مني نفورهم من المطعون ولا غرابة في ذلك لان غضب القيصر اقتل على من يحل به من كل داء عضال ولما سئمت قرع أبواب الأغنياء والطبقــة التي يسميها العالم خطأً بطبقــة الشرفاء سددت خطواتي نحو بيت حقير في أخربات أحياء العاصمة وهو بيت أحد خدامنا الأقدمين فلما رآني الرجل كاد يطير فرحاً وأسرع اليّ يقبل يديّ فقلت الحمد لله لانه بقي في مدينة تبلغ مليونين من النفوس رجلٌ لا يزال يعرف أسرة فلاديمير

فعلمت منه موضع والدتي وشقيقتي وعرض الرجل عليّ أن يصحبني ويقوم على خدمتي فأبيت ونصحته أن يبقى الامر مكتوماً وألا يذكر أنه التقى بي أبداً

ولم يكن سوى نصف ساعة من الزمن حتى كنت في القطار فبلغت البلدة صباح اليوم التالي وأخذت أسأل عن والدتي فلم يكن من يعرفها وبينما كنت سائراً في انحاء البلدة أبصرت عن بعد جمهوراً غفيراً من الناس قد اجتمعوا في ساحة كبيرة فبلغت الموضع وسألت عن سبب هذا الاحتشاد فقيل لي ان المحافظ أمر بجلد ابنة نهلستية ولما صرت على مقربة من موضع الجلد بصرت بمنظر ينفطر له الجماد فإني وجدت ابنة معراة الى وسطها مربوطة بمعصميها وخلخاليها الى قوائم من الخشب وصوتها يمزق كبد الجو وهي تستغيث وما من مغيث وتستنجد وما من منجد والسوطي يضربها سوطاً بعد سوط حتى سالت دماؤها وأصبح جلدها وما تحته من العضلات كتلة من اللحم الدامي ولما تفرست بها لأرى من هي هذه المنكودة الحظ واذا بها شقيقتي أولغا

فلعبت في رأسي سورة الغضب وتقدمت الى السوطي واختطفت من يده تلك الآلة الجهنمية التي اذا لامست الجسوم كانت بمثابة لدغات الأفاعي ولما سألته بأمر من يأتمرون في اتيان هذه المعرّة أجاب الرجل « بأمر المحافظ ممثل جلالة القيصر » وكان بين الأشياء التي أحملها سيف اهدانيه والدي لما أقسمت بحضرته يمين الاخلاص لامبراطوري فأخذت هذا السيف واستللته من غمده ووضعته على ركبتي وكسرته ثم التفتّ الى الحاكم وقلت له « أشهدك وهذا الجمهور عليّ اني في حلّ من قسمي للمكي وحكومته » ولما حاولت التقدم لانقاذ شقيقتي اعترضني الحاكم فضربته بجمع يدي وكدت أخنقه لو لم تتراكض الشرطة لانقاذه ففكوا قيود شقيقتي ووضعوني مكانها ثم انهالت عليّ الاسواط تمزق جسدي وهي شرٌّ من الحراب وبعد عدة جلدات أسالت دمي ومزقت ضلوعي فقدت الرشد وأصبحت في حال الغيبوبة ولما استفقت وجدت نفسي في سجن كبير التقيت فيه مساء اليوم التالي بشقيقتي أولغا التي قصّت عليّ ما أقص عليك فأقسمت في ذلك السجن لأنتقمنّ لنفسي وأسرتي ولأضمنّ العدالة في

كني لأقتص من أولئك الحكام العتاة والمردة الظلام ما بقي فيّ رمق من الحياة وكان ذلك ما حداني أن أصير نهلستياً

الفصل الثاني

« سيبيريا الرهيبة »

و بعد بضعة أيام نقلوني الى السجن الشهير المعروف بسجن بطرس و بولص في مدينة بطرسبورج ذلك السجن الرهيب الذي نهاره ظلام دامس وحره برد قارس وآمال ساكنيه يأس وقنوط وأفراحهم ندب ورثاء هناك يتجسم لك الشقاء حتى تكاد تمسه باناملك وتسمعه بأذنك وتبصره بعينك وكأن الله غضب على البشر لايجادهم جحيماً على الارض فحوّل وجهه عنه ولقد بقيت بضعة أسابيع في هذا الجحيم الارضيّ بين جراح لم تبرأ وسقم لم يشف وظلام دامس وهواجس متراكمة كادت تذهب بعقلي ورشدي حتى انه لما دخل عليّ السجان يوماً ما وأفادني أن قد قضى عليّ بالنفي الى أقاصي مناجم سيبيريا التي الحياة فيها موت والراحة شقاء تلقيت هذا الخبر بملء الارتياح كأنه بشرى أنزلت على قلبي المن والسلوى

وما انتصف ذلك الليل حتى أيقظوني ورفاقي التعساء لنكون على أهبة السفر فبلغ عددنا في ساحة ذلك السجن الرهيب نحواً من مائتي منفيّ من رجال ونساء وكان لوقع الاغلال في أرجلنا رنة تنفر منها المسامع وتنقبض القلوب فألبسونا ثياباً رمادية اللون ووضعوا على رؤوسنا قبعات من جلود الماعز وفي أرجلنا أحذية كبيرة تبلغ الركبة وعلى ظهر كل منا بساط خشن طيه صحن من المعدن وملعقة خشبية وفي صدره قطعة نحاسية عليها نمرته فعلقوا أغلالنا في وسطنا وربطونا الى بعضنا وسرنا على هذا المنوال نتبع عربانات من الخشب الصلب لوقع أصواتها دوي في الآفاق أشبه بهزيم الرعد وسط هدوء الليل فكان ذلك أول مرحلة لنا نحو ذلك القبر الفسيح الارجاء المترامي الاطراف سيبيريا الرهيبة

فسرنا باسم الله مجرانا بين عصف الرياح وثوران الزوابع وسقوط الامطار ووميض البروق ولعلعة الرعود وسط ذلك الليل الدامس يتقدمنا فريق من الحراس يحملون بأيديهم المشاعل اذا تكلم أحدنا وقعت عليه السياط عقارب لذاعة تنهش منا الضلوع قبل الجلود فاضطررنا الى ملازمة الصمت التام وقد قرسنا البرد وتبللت ثيابنا من تساقط الامطار والثلوج ولما لم يكن مأذون لنا بالمحادثة كان كلامنا تنهدات وزفرات بعضها تلوَ بعض فتطلعت الى العلاء لأرى هل السماء ناظرة الينا فرأيت ان الله قد سدل بيننا و بينه حجاباً كثيفاً من الغيوم المتراكبة بعضها فوق بعض حتى لا تنذعر ملائكته من هذا المشهد الذي تنهلع له القلوب اذا وقع عليه بصرها ورأت جور الانسان على الانسان

هبطت بي التصورات من صُوَر الخيال الى عالم الحقيقة فوجدت نفسي سائرًا مع رفاق الشقاء وقد قضى عليّ بالنفي المؤبد مع الاشغال الشاقة دون أن يلفظ القضاء كلمته بشأني لأني لم أحاكم قط بل كان الحكم نتيجة استبداد ذلك العاتي ملاكوف الذي حاول انتهاك حرمة شقيقتي ووضعني تحت السياط لأنَّ أخًا رام انقاذ أخته وهي معراة تجلد والدم يسيل من جراحها تلك الأخت التي لم أعلم ما حلّ بها فضلاً عن ان والدتي قد لقيت منيتها وأبي نفي الى أقاصي مناجم سيبيريا ذلك الجحيم الذي لا فرق بينه و بين جحيم الآخرة سوى أن نار ذاك من لهب ونار هذا من ثلوج .

فلبثنا على هذا المنوال نصل السير بالسرى ونحن نقطع مفاوز وقفارًا من الثلوج المنبسطة أمامنا لا يسمع وسط ذاك الهدو من صوت سوى وقع أقدامنا على الثلج الكثيف وما زلنا على هذا الطراز حتى قطعنا مئات من الاميال وكنا اذا سرنا بضعة أيام وصلنا الى مبيت مبني على قارعة الطريق لهذا الغرض وهو مؤلف من غرفة واحدة كلها أوساخ وأقذار وقد وضعونا فيها أكداساً بعضنا على بعض وكان كلما قطعنا قفارًا من الثلوج تبدت لنا قفار أعظم اتساعاً وأشد هولاً وأقرس بردًا

و بعد مسير عدة أسابيع بلغنا أخيرًا الحد الفاصل بين روسيا أوربا وسيبيريا

آسيا حيث أقيم هنا لك بناء مستطيل الشكل على هيئة مسلة مصرية يتجه احد جوانبه نحو روسيا والآخر نحو سيبيريا فوقفنا عنده ردحاً من الزمن نتنفس الصعداء ونودع بلاداً هي أعز لدينا من أرواحنا وهناك رأيت منظراً تنفطر له المرائر لأنه لما أزفت ساعة الرحيل علا العويل وضجيج النحيب بين رفاقي من الرجال والنساء فكان بعضهم يركع أمام الجهة الأوربية منه يذرفون الدموع و بعض السيدات اللواتي أصبحن بعد مشاق السفر أشباحاً لا جسوما يتقدمن اليه و يقبلنه بحرارة وزفرات كادت تذيب تلك الثلوج والبعض منا حفروا الثلج والتقطوا قبضة من تراب الأرض والآخرون يرفعون أيديهم نحو السماء كأنهم يستغيثون بها ولكن من يسمع فان الله بعيد عنا على منصة مجده في أعالي السموات وجلالة القيصر جالس على عرش عظمته في أقاصي البلاد

ولم يكن سوى هنيهة من الزمن حتى انقطعت أصوات النحيب والعويل وعدنا الى سكون الموت وكنا كلما خطونا بضعة خطوات نلتفت الى الوراء لنشاهد هذا النصب الذي شاهد من ويلات الجنس البشري و بلاياه وكوارثه وخطوبه ما لم يشاهده بناء قط في سائر انحاء الكرة الارضية بأسرها وعدنا الى مواصلة السير نقطع البيد والقفار حتى مرت علينا الأيام والأسابيع والشهور ونحن على مثل هذه الحال التعيسة ولا فائدة هنا من سرد أسماء البلدان التي مررنا عليها لانها غريبة الألفاظ على سماع الاجنبي وليس لها شيء من الشهرة في عالم التمدن

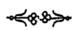
غير أنه لا بد لي من وصف موضع واحد لا يزال رسمه راسخاً في مخيلتي لأن البلايا التي احاقت بنا هناك بلغت حداً فاحشاً تنزل بالانسان الى أقصى دركات التوحش والبهيمية حتى أننا نحن الذين ركبنا هذا المركب الخشن وقاسينا من الأهوال السالفة ما تندك له الجبال الراسيات رأينا أن سائر ما حل بنا من الرزايا قبل بلوغنا الموضع المشار اليه ليس شيئاً مذكوراً فاننا لما بلغنا توبولسك آخر محطة من هذه المراحل المتنائية أنزلونا في خان فسيح ضاق على رحبه بسكانه فانه لم يكن فيه سوى غرفة واحدة تتصاعد منها الروائح المنتنة تصاعد الدخان من الأتون فلما دخلناه وجدناه غاصاً بالمنفيين الذين تقدمونا الى ديار الشقاء

وكان بما فيه من الاقذار لا يصلح أن يكون حظيرة للمواشي والبهائم والانكى من ذلك أن اكثر ساكنيه كانوا مصابين بالحمى التيفوسية وكثير منهم في حال النزع ووجدنا عندوصولنا جثتين من جثث أولئك المنكودي الحظ مطروحتين على الارض بجانب الاعلاء الذين بقي فيهم رمق من الحياة وقد بدأ التعفن فيهما لان الرائحة التي كانت تنبعث منهما لا تطاق وليس من أحد يجسر على التذمر أو ابداء كلمة واحدة بهذا الشان لأن مثل هذه الجراءة ذنب جزاؤه أفاعي السياط

هذا هو الموضع الذي بلغناه تجديداً لقوانا من انتهاك الأعضاء وفرط الاعياء فنزلنا فيه ونحن ننظر الى بعضنا ولا نجسر ان نبس ببنت شفة وكانت ثيابنا ممزقة وأحذيتنا مقطعة وأعضاؤنا مشلولة من الاعياء والجوع قد أخذ منا مأخذه لأنه لم يكن لدينا من الأكل سوى النزر القليل والطريقة التي كانوا يجرون عليها في تفريقه غريبة في بابها وذلك ان الحراس يدخلون بالأرغفة السوداء ويطرحونها على الأرض فكان المنفيون يتراكضون لالتقاطها تراكض الكلاب ويتخاطفونها تخاطف الذئاب على حين ان بين نساء فرقتنا عدداً من السيدات ربات الحجال ومخدرات االقصور يباهي نسبُ أسرهنَّ الثريا سمواً بل كنَّ في قومهنَّ أميرات خطرات النسيم تجرح خدودهنَّ ولمس الحرير يدمي بنانهن حكم عليهن بالنفي بحجة أنهن من طغمة النهيلست ولا ذنب لهن سوى أنهن وقعن تحت طائلة غضب حاكم من الحكام لذنب يشبه ذنب شقيقي أولغا فاني أعلم علم اليقين أنه قضى على واحدة منهن بالنفي لأنها رفضت الاقتران بحاكم فحقد عليها ووشى بها وشاية أوردتها هذه الحالة التي هي شرٌّ من الحمام وكانت نفوس أولئك السيدات تكبر عن التقاط العيش على هذا المنوال وبعضهن يعجزن عن ذلك لضعف في البنية ولا سيما أثناء ذلك العراك الهائل الذي كان ينشأ أثناء اختطاف الطعام فيضطررن الى البقاء زمناً طويلاً وهن جائعات خائرات فكنت التقط ما يتاح لي الوصول اليه وأقدمه لهن

وما لبثنا في هذا المقام سوى زمن قصير حتى أصبحت الحياة علينا حملاً ليس في طاقة الطبيعة البشرية حمله فجثونا على ركبنا وتضرعنا الى الله بحرارة

ونحن نقرع صدورنا قرعاً شديداً وتوسلنا اليه أن يعاملنا بحلمه وفضله وغزارة شفقته و يعجّل في حتفنا لأن الذل قد بلغ منا مبلغاً لم نجرأ معه أن نطلب اعادتنا الى بلادنا إذ حسبنا أن هذا الطلب حتى لو كان سرًّا الى مبدع الكائنات ذنب لا يغتفر وأمنية ليس الى بلوغها من سبيل والظاهر أنه بقي لله أذن تسمع إذ أصيب في اليوم التالي نفر من عدادنا بالحمى وقضوا نحبهم وفي جملتهم بعض السيدات المشار اليهن وأصبحوا أحرارًا لا تبلغهم ذرة من جور الانسان فحسد منا الاحياء الاموات وتطلعتُ الى السماء قائلاً ربّ والهي الى متى



الفصل الثالث

« تيهان سحيق »

كان الموضع الذي بلغناه المرحلة الاخيرة من هذا السفر االبعيد الشقة غير أنه لما كنت في عداد أشقى المجرمين الذين يعيشون في الارض قتلاً وفساداً صدر الامر بابعادي الى أقصى مجاهل سيبيريا فودعت رفاق الشقاء وداعاً لاأمل بعده باللقاء ونقلوني الى فرقتي الجديدة وما بزغ فجر اليوم الذي ضرب موعد السفر حتى كنا جميعاً على أهبة المسير الى مناجم كارا وهي أقصى تلك الشقة وأكثرها هولاً حيث يصرف المنفيون حياتهم في نفق تحت الارض لا يبلغ فيه العامل شيء من شعاع الشمس أو الامل وكان لا يزال عليّ اللباس الذي ترديته في روسيا أوربا وقد أصبح خرقاً بالياً بعد سفر نيف وأربعة أشهر فربطوا سلاسلنا بعضها الى بعض وجروا بنا يسوقوننا الى حتفنا سوق النعام

فتوالت علينا الايام والليالي ومرّت الاسابيع والشهور مرّ السنين تظللنا سماء لا تبصر وتقلنا أرض لا تشفق. تطلع الشمس على وجوه منا شاحبة وتغرب على قلوب منقبضة و يسدل الليل حجابه على يأس وقنوط ونغمض أجفاننا على ذلة وشقاء نتخذ الثلج فراشاً والريح غطاء و بعد أن قطعنا هذه المسافات المترامية

الابعاد حلوا الوثق التي تربط سلاسلنا بعضها الى بعض وسمحوا لنا أن نمشي زرافات ولبثنا نواصل السير على طريق أركوتسك المتنائية الأطراف

وبعد مسيرة أربعة أشهر من توبولسك وثمانية أشهر من بطرسبرج بلغنا مناجم كارا الرهيبة حيث سلمنا الحراس الى محافظ تلك الناحية التي تخيلنا عند وصولنا اليها أنها منتهى العالم فاسترحنا يوماً واحداً من عناء الاعياء ثم أخذونا في اليوم التالي الى تلك المناجم المظلمة التي ترتقص لهولها الفرائص وتهلع القلوب فأدخلونا في دهليز عميق تحت الارض كله برد قارس ورطوبة قتالة وصمت رهيب فكان نفسي يتجلد على شاربيّ وعلى ذقني بلورات من الجليد ثم أعطونا أدوات العمل فلما دخلت هذه المناجم اول مرة استولى عليّ يأس شديد لا أقدر أن أصفه وظننت نفسي اني في حلم أو اني انتقلت الى دار الابدية والآن أعذب في الجحيم البارد ومن حولي الأبالسة يعذبونني تارة باللعنة وطوراً بالسياط ولكن لما رأيت غيري أيضاً في هذا الجحيم تعزيت قليلاً وأخذت أشتغل مع هؤلاء المجرمين الذين نصفهم من أسفل طبقة الهيئة الاجتماعية سفاكو دم وقتلة ولصوص والنصف الآخر من أسماهم تهذيباً وأشدهم تنوراً ولطفاً وأرقاهم ادراكاً وعقلاً وهم الذين يطلق عليهم لقب المجرمين السياسيين فالآراء الحرة في روسيا كالقتل كلاهما ذنبٌ عظيم لا يغفر

فكنا نقضي نهارنا بالأشغال الشاقة والاغلال في أرجلنا والأدوات في أيدينا فاذا انتصف النهار رموا الينا كسرة من الخبز نأكلها ونحن ننظر إلى بعضنا لا نفوه بكلمة ومتى جنّ الليل أخرجونا الى حظائرنا لأننا أصبحنا حيوانات داجنة نبيت فيها حتى الفجر ثم نعود الى المناجم دون ان يتاح لنا رؤية الشمس أو شيء من شعاعها ولو وددت وصف سائر ما حاق بنا من البلايا والرزايا لاقتضى لذلك مجلد برمته

ولم يطل بي الوقت حتى أخذت أميز بين القتلة والمجرمين السياسيين لأن دماثة هؤلاء وتأدبهم في المقال وطلاوة حديثهم واحتمالهم هذه المشاق بالصبر وهم رابطو الجأش كانت دلالة واضحة على مكانتهم في الهيئة الاجتماعية ونبالة

مقاصدهم السياسية وكان بين عداد هذا الفريق رجل أحنى الكبر صعدته وبيّض لمته أظهر نحوي انعطافاً كثيراً ومودة فائقة يشدد عزمي عند الخوار ويشجعني عند اليأس ولما تعارفنا في المرة الأولى نظر اليّ وقال « هل سرجيوس فلاديمير من ذوي قرباك ؟ » فقلت « هو أبي يا مولاي أتعرف شيئاً عنه ؟ » فترطبت عينا الرجل بالعبرات وأطرق برأسه الى الأرض دون أن يفوه بكلمة قط فهاج ذلك هواجسي وامسكت بكلتا ذراعيه قائلاً له « أستحلفك بالله العلي العظيم أن تصدقني الخبر — أين التقيت بوالدي وماذا تعرف عنه ؟ »

فأرسل اليّ الرجل نظرة كلها شفقة وحنان وقال « اذا كان لا بد من معرفة ذلك فأنا أخبرك :ان أباك كان من جملة رفاقي يوم ودّعنا بطرسبرج منفيين الى هذه الاصقاع فعلمت منه في أثناء الطريق أن بعض أعدائه وحساده قد وشوا به الى جلالة القيصر أنه من أصحاب الدسائس السياسية وهو لا يعلم شيئاً من ذلك حتى مساء يوم بينما كان الناس مدعوين الى ليلة راقصة عنده والأنغام الموسيقية تشنف الآذان والناس بين جذل وطرب اذ دخل على حين فجاءة نفر من ضباط البوليس وألقوا القبض على والدك فانقلب سرور القوم الى أتراح ثم قيد دون محاكمة وأرسل الى قلعة بطرس و بولص حيث صدر بعد ذلك الامر بنفيه الى مناجم سيبيريا المظلمة فكنا من رفاق السفر نتشاطر الأحزان والرزايا وبقينا نحواً من ثمانيــة أشهر حتى بلغنا هذا الفردوس الذي نحن فيه الآن وكان دوماً يهزّ بذكرك ويسأل الله أن يبقيك عوناً لأمك وشقيقتك وهو يظن أنك في مأمن من جور الحكام الطغاة ولكنه لم يلبث بعد بلوغه هذه المناجم أن اعترته علة أودت بحياته فقضى وتملص من العذاب الذي لانزال نحن فيه ولقــد سلمني قبل وفاته كتاباً مختوماً طلب مني قبل تسليمه اليّ أن أقسم له الايمان المغلظة ألا أفتحه بل أبعث به اليك مع أحــد الحراس الذي أظهر عطفاً عليــه وها هو لايزال الآن في جيبي فتعزَّ لان الله قد عامله بشفقته فقصر عذابه ونقله الى دار الأبدية حيث لا تبلغه ألسن الوشاة ولا أيدي الظلاّم »

وبعد أن قصّ عليّ هذه الفاجعة أخرج من جيبه محفظة فيهــا الكتاب

المشار اليه ثم سلمني أيضاً خاتم والدي فقبلته والدموع تساقط على وجنتي تساقط الطل فلما فتحت الكتاب قرأت فيه ما يأتي

فلذة كبدي غورتشا كوف

أحرر لك يا بنيّ هذه الأسطر من دار الغربة والشقاء وأنفاسي معدودة بالدقائق لأن أجلي قد دنا و بعد هنيهة أبرح هذا العالم عالم الشقاء وأتخلص من مشقات النفي ومناجم الجحيم ولا بدّ أن يكون قد بلغك ما حلّ بي من ضروب النكال وعوامل الجور لوشايات لفقت زوراً وبهتاناً فلقد وقع عليّ غضب مولاي القيصر وسخطه واني سررت بان قد وقع عليّ ذلك وأنت بعيد عني لا تصل اليك أيدي البغاة واعلم أن لي في مصرف صديق صدوق في موسكو يسمى تريبولوف لازنسكي خمسين مليون روبل موضوعة باسمك لا يعلم بها أحد وسوف ترى الرجل شهماً غيوراً أبيّ النفس فاذهب اليه واستلم هذه النقود وكن سعيداً ووالدتك وشقيقتك واني أستودعك الله » والدك المحب

سرجيوس فلاديمير

و بعد مطالعة الكتاب شكرت الرجل بعيون ملؤها الدموع وقلت له « ألا تعرف مدفنه؟» قال «لا أزال أتذكر البقعة» فأشار اليها وكانت داخل منطقة الحرس فسرنا اليها ولما بلغتها ركعت على الأرض وصليت الى الله بحرارة ودموع وناجيت نفس والدي في قبره وهناك نذرت نذراً رهيباً اني لأنتقمنّ لأبي و بيتي نقمة تتحدث بذكرها الركبان

ولما طفح السيل حتى جاوز الربى وزهقت الروح حتى بلغت الترقوة عقدت النية على الهرب ولو كان بذلك حتفي ولكن أنى للمنفيين في سيبيريا الهرب والاغلال في أرجلهم والحراس صفوف حولهم والشقة مترامية البعد وكلما التقيت برجل من القوزاق طلب منك جوازك وحدّق فيه ببصر حديد وان فرار العصفور من قفص محكم الصنع لأسهل بكثير من فرار سجين سيبيريا

ولبثت في هذه المناجم سنتين من الزمن وأنا كلما جال في خاطري الفرار رأيت سجني أشد أحكاماً وحراسي أكثر عدداً و بطرسبرج ابعد مني فالا غير أنه

حدث أن الحكام اكتشفوا مناجم جديدة فيما وراء كارا ولما كنت في عداد أشقى المجرمين وقعت عليّ القرعة مع بعض رفاق بالتوجه الى هذه المناجم الحديثة العهد فصحونا في فجرذات يوم فربطوا اغلالنا بعضها الى بعض وأخذنا نقطع البيد والقفار وبعد مسيرة عدة أسابيع حلوا العرى التي تربط سلاسل الفرقة وسمحوا لنا بالمسير أفواجاً بين الحراس حتى أمسينا ذات ليلة بجانب حرج كثيف من الأشجار المشتبك بعضها ببعض فنزلنا للمبيت وكانت هذه أول فرصة تسنح بالهرب فعقدت العزم وصممت على القيام بذلك دون التبصر في ما يترتب على ذلك من الأهوال والأخطار

وكان الليل حالكاً جداً والبرد قارساً والرياح تهب هبوب العواصف والليل رهيباً حولنا يسمع وسطه حفيف الاشجار الذي كان في آذاني أنغاماً شجية فصبرت الى أن انتصف الليل وسكنت كل حركة ونام سائر رفاقي فلم يبق صوت من يسمع وكانت ظهور الحراس الينا وأوجههم الى الفضاء فعلمت أن قد دنت تلك الساعة الرهيبة التي يتوقف عليها اما حريتي أو حتفي فاصطبرت قليلاً ريثما أخذ التعب من الحراس مأخذه فرأيتهم يترنحون على بنادقهم ترنح السكران من فرط الاعياء فوقفت على قدميّ بكل تأنٍّ وربطت سلسلتي في منتصف وسطي من الامام حتى لا يسمع لها صوت وجريت كالسهم المنطلق وسط ذلك الظلام الدامس نحو الحرج الذي لم يكن بعيداً عنا أكثر من رمية حجر فلم يكن سوى مثل غمض الجفن حتى أدركته وأنا لا ألوي على شيء ولا التفت ورائي لأرى هل ابصرني الحراس أم لا بل ثم لبثت راكضاً جهد الطاقة وسط تلك الاشجار الباسقة والانجم الكثيفة على خط مستقيم نحو ساعة من الزمن وقفت بعدها دقيقة أتنفس الصعداء ثم واصلت المسير لا أعطف يميناً أو شمالاً وظللت كذلك وأنا أجد في المسير الى أن تبلج وجه الصباح وظهرت الغزالة في الأفق تلقي أشعتها الذهبية على تلك الارجاء العجيبة وعند ذلك خرجت من تلك الغابة الكثيفة ووجدت نفسي على مقربة من بيت منفرد فطرقت الباب فلم يكن من مجيب فدفعته بشدة فانفتح أمامي ولما دخلت الغرفة وجدت منظراً رهيباً تقبضت أعضائي لرؤيته فان الموضع

كان مهجورًا لا أنيس فيه ولا جليس وعلى الارض جثة رجل ميت فدنوت منه وهززته بيدي فلم يبد حراكاً فوضعت أصابعي على قلبه فلم يكن هنالك من حركة قط فتفرست فيه فاذا الرجل ميت منذ بضع دقائق فقط لأن ملمسه لم يزل سخناً وامامه رق فيه هذه الكلمات

« لا فائدة من احضار الطبيب لأنك عند ما تعود اليَّ أكون قد فارقت هذه الحياة فأستحلفك بالله أن ترسل الاوراق التي في جيبي مع رسول أمين مرسكي لو بانوف »

ففتشت في جيوب الرجل ومنطقته فوجدت أوراقًا مالية بقيمة ألفي روبل وثلاثة كتب مختومة جميعها بخاتم القيصر ومعنونة باسم الجنرال اترسكي حاكم مديرية كوليمسك في نواحي القطب الشمالي من مقاطعة باكوتسك حيث هنالك فريق من المنفيين ووجدت أيضاً جوازًا باسم « مرسكي لو بانوف رسول من جلالة القيصر في مهمة دولية الى حاكم كوليمسك » فلم أتردد لحظة في الخطة التي صممت الجري عليها فمزقت أولاً الرق الذي كان أمام لو بانوف ثم فتشت في المنزل فأتيح لي العثور على مبرد تمكنت به من برد الاغلال التي كانت في رجليّ ثم خلعت ثيابي ووضعتها في النار التي كانت في الموقد ثم جردت الميت من ملابسه الرسمية ووضعتها عليّ وتمنطقت بمنطقته التي تتضمن الاوراق المالية والكتب الرسمية مع مسدسه وذهبت الى الاسطبل حيث كان فرس الرسول فأسرجته في مثل غمض الجفن وعلوت صهوته واتخذت الوجهة المطلوبة قبل أن يعود صاحب المنزل ولم يكن سوى بضع دقائق حتى التقيت على الطريق بفرسان منتشرين في نواحي ذلك الحرج وما حوله من الفلوات يركضون بخيولهم الى كل جانب فلما رآني أحدهم أعمل المهماز في شاكلة الجواد ودنا اليّ وقد أدّى التحية العسكرية وسألني اذا كنت قد التقيت أثناء الطريق بأحد المسجونين الذي قد فرَّ منهم خلس الليل الماضي فأجبته أني كنت نازلاً في جوار هذا المنزل ولم أشاهد أحدًا قط فتراجع عني وقد انقسم ورفاقه فرقًا في انحاء مختلفة وسرت في طريقي وأنا أضحك في نفسي من غرائب الاتفاق

وقد رأيت أنه لا بد لي من الذهاب الى كوليمسك لان الجواز الذي بيدي باسم لو بانوف موقع عليه في كل محطة من المحطات الرسمية بامضاء الحاكم مع التاريخ فاذ عدتُ توًّا الى بطرسبرج اكتشف الحكام دخيلة الامر لأنه لم يكن قد مرّ الوقت اللازم لوصولي الى الموضع المشار اليه والعودة منه فذهبت أقطع الجبال والثلوج الي أن بلغت المقاطعة المطلوبة بعد مسيرة شهرين ودخلت كوليمسك وهي بلدة مؤلفةمن أكواخ حقيرةالمنظر والبرد فيها شديد الى درجة قصوى اذ الدرجات تتراوح هناك بين ست فوق الصفر وثلاثين تحتـه والشتاء يبتدى في اغسطس ولا ينتهي حتى شهر مايو والأغذيةقليلةجدًّا واذا قام المسافر اليها من روسيا أوربا لا يبلغها الا بعد مرور سنة ونصف من المسير المستمر

وكان وصولي الى كوليمسك بشرى نزلت على قلوب أهلها نزول المن والسلوى لأن الكتب المختومة بخاتم القيصر من بطرسبرج كانت كما كنت أنتظر أوامر بالعفو عن كثيرين من المجرمين السياسيين في تلك الأصقاع فلما انتشر هـذا الخبر أقيمت الأفراح والاحتفالات وتبدت لوائح البشر على أوجه القوم فكنت أنى ذهبت وكيف سرت يحملونني على الاكف ويجلونني ويحيونني تحيةالمرؤوس لرئيسه وأنا أضحك سرا وأقول في نفسي مكره اخاك لا بطل

فاضطررت للاقامة في هذا الموضع عدة أيام الى أن يكون الحاكم قد أنجز تقاريره الرسمية الى بطرسبرج ولكـنه اعتراني أخيرًا ضجر شديد وخشيت انكشاف أمري فتقدمت صباح ذات يوم الى الحاكم ورجوته أن يحرر اللازم على جوازي لأني قاصد الذهاب بضعة أيام الى موضع في جوار البلدة لكي أرى صديقًا لم أره منذ أعوام فطرت فرحًا لما أجاب الحاكم سؤلي وامضى جوازي بخاتمه فما صدقت أن استلمته حتى علوت صهوة جوادي وأخذت أجد في السير قاطعًا الفيافي المقفرة والجبال الشامخة والاودية العميقة وأنا أظن أني معجل في نيل أمنيتي الوحيدة وهي حريتي ولم أعلم أني في ذلك كمن كان يسعى الى حتفه بظلفه ولما أنضى المسير جوادي مات من شدة الاعياء بعد سفر جاوز شهرين من الزمن فاضطررت الى المشي على الأقدام على شوامخ الجبال الغير المطروقـة

أقتات بالأعشاب وأوراق الأشجار حتى براني السير وأعياني السغب وكدت أموت جوعاً واعياء ولكن بارقة الرجاء أحيت مني ميت الآمال إذ بلغت ذات يوم قنة جبل رأيت من شامخ ذراها أمواج الاقيانوس الباسفيكي تتمعج تحت أشعة الشمس كذوب اللجين

ولما بلغت الساحل مساء وجدت هناك مدينة على جانبه تسمى باترو باوفلوسك وشاهدت عند مدخلها مركباً راسياً في جوارها فسألت عنه فقيل لي هو مركب صيد من كندا فعقدت النية على بلوغه وركوبه ولكن علمت أنه لا يسافر الا في صباح اليوم التالي فصممت على البقاء تلك الليلة في البلدة والتوجه الى مركب في الصباح التالي وبعد أن سرت برهة في أسواقها وجدت أحد أنفار البوليس السري يتقفى أثري ولم يدر في خلدي ان الأسلاك البرقية قد حملت اخباري الى هذه الاصقاع المتنائية فرأيت الخطة المثلى أن اتوجه بنفسي الى رئيس الشرطة واريه جوازي حتى اذهب بكل مظنة عن نفسي فلما دخلت عليه وجدته وحده جالساً منفردا في غرفة فأخرجت جوازي وقدمته اليه فلما وقعت عينه عليه تبسم تبسم السخرية وتطلع اليّ قائلاً « ان رسول جلالة القيصر لو بانوف قد توفي ولذلك القي الآن القبض عليك » فلم يتم هذه الكلمة حتى خفق فؤادي وعلتني صفرة الوجل واصطكت ركبتاي وقلت في نفسي أهذه نتيجة اسفاري ومشقاتي وعذابي أن يقبض عليّ في ذات اللحظة التي ظننت نفسي فيها حرًّا فلم يثنّ رئيس الشرطة كلمته التي فاه بها حتى انطلقت كوميض البرق من غرفته وما بلغت الباب الخارجي حتى سمعت وقع الأقدام ورائي وكان قد جن الليل وأرخى الظلام ستاره فهمت على وجهي في الأزقة والشوارع حتى بلغت أخيرًا موضعاً رأيت فيه قارباً مربوطاً الى شجرة فلم يكن سوى لحظة من الزمن حتى قطعت حبله فحملني التيار الى ما بين أشجار ملتفة فوقي وأعشاب سترتني عن العيون فسمعت ورائي جلبة القوم وصراخهم بل كادوا يبلغون مخبأي ولكن الظلام والأشجار كانت لي ستارًا كثيفاً فلبثوا على هذا المنوال نحو ساعتين من الزمن رجعوا بعدهما بخفي حنين ولما أيقنت ان لم يبق هنالك من خوف عليّ أخرجت قاربي من وسط تلك الاجام الكثيفة

وأخذت أجذّف بكل ما بقي فيّ من العزم الخائر حتى بلغت المركب فصعدت اليه وشرحت لربانه حقيقة أمري وقصصت عليه شقائي ومذلتي فرقّ لي وعطف عليّ وجعلني في عداد قومه ولم ينتظر حتى طلوع الصباح بل أمر بالمسير بعد وصولي اليه بساعة من الزمن. ولما أخذت السفينة تشق عباب الأمواج ورأيت باترو باوفلوسك تبتعد عني تدريجاً تنفست الصعداء وشعرت بسعادة ونعيم لم أشعر بهما قط في ماضي أيامي لأني قد أصبحت حرًّا و بعد سفر نحو شهر من الزمن نزلت في ڤيكتوريا من فانكوفر حيث بلغت بعدها بلاد الانكليز حيث الحرية ترفرف بأجنحتها كملاك الرحمة

الفصل الرابع

« مرتع البغي وخيم »

قليل من الناس من يعلم أن مدينة لندرا أعظم مدائن العالم المتمدن واكثرها احتشاداً بالسكان وأعظمها علماً وأسماها مدنية وأوسعها حرية وأبذخها مجداً هي أعظم مركز لاعظم جمعية ثورية في سائر انحاء المعمور فان في قلبها اكبر عظماء ثوروي النيهيلست ونخبة رجالهم وجلة شبانهم وأشرف أسرهم يضمهم اكبر نوادي الثورة اذا انتظموا فيه عقداً أخرجوا هنالك من تصورات الخيال الى عالم الحقيقة من جرأة الاقدام والاستقتال في سبيل الحرية ما تهتز له الملوك على عروشها وتهلع قلوب الأبطال والقواد بين جيوشها وتحدث بمعجزاته الجرائد وتسطر من هوله الأقلام ما لو وقع على جبل لتصدّع من خشيته. هنا السلطة السامية التي حيرت العالم بمعجزات أعمالها وقصرت كل سلطة عن بلوغها لانها لا تعرفها وعجزت الألسنة عن طعنها لانها لا تبلغها. هنا تدور المناقشات السياسية والمباحثات الفوضوية تحت أستار الدجى في ليل مدلهم بالظلمات فاذا ما انتهى كل ذلك وانتصب الرئيس على منصته وأصدر حكمه بالاعدام أو التدمير أو

الارهاب كان القضاء المبرم ليس له من رادع او انقضاض صاعقة ليس الى اتقائها من سبيل

الى هذا النادي الرهيب سددت خطواتي وفي يدي كتاب توصية من أحد العمال الثورويين الذين أتاح لي الحظ لقياهم في فكتوريا فلما علم الرئيس بول بتروف حكايتي والمصائب التي حلت بأسرتي والمشاق التي ركبتها قبل بلوغي لندرا تقدم الي وصافحني وأنزلني في ذلك النادي على الرحب والسعة وضمد جراحي ببلسم العزاء وأغدق عليّ احسانه اغداق الامير الكريم

وكان أول أمر وجهت اليه الهمة بعد الاستراحة من عناء السفر الحصول على المال الكثير الذي كان قد أودعه والدي في مصرف لازنسكي ذلك الرجل الذي وصفه والدي في رقيمه لي بالشهم الكريم الاخلاق النادر المثال فبعثت اليه بكتاب أخبره بحقيقة الامر وأرجوه فيه أن يرسل المال تحويلاً على بنك انكلترا ولبثت أنتظر الجواب و بعد انتظار على أحر من الجمر وردني الجواب كما يأتي

« عزيزي الموسيو غورتشاكوف فلاديمير »

وردني كتابك وفيه تدعى وجود مال في مصرفي نيف وخمسين مليون روبل وضعها والدك باسمك فعجبت من ذلك كل العجب اذ لا معرفة سابقة لي بأبيك ولم يوجد بيني و بينه شيء من المعاملة على الاطلاق ثم أخبرك أن رأس مال المصرف كله لا يبلغ مليون روبل فأنصحك في الختام أن تنسى مثل هذه الاحلام واقبل احتراماتي

لي الشرف ياسيدي أن اكون خادمكم المطيع

لازنسكي

فما طالعته حتى صار النور في عينيّ ظلاماً وشعرت كأن ناراً تحرق وجنتيّ واعتراني تقبض شديد من فرط الغيظ فحرقت عليه الأرّم ولبثت في حال الذهول نحو ساعة من الزمن ولما عاد اليّ رشدي شعرت أن لا طاقة لي على شيء فان الأوراق المالية التي كانت في يد والدي فقدت بعد القاء القبض عليه ومصادرة بيته وأملاكه حتى أنه لو ثبت وجود المبلغ المذكور لوقع في يد الحكومة الروسية

اذ أني من المغضوب عليهم والضالين

ولما سكنت مني سورة الغضب رأيت أن أحرر الى لازنسكي كتاباً آخر ضمنتهُ ما ذكر لي والدي بشأنه من دماثة الأخلاق وسمو السجايا واخلاص المودة ورجوته أن يبعث لي بشيء من المال في الحاضر فكان جوابه على ذلك ألا اعود الى مخاطبته بهذا الصدد لأن وقته أثمن من الاشتغال والرد على آمال فارغة وقصور في الهوآء

ولما أعيتني الحيلة توجهت ذات ليلة الى نادي الثورة وهي الليلة المعينة لاجتماع أكابر رجالها وأصحاب الكلمة النافذة بين سائر طغمة النهليست فوجدت النادي غاصاً بالقوم فبعد أن أنجزوا ما امامهم من المهام انتصبت وقصصت عليهم أمري مع لازنسكي وانكاره المال الذي لي ضمنه وقيمته خمسون مليون روبل فلما أتيت على تتمة المقال حدث صمت رهيب في ذلك النادي الكبير ورجمني القوم بالاحداق حتى كدت أسمع نبضات قلبي وأخذ الاعضاء ينظرون الى بعضهم وعليهم لوائح الحيرة والذهول لأنهم لم يروا حتى الآن في عدادهم رجلاً بمثل هذا الاثراء العظيم واكبروا خيانة الرجل لازنسكي وعلموا أن بين عدادهم الآن رجلاً يهز بماله روسيا من اقصائها الى اقصائها ثم تلى ذلك غوغاء ومناقشات طويلة قر قرار الرئيس في ختامها على أمرين أولهما الاستخبار من مركز جمعية الثورة في موسكو عن حقيقة هذا الادعاء ومعرفة رأس مال مصرف لازنسكي

فلم يمر على هذه الجلسة سوى شهر واحد حتى ورد كتاب رئيس الجمعية في موسكو وفيه يقول أن تقارير جواسيس الجمعية أسفرت عن أن والدي سرجيوس فلاديمير كان شريكاً في مصرف لازنسكي وأن رأس مال هذا المصرف بين عقارات وأوراق مالية ونقود لا يقل عن مائة وعشرين مليون روبل

ولما ورد هذا الجواب دعى الرئيس الأعضاء الى جلسة فوق العادة تقرر فيها أن يطلب من لازنسكي باسم عمال الثورة المبلغ المشار اليه فاذا أبى يهدد فاذا أصرَّ يرهب بالديناميت فاذا بقي مصرًّا يحكم عليه بالاعدام وتتخذ نفس هذه الوسائل لتحصيل المال من ابنه وريثه وبعد هذا التفت اليَّ الرئيس وقال لي

« ياغورنشا كون سرجيوس فلاديمير كن مطمئناً »

ومضى على هذا القرار عدة أسابيع التقيت أثناءها مراراً بالرئيس بتروف فلم أفاتحه بشيء من هذا القبيل ولا هو ذكر لي شيئاً كأنه لم يحدث ذكر لذلك الامر الجلل بيدانه وردتني ذات يوم جريدة النوفي فريميا كالعادة ولما فتحتها طالعت في احد أعدادها ما يأتي

« خطب جلل ! »

« تلقى المصرف الشهير في موسكو المعروف بمصرف لازنسكي انداراً من أحد أعضاء النهلست يطلب فيه مبلغاً طائلاً من النقود فاذا أبى يرهب بالديناميت فاذا بقي مصراً يقتل بعد اسبوع فسلم لازنسكي هذه الأوراق الى ادارة البوليس ولكن مع كل الاحتياطات التي اتخذتها الادارة نسف بناء المصرف ليلاً بالديناميت كما أتينا على بيانه في الاعداد الماضية حتى اضطر صاحبه أن ينقله منذ اسبوع الى جانب ادارة مركز البوليس التي اتخذت احتياطات أشد وأقوى من ذي قبل لأن نفراً من البوليس كان حراساً على الابواب الخارجية بينما أن عدداً من البوليس السري كان على الدوام داخل البناء ولكن كل هذه الاحتياطات لم تغن فتيلاً فانه نحو الساعة الحادية عشر هذا الصباح بينما كان عمال المصرف يقومون بأشغالهم سمع صوت دويّ هائل في غرفة صاحب المصرف وانفجار عظيم تهدمت به سائر جدران المنزل وتعطّل كثير من المنازل المجاورة لأن الاهتزازات بلغت آخر الشارع وقتل خمسة من العمال وجرح اثنا عشر أما لازنسكي السيء البخت فان جثته تطايرت في الفضاء ولم يعثر منها الاّ على بعض أعضاء منثورة وقد استولى الهلع على سائر مصارف موسكو وكثير منها أقفلت عند سماع هذا الخبر الرهيب ويظن أن اليد التي اقترفت هذه الجريمة الفظيعة هي أحد العمال أنفسهم إذ أنه منذ نحو خمسة أيام دخل عامل جديد من أمهر الكتبة والخبيرين بالمصارف الى مصرف لازنسكي وقام باعباء أشغاله على غاية الدقة والانتظام حتى أعجب به سائر المستخدمين وقد شوهد صباح هذا النهار داخلاً وفي يده محفظة كبيرة

و بعد أن لبث حتى الساعة العاشرة ونصف صباحاً استأذن بالانصراف لغرض ما وحتى الآن لم يعد واذا لم يتخذ البوليس احتياطات أشد مما عودنا عليها لا يمر حين من الزمن حتى تصبح موسكو فوضى لا نظام لها وخصوصاً لأنه قد ورد على ابن الفقيد بعد ظهر اليوم انذار شبيه بالانذارات التي وردت من قبل على والده»

و بعد اسبوعين من الزمن طُلب الاعضاء العاملون الى حضور جلسة خاصة لم يذكر موضوعها في رقاع الدعوة فلما انتظم عقد النادي وأنجز الأعضاء ما تأخر من الأعمال والقرارات الهامة في الجلسة السابقة وقف الرئيس وقال بكل هدو وسكينة « ليتقدم الى هذه المنصَّة أحدكم غورتشاكوف سرجيوس فلاديمير » فعلت وجهي صفرة الوجل واصطكت ركبتاي من الجزع خوف وشاية بي فلحظ الرئيس وتبسم تبسم الوقار دون أن يفوه بكلمة فجريت الى المنصة كمن يجري الى حتفه لأنه كان يبلغني روايات غريبة عن اغتيال النهلست بعضاً من الاعضاء الذين يشتبهون بصدقهم واخلاصهم ولما بلغت المنصة وقف الرئيس وقال «أهنئك يا عزيزي غورتشاكوف لكونك قد أصبحت رجلاً تبلغ ثروته خمسين مليون روبل ثم وضع في يدي رقاً فاذا هو حوالة باسمي من ابن لازنسكي على مصرف انكلترا بالقيمة المذكورة فلما طالعته اعترتني دهشة شديدة وارتعاش عظيم في أعضائي من شدة الجذل ثم التفت الى الرئيس وقلت له « لا أشكرك على هذا الصنيع العظيم بل أقول لك أنه سيكون صباح غد في مصرف انكلترا خمسون مليون روبل تنفقها جمعية الثورة في السبيل الذي تراه موافقاً لاصلاح روسيا » فحصل أولا بين الاعضاء سكوت تام كأن على رؤوسهم الطير ثم تلى ذلك ضجيج استحسان اهتزت له ارجاء ذلك النادي الرهيب ثم تقدموا اليّ يقبلونني ويحملونني على الاكف

الفصل الخامس

« وقع السهام ونزعهن اليم »

لبثت بضعة أسابيع وأنا في نادي الثورة لا عملَ لي سوى التعرف بأعضاء الجمعية والتجول في أنحاء العاصمة لاختبار طبائع أهلها ومعرفة احيائها وكان ذلك سهلاً عليَّ لأني تعلمت اللغة الانكليزية والفرنساوية منذ نعومة اظفاري فضجرت أخيراً من البطالة وتقدمت الى الرئيس بتروف وسألته أن يكلفني بالقيام بخدمة ما فتبسم وقال لي ان سائر الخدمات التي يقوم بها أعضاؤنا محفوفة بالمشقات والمخاطر وانها قد تفضي أحياناً الى حتفهم فأجبته أني عالم بكل ذلك ومستعد لكل بلية لأني وقفت نفسي على أن آخذ بثار أبي وأمي وشقيقتي وان قد اعتراني الآن الضجر والملل حتى كدت أعاف الحياة فتطلع اليَّ نظرة كلها إعجاب وهز كتفي قائلاً « يا غورتشا كوف ان امامك مستقبلاً مجيداً فانك من بيت عريق في نسبه كبير في حسبه وافر في ثروته وقد رأيناك عنوان الاخلاص والمروءة والشهامة وستصير بعد قليل زعيم عصابة النهلست الأعظم يأتمر بامرك ألوف من البشر وتعنو لحكمك رقاب الامراء والحكام اذا أصدرت أمراً في هذا النادي كان صاعقة على أعدائك فيحل بهم الوبال دون أن يشعروا من أين يأتي واعلم أنه لا يوجد الا ثلاثة من البشر لهم السيادة المطلقة في الكون وهم قيصر روسيا ورئيس الجزويت وزعيم النهلست بيد انه لا بد لك من الصبر والتمرن على العمل والوقوف على الدخائل وسبر طباع البشر حتى تصير أهلاً لهذا المركز الخطير الذي تخلفني فيه بعد ذهابي الى روسيا لغرض سوف تقف عليه في حينه » فشكرته وقلت اني سأكون له أطوع من بنانه

وحدث بعد هذا ببضعة أسابيع أن الجمعية عهدت اليَّ أول عمل خطير وتفصيل ذلك أن جمعيتنا في لندرا انتخبت واحداً من عدادنا يسمى ايفان غريغوروفتش للذهاب الى بطرسبرج حاملاً تعليمات سرية الى مركزنا في

عاصمة روسيا فغير اسمه وادعى انه تاجر فرنساوي يحمل جوازًا فرنساويًا وزيادة في كتمان الأمر لم يسر على الطريق العادية بين لندرا و بطرسبرج ولكنه توجه اولاً عن طريق البحر الى اودسا على عزم متابعة السفر من هناك الى بطرسبرج ولكن الرجل اخفق سعياً وذلك ان وردت على بوليس اودسا السري افادات من احد الافراد الخونه ينبئه بحقيقة الأمر فلم يكد غريغوروفتش يبلغ اودسا حتى القى البوليس السري القبض عليه مع ما معه من الأوراق السرية التي فيها تفاصيل مكيدة جديدة و بسبب ذلك القى القبض على ثلاثة وعشرين شخصاً في بطرسبرج من الرجال والسيدات فحوكموا سرًّا وحكم عليهم بالأشغال الشاقة المؤبدة في سيبيريا وتبين من التفاصيل التي وردتنا بعد ذلك ومن مطالعة جريدة النوفوستي الروسية الشهيرة ان الذي افشى سر ايفان غريغوروفتش الى البوليس هو البرنسس كاريوف وعليه عقدت لجنة الجمعية العاملة وعددهم خمس جلسة وحكموا على البرنسيس بالاعدام وطريقة انتخاب العضو الذي يناط به هذه المهمة تكون بالقرعة فوقعت القرعة هذه النوبة عليّ

وكان الأعضاء يتكلمون عن القتل والاعدام بسكون وتبسم كأنهما أمرًا عاديًّا ولا بد لي من الاقرار اني شعرت أولاً بشيء من التردد والتوقف فلحظ ذلك الأعضاء وأفادوني ان وشاية هذه المرأة قد سببت نفي نيف وعشرين شخصاً من اخواننا الابرياء وانه لابُد من اعدامها ولما كنتُ قد أقسمت عند دخولي في زمرة النهلست أن أقوم بسائر ما تكلفني به الجمعية من الأعمال والا كان جزائي الإعدام رأيت نفسي مضطرًا الى القيام بأوامرهم

و بعد تقصي أخبار البرنسيس علمت انها قد حضرت منذ عهد قريب الى لندرا حيث استأجرت منزلاً جميلاً في احد احيائها فراقبتها ذات ليلة حتى اذا ما دخلت لحضور الاوبرا دخلت وراءها وجلست بجانبها وكان ذلك اول مرة شاهدتها عن قرب فاذا هي سيدة بالغة نحوًا من خمس وعشرين سنة من العمر ردينية القوام بارعة الجمال لها عينان سوداويان تنفثان السحر الحلال وشعر حالك كالليل ذات جبين وضاح ووجنتين هما الورد في غضاضته وذراعاها واعلى صدرها

عار يشف عن بياض كالعاج وفي عنقها عقد متألق من الالماس وهي لابسة ردآء اسود وعلى ملامحها شيء من الانكسار والاسى وبعد التأمل فيها وجدتها اجمل امرأة وقعت عيني عليها في حياتي — هذه هي الاميرة التي قضى عليّ أن اذيقها كأس الحمام بيدي !

فلبثت انظر اليها وانا في حال اشبه بالذهول

وبعد قليل وقعت عينها عليّ فلما شاهدتني محدقاً بها علت خدودها حمرة الخجل وأخذت تطالع رقعة بيان الرواية التي كانت موضوع التشخيص تلك الليلة ولما انتهى الفصل الأول منها وقفت للخروج الى القاعة الفسيحة للتدخين فمررت بجانبها واعتذرت اليها عن مروري باللغة الروسية فردت إليّ اعتذاري بأحسن منه بذات اللغة وهي تتبسم تبسم اللطف

وقد علمت من التنقيب السابق ان الاميرة هي البرنسس كاريوف وان حياتها بعد الزواج أصبحت حملاً ثقيلاً عليها لما حصل من الشقاق بينها وبين زوجها فلم يمر على زواجها سنة واحدة حتى افترقا فبقى زوجها في روسيا اما البرنسيس فكانت تصرف وقتها بين بطرسبرج وباريس ولندرا وقد تبين بعد وصولها الى لندرا انها حضرت اليها في مهمة سياسية للحكومة الروسية ولم يمر زمن حتى تعرفت بكثير من كبراء القوم ونخبة افرادهم واصبح لها مقام عزيز في الهيئة الاجتماعية فكانت موضوعاً لاخبار الجرائد وحديث القوم فراقبتها عدة ايام حتى اتت هذه الليلة الاوبرا فتبعتها على امل ان اتعرف بها ولما انتهى التشخيص التفت نحوها وقلت بكل تأدب بالروسية « اراكِ يا مولاتي وحدكِ هنا فهل تسمحين لي ان احضر لكِ عجلتك ؟ »

فأجابتني بالانكليزية « أشكرك أيها المولى وسترى خادمي بانتظاري خارجاً وهو لابسٌ ثوباً أحمر »

« ماهو الإسم الذي أذكره له »

« البرنسس كاريوف »

ثم التفتت اليّ وقالت « أرانا من وطن واحد اليس الأمر كذلك يامولاي»

فأجبتها « بلى ياسيدتي وان الروسي يسر على الدوام بمشاهدة مواطنيه في الغربة » ثم أخرجت من جيبي رقعة الزيارة باسم جورجوفتش ملاكوف وسلمتها اياها

وبعد بضع دقائق عدت وأحضرتها الى العجلة فشكرتني وجرت كالسهم المنطلق لاتلوي على شيء

وفي أثناء الاسبوع التالي اجتمعت بها عدة مرار فرأيت منها ظرفاً ولطفاً عظيمين ودعتني للذهاب اليها فقبلت ذلك بالامتنان ولم يمض علينا سوى قليل من الزمن حتى أصبحنا صديقين حميمين ولا بد لي من الاقرار اني همت بحبها وغرامها فكانت تتجلى لي كأنها شعلة من نور وصوتها أنغام شجية تهتز لوقعها أوتار القلوب وعواطف النفوس غير أني لما علمت شرف أسرتها وسامي مقامها اعتراني اليأس والقنوط وعلمت أن هذا النعيم سيفضي بي الي أوخم العواقب وبينما كنت جالساً معها ذات يوم وحديثها يقطر شهداً وضعت يدي الى صدري فشعرت بالآلة التي كنت قد خبأتها هناك لكي أغتال هذا الملاك فاقشعر جسدي واستولى عليّ الجزع والارتعاش كما انتفض العصفور بلله القطر

وكانت عيناها إذ ذاك تنظران من النافذة التي أمامنا الى جنائن الاشجار الجميلة والزهور البديعة وجمال الطبيعة فالتفتت اليّ لفتة الغزال الشارد وقالت « مالك يا مولاي فاني أراك صامتاً » فلم أجبها ولكن انتصبت على قدميّ وأخذت يدها وقبلتها وأنا لا أدري ما أنا فاعل ثم تدفقت كلمات الغرام من فمي تدفق السيل فارتجفت أعضاؤها وأسرع تنفسها ولكنها لم تجذب يدها مني وحاولت اخفاء ما يخالج صدرها من عوامل الحب فلم تستطع ثم التفتت اليّ وقالت « لم أكن أظن يا فلاديمير إنك تحبني أما أنا فقد أحببتك حبّاً شديداً أحاول اخفاءه فيضطرم في صدري ولقد كانت حياتي في ما سلف سلسلة أحزان وأسى وانك هو الرجل الوحيد الذي أحببته مدى عمري »

فدهشت لمقالها وقلت لها « أحقيق اني أخطر أحياناً في خاطرك يا مولاتي الاميرة ؟ »

فتبسمت وقالت « لا تدعني مولاتك الاميرة بل ايرين وسيأتي يوم تعلم به

قذر الاميرة التي هي الآن أمامك واخلاصها لك لأنك لا تعرف عني الآن شيئاً سوى ما تمليه عليك عواطف الحب والغرام ولكن سوف ترى قدر حبي لك وشدة تعلقي بك وشرف خصالي وصفاتي وعسى ألا يمر زمن طويل حتى أتمكن من الحصول على حكم الطلاق من الأمير كاريوف ثم نتزوج ونعيش معاً على الرغد والسعادة أما أنت فلا أسألك شيئاً عن ماضيك أو تفصيل أحوالك واعلم اني أكون على الدوام مخلصة لك ولودك » ثم أسندت رأسها بين كفيها وأجهشت في البكاء

ولما عادت الى نفسها قالت « لا تقدر الآن على الشعور بما أشعر به من التعاسة والشقاء لأنك لا تعلم مرارة حياتي »

« لا يا ايرين فقصي عليّ شيئاً من أخبارك »

فجلست على كرسي مريح وأومأت لي أن أجلس على كرسي آخر بجانبها فقلت « كلا فانه لا يحلو لي الجلوس الا عند موطئ قدميك فلا أجلس الا هنا »

فانطرحت عند قدميها ثم شرعت تقص عليّ حكايتها فقالت لي « ان حياتي قد ذهبت ضياعاً وكانت أمي فرنساوية المحتد وأبي في عداد أعضاء الشورى في روسيا فصرفت أوائل حياتي في موسكو ثم بعد ذلك في البلاط القيصري في بطرسبرج ولقد أكرهني والدي على الاقتران بالبرنس وهو كما تعلم وافر الثروة واسع الجاه ولكنه لم يمر على زواجنا سوى بضعة أشهر حتى أخذ يسيء معاملتي حتى كانت تدفعه الحدة أحياناً الى ضربي ضرباً مبرحاً ولا تزال آثار هذا الضرب في جسدي حتى الآن وفوق ذلك فانه عشق ابنة فرنساوية من بنات الرقص والخلاعة فصبرت على جوره ما استطعت الى هذا من سبيل ولما بلغت الروح التراقي وخشيت على حياتي من القتل هجرته وحضرت الى هنا »

فاحتدمت غيظاً وقلت لها « أيمكن أن يبلغ توحشه هذا الحد ؟ »

فتنهدت وأكملت حديثها قائلة « ولم يكتف الامير بذلك بل حاول تطليقي منه وعاونه على ذلك نفر من أصدقائه تظاهر أحدهم بودي وغرامي لكي يكون ذلك حجة للأمير عليّ في الطلاق فأرجعته بخفي حنين لأني لم أفعل بعد زواجي شيئاً

قط يكون م أخذاً علي ومع انني أحبك الآن وأودك كثيراً فانه لم يجر بيننا ما يحق للأمير معه الطلاق فعفت الحياة وهجرت الوطن وأخذت أتراوح في الاقامة بين باريز ولندن وأنا وحيدة شريدة لا صديق يمنع الضيم عني ولا أليف أشكو اليه أمري »

وقبل أن تتم حديثها قاطعتها وقلت لها «ان امامك صديق يفديك بدم قلبه »

فألوت عليّ وقبلتني وقالت « صرفت حياتي في ما سلف بين الشقاء والعبرات ولكن أشعر الآن بنعيم وسعادة لا أقدر على وصفها»

« اني أكاد أطير جذلاً وسروراً مما تقولين وسنعيش معاً على الحظ والنعيم لا يفرق بيننا مفرق ولا يثني حبنا بشر »

« ماذا أو من يقدر على تفريقنا فاننا كلينا في حب وغرام وعندي من النقود ما يفي بسائر حاجتنا »

فعاد في تلك اللحظة الى خاطري ذكر الخنجر الذي خبأته في ثوبي والذي أعددته ليخترق قلبها فذعرت وارتجفت أعضائي ارتجافاً شديداً ولكنها لم تترك لي مجالاً للانتظار فقالت « انى لك وانت لي وبعد قليل نتزوج ونعيش على عل الدوام في النعيم الذي نحن عليه الآن »

وكانت الشمس قد غربت وأرخى الليل سجوف الظلام فوقفت وانحنيت عليها أقبلها وبينما أنا كذلك اذا بالخادمة قد دخلت فلما رأتني كذلك ذعرت واعتذرت قائلة « اعذريني يا مولاتي فاني ظننت انك قد انطلقت »

فأجابتها الاميرة « لا يا نينا اني سأبقى الليلة هنا واخبري الخادم أن الموسيو ملاكوف سيبقى هنا للعشاء »

ثم أضاءت الخادمة المصابيح وانطلقت من الغرفة فتطلعت الى وجه الاميرة واذا به يتدفق جمالاً وسروراً فخطر على بالي حينئذ خاطر جهنمي وهو لماذا لا أنجز الآن العمل الذي أتيت لأجله الى هنا وأغمد خنجري في قلبها وهي في ابان السعادة وأوج النعيم فان ذلك لخير من الانتظار وخصوصاً لأني اذا أحنثت بقسمي للنيهيلست وأخلفت وعدي لهم كان جزائي الاعدام وكنت أيضاً على يقين أن

الأميرة لا تنجو من مخالبهم فاستللت خنجري وهممت بقتلها فلم تطاوعني يدي على ارتكاب هذه الجريمة الاثيمة فاعدت الآلة الى نصابها وقد علتني صفرة الوجل ثم عدت الى مجلسي على الكرسي الصغير الذي كنت جالساً عليه عند قدمي الأميرة وعدنا الى تتمة أحاديث العشق والغرام

و بعد اسبوعين من الزمن وصلتني رقعة من لجنة الثورة يدعونني بها الى الحضور فلما مثلت بين أيديهم ورأيت ما على ملامحهم من الحزم وثبات الجأش اعتراني ذهول فسألني الرئيس بتروف وقال « وجدناك متردد في قتل الاميرة كاريوف فما سبب ذلك ؟ »

« يلزم — يلزم يا مولاي وقت لذلك »

« قد مضى عليك الآن ثلاثة أشهر ولم تنجز شيئاً وقد علمنا أنك وقعت في أشراكها ولكن إعلم أنها لن تنجو منا ولو كان حولها أسوار من الرجال والسيوف ثم انه لا بد لي من أن اذكرك انك قد أقسمت بين أيدينا قسماً رهيباً يحتم عليك القيام به فقد أصدرنا على الاميرة حكم الاعدام فلا بد لك من انفاذه ونحن لا نزال نثق بك ولكن اعلم أنك اذا لم تقم به حلّت عليك نقمة رجال الثورة وأنت أدرى ما معنى ذلك فاذهب وكن رجلاً »

فخرجت من حضرة اللجنة هائماً على وجهي في أسواق لندرا وأزقتها وأنا أفكر في مهرب يكون منه نجاة الاميرة فلم أرَ شيئاً من بارق الأمل لان حكم الاعدام صدر من اللجنة العاملة و يعلم سائر الناس أن الجمعية لم تصدر حتى الآن حكماً على رجل تمكن بعده ان ينجو من مخالبها و بعد أن لبثت هائماً عدة ساعات وجدت نفسي نحو الساعة العاشرة مساء بجانب بيت حبيبتي الاميرة وأنا لا أعي شيئاً فدخلته حتى بلغت غرفة الجلوس وهي لا تشعر بي فرأيتها جالسة و بيدها رواية تطالعها وكانت لابسة ثوباً من الحرير البرتقالي والجمال يتألق في جبينها تألق النور فلما رأتني طربت وقالت « أهذا أنت يا ملاكوف لقد انتظرتك النهار طوله حتى أعياني الصبر و برّح بي الانتظار » فدنوت منها وقبلتها ثم جلست لا أفوه بكلمة فتفرست في وجهي ولما شاهدت ما عليه من الاصفرار والأسى وما على

ثوبي من لطخ الأوحال انذهلت وقالت « أعليل أنت - اني أستحلفك بالله ان تصدقني أمرك فان أراك شاحب اللون منقبض الصدر أعرتك علة ؟ فحاولت الابتسام وقلت لها « اني أشعر باعياء يزول عما قليل »

ثم جلسنا نتجاذب أطراف الحديث وأنا لا ادري ما اسمع أو اقول الى ان شعرت اخيرًا انها لمست يدي ووضعتها على وجهها — تلك اليد التي ستجرعها بعد بضع دقائق كاس الحمام فلم أطق أن تفعل ذلك فجذبت يدي بعنف منها فتعجبت من ذلك وقالت «أظنك عليلاً يا ملاكوف » فأجبتها « اني على غاية ما أتمنى من الصحة ولكن افتراقنا هو علة شقائي » فقالت « أتتكلم عن الافتراق فلا يفرق بيننا إلا الموت » وطوقت عنقي بيديها وهي تقبلني قبلة الحب والإخلاص فشعرت بارتعاش شديد في جسدي ووقفت من موضعي أتمشى في الغرفة من جانب الى جانب و بعد قليل التفت اليها وقلت

« أيتها الأميرة اني نذلٌ جبان فلقد خدعتك »

« ماذا تقول ؟ ألا تحبني يا ملاكوف »

« انك اعز لديَّ من حياتي ولكن أقسمت على قتلك»

« أتقتلني أنا يا ملاكوف — أتقتل الامرأة التي تحبك أكثر من نفسها ؟ إني أرى فيك مسًّا من الجنون »

« بلى ان فيَّ مسًّا من الجنون لأنني أحببت الامرأة التي ساجرعها كاس الحمام من يدي ولا بُد لي من قتلك فأني نهيلستي »

ولما سمعت هذه اللفظة اصفر وجهها وارتجفت أعضاؤها وتراجعت عني الى الوراء وهي تكاد يغمي عليها ثم أخذت تكرر اللفظة « نهلستي ! نهلستي ! »

« بلى اني نهيلستي ولقد وشيت بنا الى البوليس في روسيا وشاية أوردت عشرين نفرًا من اخواننا منفاهم في سيبيريا ولقد حكمت عليك اللجنة بالموت وستنالينه هذه الدقيقة » وما أتيت على تتمة ذلك حتى استللت خنجري وقبضت على معصمها

فاهتزت الاميرة اهتزازًا شديدًا و بدا بريق الاندهال في عينيها وصاحت

« ان هذا مين وكذب من المنافقين الذين يرمون بي الى التهلكة — أما تعني بذلك تلك المقالة التي نشرتها جريدة النوفوستي فالله يعلم اني بريئة من كل ذلك ولكنها دسيسة من زوجي فانه لما لم يتمكن من طلاقي كما أخبرتك قبلا عمد الى الدسائس السياسية فرشى بعضا من القوم حتى أشاعوا عني هذه الأكاذيب وفي عدادهم الكاتب المذكور والغرض من كل ذلك ان تحل عليّ نقمة النيهيلست حيث يكون جزائي الموت »

« أبريئة اذًا أنت ؟ »

« إني أقسم لك بكل ما هو مقدس أني بريئة من هذه التهمة ولما جرت محاكمة الذين تشير اليهم من أعضاء النهلست كنت وقتئذٍ مع الارشيدوقة بول في أودسا وأنا على جهل تام مما جرى حتى بلغني أمر المقالة في الجريدة المشار اليها فبعثت اليها اكذب الخبر تكذيباً قاطعاً فلم ينشر وماذلك الا لدسائس الامير كاريوف »

« أصدق كل كلمة مما تقولين ولكن أنى لي أن أنقذك من مخالب المنية فان الحكم قد صدر عليك بالاعدام وأنا مرتبط بقسم لانفاذ هذا الحكم »

« اني بريئة ولكن اذا كان لا بدّ لك من اعدامي فأرجوك أن تمهلني شيئًا من الزمن أستعد به للموت »

« كم تطلبين ؟ »

« نحوًا من ثلاثة أيام »

« حسن — إني أمنحك هذه الامنية » ثم ودعتها منصرفًا

وفي مساء اليوم الثالث سددت خطواتي نحو بيت الأميرة فالتقيت بالخادم وقلت له

« الأميرة في البيت ؟ »

فذرفت دموعه وقال « ويلاه يا مولاي فانها قد ماتت ! »

فأجبته منذهلاً « أماتت الأميرة ومتى كان ذلك ؟ »

فتنهد وقال « لقد اغتالتها يا سيدي يد الاشقياء فانها قتلت قتلاً ولم

أ كتشف على ذلك الاّ منذ نحو ساعتين فقط فجريت أستحضر الطبيب وهاهو الآن في غرفتها مع البوليس »

فأسرعت الى الغرفة حيث سمعت أصوات القوم فوجدتها كبيرة مظلمة لا ينيرها سوى شمعتين وجثة الأميرة موسدة على سرير بجانب النافذة وملفوفة بغطاء من الكشمير وصدرها ملطخ بالدم فلم أحفل بالقوم بل دخلت ووقفت بجانب الرمة ولما تطلعت فيها هالني ذلك المنظر الرهيب فان وجهها كان مشوّهاً بالجراح ومنظره مخيفاً فكدت أسقط الى الارض من شدة الهلع وتجلدت ولبثت واقفاً ثم رأيت في يد أحدهم آلة قاطعة يحدق بصره فيها بجانب النور ولما تأملت فيها ارتعشت سائر أعصابي فانها كانت خنجري الذي وضعه في يدي رئيس اللجنة لاغتيال الأميرة فوضعت يدى في جيبي فلم أجد سوى غمد الآلة أما الآلة نفسها فلم تكن هناك فعلمت إذ ذاك أنها قتلت بالخنجر الذي كان لي فأخذ البوليس اسمي المنتحل وعنوان موضعي إذ قال انه لا بد لي من تأدية شهادة امام المحكمة وبعد ان انصرف القوم سألت الخادم عن تفصيل الأمر فقال لي ان الاميرة كانت عازمة على التوجه الى باريس صباح الغد وانها أرسلت وصيفتها قبلها الى هناك لتعد لها الغرف اللازمة لنزولها فيها ثم انه نحو الساعة الخامسة سمع قفل الباب فاستنتج ان سيدته قد خرجت من المنزل ثم بعد نحو ساعتين من الزمن دخل الى الغرفة فوجد الأميرة جثة لا حراك بها

وفي مساء اليوم التالي عقدت اللجنة العاملة جلسة خاصة فذهبت الى هناك لأقدم تقريراً بشأن ما حصل قياماً بالواجب عليّ لا لافادة جديدة لأن أعمدة الجرائد كانت ملأى بخبر هذا الاغتيال الذي كان سرًّا من الاسرار

ولما بلغت النادي التفت الى الرئيس بتروف وقلت

« إن الاميرة قد قتلت يا مولاي »

فقال « اذا كان الامر كذلك فاشكر أخانا ارتانوف الذي قام بهذه المهمة »

فتطلعت حولي منذهلاً واذا بالقاتل جالس بجانبي على كرسي ويداه مسندتان عليها فنظر اليّ الرجل وقال « فعلت ذلك اكراماً لك لأني اعلم الصعوبة التي

كانت تحيق بك إذ انه يتعذر على العاشق قتل عشيقته فأحببت مساعدتك في الأمر »

و بعد ذلك دُعيت لتأدية الشهادة مرتين امام المحكمة وبعد اطالة البحث على غير جدوى صدر الحكم بأن الاميرة قتلت بيد جانٍ غير معروف ثم بعثوا نبأ بهذا الصدد الى زوجها الأمير فلم يهتم بشيء من الأمر ولما دفنت الأميرة لم يكن في جنازتها سواي والخادم ايفان خادمها أما البوليس فلبث مواصلاً البحث والتنقيب دون أن يتاح له الحصول على حلّ هذا اللغز المعمّى

و بعد نحو شهر من الزمن وصلتني يوماً رقعة من الخادم ايفان المشار اليه يطلب بها مني أن أوافيه ليلاً تحت كبري إحدى المحطات في العاصمة فذهبت في الوقت المعين ظاناً ان هنالك أمراً جللاً يحب مفاتحتي بشأنه وكان موضع الاجتماع مظلماً ولا يمر فيه سوى قليل من الناس و بينما كنت واقفاً في الموضع المشار اليه أنتظر الرجل واذا بيد لمستني وصوت سيدة تناديني باسمي فالتفت فرأيت سيدة مرتدية رداء السفر وعلى وجهها برقع كثيف فرفعته قليلاً ولما نظرت اليها كاد يقضى عليَّ من الذهول لأن الامرأة التي كانت واقفة أمامي لم تكن سوى الاميرة كازيوف !

فتقدمت اليها وأنا أكاد يغمى عليَّ من الجذل وقلت لها «أهذه أنت ياايرين؟»

فقالت « نعم ولا تظنني خيالاً الاّ أنه لا بد لي من التنكر حتى لا يراني أحد فلنذهب من هنا » ثم أسدلت برقعها الكثيف مرة أخرى على وجهها .

فانطلقنا نحو أشجار غضة بجانب النهر ولما خلونا تطلعت اليَّ ايرين وقالت « لا تنذهل مما جرى فان الأمر على غاية البساطة والسهولة . أتذكر تلك الليلة الأخيرة التي حضرت فيها اليَّ ورأيتني أطالع رواية كانت وصيفتي نينا تلك الليلة عليلاً ولم ادعُ لها طبيباً لأني ظننت أن توعكها لاطائل تحته ولم أدر أن تلك الابنة المسكينة كانت مصابة بعلة قلبية فقضي عليها الساعة الخامسة في اليوم الثالث من حضورك اليَّ فخطر لي إذ ذاك أن أضع تلك الابنة مكاني وخصوصاً لما بيننا من المشابهة في اللون والسن والشعر وأخبرت ايفان الخادم بذلك وقلت له

أن بعض الجناة يودون اغتيالي » .

— « هل ذكرت اسمي له ؟ »

— « كلاً كلاً وبعد أن وضعت ثيابي على جثة نينا نقلناها الى غرفتي ثم لبستُ ثيابها وأخذت أثمن جواهري وسافرت الى باريس تاركة ايفان في البيت ولقد أخبرني أنه بعد ذهابي شاهد رجلاً متوسط القامة قد دخل البيت بعد أن فتحه بمفتاح كان في جيبه ثم أخذ يجول في الغرف حتى بلغ غرفتي فرأى هناك في الظلام جثة نينا التي ظنها إياي ولقد حصل كل ذلك بعد موت نينا بنحو نصف ساعة فقط »

— « ان تشوه الوجه هو الذي حال دون معرفتي حقيقة الشخص »

— « لقد أصبت ومع كل ذلك فانه لم يكن هنالك من جريمة أما أنا فتمكنت من التخلص وقد غيرت اسمي فلا يوجد الآن في العالم الأميرة كاريوف بل مادام ركتسنكي واني لا أزال أحبك ولكن أرى أنه لا بد لنا من الافتراق لأنه اذا عدنا الى اجتماعنا اكتشفت لجنة النهلست حقيقة الأمر وعادوا الى غدرهم بي أو بك وها اني الآن مسافرة الى بروكسل ولا بد لي من العجلة لأن القطار يكون على أهبة السفر بعد ربع ساعة ولما بلغناه هززت يدها وقلت لها « أودعك يا مولاتي » فقالت « لا — قل الى الملتقى » ولما تحرك القطر وضعت أصابعها على شفتيها اللطيفتين كأنها تقبلني عن بعد وقالت «الى الملتقى يا حبيبي فانك كنت سبباً في نجاتي من مخالب المنية » فوقفت صامتاً لا أدري ماذا أفكر أو أقول

الفصل السادس

« ساعة المنيّة »

ان البوليس السرّي لسفارة روسيا في لندرا عبارة عن جيش من العمال دأبهم

السعي والتنقيب عن مكايد النهلست وأسرارهم والوقوف على كل حركة من حركاتهم وعليه كان من دأبنا اجراء حركات ودسائس بعيدة عن مرادنا وليست من الحقيقة في شيء والغرض الوحيد من ذلك ايهام البوليس السري وابعادهم عن اكتشاف الدسائس الأكيدة الصحيحة فانه لا يوجد ملك في العالم قط له من الجواسيس وزمرة العمال ما لقيصر الروس فانهم في كل عاصمة وفي كل بلاد ولا بد من الاقرار أنهم من أذكى جواسيس العالم وأشدهم مهارة وأرشقهم حركة وأكثرهم سعياً وأجرأهم اقداماً وأعظمهم بطشاً ولكل سفارة من سفارات أوربا نيف وخمسون شخصاً في جهد مستمر ودأب متصل للوصول الى معرفة من يشتبه في أمرهم من الروسيين المشتغلين بالامور السياسية بعد أن ينزحوا من بلادهم و يستوطنوا العواصم الأوربية يصبح هؤلاء دائماً وأبداً تحت أنظار الرقباء من الجواسيس الذين يكونون لهؤلاء الأقوام أتبع لهم من ظلهم ويقدمون بشأنهم التقارير المطولة والبيان الوافي الى الجنرال سكرتسنكي رئيس المصلحة في بطرسبرج ليكون على بينة من أمرهم

وان القحة والجرأة التي يصل اليها هؤلاء الجواسيس في الممالك الأوربية الصغيرة وفي مثل بلغاريا ورومانيا وسويسرا وايطاليا تبلغ حداً فاحشاً من التطاول ومجاوزة الحقوق الدولية حتى انهم يستبدون أحياناً في أعمالهم كما لو كانوا في مقاطعات روسية وكثيرون من الخبيرين في البلقان يعتقدون أن البلغاريين اللذين حاولا اغتيال مونتوف رئيس بوليس روستشوك عند ما توجه الى بخارست انما فعلا ذلك بايعاز أحد كتمة أسرار السفارة الروسية في رومانيا ولم تقف قحة هؤلاء الأقوام عند هذا الحد بل حملوا البعض بالرشوة والدنانير الوضاحة على وضع آلات لتزييف النقود خلسة في منزل أحد مشاهير كتبة الروس وهو الموسيو كاس دو بروجانو كما اتضح ذلك أثناء المحاكمة والانكى من كل ذلك أنهم وضعوا خلسة بمثل هذه الدسائس قنابل ديناميت وغيرها من المواد الانفجارية في بيوت بعض الروسيين النازحين الى العواصم الأوربية ثم وشوا بهم الى الحكام حتى اذا وُجدت هذه المواد كان هؤلاء الأقوام المتهمون عرضة للقصاص

والطرد فيذهب بذلك نفوذهم السياسي وتبطل دسائسهم من تلك العاصمة ولقد تبين حديثاً أثناء محاكمة جرت بهذا الصدد في باريس حيث حكم فيها أولاً على ستة من الروس بالسجن سنوات عديدة ان القنابل الديناميتية وضعت في بيوت أربعة من المتهمين على الأقل بدسائس جواسيس الحكومة الروسية ولقد بلغ تفننهم بالدهاء حداً حارت عنده العقول وأوقع النهلست حيناً من الزمن في أشد الحيرة والانذهال وذلك أن بعضاً من أفراد هؤلاء الجواسيس اتصل الى قتل بعض من اخوانه الجواسيس تزلفاً للنهلست وتمهيداً لانخراطه في سلكهم حتى يكون على بينة تامة من كل حركة ودسيسة ومكيدة تصدر منهم

ولقد أحدثت الحكومة الروسية مؤخراً تحسينات مهمة واضافات جديدة في مصلحة جواسيسها بالممالك الأوربية زادتها اتقاناً وارهاباً فقد جعلت باريس العاصمة العظيمة مركزاً لقواتها تنبث منه وتتشعب الى غيرها من المدن التي يؤمها طلبة العلم في روسيا وذلك نظير مونبليه وزوريخ وبرن ونيس ومنتون وما شاكلها أما في لوندرا فان الجاسوسية فيها مصلحة مستقلة عن غيرها ولا غرو فان لندرا بمثابة مملكة برمتها من ممالك العالم وخصوصاً لأنها العاصمة العظمى التي تضم عدداً غفيراً من مجرمي الروس السياسيين ونوابغ كتبتهم وعظماء أمتهم فيلقى فيها هؤلاء الجواسيس للنهلست شراكاً غريبة الأشكال متعددة الأنواع لايقاعهم في حبائلهم من ذلك أنهم أنشأوا حديثاً نادياً علمياً لطلبة العلم وأصحاب الأقلام الروسيين يؤمه الجواسيس متى أرادوا دون أن يعلم أحد أنهم هم الذين أنشأوا ذلك النادي فمتى تقاطرت اليه الشبان سهل على الجواسيس معرفتهم ووضع الشراك التي يلزم أن تلقى لهم ولكن النهلست نفسهم يعلمون كل ذلك وسائر ماينصب لهم من الشباك فيتجنبونها تجنب الافعى

وحدث في أواخر أيام اسكندر الثالث ان زاد استبداد الحكام في الرعية وكثرت الجور والمظالم وبلغ صراخ المظلومين عنان السماء وأرسل كثيرون من الأقوام الى منافي سيبيريا وخصوصاً من أعضاء جمعيتنا فعقدت اللجنة العاملة جلسة في لندرا وقررت وجوب الارهاب القيصري وذلك بنسف قصر الشتاء في بطرسبرج

حيث هنالك موظفان كبيران من أعضاء جمعيتنا يعاوناننا سرًّا على انجاز العمل ولما أقرت اللجنة العاملة على ذلك أخذت في أعداد الوسائل اللازمة لهذا الارهاب وأخطرت بذلك سائر فروعها في المراكز الاوربيه الروسية .

أما آلة الهلاك الديناميتية التي أقرت اللجنة على صنعها فهي على شكل ساعة كبيرة لا شيء في ظاهرها يدل على دخيلة أو مكيدة في الامر ونيط صنعها بنقولا ترسنسكي أحد مهرة الصناع وهو هو نفسه الذي اصطنع القنبلة التي انفجرت في القطار الامبراطوري على مقربة من غوردنو وغيرها من القنابل التي أوقعت الرهبة في قلوب كثيرين من حكام الروس وأمرائهم وواضحٌ ان أهم ما نرمي اليه في مثل هذه الأحوال بقاء الأمر سرًّا طيَّ الخفاء والكتمان فاتخذنا أشد وسائل الحرص والحذر ولكن مع كل ذلك تبدّى لنا ذات يوم ما يؤخذ منه انّ الجواسيس بدت لهم لوائح التحذر وانهم في نهضة جديدة وجهد متصل لا كتشاف لغز من الألغاز فاتضح لنا من كل ذلك أنهم أحسوا بالدسيسة التي شرعنا بها

ولما تبين ذلك التأمت اللجنة العاملة على عجل ونظرت في الطريقة المثلى التي يحسن بنا اتباعها في مثل هذا الموقف حتى لا ينكشف أمرنا أو نفشل في عملنا وكنتُ قد انقطعت منذ أشهر عديدة عن التردد الى نادي الثورة حتى لا يشتبه في أمري أحد من الناس واستأجرت بيتاً من أحسن بيوت العاصمة وفي أفضل احيائها فلم يكن يخطر على بال بشر أني من طغمة النهيليست أو لي بأحد من أصحابها شيء من العلاقة فلهذه الاسباب وقع أختيار اللجنة عليّ وعلى صديق لي يسمى أورلوف لكي نكون رقيبين على أولئك الجواسيس الى أن يتمكن الرئيس بتروف واللجنة العاملة من انجاز الآلة و بعثها الى روسيا

فقمت على هذا العمل بهمة لا تعرف الكلال وعزم لا يتطرق اليه الملل فكنت أتنكر متزيياً بأزياء مختلفة الاشكال متعددة الأنواع وأتتبع الجواسيس من حي الى حي ومن حانة الى أخرى . أتبعهم الى أحقر مواضع العاصمة وأسفل أفراد الاقوام واستعنت على هذا الامر بنفر من اخواننا كنت أبعثهم الى مواضع متعددة من انحاء العاصمة لكي يكونوا باعثاً على توجيه انتباه الجواسيس اليهم

فيتبعون خطواتهم الى أن ظفرت بغرضي المطلوب وهو صرف جاسوسيتهم عن الموضع الاصلي الذي تصنع فيه تلك الآلة البديعة الصنع ومما سهل علينا عملنا من هذا القبيل ان اللجنة نقلت نادي الثورة من موضعه المشهور الى موضع سري من انحاء المدينة فكانت في مأمن من الابصار وفي أثناء هذه الفترة ثابر نقولا ترسنسكي على اكمال معدات آلته بكل حزم ونشاط

وحدث ذات ليلة أني كنت في قهوة من قهاوي المدينة وفي يدي جريدة أطالعها واذا برجل أمامي يخاطب خادم القهوة باللغة الروسية فتطلعت فيه واذا منظره يطابق صورة رجل سلمتني اياه اللجنة العاملة وأفادتني انه الرجل الشهير المسمى غو بيو وهو أمهر جواسيس الفرنسيس استخدمته الحكومة الروسية رئيساً لطغمة جواسيسها في لندرا

وكان اذ ذاك قد أشعل عوداً من الكبريت لاشعال لفافة من التبغ فرجوته أن يسمح لي باشعال لفافتي منها فكان ذلك سبيلاً لي الى محادثته والتقرب منه وبعد أن تجاذبنا الحديث لحظة من الزمن أيقنت أن الرجل لا يشتبه في شيء من أمري ثم أخذنا بعد ذلك نعاقر الخمرة ونقدح من أقداحها مسرة ووداداً نحو ساعة من الزمن سرنا بعدها سوية في أحد شوارع المدينة ولما افترقا تبادلنا رقاع الزيارة فأخذت رقعته وعليها اسم جول غو بيو وسلمته رقعتي وعليها اسم المستر بول ما كنزي عضو في النادي الشهير في لندرا المعروف بنادي الاحرار ثم أفادني ان مهنته تاجر قفافيز أما أنا فأخبرته اني بلجيكي المحتد من عائلة غنية حضرت الى لندرا طلباً للتنزه

وعند افتراقنا ركبت عجلة وودعته ولكن لم أمكث فيها سوى دقيقة من الزمن حتى نزلت منها وعدت من حيث أتيت أتتبع خطوات الرجل الى أن اهتديت الى منزله ومن تلك الساعة أخذت أرقبه للوقوف على طرق جاسوسيته فلم يمض زمن طويل حتى علمت ما كان عليه من الدهاء والاقدام حتى أنه لم يكن يفتر لحظة عن رقب حركات جمعيتنا ليلاً ونهارا وليس ذلك فقط بل كان يستعين على قضاء مآربه ليس بجواسيسه الخصوصيين فقط بل بجواسيس الحكومة

الانكليزية نفسها واتفق لي بعد ذلك الاجتماع بغو ببو مرارًا عديدة فكنا صديقين حميمين لاتشوب صداقتنا شائبة

ثم حدث لي أن ذهبت في أصيل نهار الى بيت أحد الأصدقاء حيث نقل نادي الثورة موقتًا فلقيت هناك الرئيس بتروف فقصّ عليّ حديثًا وقع عليّ وقع الصواعق وهو أن سائر أتعابنا قد ذهبت سدًى وأن الجواسيس والبوليس السري تمكنوا من معرفة مسكن نقولا ترسنسكي حيث يشتغل في صنع الساعة وانهم قد أقاموا حوله سورًا من الرقباء فرأت اللجنة أنه يترتب علينا دون ابطاء نقل الآلة التي كانت قد كملت معداتها من المنزل قبل دخول البوليس الانكليزي السري اليه وتفتيشه وقر قرارها على اختياري أن أقوم بهذه المهمة الخطرة وتطوع صديقي اورلوف بمعاونتي على العمل

فانطلقت الى منزلي كالسهم اذا مرق ووضعت على رأسي شعرًا اصطناعيًا وغير ذلك من وسائل التنكر حتى أصبحت نظير رجل كهل من العمال البسيطين فنزلت وبيدي صندوق ووضعت عليّ مئزرًا كمئزر العمال وكان قد جن الليل وأرخى الظلام استاره فرأيت امام منزلي عربة مكتظة بالقوم فدخلتها كواحد منهم ولما نزلت منها بجانب الموضع الذي سددت نحوه خطواتي التقيت برجل رث الثياب يتمشى جئة وذهابًا وهو يدخن وماتفرست فيه قليلا وسط ذلك الزقاق الذي كانت أنواره خفيفـة حتى أدركت من ملامح وجهه انه غو ببو فتأمّل فيّ بعين برّاقة ولكنه لم يبد منه ما يدل على أنه عرفني فبقيت سـائرًا الى أن بلغت منزل الساعاتي ترسنسكي فالتفت ورائي قبل دخوله فوجـدت ظهر الجاسوس نحوي ووجهه الى الجهة الأخرى فانطلقت داخلا البيت في مثل غمض الجفن بعد ان فتحته بمفتاح كان في جيبي وكان المنزل من طبقتين والظلام حالكًا فخشيت ان أشعل عودًا من الكبريت لئلا يكون وجود الضوء في الموضع باعثًا الى اشتباه الجاسوس غو ببو الذي كان يراقبه عن بعد فتلمست طريقي في الظلام الدامس الى أن بلغت معمل ترسنسكي وهو آخر غرفة في الطابق العلوي كما كان قد أفادني عنه قبلا وبعد أن فتشت بضع دقائق وجدت الصندوق الذي يتضمن الساعة

على مقربة من النافذة وكان صغير الحجم مربع الشكل له ممسك كان على الجانبين بحيث أنه لا يمكن لأحد أن يشتبه بأمره على الاطلاق

فانحنيت لأمسكه بيدي بكل لطف وهدو لأنه كان فيه من الديناميت ما لو انفجر لهدّم سائر ذلك الشارع برمته وفيما أنا على هذه الحال شعرت بيد وقعت على كتفي ورجل يقول من ورائي « لقد قبضت عليك أيها الجاني » فعلمت من الصوت أن الرجل هو غو يبو نفسه قد دخل ورائي الى المنزل واقتفى أثري الى المعمل وكانت يداه ممسكتين ذراعيّ كمقبض من الحديد ولكنه لم يكن سوى بضع ثوان من العراك حتى تخلصت يمناي وفيها مسدسي فصحت فيه « دعني يا رجل والاّ أطلقت مسدسي على هذا الصندوق الذي اذا تفرقع حملك الى الجحيم » قال « اذا فعلت ذلك كنت رفيقي الى ذلك الموضع واني الآن ألقي القبض عليك لأنك رجل جانٍ يشتغل في اصطناع المفرقعات » فرأيت اني اذا أطلقت عليه المسدس تراكضت الناس وافتضح أمري فالتفت الى ماحولي فرأيت على الأرض قطعة من الحديد فالتقطتها وقبل أن يتمكن من التفوه بكلمة بادرته بضربة شديدة على رأسه فلم ينبس ببنت شفة بل ترنح ترنح السكران وسقط الى الأرض لا يعي على شيء فرميت من يدي الحديد وأعدت المسدس الى جيبي وحملت الصندوق أجري به من البيت كالبرق اذا أومض حتى بلغت الزقاق ولما خرجت منه التقيت برجل يتمشى بجانب البيت فلما دنوت منه عرفته فاذا هو رفيقي أورلف فعجلنا المسير في طريق يختلف عن الطريق الذي أتيت به فشاهدت هناك زمرة من الجواسيس والبوليس السري ولكنهم لم يشتبهوا في شيء من أمري ثم التقيت بعجلة استأجرتها ووضعت الصندوق بجانبي وأمرت السائق أن يعجل بالمسير حتى بلغت منزلي الخاص

وقد كان من حسن الحظ ان عجلتُ في المسير لأن أورلوف بقي يرقب ما يكون من الأمر فأفادني بعد ذلك اني لم أكد أخرج من البيت حتى دخلته الجواسيس والبوليس السري ولكنهم لم يتمكنوا من العثور على شيء خلا بعض أدوات صناعية ورئيس الجواسيس الذي كان ملقى على الأرض في حال الاغماء

أما غويبو فانه لم يمر عليه سوى بضعة أيام حتى شفي مما أصابه فالتقيت به بعد نحو اسبوع في بعض أنحاء المدينة وتقدمت اليــه مسلماً عليه كالعادة فقابلني بالأنس والبشاشة فدعوته الى منزلي لمناولة شيء من المشروب فلم يمتنع عن ذلك ووجدت أنه لم يكتشف من أمري شيئاً ولما جلسنا نتعاطى المــدام حددت فيه نظري فوجدته على معتاد حاله من الصداقة والمودة وكان على مقربة منا الصندوق الذي يتضمن الساعة الديناميتية تحت ستار من الكشمير ثم أخــذنا في معاقرة الهوسكي وهو لا يدري انني قد وضعت مخدراً في الزجاجة التي أمامه فلم يكن سوى قليل من الزمن حتى شعر بدوار فوضع يده على رأسه منذهلاً وقال « لا أدري ماذا أصابني فاني أشعر بصداع ودوار في الدماغ » ولم يتم كلامه حتى سقط من على كرسيه الى الوراء ولما أخذ منه المخدر كل مأخذه أخرجت الأوراق التي في جيبه فوجدت كتباً متعددة ومحفظة مدونة فيها أسماء النازحين الروسيين في لندرا وداخل غلاف المحفظة كتاب من رجل عليه عنوان موضعه وفي ذيله امضاؤه فاذا هو من باتروفسكي أحد أعضاء جمعيتنا في باريز فعلمت من مطالعة الكتاب انه هو الرجل الذي أفشى سرنا بخصوص صنع الساعة الديناميتية وانه ينقد راتباً سنوياً من حكومة روسيا وليس سوى أحد جواسيسها منتظماً في سلك أعضائنا فنسخت الرقيم المشار اليــه على ورقة خاصة و بعد أن نقلت سائر ما يهمني نقله أعدت كل شيء الى موضعه وأخذت أرشق وجه ضيفي بالمــاء البارد وأنشقه بعض المنبهات حتى عاد الى رشده وهو يقول ان ما جرى له انما كان من مفاعيل الهوسكي وحرارة الغرفة ففتحت النوافذ الى أن استفاق جيداً وكان أول أمر فعله ان وضع يده في جيبه حيث كانت أوراقه ولما رأى انه لم يفقد منها شيء اطمأن و بعد أن جلس برهة ودعني وركب عجلته وانصرف ثم ذهبت في مساء ذلك اليوم الى نادي الثورة وقدمت تقريراً بشأن خيانة باتروفسكي فصدر عليه الحكم بالاعدام

وفي هذه الاثناء وردت أنباء الرفاق من بطرسبرج تفيد أن سائر معدات المكيدة أصبحت على تمام الاهبــة وان أحد الأعضاء قادم من بطرسبرج الى

بروكسل عاصمة البلجيك لاستلام آلة الهلاك من اللجنة العاملة في لندرا ولقد قام في وجهنا شيء كثير من الصعوبات لأن الجواسيس والبوليس السري كانت على الدوام مرابطة في الثغور البحرية وواقفة بالمرصاد لنا في سائر محطات السكك الحديدية في أنحاء البلدان المختلفة يتفرسون بكل قادم ويرقبون كل غريب وفضلاً عن كل ذلك فان نقل الآلة نفسها محفوف بكثير من المخاطر لسهولة تفرقعها ولانه لا بد في سائر الجمارك من فحص ما يمر فيها وتفتيشه وعائدة كل ذلك علينا وبال ولكن رصفاء نافي بطرسبرج عرفوا مقياس الصندوق الذي يتضمن الآلة واتخذوا تحوطات شديدة لوضعه ضمن صندوق آخر وتهريبه في الجمارك التي يمر بها وخصوصاً ما كان منها في ألمانيا وروسيا وبعد مناقشات وبحث مستطيل أناطت اللجنة بي تسليم الصندوق لمن يحضر من روسيا لاستلامه

ولما كان سفري بالطرق العادية سواء في السكة الحديدية او البواخر محفوفاً بالمصاعب والمخاطر لكثرة العيون والارصاد صممت على اتخاذ طرق غير مطروقة فتوجهت الى قرية صغيرة على الشواطىء الإنكليزية لا تدنو منها بواخر النقل العادية ونزلت في نزل حقير شاعراً اني هنالك في أمن من كل خطر مفاجىء وبينما كنت ذات يوم جالساً في قاعة النزل واذا بأحد البحارة قد دخل وجلس بجانبي يعاقر الخمرة ويغازل خادمة النزل فعرفت منه انه صاحب مركب في تلك الناحية فسألته هل يتاح لي تهريب بعض أشياء دون دخولها في الكمارك فقال لي انه على أتم الصداقة والولاء مع سائر خفرا السواحل وان ذلك لمن أسهل الامور عليه فطلبت منه أن يفيدني اذا كان يمكنه ايصالي في صباح الغد الى الشواطىء البلجيكية وكم يطلب أجرة على عمله فقال ان ايصالي لمن الأمور السهلة والاجرة عشرون جنيهاً فحاولت انقاص القيمة ولكنه أفادني انه يوجد معه ثلاثة من الرفاق وان مهمتهم لا تخلو من خطر عليهم فاتفقنا أخيراً على ذلك وأفدته أن معي صندوقاً يتضمن حُلياً وجواهر ثمينة أود تهريبها فتبسم وقال « أليست حُلى مسروقة ؟ ولكن مالي ولهذا فانت تدفع لي أجرتي ولا يهمني غير ذلك » فطلبت منه أن يكون على أهبة السفر في المساء

وعند حلول الموعد المضروب أخرجت الصندوق الذي كان موضوعاً مع أثوابي دون أن يشعر بي أحد ووافيت رجالي الى المركب فوجدتهم نفراً من القوم تلوح عليهم لوائح الشراسة وغلظ الأخلاق ثم نشروا القلع وجرى بنا المركب نحو الشواطيء البلجيكية فهاج علينا البحر أثناء السفر ولبثت أمواجه المتلاطمة تزبد وتهيج حتى منتصف الليل وكان الرجال مشتغلين بتسيير المركب وسط الزوابع والعواصف والامواج المتعالية أما أنا فكنت وبجانبي صندوقي في غرفة صغيرة قذرة لا شيء فيها سوى ضوء ضئيل من مصباح زيتي كنت أطالع على نوره عدداً من جريدة والظاهر أن حركة المركب جعلتني أميل للنعاس فأغمضت جفنيَّ ولا أدري كم بقيت كذلك من الزمن ولكن عند ما استفقت من النوم سمعت حولي همساً ووجدت ان المصباح الذي كان بجانبي قد انطفأ وليس حولي سوى ظلام دامس وليل مدلهم

ولما أصغيت قليلاً سمعت النوتية يتكلمون وعلمت أن الغرض من كل ذلك اقتسام الجواهر والحلى التي كانت في الصندوق الذي بجانبي وسمعت أحدهم يقول للآخر «هو ذا الرجل نائم فلنأخذ الصندوق واذا تحرك رمينا به الى جوف البحر كما فعلنا بذلك الرجل من قبله» فعلمت إذ ذاك اني بين زمرة لصوص من النوتية ولبثت ساكتاً لا أحرك عضواً من جسدي الى أن شعرت بيد انسلت الى ما تحت رجلي وجذبت الصندوق الى الخارج فرأيت إذ ذاك أنه لا بد من الاستيقاظ والا ذهبنا جميعاً شذرات في الهواء فوقفت وقلت لهم

« ماذا تريدون من هذا الصندوق ؟ »

فأجابني الرئيس « مكانك فان غرضنا الوصول الى الالماس والزبرجد والذهب التي فيه فاذا تحركت رميناك غذاء للأسماك »

فأشهرت مسدسي وقلت لهم « أقسم بالله العلي العظيم أن من يأخذ هذا الصندوق يقع موضعه ميتاً » فشعرت إذ ذاك أن يداً لمستني ثم أشعل أحدهم نوراً فوجدت أن النوتية الأربعة هم في نفس الغرفة التي أنا فيها ولما شاهد الربان مسدسي لاحت عليهم كلهم لوائح الحيرة والذهول وقال لي

« ان عشرين جنيهاً لا تكفي فيجب أن نأخذ نصيبنا من هذا الصندوق »

ثم انحنى أحدهم وهمّ بحمله فقلت له أعده الى مكانه والاّ أطلقت عليك المسدس فلم ينتبه الى كلامي فصوبت اليه إذ ذاك المسدس وأطلقته عليه فمرت الرصاصة بجانب أذنه ووقعت على مرآة في الجدار فكسرتها فوضع الصندوق على الأرض واستل سكينه وهم بضربي فمسكه رفيقه وقال له « مهلاً ولا تعجل في قتله بل نمهله لحظة أخرى حتى اذا سلم الحلى عفونا عنه وأنزلناه على شواطيء بلجيكا » فنظرت إذ ذاك الى الرجل وقلت له « لا بد لي الآن من افادتكم حقيقة الأمر فليس في هذا الصندوق شيء من الحلى على الاطلاق بل ان المادة التي فيه هي ديناميت اذا انفجر ذركم رماداً في نواحي الفضاء »

ولما سمعوا كلمة الديناميت علت وجوههم صفرة الوجل وقالوا بصوت واحد « أهذا ديناميت ؟ »

فأجبتهم بصوت جهوري والغضب قد تبدّى في عينيّ « بلى بلى واسمعوا ما أقول لكم فلست بسارق كما تتوهمون ولست بلص أو سالب ولكن لي مهمة يترتب عليّ قضاءها ووصولي الى ساحل بلجيكا قبل شروق الشمس فان تأخرتم عن ذلك ذهب تعبكم سدى ولم تبق فائدة من ذهابي الى الموضع المشار اليه واني رجلٌ سئمت الحياة ومللت البقاء فوالله اذا رأيت مطالاً أو لؤماً ونفاقاً وخداعاً كما بدا الآن منكم لاديرنّ زنبرك هذه الساعة وانسفكم أعضاء منثورة في فضاء البحر مأكلا للاسماك وطيور الهواء » وكانت لوائح الشراسة على وجهي وشرر الغضب يقدح من عينيّ ثم دنوت من الصندوق فأخرجته وأريتهم ما فيه فأسقط في يدهم وظهرت عليه لوائح الكآبة والخضوع فعادوا الى موضعهم دون أن ينبسوا بكلمة

ولما علم النوتية بوجود الديناميت أخذوا يعجلون بالمسير تخلصاً من هذه الحالة الخطرة التي أصبحوا ومركبهم عليها ولم يبزغ الصباح الا وقد وجدت نفسي على الساحل بجانب بلاكنبرج فأنزلوني في قارب الى البر ومن هناك حيث توجهت الى البلدة المشار اليها حيث وجدت عجلة سائرة نحو عاصمة البلجيك فنزلت فيها حتى بلغت بروكسل فنزلت منها في نزل أوربا

وبينما كنت جالساً الظهر على مائدة الطعام واذا بسيدة طويلة القد مليحة القوام رشيقة الحركة جميلة الملابس تبلغ نحوا من ثلاثين سنة من العمر دخلت وجلست بأزائي وحدّقت بعينيها السوداوين البراقتين فيّ هنيهة كمن يتفرس في الآخر تفرساً شديداً يشف عن سؤال ولم يكن سوى لحظة من الزمن حتى ذهلت كل الذهول عند ما أبدت السيدة المشار اليها الاشارة النيهيلستية فرددت الاشارة اليها وأومأت اليها أن تكون مطمئنة ثم أخذنا نتحادث حديثاً عادياً ولما وقفنا للانصراف من قاعة الطعام دنت مني السيدة وقالت لي باللغة الروسية ان غرفتي عددها ٥٢ فاحضر اليّ بعد نصف ساعة

فحضرت اليها في الموعد المشار اليه دون ان يشعر بي أحد ولما دخلت غرفتها أخرجت من طيات ثوبها مقابل الصدر أوراقاً رسمية مختومة بخاتم رئيس اللجنة في بطرسبرج ينبيء بتعيينها رسولاً لاستلام الصندوق فلم أبطيء ان ذهبت الى غرفتي وأحضرته على عجل دون أن يراني بشر ففتحت صندوق ثيابها ووضعته في ناحية خاصّة صُنعت لهذا الغرض ثم جلسنا نتجاذب أطراف الحديث فأخبرتني ان اللجنة في بطرسبرج قررت استخدام الآلة لتنفجر في قصر الشتاء في الليلة التي عُينت لاجتماع الأمرآء والأعيان فيه وقد أخبرتني أنها حضرت من بركسل منذ نحو خمسة أيام وانه لا بُد من رجوعها صباح الغد التالي لكي تصل الى بطرسبرج قبل الأجل المضروب لاتمام المكيدة فقلت لها ان اللجنة العاملة في بطرسبرج تهديها تحيتها وتتمنى لها النجاح في أعمالها فشكرتني وقالت « وقفت نفسي على خدمة وطني » ثم ودعتها وانصرفت من حضرتها

وفي صباح اليوم التالي سألت عن السيدة فقيل لي أنها سافرت ولما سألتهم عن موضع توجهها أجابوا انها قالت أنها ذاهبة الى انكلترا وبعد أن تناولت فطور الصباح عدت الى غرفتي واذا برجل قد دخل عليّ فلما تأملت فيه دهشت شديد الاندهاش لأن الرجل المذكور لم يكن الاّ المسيو غويبو فحياني تحية الوداد وقال لي « ظننتك نائماً حتى الآن فرمت زيارتك باكراً ولكن ما أتى بك الى هنا وما أخال الأمر الاّ دخيلة عشق وغرام » فقلت له « انما حضرت الى هنا

لأشاهد اثنين من رفاقي في الدروس لأني كنت في زمرة طلبة العلم هنا » فأجاب « حسناً وأظنك أخبرتني عن ذلك قبلاً ولكن هيا بنا بعد قليل نتزل الى غرفة الطعام ونصرف النهار سويّة فأجبته الى ذلك ونزلت قبله ولما عدت الى غرفتي وجدت صندوق ثيابي مفتوحاً وأشيائي مبعثرة على الأرض فعلمت أن ذلك فعل صديقي الجاسوس ولكنه لم يكتشف شيئاً مطلقاً

وبعد بضعة أيام بينما كنت أجول في المدينة واذا بحملة الجرائد ينادون « ملحق خاص للجريدة — مكيدة — محاولة قتل القيصر » فاشتريت عدداً واذا فيه تفصيل ذلك الانفجار الهائل فان القاعة الكبيرة للقصر مع ما يجاورها من البناء تداعت للسقوط والخراب وان عدداً غفيراً من القوم جرح ولكنه لم يقض على أحدٍ وعليه تكالت جميع أعمالنا بالنجاح لأن الغرض من هذه المكيدة انما كان ارهاب الحكومة لكي تعلم أنها مع شدة حرصها وجواسيسها وبوليسها لا تأمن مغبة أعمالها وأن يد النقمة تبلغ اليها ولو وضعت من جيوشها وسيوفها حولها حصناً منيعاً

وفي اليوم الذي بلغت فيه لندرا طالعت عدداً من جرائد المساء واذا فيه تفصيل مقتل غريب تحت عنوان « لغز من ألغاز القتل في باريس » وفيه بيان اكتشاف جثة رجل في نهر السين لم يعلم أولاً من هو ولكن عرف أخيراً أنه باتروفسكي وهو الرجل الذي أفشى أمر الساعة الديناميتية الى جواسيس الحكومة الروسية وسفارتها

الفصل السابع

« أوله سقم وآخره قتل »

وقفت ذات ليلة ساعات طويلة على باب الاوبرا وأنا أعرض على المارة والداخلين أعداد الجرائد الكثيرة التي كانت تحت أبطي للمبيع فبعد أن بُحّ صوتي

من كثرة الصراخ لم أبع أكثر من خمسة أعداد وكان حملة الجرائد ينظرون اليّ شزرًا لمزاحمة رجل جديد لهم في مهنتهم وهم لم يعلموا أني توسلتُ بهذا التنكر لتجسس أمر ذي شأن وبيان الأمر أن قادمًا جديدًا من بطرسبرج يسمى فورونوف حضر الى لندرا مدعيًا أنه تاجر من موسكو ولكن البلاغات الرسمية التي وردتنا بشأنه من ادارة أعمالنا في بطرسبرج جعلتنا في ريبة من أمره وان له علاقة بجواسيس الروس في عاصمة الانكليز فانه بعد انفجار الساعة التي مر بيانها ونسف قصر الشتاء الامبراطوري وجد القيصر ان غو يبو رئيس الجواسيس الفرنساوي مقصر في آداء واجباته فأمر بعزله ولذلك ظننا أن هذا الضيف الجديد قد عين مكانه رئيسًا لجواسيس الروس في لندرا وقد تبين لي من مراقبته والتنقيب الذي أجريته بهذا الصدد ان الرجل حضر لمهمة سرّية سياسية

ولقد أخذت في تقصي أمره ورقبه مذ اليوم الذي بلغنا فيه خبر حضوره من بطرسبرج فتنكرت بزي بائع جرائد وأخذت أتبع خطواته حتى أصبحت أتبع له من ظله وعليه فقد حضرت هذه الليلة أيضًا لمتابعة أعمالي وأنا معرض للبرد تتساقط عليّ الامطار فتبل ثيابي وبينما كنت واقفًا على انفراد على مثل هذه الحالة الكئيبة واذا بسيدة قد خرجت من الاوبرا عليها وشاح كبير وهي ذات قامة هيفاء تزري بالغصن الرطيب ومقلتين سوداوين يشق لسهامها القلوب قبل الصدور وشعرها جعدي كثيف وما بلغت باب مدخل الاوبرا حتى أسرع اليها جمع من الخدم يسألونها اذا كانت تحب أن يحضروا لها عجلة فالتفتت تحدق بهم دون أن تجيب شيئًا وبعد أن لبثت برهة تنظر الى ما حولها تفرست بي أنا لحظة من الزمن ثم سارت اليّ فلما صارت على مقربة مني أخذت أصرخ معددًا أسماء الجرائد التي بيدي فالتفتت اليّ وقالت بالروسية « اعطني أية جريدة شئت يا غورتشا كوف سرجيوس فلاديمير » فعلت وجهي صفرة الوجل وارتجفت أعضائي من شدة الجزع حتى اصطكت ركبتاي فلما رأت مني ذلك تبسمت ودنت اليّ ثم همست في أذني اللفظة النهلستية المتعارفة بيننا في سائر أقطار الأرض فزدت اندهاشًا على اندهاش وكدت أسقط الى الأرض من شدة الانذهال

والذهول فنظرت اليَّ بعبوسة وقالت اعطني جريدة فأعطيتها عدداً فأخرجت من جيبها بنساً ثمن العدد ووضعته في يدي مع ورقة صغيرة ملفوفة وقالت « هذه من اللجنة العاملة » ثم ركبت عجلة كانت واقفة بجانبها وسارت لا تلوي على شيء فمشيت الى نقطة لا رقيب فيهـا ووقفت تحت نور أحد مصابيح الشارع ففتحت الورقة واذا بها ما يأتي

« ان الشخص الذي يسلمك هذه التذكرة انمـا هو صوفيا زاغارفنا فتكرم بزيارتها الساعة العاشرة صباح غد في منزلها عدد ٣٤ رتشمند وقدّم لهـا سائر ما تطلبه من الاسعاف اللازم « بول بتررووف »

ولم آت على تتمة هذه الأسطر الوجيزة حتى تهلل وجهي بشراً وسروراً لأن اسم صوفيازاغارفنا طار في سائر الآفاق حتى أصبح أشهر من نار على علم فانها سيدة اشتهرت بجرأة اقدامها وتوقد ذهنها وحدة خاطرها وثبات جنانها وهي التي أتت من الأعمال الغريبة ما تندهش له العقول وتحار الأفكار ويكفي أن أوردلك من ذلك مثلاً واحداً وهو أن الجنرال ياغودكن رئيس بوليس موسكو ضايق كثيرين من سكان تلك المدينة بعد محاولة نسف القصر الشتوي بالساعة الديناميتية على ما مرَّ بيانه ونكل بالأبرياء تنكيلاً شديداً حتى أثار حنق السيدة المشار اليها وكانت إذ ذاك قاطنة في زوريخ حيث كانت سيدة وأميرة بين طلاب العلم والأدب فلماحضر الجنرال المشار اليه الى زوريخ اغوته وسلبت لبه حتى اذا ماخلت به أطلقت عليه مسدسها وأماتته قتلا ولم تكتف بذلك بل حملت سائر المهاجرين الروسيين من طلبة العلم هناك وغيرهم من طلبة العلم الالمانيين على الذهاب الى روسيا والقيام باجرآت مدهشة لايزال يرن صداها في سائر الأقطار الأوربية وذلك بناءً على ما كانت عليه من الجمال الرائع والصيت الذائع والسطوة على عقول ذوي الأدب ولكن كانت في كل ذلك بالغة أقصى الأدب والصون والعفاف حتى ان اسمها وشرفها لم يمسهما سوء ولكن الغيرة التي كانت تشتعل في قلبها للقيام بخدمة الجمعية التي خصصت نفسها لها لم تبق موضعاً لسواها من العواطف كالعشق والغرام ولم يعرف شيء أكيد عن تاريخ هذه السيدة سوى أنها أقسمت للطغمة يمين

الاخلاص في بطرسبرج ثم حضرت بعد ذلك الى سويسرا حيث أظهرت من العزم والاقدام ما حير الرجال

فبعد أن رقبت الرجل الذي حضرت لأجله الى باب الاوبرا وتبعته الى النزل الذي كان فيه توجهت في اليوم التالي في الوقت المعين الى منزل السيدة صوفيا في رتشمند فوجدته منزلاً أنيقاً فسيح الارجاء يطل على نهر التامس وما يجاوره من المناظر البديعة والجنائن الجميلة وما لبثت في المنزل سوى بضع دقائق حتى دخلت الى صوفيا زاغاروفنا وسلمت عليَّ بوجه ملؤه البشاشة والبشر ولما سألتها أية خدمة أتمكن من القيام بها لها كان جوابها ما يأتي

« اني قدمت انكلترا لغرض سري يختص بجمعيتنا ولقد أثنت عليك اللجنة العاملة في لندرا ثناءً جميلاً وقالت انك قادر أن تكون لي عَضُدًا قويًّا في الغرض الذي أتيت لأجله الى هنا ولا قدرة لي أن أبوح لك به الآن لا لأني لا أئتمنك بل لأن للجدران آذاناً فهل أنت راغب في مساعدتي ؟ »

« اذا كان في سبيل الجمعية فاني أكون لك عوناً على ذلك »

« اذاً اصغ الى ما أقول لك — غداً يتغير اسمي فأصير صوفيا نبتسكوف ابنة الجنرال نبتسكوف الذي توفي حديثاً بعد أن كان حاكماً على سمولنسك وأنت ستكون أخي ايفان وغداً يجب علينا نحن كلينا أن نرحل عن المنازل التي نحن فيها الآن وننزل في نزل عظيم في حي الأشراف من المدينة حيث يجب أن يعرفنا كل من يتعرف بنا اننا أخ وأخت »

فأجبتها بالايجاب وعليَّ علامات الذهول فلحظت ذلك وقالت « ان كلامي هذا يحيرك ولكن سوف ترى — أيعرفك أحد من السفارة الروسية هنا ؟ » فقلت « لا » فأجابت وهي تبتسم « دعني أدبر الامر على ما أروم وسترى أننا سنكلل بالنجاح »

ثم دعتني لمناولة الفطور معها فلبثت هناك نحو ساعتين ونحن نتجاذب أطراف الحديث ونتناقش في أمور متعددة بخصوص جمعيتنا وما لنا من الحول والطول وما يتطرق أحياناً الينا من الخلل والفساد وأسباب الضعف والاذى الى غير ذلك

من المباحث الاجتماعية النهلستية ثم استأذنتها بعد ذلك وانصرفت

ولم يمر شهران من الزمن حتى دعيت وشقيقتي الجديدة الى ليلة راقصة في السفارة الروسية فان صوفيا تمكنت من الحصول على رقاع الدعوة لي ولها بطريقة سرّية لم تتبد لي حقيقة أمرها ولما وصلنا الى قاعة السفارة الفسيحة كانت قد حلت الساعة العاشرة مساء فوجدنا السفارة غاصّة بالمدعوين من الأمراء والكبراء والسيدات يتهادين بين الزهور والأنوار ظبيات أوانس يكسف جمالهن الشمس وتزري طلعتهن بالبدور ولكن شقيقتي صوفيا كانت أرشقهن قدًّا وأفتنهن جمالاً

و بعد هنيهة دار الرقص على أنغام الموسيقى الشجية فكان الراقصون كواكب ودراري تدور أزواجاً يتدفق البشر من أوجههم ثم حانت مني التفاتة فوجدت صوفيا متخاصرة مع شاب متوسط القامة براق المقلتين وهي تنظر اليّ باسمة والجمال يتألق في وجهها تألق النور

ولقد كنت انا نفسي بين جملة الراقصين فلبثنا على ذلك ردحاً طويلاً من الزمن حتي أعياني التعب فسددت خطواتي الى غرفة الاستراحة حيث مدت موائد الطعام والحلوى أشكالاً وألواناً فجلست على مقعد وأنا أقول في نفسي ما عسى تكون المهمة التي حضرت لأجلها صوفيا وهي تكتمها أشد الكتمان و بعد هنيهة دخلت صوفيا أيضاً وجلست الى جانبي فسألتها أمسرورة هي في لندرا فأجابتني أنها على أتم الجذل والحبور ثم أفادتني أنها مشتغلة في هذه الليلة بتشخيص رواية غريبة الفصول ثم سمعت صوتاً يكلمها من ورائي فنهضت كالظبية تكلمه فبقيت متربصاً في موضعي أسمع حديثهما فاذا صوفيا تقول لمحدثها

« ألا تخاف اذًا هؤلاء النهلست القتلة ؟ »

فأجابها باسماً « أأخشى بأس مثل هؤلاء وسيبيريا رحيبة تسع ألوفاً من أمثالهم فانه لا يمرّ علينا قليل من الزمن حتى نرغم أنوفهم ونطفيء جذوة ثورتهم ونسحق ذراع قوتهم ولقد بعثت حتى الآن مئات من هؤلاء الى سيبيريا يجرون قيود الذل ويحملون في أعناقهم سلاسل الخذلان وهذا هو السبب الذي لأجله

يودون الفتك بي »

« ولكن ألا تخشى انتقامهم ؟ »

« لا فان هؤلاء الانذال لا يجسرون على الحاق الأذى بي»

« أتجهل أو تتجاهل أن لرسلهم وعمالهم من الجرأة والاقدام ما ليس لغيرهم واني لأخشى أنهم يفتكون بك »

« ان يدهم لأقصر من ذلك ولكن مالنا ولموضوع النهلست هذه الليلة فان كؤوس المسرة طافحة بين أيدينا والسعادة ترفرف فوقنا بأجنحتها وحبيبتي أجمل الظبيات واقفة بجانبي »

« أشكرك على اطرائك اياي شكراً جزيلاً ولكن موضوع النهلست من المواضيع التي أتلهف الى استماعها . ألم تكتشف شيئاً من مكايدهم ودسائسهم ؟ »

« بلى فاني قد اكتشفت شيئاً كثيرًا من ذلك وقد أصدرت قبل حضوري الى هنا الأوامر اللازمة لرقب كل خطوة من خطواتهم ولما كان لا بد من المحافظة على حياة القيصر فاني عائد الى هناك بعد نحو اسبوعين حيث أرسل هؤلاء الأقوام زرافات ووحداناً الى أقاصي سيبريا ولكن مثلك يا حبيبتي لا يوافقها الخوض في مثل هذه المواضيع التي تقشعر لها جسوم الرجال فتكلمي عن الحب والجمال والزهور والنور وكل ما هو جميل لأنك أبدع مظاهر الجمال»

ثم أخذ يبوح لها بشدة وجده وغرامه وانه قد وقف قلبه على حبها ويرجو منها أن تعطف عليه وترق له الى أن باحت له أخيرًا بهيامها به فأخذ يدها وقبلها ثم استندت على ذراعه وخرجا من الغرفة فتبعتها وتأملت في الرجل فاذا هو شاب يناهز الخامسة والثلاثين من العمر وقد تجلت على وجهه لوائح البشر والمسرة ولما سألت عنه بعض الحضور قيل لي انه الجنرال منشنكوف قدم حديثاً من روسيا ترويحاً للنفس وكان ما سمعت من حديثه مع صوفيا بياناً كافياً أنه من جملة عمال الحكومة ولكن لم يخطر وقتئذ في بالي قط أن الرجل انما هو رئيس بوليس موسكو وانه أمّ لندرا للوقوف على حقائق تهمة في مكيدة كان قد كشف أمرها قبل سفره من هناك

ولم ننصرف من القاعة الا نحو اقبال الصباح ولما كنت جالساً في العجلة بجانب صوفيا قلت لها ان الرجل الذي كانت تكالمه حسن الخلق والاخلاق وانما قصدت بذلك استجلاء الامر لعلها تأتي على شيء من البيان فاكتفت بقولها انه من ألطف الشبان ثم دخلت في موضوع آخر تخلصاً من متابعة الحديث الأول

ثم بعد بضعة أيام حضر الى زيارتنا متشنكوف فعرفتني به صوفيا قائلة له اني أخوها ومذ ذلك اليوم تمكنت بيننا عرى المودة والولاء فكنا نذهب سوية الى مواضع النزهة وقاعات الغناء وقد تبدّى لي أثناء هذه البرهة أن صوفيا زادت به هياماً ووجداً وأن حبه لهـا كاد يبلغ درجة العبادة فكان على الدوام يبعث لها من هدايا طاقات الزهور والحلى الثمينة والجواهر النادرة المثال شيئاً كثيراً وأنا أسائل نفسي بعد كل هذا ما عسى أن تكون المهمة السرية التي قدمت لأجلها صوفيا زاغارفنا الى عاصمة الانكليز

وبينما كنت عائداً ذات يوم الى المنزل دخلت قاعة الجلوس على حين فجاءة فوجدت صوفيا تتأمل ملياً في شيء تحمله بيدها فمشيت نحوها خلسة وتطلعت وراء ظهرها فوجدتها تنظر الى قطعة من الحلى على شكل دبوس لشعر الرأس بهيئة خنجر صغير نصله من الفولاذ الصرف ومقبضه من الذهب الخالص مرصع بالالماس والحجارة الثمينة فأحببت ملاعبتها فدنوت منها على عجل واختطفت الحلية من يدها فارتعدت ثم نظرت اليّ قائلة « أهذا أنت يا غورتشاكوف ؟ لقد أخفتني » فنظرت الى الدبوس وقلت « ما أجمله فمن أين لك هذا ؟ » قالت « هو يخصني » فأخذته وهجمت به عليها مصوباً رأسه نحوها وذلك على سبيل المزاح فاضطرب جسدها وتراجعت الى الوراء وهي مرتعدة الفرائص ثم هممت بعد ذلك بتجربته على طرف الأنامل فلما رأت ذلك ارتاعت وقالت بلهفة

« ماذا تفعل يا غورتشاكوف ؟ فانك اذا خدشت أصبعك قتلت نفسك » ثم دنت مني وانتشلت الآلة من بين أصابعي ثم أفادتني أن رأس النصل مسمم ولما دنوت به الى جانب النور وجدت أن رأسه حتى نصف النصل قاتم اللون فأخبرتني صوفيا أن خدشاً منه كاف لاماتة رجل

« لماذا تحملين مثل هذه الآلة التي هي سم زعاف ؟ »

فأجابت « ألم تعلم حتى الآن ما الغرض منها ؟ » ثم أخرجت من جيبها كتاباً باللغة الروسية وجلست بعد ذلك على كرسي وقد غطت عينيها بيديها ولجّت في البكاء فتأملت في الكتاب فاذا به من رئيس لجنة موسكو يفيد فيه عن وصول التقارير الكافية بخصوص الجنرال متشنكوف وان ذنبه قد ظهر لدى الجمعية ظهور الشمس ثم في ذيله صورة حكم اللجنة عليه بالاعدام وااناطة تنفيذ هذا الحكم بصوفيا زاغاروفنا فنظرت اليها وقلت

« أتحبينه يا صوفيا ؟ »

— « اني قدمت أولاً الى هنا لأقف على حركات الرجل وما ينوي فعله بعد عودته الى روسيا فخنت الرجل وكتبت بخصوصه التقارير الوافية الى لجنة موسكو وأنت ترى انها حكمت عليه بالاعدام ولقد دب حبه الى قلبي دبيب الخمرة في الجسوم ثم حاولت كثيرًا طرد هذه العواطف دون أدنى جدوى فيجب عليَّ أن أنقذه الآن من الشرك الذي أوقعته فيه بنفسي ولكن أنى يتأتى لي ذلك لأني اذا حذرته خنت اللجنة التي ولجتني الامر وأوقعتها في مخالب العطب وجلبت على نفسي حنقها وانتقامها »

ثم وقفت تمشي في الغرفة جيئة وذهاباً وأنا أنظر اليها دون أن أفوه بكلمة أو أبدي رأياً و بينما نحن كذلك واذا بالخادم قد دخل و بيده رقعة الزيارة فتأملت فيها صوفيا وقالت

« هو الجنرال متشنكوف دعه يدخل » ثم وضعت الآلة في غمدها الحريري وأعادت الكتاب وحكم الاعدام الى صدرها واذا بمتشنكوف قد دخل فتقدمت اليه صوفيا بوجه باسم وثغر وضاح تصافحه باليد التي قضى عليها أن تذيقه بها كأس الحمام ثم سلم عليَّ وجلسنا نتجاذب أطراف الحديث امام موقد النار فبعد أن تكلمنا قليلاً قال متشنكوف

« ان هذه آخر زياراتي لكم »

فقالت له صوفيا « أمسافر من هنا ؟ »

— «نعم ياعزيزتي اني مسافر غداً صباحاً فان عندي أشغالاً ضرورية لا بد من قضائها وقد أتيت اليك الآن قياماً بفروض الوداع»

— « انك معجل في سفرك ولكن متى تعود ؟ »

« لا أظنني عائداً الى هنا البتة وقد كان الغرض من حضوري الى لندرا الوقوف على أسرار امرأة اسمها الأول يشابه اسمكِ »

« ماغرضك منها ؟ »

« الغرض القاء القبض عليها وأن أطلب من الحكومة الانكليزية ارجاعها الى روسيا لأنها هي التي قتلت سلفي الجنرال ياغودكن وهي من أشد أعضاء النهلست جرأة واقداماً فقد كانت وحدها الباعث على شيء كثير من الدسائس والحبائل فاذا وُفقت الى العثور عليها فجزاؤها المشنقة »

فارتعدت صوفيا عند سماع هذا الكلام قائلة له « لا تتكلم بمثل ذلك يا متشنكوف ولكني أشعر الآن ببرد خفيف فلا بد لي أن أضع وشاحاً عليَّ » ثم نهضت وقد علت وجهها صفرة الوجل فلبثت ومتشنكوف نتجاذب أطراف الحديث ونشرب شيئاً من الهوسكي و بقينا كذلك ننتظر عودة صوفيا نحو ساعة من الزمن فلما حضرت ودعنا الجنرال متشنكوف وتمنينا له سفراً محفوفاً باليمن والاقبال

و بعد بضعة أسابيع صممت صوفيا على السفر الى موسكو وألحّت عليَّ بوجوب مرافقتها الى هناك حتى لا يكون في سفرها باعث على الشبهة امام اللجنة والظاهر أنها صممت على تحذير عشيقها من الخطر المحدق به مهما كلفها ذلك من المخاطر والمشاق فأخذنا جوازين باسمين منتحلين ووصلنا الى موسكو حيث نزلنا في أحد نزلها الكبيرة ثم أخذنا نسير الى محلات النزهة والملاهي لعلنا نلتقي بمتشنكوف منفرداً لأننا خشينا الذهاب لزيارته في ادارة البوليس خوفاً من العيون وارصاد اللجنة لأن الغرض الذي انتحلته في ذهابها انما هو اتمام المهمة التي أتت لأجلها الى لندرا فتمكنا بوسائل سرية لا يعرفها أحد سوانا من التعرف بعظام الرجال وأمراء المدينة فدعينا ذات يوم لمناولة العشاء في دار أحد الوجهاء فذهبنا بعد أن علمنا أن متشنكوف بين جمهور المدعوين

فلما التقينا به قبل الجلوس على المائدة انذهل جدًا وطفر فرحًا فسلم علينا ووجهه يتدفق بشرًا وسرورًا وجلس على المائدة الى جانبنا وكانت صوفيا في أوج الصفاء والجذل وجمالها الفتّان يسبي العقول وبينما كنت أرقب حركاتها وأتأمل في جمالها راعني منها أمرٌ واحد وهو أني رأيت في شعر رأسها ذلك الخنجر القتال يتألق فيه الماس تألق الشمس فأخبرت متشنكوف أن الغرض من قدومنا الى المدينة انما كان لانهاء أمور مالية تتعلق بتركة أبينا

ولما قام المدعوون عن الطعام وانصرفوا الى غرفة الجلوس شاهدتها عن بعد في حديث مع متشنكوف والحديث ذو شجون ثم ما لبثا أن دخلا غرفة خالية منفردة لا أحد فيها فتبعتهما لأني ظننت من حديثها وأشارتها انّ الوقت قد حان لها أن تحذره عقبى الامر والاغتيال الذي تتوقعه له فسمعته يقول لها وهو جالس على زاوية الطاولة ووجهه باسم

« يا عزيزتي ما هو هذا السر العظيم الذي تودين الاباحة لي به ؟ »

« اخفض صوتك لانه قد يسمع حديثنا أحدٌ وذلك يفضي بكلينا الى الهلكة »

« ما هو مرادكِ من كل هذا — ما هو هذا اللغز العجيب ؟ »

« أقول لك انه قد قُضي عليك بالإعدام »

« أقُضي عليّ بالإعدام — ومن يتجاسر على مثل ذلك ؟ »

« قضى بذلك عليك النهيليست الذين يتجاسرون على كل شيء وقد قرّ قرارهم أن تموت كما مات سلفك الجنرال ياغودكين »

فاصفرت سحنة متشنكوف من الجزع وارتجف صوته وهو يحدثها قائلا

« ولكن قولي لي كيف تعلمين شيئاً من ذلك ؟ »

« اخفض صوتك يامتشنكوف - اخفض صوتك فان للجدران في روسيا آذانًا تسمع واصغَ الى ما أقول لك — اني أحبك بل أنت هو الرجل الوحيد بين سائر الرجال الذين التقيت بهم الذي تمكن حبه من قلبي فقد كنت قبل ذلك محاطة بأشراف وأمراء يحسبون ابتسامي نعيماً لهم وحبي سعادة ولكن قبل أن التقيت بك لم أعرف ما هو الحب واني لست بناسية ولاءك واخلاصك لي حتى أنك

طلبت مني في لندرا أن أكون زوجة لك غير أنه لا يتاح لي أن أكون لك غير ما أنا عليه في الوقت الحاضر صديقة ودودة طول العمر » ثم استولت عليها الأحزان فخنق صوتها البكاء

فأخذ رأسها وضمه الى صدره قائلاً

« ولكن لماذا لاتقدرين أن تكوني زوجتي من يقف في طريقك ؟ »

فانتفضت ثم تملصت منه وعادت الى حديثها معه قائلة

« اصغَ اليَّ مرة أخرى يا متشنكوف فاني لم أتجشم مشاق السفر الى موسكو إلا لكي أحذرك من أعدائك وأنقذك من مخالب المنية التي أوشكت أن تنشب أظفارها في شبابك وسأعود هذه الليلة ولن ترى وجهي بعد هذا أبداً ولقد خاطرت في مجيئي اليك بحياتي لأن النهيليست يفترسونني كالوحوش الضارية اذا علموا أني أحذرك من الانتقام الذي يعدونه لك بتجريعك كأس الحمام من يد أحد أعضائهم »

« وما هي هذه اليد التي تجرعني الحمام ؟ »

« هي ذات اليد التي جرعت الجنرال ياغودكن ذلك الكأس وصرعته قتيلاً عند أقدامها أعني بها يد تلك المرأة التي هي ظبية في نوادي الحظ ولبوة في ساحات العراك يد صوفيا زاغاروفنا ! »

« ولكن كيف تأتى لك الوقوف على ذلك ؟ »

« أضرع اليك مرة ثالثة أن تخفض صوتك ولا تتكلم إلا همساً لأنه اذا عرف النهيليست أمري مزقوني وقطعوني إرباً واذا علم البوليس السري أن أقدامي وطئت الأرض الروسية ألقوا القبض عليَّ في مثل غمض الجفن »

— « من أنتِ اذاً ؟ »

— « أتسألني بعد كل هذا من أنا يا متشنكوف ؟ — ألا تعرفني ؟ »

فقلت في نفسي لا بد لي من ايقاف اللجنة العاملة في موسكو على حقيقة الأمر والا كنت خائناً الجمعية التي أقسمت الايمان المغلظة أن أخلص لها الخدمة والولاء ولكن لم يكد يجول هذا الخاطر في خاطري حتى سمعت ورائي وقع أقدام

فالتفت واذا بزمرة من رجال البوليس قد مروا بجانبي وهم بأثوابهم الرسمية وواحدٌ منهم يقول « هو ذا هي ! فاني عرفتها ! »

فقطب متشنكوف حاجبيه وعبس بوجه القوم قائلاً « ما هذا التطاول ؟ »

فوقف الرجال ذهولاً عند الباب وأدوا لرئيسهم التحية العسكرية ثم تقدم رجلٌ من بينهم لابس ملابساً عادية فمسك بذراع صوفيا قائلاً

« ياصوفيا زاغاروفنا اني ألقي القبض عليكِ بأمر جلالة مولاي القيصر لارتكابك جريمة القتل ! »

فصاح متشنكوف بهم قائلاً « أتقولون إنها صوفيا زاغاروفنا لقد ساء والله فالكم »

أما صوفيا فوقفت صامتة وقد علا وجهها اصفرار الوجل والتفتت الى الرجل الذي ألقى القبض عليها قائلة

« أهذا أنت ياتسلنسكي ؟ — أهذا أنت نفسك يا تسلنسكي ؟ — أأنت هو الرجل الذي أنقذته من مخالب المنية كما أنقذت الآن متشنكوف؟ — أهذا جزآء احساني اليك وشفقتي عليك؟ — أتقبض عليَّ لأني أنقذتك من الاعدام؟ — اني أحب متشنكوف ولكن حبي له انقلب عليَّ علقماً »

فوقف متشنكوف مبهوتاً كمن انقضت على رأسه الصواعق ثم التفت اليها وقال

— « لقد أحببتكِ ولم أدرِ اني أحببت قاتلة وسفاكة دماء »

— « أتحتقرني لاني فديتك بنفسي وأبقيت عليك وأنت في قبضة يدي؟ » ثم التفتت الى تسلنسكي وقالت له « وأنت يا تسلنسكي البوليس السري في بطرسبرج أتنسى احساني ونعمتي التي أنعمت بها عليك وأنقذتك من الردى؟ أتلقي القبض عليَّ لاني خلصت العالم من جور رجل دأبه الايقاع بأناس ابرياء ونفيهم الى مناجم كارا في أقاصي سيبيريا الرهيبة و . . . »

ولكن تسلنسكي لم يبق لها مجالاً للكلام فقال لها « الصمت أفضل لك من الكلام » ثم أمر البوليس بالقبض عليها وسوقها الى الادارة ولكن قبل أن تمسها يدهم بسوء أغمى عليها ثم وقعت على الأرض فدنا منها بعضهم لينهضوها ولكن لم

يكن إلا كمثل غمض الجفن حتى رأوا اصفرار الموت على وجهها والدم ينزف من رأسها فوضع أحدهم يده على قلبها ثم قال « لقد قُضي عليها » فادركت حينئذٍ أن الخنجر الذي زينت به شعرها وأعدته لمقتل رئيس البوليس متشنكوف قد غرز في رأسها عند السقوط وأوردها حتفها ولكن ذلك كان أفضل لها من العذاب الذي كانت تتوقعه لو بقيت حية فلبثت لحظة أتأمل في تلك الملامح التي قد غيرتها يد الموت الرهيبة ثم انثنيت مسرعاً من موضعي وما انتصف الليل حتى كنت في طريقي آيباً الى لندرا من حيث أتيت

الفصل الثامن

« عاجزٌ أعمى ترقى فانقلب »

وقع لي بعد رجوعي أني كنت ذات يوم ماراً في أسواق لندرا عائداً من زيارة صديقين من أصدقائنا الفارين من روسيا فاصطدمت في طريقي على حين فجاءة برجل اعترضني في سيري فتأملته فاذا هو رجل ضرير رث اللباس محدودب الظهر هزيل الجسد فسقط على الأرض من شدة الاصطدام ثم وقف يتلمس الطريق بعصاه وهو يعتذر الي بألفاظ انكليزية كلها لحن إلا أنَّ فيها تلك اللكنة التي يتميز بها الروسي عن سواه في بلاد الغربة فنظرت الى الرجل وقلت له بالروسية

— « من أيّ بلاد أنت يا رجل ؟ »

فظهرت على وجه الرجل علامات الحبور وملامح السرور وقال

— « الحمد لله الذي أراني في الغربة رجلاً من مواطنيَّ فاني يا مولاي روسيٌّ رمى به نكد الطالع أن يقع عليه غضب الحكومة الروسية لأسباب سياسية فنفتني الى سيبيريا بلاد الظلمات والشقاء ولكن الله قيَّض لي مهرباً تمكنت معه من بلوغ هذه الأمصار »

فرقَّ له قلبي لما قاسيت نفسي من ضروب الذل وأنواع النكال أثناء نفيي

الى تلك الأقطار السحيقة ورثيت لحاله رثاء من ذاق طعم ذاك العذاب ولكن كنت على علم من سائر الهار بين والنازحين الروسيين في لندرا أدر عليهم من ثروتي الطائلة خلا المبالغ الجزيله التي كان الرئيس بتروف مفوضاً بسحبها من مصرف انكلترا لهذا الغرض فكان هو الرجل الوحيد الذي لم أعلم حتى الآن من أمره شيئاً ثم أفادني أنه كان منفياً الى مناجم الغاشي الفضية وانه أتيح له الهرب منذ نحو سنة من الزمان ولما كنت أنا أيضاً روسياً تضرع اليَّ أن أصحبه الى منزله وقال ان المكان على مقربة من حيث كنا واقفين

فأجبت سؤله وخصوصاً لأني وددت معرفة شيء من أمره فما سرنا بضع دقائق حتى بلغنا منزله فعجبت لما كان عليه من النظافة ووسائل الراحة مع انه في أقذر أنحاء العاصمة حيث يسكن فقراء القوم ووجدت فيه من المفروشات ما يقر به الناظر وينشرح له الخاطر وكان في وسط الغرفة طاولة مستديرة عليها أقداح الشاي وسيدة رشيقة القوام في ربيع الحياة جالسة على كرسي مريح تطالع كتاباً فلما دخلنا وقفت ونظرت اليَّ بخجل وحياء فبادرها والدها بالكلام وقال لها « يا اليونور لقد أحضرت معي صديقاً من مواطنينا الكرام لم يظفرني الحظ بمعرفة اسمه »

فقلت له هو كورو باتكين لأني رأيت الأمثل اخفاء إسمي الحقيقي الى أن أكون قد عرفت جلية أمر هذا الرجل فتقدمت نحوي الابنة وصافحتني وهي تبسم عن مثل الدرر

ففاتحته الحديث وقلت له مازحاً « أظن أن عيشتك هنا أريح قليلاً من مناجم الغاشي فأجاب باسماً « نعم ومع اني كما تراني ضرير أعمى لا سند لي في هذه الحياة فان معي شيئاً أدرأ به عني الفقر »

ثم أفادني ان اسمه خورشوف وتناولنا بعد هذا الشاي فقصَّ عليَّ أثناء ذلك انه كان في بطرسبرج صقالاً للحجارة الكريمة فسجن ثلاث مراة على التوالي وحكم عليه بعد ذلك بالأشغال الشاقة المؤبدة في المناجم التي هي وراء اركوتسك فتطوعت ابنته لمرافقته الى منفاه حيث لبث نحوًا من خمس سنين

وأخيراً ارق له أحد كبار الضباط وخصوصاً لما شاهد في ابنته من الشجاعة والمروءة وعاونه على الهرب فاقتات أثناء هربه بما وصلت اليه يده سواء بالاستعطاء أو السرقة ولبث على هذا المنوال ماشياً على الأقدام نحواً من ألف ميل حتى بلغ جبال أورال الشهيرة وهناك تمكن من ركوب السكة الحديدية على طريق نجني بعد أن تحصل على جواز وجده في جيب رجل ميت على الطريق فتمكن بهذه الوسيلة من السفر عائداً الى أوربا بعد غياب لم يقل عن ست سنوات ثم انه بعد رجوعه الى الوطن أصابته حمى شديدة أفقدته البصر فرأى عندئذ القدوم الى انكلترا خيراً له من من البقاء معرضاً لريبة البوليس في روسيا

ولما أتى على ختام مقاله تساقطت الدموع من عينيه فكان لكلامه وقع شديد في نفسي وخصوصاً لأن البلايا التى حلت بي لم تزل منطبعة على ذاكرتي فأثار فيَّ حديثه عواطف الحنو والشفقة وخصوصاً لأن ابنته شاطرته هذه البلايا وقاسمته سائر الرزايا التى نزلت به أما أنا فلم أخبره اني كنت في عداد المنفيين بل اختلقت له تاريخاً لحياتي وسألته بعد ذلك عن المواضع التي مروا فيها الى المنفى والكوارث التي انتابتهم فوجدت أن قد أصابه نصيب وافر مما يصيب الوفا من السيئي الطالع الذين يحكم عليهم بالنفي الى تلك الارجاء القاصية ثم وجه بعد كل هذا خطابه اليَّ وقال

« ما حيلتي الآن ؟ فان الدراهم القليلة التي معي ستنفد عما قليل فأصبح مدقعاً لا أملك شروى نقير» فأجبته عندئذ انه عاجزٌ عن الاشتغال بصناعة ما لأنه فاقد البصر فردَّ عليَّ ولئن كان كذلك فانه يتمكن من اتقان حرفته القديمة وهي صقل الحجارة الكريمة لأن اللمس أرشد الى ذلك من البصر وعلى الأخص لأن حاسة اللمس تكون في العمي أشد منها في المبصرين

فبقيت لحظة وأنا أتفكر في أمر هذا الرجل الذي لم نعلم حتى الآن عنه شيئاً مع ان أسماء سائر أمثاله مدونة في سجلات اللجنة العاملة ونغدق احساننا على كثيرين منهم وعليه رأيت أن لا فائدة من اعطائه الاشارة النهلستية وخصوصاً لأنه أعمى ولكن الرجل تضرع اليَّ بلجاجة أن أجد له مركزاً يتمكن به من

الاشتغال بصقل الجواهر فأخبرته اني أعرف رجلاً يهودياً عنده معمل كبير وانه قد يتمكن من الاستخدام فيه فشكرني شكراً جزيلاً ولما هممت بالانصراف وضعت في يد الرجل بضع جنيهات فشكرني على ذلك جزيل الشكر ولكنه قال لي انه يفضل الاشتغال بمهنة شريفة على الاستعطاء من الناس فأثر شعوره واحساسه الرقيق فيَّ ووعدته خيراً ثم خابرت في أمره صديقي اليهودي وهو تاجر شهير إسمه يانكل فرضي باستخدامه أولاً تحت التجربة ولم يمر اسبوع من الزمن حتى كان خورشوف بين عمال الصقل في محل يانكل الشهير

ثم التقيت بالرجل بعد ذلك مراراً فأظهر لي شدة امتنانه ومع كل هذا فاني لم أذكر له ان لي أدنى علاقة بالثورو بين الروسيين أو بلجنتهم العاملة في لندرا الاَّ اني عرّفته وأبنته بفريق من القوم فكان ذلك سبيلاً لهم لزيارة البيوت والذهاب الى النوادي الاجتماعية حيث كان وابنته موضوع حديث القوم وسمرهم وكان الرجل اذا تكلم لا يفتر عن ذكر أهوال المنفي ومظالم الحكام الروسيين فكان القوم يظهرون عطفاً عليه وابنته تخفيفاً لهما من كروب الذل ووصمة الفقر وليس ذلك فقط بل انه كثيراً ما كان يقدم خطباً شائقة في المحافل ونوادي الأدب يعدد فيها بلايا النفي فكانت جرائد لندرا تنقل هذه الخطب الرنانة وتعلق عليها من الحواشي والتفاصيل ما لذّ لها وراق ومع انه كان يقول انه نفي من روسيا لاعتباره من أصحاب الأفكار السياسية الحرة فلم يكن يعترف انه من جملة القائلين بلزوم الثورة والأعمال الثوروية ولم يوافق على أعمال الارهاب التي كان يقوم بها النهلست فلهذه الأسباب تمنعت عن افادته اني واحد من هؤلاء القوم وقدمت تقريراً وافياً بشأنه الى اللجنة العاملة فأصدرت أمرها لي بمراقبته لعلها تقف على سر هذا الرجل المكنون

واتفق في مثل هذه الآونة ان اللجنة الثوروية العاملة في لندرا نفضت عنها غبار الخمول ونشطت هممها من عقالها واتخذت من الجراءة والإقدام والنشاط ما لم يسبق لها اتخاذه من قبل فوزَّعت ملايين من النشرات الثوروية أعلنت فيها الخطة التي عزمت على اتباعها في اجراآتها الحديثة وهي الضرب على يد العمال

الظالمين وانشاء فروع لجمعية الثورة في انحاء البلاد الروسية وارهاب وقتل سائر من يقوم من الحكام بأعمال البغي والجور والاستبداد وان الغرض من كل ذلك انهاض الهمم الخاملة في طول روسيا وعرضها وامتداد لهيب الثورة في سائر الأصقاع حتى تعلم الحكومة الروسية ان في السويداء رجالاً يقابلون الاستبداد بصارمهم ويفدون الأمة بدمهم

وانتشرت هذه المقالات في روسيا حتى بلغت أقاصي سيبيريا فحصل على أثر ذلك هياج عظيم بين أفراد الأمة وضوضاء بلغت جلبتها عنان السماء وأخذ روح الثورة يمتد الى قلوب الشعب امتداد النار الى الهشيم فاهتزت جوانب الامبراطورية كأنّ تياراً كهربائياً جرى الى أعضائها وارتاعت الحكومة الروسية لذلك ارتياعاً شديداً ووقعت هذه التهديدات على رؤوسهم وقع الصواعق لا يدرون من أين تنحدر عليهم أومتى تصيب منهم مقتلا وكانوا يعلمون حق العلم أن اللجنة العاملة اذا قالت فعلت واذا أرهبت نسفت وان أحرجت فتكت وأصبحت جواسيس الحكومة في حيص بيص لا يعلمون كيف تمكنت اللجنة العاملة من ادخال مثل هذه النشرات ملايين كثيرة دون أن يتمكنوا من الوقوف على أثر لها في البلاد اوعلى ضبطها عند الحدود فأسقط في يدهم وهاموا على وجههم في الأزقة والشوارع يفتشون المطابع والمنازل والحوانيت والبنايات التي على سطح الأرض والأنفاق والكهوف التي تحتها فلم يظفروا من كل ذلك بطائل

وواضح بعد كل هذا البيان ان طبع مثل هذه المنشورات في روسيا نفسها بعد هذا الحذر الشديد من الحكومة وانبثاث جواسيسها في كل صقع وناد اصبح محالاً فكان لا بد إذ ذاك من متابعة العمل في لندرا نفسها وعليه أحضرت اللجنة العاملة أحرفا روسية وصفافي أحرف من روسيا نفسها وقامت تثابر على العمل في حيٍّ من أحياء العاصمة ووكلت الى اثنين من أعضائنا الذين استحضرتهم من الوطن القيام بجمع الأحرف وطبع الرسائل وذلك سرًّا دون أن يعلم احد مكان المطبعة او العمال وكان اسم هذين الرجلين أينوفتش وستنسكى

وحدث يوماً ما أني كنت في صحبة الرجل الضرير وابنته فالتقينا بهذين العاملين وعرفته بهما وكانا قد علما شيئاً من أحوال هذا الرجل مما كنت أقصه عليهما فذهبنا اجابة لدعوتهما الى منزلهما وجلسنا في الغرفة الامامية أما موضع المطبعة فكان في غرفة داخلية ولم نذكر قط أمام ذلك الرجل الضرير شيئاً عن العمل الذي كان صديقانا منقطعين اليه ثم كنت أتردد والرجل وابنته من حين الى آخر الى موضع هذين الصديقين فكانت ابنته اليونورا تغنى لنا أغنية بولونية غرامية ورخيم صوتها يقع على الآذان في هدو الليل فتهتز له أوتار القلوب

وبينما كنا جميعاً ذات ليلة في منزل صديقيّ المشار اليهما وفي عدادنا ذلك الرجل الضرير جرى أمر دهشت له غاية الدهشة وذلك أنه بينما كنا على هذه الحال وردت مذكرة من اللجنة العاملة لصديقي بخصوص شيء يتعلق بتلك المنشورات فدخلا على أثر ذلك الى الغرفة الداخلية ليتشاورا في أمرها فلاحت مني إذ ذاك التفاتة الى الرجل الضرير فوجدت وراء رأسه على نافذة نشرة غير كاملة الطبع يبلغ عدد صفحاتها ست عشرة وهي النشرة التي كان لوقعها دوي عظيم في سائر الانحاء الروسية وعنوانها « وانّ غداً لناظره قريب » وكان البوليس السري في بطرسبرج وموسكو وغيرهما من المدن حاول جهده ليقف على شيء من سرّ هذه النشرة فلم يفلح فلما وقعت عيني عليها رأيت من الخرق في الرأي أن تكون هذه النسخة معرضة لأعين الزائرين ثم عدت فافتكرت انه لا يوجد في الغرفة سوانا ورجل ضرير لا يبصر وبينما كنت في هذه الهواجس واذا بأحد صديقيّ قد فتح الباب الداخلي وأومأ اليّ للدخول والمداولة معهما بشأن التعليمات التي قد تلقياها الآن من اللجنة فلبثت معهما نحواً من خمس دقائق ولما عدنا الى غرفة الجلوس وجدت ان النشرة الثورية قد اختفت

فاعترتني من جراء ذلك حيرة عظيمة لأن الرجل الذي امامي ضرير لا يبصر ولم يدخل غريب علينا أثناء مداولتنا في الغرفة الداخلية فهممت أن أذكر لذلك الرجل شيئاً من هذا القبيل ولكني خشيت أن ذلك يخدش عواطفه وعلاوة على ذلك فان في مثل هذا السؤال ما يلقي في نفسه ريبة من حقيقة أمرنا فصمت

ولكني عزمت على مراقبة هذا الرجل ومعرفة ما اذا كان هو الذي اختلسها واذا كان الامر كذلك فما الغرض الذي يرمي اليه

فلم يمر سوى بضعة أيام حتى توجهت الى المعمل الذي كان فيه الضرير مستخدماً في صقل الحجارة فوجدت فيه غرفة فسيحة ومكتبة كبيرة مشحونة بأنواع الكتب المختلفة فلما دخلت على الرجل استقبلني بالبشاشة والترحاب ولما جلست قال لي « أظنك قدمت لترى العامل الضرير الذي أحضرته اليّ واني أخبرك انه من أمهر الصناع » ثم فتح خزانة امامه وأخرج منها علبة داخلها حجر كريم فسلمني اياه وقال « انظر اتقان شغله العجيب » فأخذته واذا هو قطعة كبيرة من الالماس صفراء اللون تتألق فيها الاشعة تألق النور فدهشت من إحكام صقلها وقلت « كم ثمنها ؟ » قال « لا أقل من ألف جنيه وستكون هدية من عريس الى عروسه في نحو اسبوع من الزمن » فقلت له « أود أن أرى الرجل مشتغلاً » فأجابني الى سؤلي وصعدنا الى الطابق العلوي حيث كان العمال فاقتربت الى الرجل بكل هدوء حتى لا يشعر بي فوجدته يصقل حجراً كريماً بقطعة من الماس في يده فلم يلتفت الينا بل بقي مواظباً على عمله وكان كلما أخذ في الصقل يعود فيلمس الحجر بطرف سبابته ليحس اذا كان قد أحكم الصنع

وكان الغرض من ذهابي الى الموضع المذكور أمرين أولاً معرفة ما اذا كان الرجل حقيقة أعمى البصر وهو ماظهر لي منه أثناء العمل وثانياً الوقوف على سر تلك النشرة التي اختفت فبعد أن وقفنا أمامه لحظة وهممنا بالعودة وجدت رداء الرجل معلقاً على الحائط فأومأت الى صاحب المعمل اني أقصد المزاح فوضعت يدي في احدى جيوبه فأخرجت منها أنواعاً متعددة من الكتب والاوراق وفي جملتها النشرة المسروقه فلم أقل شيئاً ولكن أعدت سائر الاوراق الى موضعها وودعت الرجل منصرفاً وأنا أفكر في ما عسى أن يكون غرض الضرير من سرقة هذه النشرة

وحدث ذات يوم ان الضرير كان زائراً منزل صديقيّ العاملين أينوقتش وستنسكسي مرة أخرى فبعد أن لبث برهة قام وهو يقول « لا بد لي من الذهاب

فان ابنتي المسكينة اليونورا لا بد أن تكون في انتظاري وهي وحدها لا أنيس معها ولا جليس يخفف عنها كربة الوحدة والانفراد » فأثر كلام الرجل بي عن ابنته تأثيراً شديداً وقلت له اني أصحبك الى البيت فشكرني وتناول يدي ولما بلغنا منزله وجدنا الفتاة في انتظاره فلما شاهدته أسرعت اليه وهي تقبله فجلست أحدثهما نحو ساعة من الزمن ثم ودّعتهما عائداً الى منزل صديقيّ

ولما بلغت الموضع وجدت مدخله غاصاً بجمهور من المتفرجين وكانت هنالك جلبة عظيمة فاستجليت الأمر فقيل لي ان عدداً من أفراد البوليس قد دخل منزل صديقيّ فتأسفت كثيراً من انكشاف أمرنا ولكني كنت على يقين أن الحكومة الانكليزية لا تمنع اصدار منشورات ثورية في بلادها فاخترقت صفوف المحتشدين الى أن بلغت المنزل فسمعت اينوفتش يقول للبوليس

— « ولكن أحب أن أعرف السبب الذي لأجله تلقون القبض عليّ »

فأجابه البوليس « انا أفدناك حقيقة الأمر » فاجرِ معنا إذ لا فائدة من المقاومة وكنت إذ ذاك لا أزال على باب المنزل بين الجماهير فلم يرني صديقيّ فتبعتهما عن بعد وكان غرضي أولاً الذهاب معهما الى ادارة البوليس ولكن رأيت بعد التروي ان ذلك قد يكون باعثاً على دخولي في الأمر دون أدنى جدوى لرفيقيّ فعدت الى منزلي عاقداً النية على حضور الجلسة التي تعقد في محكمة الغد غير أنه حدث ما عاقني عن ذلك وفي المساء تناولت احدى جرائد العاصمة فاذا فيها تفصيل محاكمة الصديقين وزبدة الأمر ان البوليس السري دخل منزلهما فوجد هنالك أوراقاً مالية روسية مزورة وصفائح نحاسية محفورة لطبع تلك الأوراق التي قد وجد منها في المنزل ما تبلغ قيمته عشرين ألف روبل وان العمال الروسيين كانوا قد أبلغوا الحكومة الانكليزية ان الاوراق المالية المزورة قد فشت في روسيا ويظنون أن مصدرها مطابع سرية في لندرا

فوقع هذا الخبر عليّ وقع الصاعقة لأني كنت موقناً كل اليقين أن صديقيّ بريئان من هذه التهمة التي وقعت عليهما وان الأوراق المالية المزورة مع الصفائح النحاسية انما وضعت خلسة بيد سرّية وبينما كنت في أشد الحيرة والذهول خطر

لي بعد بضعة أيام أن أذهب لزيارة معمل الجواهر حيث يشتغل الضرير خورشوف لعلي أقف على شيء من هذا اللغز العجيب فلما بلغت المعمل رأيت صاحبهُ نادبًا سوء حظه وهو ينادي بالويل والثبور فسألته ما الخبر فأجابني ان اللصوص قد دخلوا موضعه وسرقوا سائر ما عنده من الحلى والجواهر التي تبلغ قيمتها نيفًا وخمسين ألف جنيه ولما ولجت الغرفة رأيت الكتب مبعثرة في تلك المكتبة والصندوق الحديدي الذي كان مستورًا وراءها مفتوح وان الذي قد أتى هذه الفعلة الشنعاء لا بد أن يكون من أمهر اللصوص فخطر لي إذ ذاك أن أسأل صاحب المعمل عن خورشوف فأفادني انه لم يحضر في ذلك الصباح وكان بجانبنا أحد أفراد البوليس السري فقال انه هو السارق فذهبت واياه الى منزل الضرير فأفادتنا امرأة هناك ان الرجل رحل مع ابنته فجر ذلك اليوم وانه لا يعود قبل شهر من الزمان ففتشنا غرفته دون أن يتاح لنا العثور على شيء يتخذ دليلاً على وجهة سيره فاشتغلت الاسلاك البرقية تنقل خبره الى سائر محطات العاصمة والمواني البريطانية فامحى أثر الرجل كأنه شبح من عالم الخيال فتحققت إذ ذاك انه هو الرجل الذي وضع في غرفة عمال المطبعة الأوراق المزورة والصفائح النحاسية وانه بعث بعد ذلك بلاغًا بهذا الشأن الى ادارة البوليس من دون امضاء فتتخلص بذلك الحكومة الروسية من المنشورات الثورية في لندرا وفي الجلسة التالية التي عقدتها المحكمة حكم عليهما بالاشغال الشاقة مدة سبع سنوات ولا يزالون حتى الآن في السجن ولم تغن ايضاحات المحامي الذي أقمناه مدافعًا عنهما فتيلاً

وبعد هذا الخطب عقدت اللجنة العاملة اجتماعًا للنظر في الأمر وبعثت الى سائر فروع جمعيات الثورة بيانًا بهذا الصدد تطلب منها اقتفاء أثر الرجل فورد علينا بعد عدة أسابيع كتاب من جمعية امستردام وفيه البيان الشافي بخصوص هذا المخاتل ومنه علمنا أن الرجل أبرع لص في سرقة الألماس في سائر الامبراطورية الروسية وانه كان فعلاً من جملة المنفيين ولكن لا لجريمة سياسية بل لسرقة جواهر من احد المحلات التجارية فذهب الى سيبيريا ولكنه تمكن من الهرب ولما بلغ لندرا استخدمته جواسيس الروس للوصول الى أمر هذه المنشورات وانه كان

مصاباً بعلة في العينين ولكنه كان يبصر بهما جيداً فترقبته جواسيس لجنة الثورة في استردام وسلمته للبوليس السري والرجل يحاول بيع الألماسة الصفراء التي هي صقل يده ولما فُتش منزله ظهر فيه نحو نصف الجواهر التي فقدت من انكلترا فبعثت الحكومة الانكليزية تطلبه فأرسل تحت الحفظ وحكم عليه بعد وصوله الى لندرا بالسجن مع الأشغال الشاقة الى عشر سنوات برد ما بقي من تلك الجواهر الى صاحبها الأول

الفصل التاسع

« احدى حظيات لقمان »

كنت ذات يوم سائراً في شوارع لندرا والجو ملبّدٌ بالغيوم والرياح تعصف من كل ناحية والضباب قد أرخى أستاره وأنا أفكر في أمر جواسيس السفارة الروسية وما أتته أيديهم من أنواع المكر وضروب الغدر تنكيلا بنا واذا بسيدة مليحة القد والقوام ماشية ورائي الى احدى محطات السكة الحديدية فلما دخلتُ القطار جلست بأزائي ولكن كنت في تيّار من الهواجس والأفكار فلم أتنبه لها بل أخذت عدداً من الجرائد التي بيدي وشرعت في مطالعته فما تحرك بنا القطار حتى شعرت بيد لمست ذراعي وصوت يناديني باسمي باللغة الروسية فذُعرت من ذلك وتطلعت واذا بالمنادي الفتاة

— « يظهر ياسيدتي أنكِ تعرفينني ولكن لم يسبق لي شرف التعرف بكِ »

— « التقينا قبلا يا مولاي في بطرسبرج دون أن يكلم أحدنا الآخر »

— « أروسيةٌ أنتِ ؟ »

فاحنت رأسها ثم همست في أذني الكلمة التي يتعارف بها النهلست فعلمت انها واحدة منا ثم عادت الى المحادثة فقالت

« سمعت عنك في بطرسبرج وطالعت مقالاتك في المجلات والجرائد

الانكليزية حيث أتيت على بيان المظالم التي تحل بزعماء الحرية ورجال الاصلاح في روسيا وما امامهم من الشقاء العاجل والموت الآجل في أرباض سيبيريا وما ينالهم من الذل والحيف في السجون فخدمت بذلك جميعنا أجل خدمة فهل أجسر أن أطلب منك خدمة تقوم بها لنفسي ؟ »

— « ماذا تطلبين مني يا مولاتي ؟ »

« ان خطراً عظيماً يتهدد حياتي فاذا لم تمد الي يد الإخاء والاسعاف وقعت في الهلكة لا محالة وان لي أخاً ينتظرني في المحطة التالية فاذا أحببت نزلنا سوية ثم أقص عليك في المنزل تفاصيل أمري واني لست في ريب انك تكون لي من الناصرين »

فنظرت اليها مندهلاً وقلت « أتخشين سوءاً أيتها السيدة ؟ »

فنظرت الي قائلة « اخفض صوتك فاننا نحن كلينا قد وقفنا أنفسنا على خدمة الوطن وأهله وقد نسيت أن أعرفك بنفسي فأنا ماريانا هنتسي »

ولما رأيت من حماستها وجرأتها واخلاصها في سبيل الوطن ما رأيت لاح لي انها انما قدمت لأمر سري يتعلق بشؤوننا في روسيا فأحببت الوقوف على حقيقة أمرها ووعدتها خيراً واني أساعدها جهد الطاقة

فلما بلغنا المحطة المشار اليها نزلنا من القطار ولبثنا برهة ننتظر أخاها على غير جدوى ولما مللنا الانتظار سرنا مشياً على الأقدام حتى بلغنا منزلاً منفرداً في ساحة كبيرة لم يكن عند مدخله سوى كهل هو البواب ولما بلغت غرفة الانتظار نزعت عني وشاحي وجلست على كرسي أنتظر السيدة التي صعدت الى الطابقة العليا بعد أن أقفلت الباب وراءها

فشعرت أثناء جلوسي بانقباض شديد لم أدرِ علته وخصوصاً لما رأيت الغرفة صغيرة والنور فيها ضئيلاً والمفروشات قديمة العهد ورائحة لا يمكن التعبير عنها تتصاعد الى أنفي وبعد أن لبثت نحو ربع ساعة أنتظر عودة السيدة شعرت بدوار شديد وصداع في مقدم الجبهة ثم تلا ذلك نوبة سعال وأسرع تنفسي ولما وقفت شاهدت شيئاً كثيراً من الغبار في أرض الغرفة مما دلني على انها لم تكن ماهولة

منذ زمن قديم فتقدمت الى جانب النار فرأيت هنالك شيئاً كثيراً من الفحم اخذاً بالاحتراق فعلت وجهي صفرة الوجل وتقدمت نحو الباب لأفتحه فوجدته موصداً فنظرت الى النوافذ فرأيت جميعها مقفلة ومسدودة سداً محكماً من الخارج ولم يكن للنار منفذ من موضع ما فأدركت حينئذٍ اني وقعت في شرك واني في غرفة الموت فأخذت أضرب الباب بيديّ ورجليّ فلم أتمكن من فتحه وكان للصدى وسط ذلك السكون دوي هائلٌ هلع له قلبي ثم أخذت أدور في تلك الردهة كمن مُس بالجنون ثم أخذت في الصراخ لعل أحداً من المارة يسمعني ولكن ذلك كان دون أدنى جدوى فمرّت عليّ الثواني ساعات والدقائق أياماً وسمعت فوقي أصواتاً غريبة وشعرت بشيء وقع في أرض الغرفة التي هي في الطبقة العلياء ثم زاد بي الدوار وشعرت بما أمامي من الأشباح يمر مرّ السحاب ولم يكن الا كمثل غمض الجفن حتى اعتراني ارتجاف في الأعضاء ووهن عام في الجسد اصطكت بعده ركبتاي اصطكاكاً شديداً ثم عرتني هزة غريبة وثقل دماغي ثقلاً شديداً حتى لم أعد أستطيع تحريك جسدي وبعد لحظة ترنحت ترنح السكران وسقطت على البساط الذي أمامي ووقعت في سبات عميق لا أعي شيئاً

ولا أدري كم لبثت على هذا المنوال ولكن لما أستيقظت وجدت نفسي متكئاً على كرسي في الطبقة العلياء من ذلك المنزل المنفرد وفي يدي مسدسي وعليه لطخ من الدم ثم نظرت الى ما حولي فوجدت الفجر قد انبثق وباباً في جانب الغرفة مفتوحاً الى غرفة مجاورة فظننت نفسي أولاً ان سائر ما جرى لي لم يكن سوى أضغاث أحلام ولما عاد اليّ رشدي وقفت ودخلت الغرفة المجاورة فشاهدت هنالك ما اقشعر له جسدي وهلع قلبي وذلك اني رأيت جثة الفتاة ماريانا التي قادتني الى هذا الموضع موسدة على الأرض وحولها بركة من الدم وازاء القلب جرح من فوهة مسدس أطلق عليها وهو يكاد يلامس جسدها لأن بعضاً من ثيابها كان محروقاً من لهيب البارود وهي جثة باردة لا حراك فيها

فارتعت لهذا المنظر ارتياعاً شديداً لأن الذي يتبادر الى الذهن هو اني نفس القاتل فلبثت بضع دقائق أتفرس في الجثة وأنا في حال الذهول ثم جلت

في الغرف الأخرى فرأيتها جميعها مفتوحة وخالية من السكان فجال في خاطري أولاً أن أبلّغ ادارة البوليس تفاصيل هذه الحادثة ولكني رأيت بعد التأمل ان الأمثل السكوت عن ذلك لأنه لا بد عندئذٍ من القاء القبض عليّ أولاً لتوفر الشبهات عليّ في مثل هذه الجناية فنزلت من على السلم وتوجهت الى منزلي ولما حاولت فتحه رأيت ان المفتاح قد فقد من جيبي فاضطررت الى احضار رجل كسر القفل ووضع قفلاً جديدًا موضعه ولما دخلت المنزل وجدت سائر أشيائي مبعثرة في أرض الغرفة وخزائني مفتوحة فتبادر الى ذهني أولاً ان ذلك فعلة بعض اللصوص الذين حاولوا سرقة المنزل وانه لما لم يكن هنالك شيء من الدراهم انصرفوا دون أن يمسوا شيئًا مما في الغرف فلم أرسل بلاغًا الى البوليس بخصوص هذا أيضًا خوفًا من أن الابحاث الدقيقة تبين غيابي عن منزلي والموضع الذي كنت غائبًا فيه أثناء هذه البرهة

وبعد التأمل خشيت أن يكون قد وقع من جيوبي في ذلك المنزل الذي كدت ألقى فيه حتفي من الأوراق ما يستدل به عليّ فسألت عن الموضع فقيل لي انه ملك أحد الأشراف وانه معروض للاستئجار فذهبت الى هناك ورأيت خادمًا جديدًا طلبت منه مشاهدة المنزل فسلمني المفاتيح ودخلت الغرف وقلبي لا يزال يخفق من الهلع فلم أرَ هنالك شيئًا من أوراقي ولا أثرا للجريمة فان الجثة كانت قد نقلت ونظفت أرض الغرف من اللطخ الدموية فعدت من حيث أتيت وأنا أفكر في أمر هذا السر العجيب على غير جدوى .

ومرّت عليّ الايام والشهور على مثل هذه الحال وأنا أحاول الوقوف على سرّ ذلك اللغز فذهبت مساعيّ ادراج الرياح الى أن انجلت لي الحقيقة من مصدر لم أكن أتوقعه على الاطلاق وذلك اني كنت ذات يوم في منزلي واذا بالخادم قد دخل عليّ وبيده رقعة زيارة من أحد أصدقائي القدماء واسمه «الر فلقيته بالبشاشة والأنس وأخذنا نتجاذب أطراف الحديث الى أن أتيت على ذكر تلك الحادثة فتبسم تبسم رجل له شيء من الاطلاع على دخيلة الأمر فسألته « أتعرف شيئًا من ذلك ؟ » فضحك وقال أعلم كل شيء وعند جهينة الخبر اليقين فذهلت لكلامه

وقلت « أستحلفك بالله أن تقص عليّ ما تعلمه من أمري فاني أكاد أذوب تشوقًا الى ذلك فشرح لي الحديث الآتي

« ورد على اللجنة العاملة منذ عدة أشهر بلاغ لم نقف عليه في حينه لأنك كنت وقتئذٍ منهمكاً في واجبات جمعيتنا خارج لندرا ومفاد هذا البلاغ ان ماريانا ناهنشي وهي الابنة التي ذهبت معها الى المنزل المذكور قادمة من بطرسبرج وهي منتظمة في سلك جواسيس الحكومة الروسية وان الغرض من حضورها الى لندرا هو أن تتوصل بطريقة من الطرق الى قتل المثري الشهير والثوري العظيم غورتشاكوف سرجيوس فلاديمير ! »

فالتفت الى صديقي منذهلاً وقلت له « أكان غرضها من القدوم الى هنا اعدامي ؟ »

فأحنى صديقي رأسه وعاد الى تتمة مقاله

« ولما عرف الرئيس بتروف ذلك عين عدداً غفيرًا من جواسيس اللجنة للسهر على حياتك ومراقبة سائر حركاتك لكي يكونوا مستعدين لانقاذك من مخالب المنية على الدوام دون أن تكون أنت نفسك شاعرًا بشيء من ذلك وكنت وقتئذ في عداد من نيط بهم القيام بهذه المهمة وبينما كنت يوماً سائرًا في حراستك مع صديق آخر وجدناك والسيدة المشار اليها عند المحطة فدخلنا القطر وتبعناكما حتى رأيناكما داخلين البيت ولم يكن هناك سوى البواب ولكنه ليس بوابًا بل جاسوساً آخر من جواسيس الحكومة حضر برفقة ماريانا لانجاز الجريمة فلما رآنا اختفى أما نحن فلم يكن سوى نحو ربع ساعة من الزمن حتى دخلنا وراءك المنزل المذكور ولما لم يفتح لنا أحد عند قرع الباب كسرناه وأخرجناك من تلك الغرفة المظلمة وأنت في حال الاختناق والغيبوبة وأصعدناك الى الطبقة العلياء وبينا نحن وقوف على الباب اذ سمعنا محادثة أفضت الى مخاصمة بين امرأتين الواحدة منهما ماريانا وهي كانت مصممة على قتلك والأخري مادام كريشفسكي وكانت ترغب في الاكتفاء بالحصول على الأوراق التي في جيبك وقد ظهر انـا من حديثهما وخصامهما انها كانت تودك كثيرًا

فاعتراني الذهول وقلت له « ولكن مادام كريشفسكي عضو من جمعياتنا الثورية فكيف تتآمر مع جواسيس الحكومة عليّ » فقال

— « ان مدام كريشفسكي كانت كذلك ولبثنا نعتقد بصدقها واخلاصها حتى هذه الحادثة التي انجلى لنا بعدها أمرها وانها في الحقيقة من عمال الحكومة الروسية وبعد أن لبثنا واقفين نحو دقيقة من الزمن أغلظت ماريانا الجواب لمدام كريشفسكي فأشهرت عليها هذه المسدس وأطلقته فدخلنا على صوت تفرقع البارود فذعرت القائلة وصرخت بأعلى صوتها فاضطرتنا الى تركك هناك خوفاً من حضور البوليس لأننا كنا متوجهين تلك الليلة بمهمة سرّية الى ايطاليا فحتى تنفي مادام كريشفسكي عن نفسها تهمة القتل أبقتك هنالك ووضعت المسدس في يدك وخرجت أما البواب فهو كما ذكرت لك داخلٌ في هذه الدسيسة وهو الذي انتشل من جيبك المفتاح ودخل منزلك وأخذ منه ما يهمه من الأوراق ثم تمكنت مدام كريشفسكي بواسطة عمالها من نقل الجثة بعد خروجك من المنزل دون أن يشعر بها أحد ولكننا قدمنا تقريراً فيه البيان الشافي الى اللجنة العاملة فقررت اللجنة الحكم عليها بالاعدام »

— « ولكن أين هي الآن ؟ »

— « في بروكسل ولكن أنت تعلم انه متى صدر حكم اللجنة العاملة فلا بد من انفاذه »

فتعجبت من ذلك كل العجب ثم ذهبت مع صديقي للتنزه في بعض حدائق العاصمة فاشترينا عدداً من أعداد جريدة التيمس الشهيرة وفيما كنت أقلب صفحاتها عثرت على تلغراف من مراسلها في بروكسل فيه ما يأتي

« من الأخبار التي اهتزت لها أنحاء هذه المدينة هو أن السيدة الروسية مدام كريشفسكي المشهورة بالغنى والجمال الرائع وُجدت هذا الصباح مقتولة في فراشها بطعنة سكين في القلب ولم يتمكن البوليس من اقتفاء أثر الجاني »

فتبادلت وصديقي نظرات شفت عن معنى عميق ولكننا لم نفه بهذا الخصوص بكلمة واحدة

الفصل العاشر

« ما تكنُّ صدور الغواني »

قصصت عليك يا عزيزي الطبيب أن ضميري يبكتني على ما صدر مني من الجرائم وما اقترفت من الذنوب في سبيل الذود عن حقوق أمتي والأخذ بثار أبي وأمي وشقيقتي ولكن أرسخ هذه الذنوب صورة في مخيلتي وأشدها وزرًا هو ما أضطرتني الظروف والأحوال السياسية الى القيام به كما أقص عليك تفصيله

حدث أن سيدة روسية بالغة منتهى التهذيب والعلم تسمى مدام شنكوف نزلت في لندرا قادمة من روسيا ولم تلبث فيها ردحًا من الزمان حتى أصبحت من أشهر سيدات المدينة تختال في قصور الأشراف والأمراء وتميس في محافل الحظ واللهو كقضيب من البـان اذا تكلمت كان حديثها دررًا واذا كتبت تهافت القراء على مطالعة مقالاتها في المجلات والجرائد فصار من هم لجنة الثورة الوقوف على سر هذه السيدة لأن مظاهر الثروة التي كانت تلوح عليها والنفوذ الذي أحرزته في قليل من الزمن جعلنا في ريبة من أمرها خشية أن تكون من عمال الحكومة الروسية وهي ريبة بلغت عندنا حد اليقين لأنه لم يطل أمرها حتى نشرت مقالات رنانة أتت فيها على اطراء القيصر وعماله اطراء شديدًا فأصبح من همنا حينئذٍ بث العيون والارصار عليها من كل جانب

وبعثت اللجنة الى سائر الفروع الروسية تستجلي أمر هذه السيدة فلم يردنا بشأنها ما يشفي الغليل ولبثنا كذلك في حدس وتخمين حتى وردنا كتاب من فرع الجمعية الثورية في خيف مفاده أن السيدة التي انتحلت اسم مدام شنكوف هي في الحقيقة امرأة رجلٍ هو رئيس بوليس تلك المدينة وأنها كانت في الماضي سببًا في نفي كثيرين أخصهم من طلبة العلم في بطرسبرج بينهم نفر من خيف نفسها ولما خشيت بعد ذلك العودة الى خيف أو البقاء في بطرسبرج خفي أثرها حينًا من الدهر فأرسلنا صورتها مأخوذة من احدى المجـلات الانكليزية وبعثنا بها الى خيف

فورد البيان الشافي أنها هي نفس المرأة وان قدومها الى لندرا لم يكن الا للانخراط في زمرة الجواسيس

وكان أمر رقبها ضربة لازب علينا لان اللجنة العاملة كانت قد عقدت النية على اتيان ضربة ترقص لها عجائز وائل ولا نقل في نتائجها وخطارتها عن الضربة التي أوردت القيصر اسكندر الثاني حتفه — تلك الضربة القاضية التي كانت على روسيا والعالم المتمدن بلية طامية ولكن عمال الظلم في الحكومة والاستبداد الأثيم والجور الفاحش الذي وقع على رفاقنا في روسيا احرج صدور اللجنة العاملة في لندرا حتى أعمى ذلك بصيرتها فعقدت النية على اهلاك القيصر اسكندر الثالث كما سأفصل لك كل ذلك فيما يلي ولما كان وجود مثل السيدة مدام شنكوف في عداد جواسيس لندرا خطراً كبيراً على أعمالنا السرية قررت اللجنة مراقبة كل حركة من حركاتها وأناطت هذه المهمة بي لعلي أقف على الغاية التي تتوخاها السيدة المشار اليها في قدومها الى انكلترا والاقامة بين ظهراني أهلها لأنه أصبح المقالات التي نشرتها في جرائد لندرا وقع شديد فسفهت أقوال الكتبة الذين يزعمون أن سيبيريا بلاد الشقاء وأن سجونها جحيم أرضي وأنكرت على الكاتب الشهير جورج كنان ما أتى على ذكره من أهوال تلك السجون والديار التي نقشعر لها الابدان

فاضطررت للوصول الى هذا الغرض للتنكر فاستأجرت منزلاً جديداً في العاصمة وانقطعت عن زيارة اللجنة العاملة في مركزها وكانت اذا اضطرتني الحال الى مذاكرتهم في أمر اجتمعنا في ناحية أخرى من نواحي لندرا حتى لا يكون لأحد سبيل للمظنة بي فانتحلت اسم شارل لانكور ولما كنت أحسن التكلم بالافرنسية جيداً لم يشك أحد في انتحالي هذه الجنسية ولم يمر طويل من الزمن حتى تعرفت بمدام شنكوف وأصبحنا صديقين حميمين فكنا نذهب اكثر الاحيان الى الملاهي والاجتماعات سوية الى أن دعانا يوماً ما أحد الاصدقاء أن نصرف بضعة أيام مع أصدقاء آخرين في قصر خاص له في جوار لندرا

وبينما كنت جالساً واياها ذات يوم تحت الأشجار الغضة والأغصان

النضرة في جوار القصر نظرت اليها باندهال وقلت لها « يا نينا » وهو اسمها الأول « انك أجمل امرأة رأيت في حياتي فان لك عيونًا ساحرة وجفونًا تشق سهامها القلوب »

فنظرت اليّ باندهال وقالت « مادعاك الى هذا التمليق ؟ »

« دعاني الى ذلك يا مولاتي جمالك الرائع وحسنك الذائع الصيت وأنت تعلمين أننا نحن الباريز يين أخبر أهل الأرض بملامح الحسن و بديع الجمال »

« لا بدّ لي أن أخبرك يامولاي اني متزوجة منذ نحو سنتين ولي زوج ... »

فلم أمهلها لتنجز مقالها ولكن أجبتها « ان هذا لايهمك كثيرًا »

« كيف تعلم ذلك ؟ ومن أخبرك بالامر ؟ »

« لا أحد ولكن لاسبيل لكِ الى نكرانه فاني أراك غير سعيدة »

« لا أظنك مخطئًا في ما تقول ولو أخبرتك حقيقة أمري لأخذ منك العجب مأخذه »

ثم صمتت لحظة بعد ذلك وأخذت تلاعب الزهور التي أمامنا على جوانب المياه فنظرت اليها واذا هي بالحقيقة الجمال وقد تجسم فان احمرار خديها كان كالجلنار ولون ذراعيها وعنقها يشف عن بياض ناصع وقامتها هيفاء كالرديني فأحنت رأسها نحوي وهي لا تشعر بذلك كانها في حلم ثم لبثت تلاعب الأزهار فلم أتمالك أن أبث لها شيئًا من هيامي ووجدي و بعد حين من الزمن شرحت لي حقيقة أمرها وأنها متزوجة برجل يشغل مركزًا مهماً في الحكومة الروسية ولكنها لم تذكر أن اسمه فرلوف ولا أن موضع اقامته في خيف كما كنت عالمًا ولكنها اكتفت بقولها ان عيشتها معه لم تكن راضية نظرًا لما كان عليه الرجل من شراسة الأخلاق واخلاف عهدها فاضطرت الى تركه والقدوم الى انكلترا حيث لا أعداء لها ولا حساد يشون بها ولما أتت على ختام حديثها خنق صوتها البكاء وجرت من مقلتيها العبرات

فحاولت جهدي ارضاءها وقلت لها يلزم أن تتناسى حياتها الماضية وأن تتمتع بما أمامنا من جمال الطبيعة وشذا الزهور وتغريد الطيور

فتفرست فيّ وقالت « أصبت ولكنك لا تدري أحوال الروسيين في الهيئة الاجتماعية فانك رجل فرنساوي تعيش تحت سماء الحرية »

« اني أتوق كثيرًا الى معرفة شيء من أحوال الروسيين وخصوصًا أقوام النهلست لأني قد سمعت وطالعت شيئًا كثيرًا عنهم »

« لماذا تسألني عن النهلست وكيف يتأتى لي أن أعرف شيئًا عن هؤلاء القوم الذين دأبهم الدسائس والمكائد »

« ولكنكِ روسية وكل روسي يعرف شيئًا عنهم »

« لقد أصبت في زعمك ولا بد من عذر لهؤلاء الاقوام على ما يأتون من الجرأة والدسائس فانك اذا أسأت الى رجل أو ظلمته أو نفيتـه اذا تظلم أو سددت فاه اذا تكلم أو ضربته اذا تألم ثار في رأسه أخيرًا ثائر الغيظ والحنق وقد يحمله الياس على طعنك أو رميك بقنابل الديناميت واذا نظرت الى الحقيقـة نظر العاقل وجدت الحكومة الروسية معملاً هائلاً للقتلة وسفكة الدماء من سائر طبقات القوم »

فعجبت من كلامها كل العجب وخصوصًا بعد الذي طالعت من مقالاتها في الجرائد والمجلات الانكليزية مما كانت تشد به أوازر الحكومة الروسية فتطلعت اليها بلهفة وقلت

« أتستحسنين اذًا عمل هؤلاء الثورويين ؟ »

« اعلم أن الروسي لا يجسر على الاجهار بآرائه على رؤوس الاشهاد ولكنه لا بد لي من الاقرار لك ان سائر هذه الامور لا تهمني الآن لأني قد نُفيت من بلادي »

فقلت في نفسي ما أشد دهاء هذه المرأة فانه يكاد يفوق جمالها فتأملت ذلك الموقف وما كانت عليه الطبيعة من المهابة والجمال ولا سيما لأن الشمس أشرفت على المغيب وأخذت الطيور تأوى الى أشجارها للمبيت ودهشت ممـا لهذه المرأة من طلاقة اللسان وجرأة الجنان وفيما أنا غارق في أبحر الأفكار اذا بالسيدة قد أخرجت من جيبها لفافتي تبغ أشعلت منها واحدة وقدمت لي الأخرى

فقبلتها شاكرًا ثم عدت الى حديثنا وقلت لها

« ولكن طالعت يا مولاتي بعض مقالاتك في جرائد العاصمة فوجدتك تحامين عن الحكومة محاماة شديدة »

فتبسمت وقالت « اني أنشر أحياناً مقالات في مجلات القوم ولكن أنت تعلم ان الكاتب لا يسطر على الدوام حقيقة أفكاره الحرة فانك لو قطنت روسيا حيناً من الزمن لأدركت شدة الخطر الذي يحيق بمن يجسر على انتقاد أعمال الحكام »

وفيما نحن كذلك واذا بساعة القصر تنبهنا أن قد آن وقت العشاء فدنوت منها وقبلتها فلاعبت وجهي بيدها وهي تبتسم وعدنا الى منزل مضيفنا

و بينما كنا جالسين على مائدة الطعام في صباح اليوم التالي أتى الخادم الينا بكتب البريد وكنت جالساً حذاء مدام شنكوف فوضع أمامها كتابين أحدهما بخط رفيع يدل على انه كتابة سيدة والآخر في غلاف مربع عليه علامة الحكومة الروسية الرسمية وهي نسر ذو رأسين وطابع من طوابع الحكومة فلما شاهدته طوته ووضعته في جيبها على عجل

وفي المساء بينما كان المدعوون في احدى القاعات اجلت نظري فلم أجد السيدة الروسية بينهم فسألت عنها احدى وصايف القصر فعلمت أنها لبست وشاحها وقبعتها وذهبت للتنزه على جوانب النهر فتبعتها وكان الوقت صيفاً والسكون سائداً على الطبيعة حتى أن أوراق الاشجار لم تكن تتحرك فاتخذت طريقاً أخصر من التي جرت عليها وذلك اني سرت في مرج صغير أمام القصر تحف به الاشجار الباسقة والزهور العطرة ولما بلغت منتهاه سمعت أصواتاً فعرفت صوتها وكانت تتكلم بالروسية فسمعتها تقول

« ماذا يجب عليّ فعله الآن ؟ »

فأجابها رجل بقوله « افعلي ما يترتب عليك فعله فقد وردت عليك اليوم التعليمات من وزارة الداخلية »

« كان الأولى بها السكوت عن ذلك فاني قد أنجزتُ أعمالي »

« اذا كان الأمر كذلك فاخبريني اذاً اما هي الدسيسة الجديدة ؟ »

« اني لم أنجز تقريري حتى الآن ولكن يجب عليك أن تعلم اني في خدمة الحكومة وليس في خدمتك أنت »

« اعذريني يا مولاتي على هذا التطاول فان محبة الوقوف على الأخبار حملتني على ذلك »

« ان محبتك الوقوف على الأخبار تضرني وتنفعك فانك ستذهب بعد ذلك رأساً الى الجنرال اسكاوف وتبيعه هذه الأخبار ولكن يجب عليك أن تفقه ان المرأة التي تكلمك ليست دونك دهاء »

« اعذريني يا مولاتي ولكن أؤكد لكِ ان أسراركِ تكون في أمن حريز »

« كما كانت عند ما أطلعتك عليها في باريز بعد جد النهار وسهر الليل حتى اكتشفت المكيدة فكانت نتيجة كل ذلك انك ذهبت وطيرت التفصيل على جناح البرق فرقاك الامبراطور ورصّع صدرك بالوسامات ونفحك بالدنانير أما أنا فلم تكن نتيجة اتعابي سوى الشقاء »

« ولكن ما ضرّكِ فانكِ زوجتي »

فأجابته بنغمة كلها ازدراء واهانة

« ألا تزال تقول اني امرأتك وقد افترقنا وليس بيننا بعد ذلك أدنى صلة فبأي حقّ تقتفي أثري الى هنا ألا أقدر على متابعة هذه الأعمال الممقوتة دون أن تكون لي شريكاً بها؟ »

« ولكني أساعدكِ يا نينا وأعتقد أنه اذا اجتمعت كلمتنا على أمر سهل علينا انجازه »

« انّ ذلك لمن المحال أما ما يتعلق بزواجنا فانت أدرى اننا تزوجنا ولكننا لم نعش معاً قط »

« ألا تذكرين اني خلصتكِ مرة من الموت ؟ »

« أليس ذلك واجبات الزوج لزوجته ولكن مالنا ولكل هذا الحديث فانه لا بد لي من العودة الى القصر فان سيدته في انتظاري »

« يجب عليك أولاً أن تبقي هنا الى أن آتي على تتمة مقالي فانه لا بد لكِ من العودة الى روسيا للاقامة معي هناك »

« اذا كان الأمر كذلك فأخبرك يا مرلوف اني أكرهك كرهاً شديداً وان الموت لأسهل عليّ من مساكنتك »

فظهرت على الرجل علامات الغضب وصاح بها بأعلى صوته

« أهذا جوابكِ لي — ؟ اني والله لأقتلنَّكِ »

« ان يدك لأقصر من ذلك »

« أطلب منك الآن أن تظهري لي سر هذه المكيدة الجديدة التى قد اكتشفتِها وإلاّ فاني أقسم بالله أن أدق عنقك بيدي في مثل غمض الجفن ثم أرمي بك الى هذا النهر »

ثم تلى ذلك صوت عراك سمعت في خلاله نينا تقول

« دعني أيها الجبان فقد خنقتني — دعني — اليَّ يا أهل الغوث »

فتقدمت إذ ذاك من موضعي وأنا أمشي الهوينا حتى لا يسمع لوقع قدمي صوت فرأيت من خلال الأغصان الضابط مرلوف واذا هو رجل يناهز الخمسين من عمره صغير العينين قصير القامة كبير الشدقين على وجهه ملامح الشراهة والطمع لأن مبدأه الوحيد في العالم هو عبادة المال سواء كان من أعدائه أو أصدقائه وكثيراً ما استخدمه النهلست لقضاء أوطارهم من الحكومة الروسية وهو لا يزال في خدمتها ولما شاهدته وجدته منحنياً فوق امرأته ويداه في عنقها وهو يتهددها لكي تبيح له بما وقفت عليه من الأسرار وبينما كنت على وشك العودة الى مخبأي سمعت مرلوف يسب ويلعن ثم صراخ امرأة مزق كبد الجو ثم سقوط جسم في الماء فتطلعت واذا ليس هنالك من رجل أو امرأة فنظرت الى الماء واذا على سطحه حلقات تتمعج تحت أشعة القمر ولم يكن الاّ كمثل غمض الجفن حتى هدأ اضطراب المياه فوقفت حائراً لا أدري ماذا أفعل ثم أخذت أسير على ضفاف النهر وأنظر الى الأنجم والأشجار التي على جانبيه ولما لم أرَ شيئاً أسرعت بالعودة الى المنزل وأعضائي ترتجف مما سمعت ورأيت

ولقد كان لفقدان مدام شنكوف في ذلك القصر المنيف في ضواحي لندرا ضجة وصخبٌ في الجرائد دون الوقوف على شيء من الحقيقة ولما رأى الزائرون ما آل اليه أمر هذه الدعوة انصرفوا فرأيت الأمثل أن أكون في جملة المنصرفين لأن المكث أصبح حملاً ثقيلاً على الزوار والضيوف ولكن تمكنت قبل عودتي من فحص سائر أشياء السيدة لعلي أقف على سر من أسرارها فذهبت اتعابي ادراج الرياح

وعند عودتي الى لندرا قدمت تقريرًا مفصلاً بما جرى الى اللجنة العاملة فأمرت بارسال كتب الى سائر فروع لجان الثورة لمعرفة ما اذا كان الرجل مرلوف وامرأته لا يزالان في قيد الحياة واذا كان الامر كذلك فما مبلغ علم المرأة من المكيدة التي كنا على وشك انجازها حينئذ وهي نسف قسم من قلعة شلسبرج وتخليص سائر المسجونين السياسيين هناك فكان يحتم علينا اذ ذاك معرفة ما اذا كان هذا الظابط وامرأته لايزالان في قيد الحياة وهل يعلمان شيئاً من هـذه المكيدة الجديدة وأرسلنا صورة الرجل وامرأته الى سائر فروع الثورة دون أن نتمكن من الحصول على خبر يوثق به

ولبثت مع بعض الاصدقاء نرقب منزل السيـدة التي دعت نفسها مدام شنكوف نهارًا وليـلاً ونحن نتراوح في العمل ونرقب الجيرة بكل حرص واعتناء لأن الاساليب التي كنا نسير عليها بديعة في بابها وعلى غاية الانتظام والدقة حتى أنه متى أصدرت اللجنة العاملة امرها برقب أحد كان لاخلاص له ولامناص

ولم يكن بعد هذا سوى حين من الزمن حتى وُجدت جثة الظابط مرلوف طافية على وجه الماء ولما تأكدنا أنها بالحقيقة جثتـه وان امرأته لم يظهر لها أثر وجهنا اهتمامنا الى انحاء أخرى من جوار مدينة لندرا وحدث أنه بينما كنت برفقة أحد الأصدقاء صباح يوم نتمشى على ساحل البحر في احدى قرى انكلترا التي على الشواطىء شاهدنا عن بعد شبح امرأة ذاهبة الى القرية من جهة الشاطىء فتأملتها جليًا فاذا هي السيدة مدام شنكوف فكدت أطير فرحًا لهذا الاكتشاف وأخذنا نقتفي خطواتها حتى رأيناها دخلت نزلاً هناك معروفًا بنزل الملكة منتحلة اسم مسز وليمس

وبعد هذا الاكتشاف بساعتين كنت بين النازلين في ذلك النزل فاستأجرت غرفة في ذات الطابق الذي كانت فيه نينا وعقدت النية على لزوم العجلة في العمل وبعد العشاء رأيتها داخلة غرفتها فوضعت في جيبي منديلاً وزجاجة صغيرة وذهبت توًّا الى غرفتها ودخلتها دون قرع على الباب فوجدتها مستلقية على ديوان من الحرير فقلت لها

« ها اننا ياسيدتي فقد التقينا مرة أخرى »

فلما رأتني ذعرت ذعرًا شديدًا واحمر وجهها من شدة الغيظ وتأملت فيَّ قائلة « لا تظن أيها الرجل اني كنت جاهلة أمرك قط فانت النهلستي المعروف غورتشاكوف سرجيوس فلاديمير فاخرج من حضرتي والاَّ قرعت الجرس ودعوت الخدم لاخراجك بالقوة

فنظرتُ اليها باسماً وقلت لها « انك لن تفعلي ذلك يا سيدتي » ووقفت بينها وبين الجرس ولم يكن الا كمثل غمض الجفن حتى أخرجت المنديل وسكبت عليه شيئًا من الزجاجة التي في جيبي ووضعته على أنفها وفمها معًا فحاولت التملص مني ولكن لم يكن سوى دقيقة من الزمن حتى استلقت على الارض وقد شهقت شهقة طويلة وفقدت الشعور ثم فتحت خزانتها فوجدت هنالك كتبًا رسمية من وزارة الداخلية وصورًا فوتوغرافية فوضعت سائر هذه الاشياء في جيبي ولما هممت بالانصراف خطر لي أنه قد يمكن أن تكون قد خبأت أهم الاوراق في طيات ثوبها ففككتُ أزرار صدرتها واذا برزمة قد برزت على شكل ثدي اصطناعي طيها مذكرة فيها أسماء أعضاء اللجنة الثورية في لندرا وأسماء مشاهير أعضاء الجمعية وفي صدرهم اسمي أنا نفسي وبعد قراءة الورقة وضعتها في جيبي ثم نظرت في وجه السيدة واذا لونه قد علته صفرة الموت فوضعت يدي على قلبها واذا به ساكن لا حركة فيه على الاطلاق فعلمت اذ ذاك أني قد نشقتها جرعة كبيرة من الكلوروفورم أودت بحياتها فوقفت أمامها لحظة مبهوتًا وقوف القاتل أمام المقتول فترنحت من شدة الأسى ترنح السكران وكدت أسقط على الارض ولكن تجلدت وخرجت من الغرفة دون أن يشعر بي أحد من الناس وحتى الآن لا تزال

رائحة الكلوروفورم واسمه في مخيلتي جزاء هذه الجناية العظيمة التي قد اقترفتها

الفصل الحادي عشر

« صعقات موسى يوم دُكَّ الطور »

لابدّ لي الآن من أن أقص عليك يا طبيبي تفاصيل تلك الحادثة العظيمة التي دوت لها ارجاء أوربا واهتزت لوقعها انحاء العالم المتمدن تلك الجناية العظيمة التي لا تزال حتى الساعة تقلق ساعات نهاري وهدو ليلي بعدهذه السنين الطويلة ألا وهي محاولة اغتيال القيصر اسكندر الثالث والقيصرة حين نسف قطارهما الملكي وبصحبتهما نخبة وزراء الامبراطورية وجلة رجال الأمة وزهرة شبان الأشراف وقد لبث تفصيل هذه المكيدة حتى الساعة طيّ الخفاء والكتمان اذ لم يتسنّ لاحد الوقوف على أسرار هذه الدسيسة التي أدهشت أدهى الجواسيس وأعاظم السياسيين ونخبة الكتاب وكان من أمرها أن نحوًا من خمسين شخصاً من السيدات والرجال الابرياء حُكم عليهم بالنفي الى مناجم الفضة من أقاصي سيبيريا وهم برآء من كل جناية بيدا أن الجانين الحقيقين تملصوا ولم تتمكن الحكومة بعد الجهد الجهيد والعناء الشديد من الوقوف على شيء من أثرهم

ولما لم يكن بد من التحفظ التام والحذر الشديد في القيام بهذه المكيدة التي يصح أن يقال عنها أنها أعظم وأجرأ مكائد النهلست نقلت اللجنة العاملة نادي الثورة الى قهوة حقيرة من شارع لندرا خوفاً من جواسيس السفارة الروسية فانعقدت الجلسة الرسمية في منتصف الليل وكان الرئيس بتروف قد عاد ذلك النهار من بطرسبرج فجلس في كرسي الرياسة تحف به أهم الاعضاء الذين كنت في صدرهم ولما انتظمت الحلقة قام فينا قائلاً :

« أيها الاخوان لقد حان الوقت أن نضرب ضربة قاضية يرن صداها في سائر ارجاء أوربا وتهلع لها قلوب الأرضين طرًّا فهل أنتم موافقون على ذلك ؟ »

فأجابه سائر الاعضاء بالاجماع دون ان يتخلف أحد و بصوتٍ واحد
— « بلى أيها الرئيس أنا امّعةٌ معك في ما تقول »
فعاد بتروف الى الكلام وقال
« أما الآن وقد خمدت أنفاس تلك الخائنة نينا التي انتحلت هنا اسم مدام شنكوف ولم يعد من رقيب نخشى سطوته ونميمته فاني أفيدكم أن القيصر والقيصرة سيذهبان بعد اسبوعين من تاريخ هذا اليوم الى أمستردام »
ثم أخرج بعد هذا من جيبه خريطة روسيا وعليها خط يرسم سفر العائلة الامبراطورية في هذه الرحلة ملونًا باللون الأحمر ومنه يستدل أن القيصر يسافر من موسكو ور يازان وتمبوف واتكارسك حتى ساراتوف ومن هناك يسافر بحرًا على ظهر باخرة تمخر نهر فولكا ثم عاد بعد هذا الى الكلام فقال
« فترون مما تقدم أيها الرفاق أن القطار سيمر في طريقه على خطوط ثانوية لا أهمية كبيرة لها ولذلك يقول اخواننا في بطرسبرج أن الضربة التي نصمم على اجرائها يجب أن تكون في هذه الخطة الثانوية لانها لا تكون تحت رئاسة الجواسيس والعمال كالخطوط المهمة »
فحدقتُ اذ ذاك بالرئيس وقلت له
« ما هو نوع الضربة التي نروم القيام بها ؟ »
فوضع بتروف يده على جبينه غارقًا في أبحر التفكر ثم أجاب
« هذا ما اجتمعنا لاجل الاقرار عليه في هذه الليلة ولما كان يتعذر على رفاقنا في بطرسبرج القيام بهذه المهمة العظيمة لكثرة العيون والارصاد عليهم ترتب على أحدنا هنا القيام بهذه الضربة ومتى سافر الى عاصمة الروس وجد هنالك من اخواننا من يكون له عونًا في انجاز عمله »
فقام أحد الحضور وقال
« قد تكون الوسيلة الفضلى في ذلك وضع ديناميت تحت الخطوط الحديدية كما فعلنا في موسكو »
ثم وقف آخر وأبدى رأيه مقفيًا على هذا الرأي بقوله

« أو نسف أحد الجسور (الكباري) كما فعلنا في اليزابثغراد »

فتأمل فينا بتروف وقال

« أو نسف الآلة البخارية التي تتقدم القطر مثلا ولكن كل هذا لا يجدي نفعاً اذالطريقة الفضلى التي نعول عليها في بلوغ أمنيتنا هي أن تحصل الضربة في نفس القطار وما سوى ذلك عبث »

وبعد ذلك أخرج بتروف من جيبه خريطة أخرى رسم عليها شكل القطار الملكي وحجمه وسائر ما يتعلق به وأسماء الوزراء والأمراء الذين يصحبون القيصر في هذا السفر ثم عاد الى ايضاح التفاصيل الشافية التي من شأنها بيان كل خطوة في تحقيق هذه المكيدة بياناً لم تبق معه حاجة الى زيادة

بقي علينا بعد كل هذا الحكم في امر آخر خطير وهو تعيين الرجل الذي يناط به القيام بهذه الضربة الرهيبة فانتخبنا أولاً أحد أعضاء اللجنة العاملين بيد أنه بعد مداولة طويلة بهذا الخصوص أقرت الجمعية على وجوب القاء القرعة وبعد سحبها وقف الرئيس وقال

« أخبركم أن القرعة وقعت على أحدنا غورتشاكوف سرجيوس فلاديمير »

فلم أتكلم ولكني تبسمت واكتفيت باحناء رأسي وبعدذلك وقفنا للانصراف وقد تبلج الصباح

وبعد هذا ببضعة أيام بلغت مدينة بطرسبرج بعد انتصاف الليل بساعتين وذلك في شهر سبتمبر وكان الجو متلبداً بالغيوم والغيث يهطل مدراراً وأثوابي مبتلة من تساقط الامطار والريح تثور عاصفة وأعضائي متيبسة من الجلوس خمسة أيام متواصلة في قطار مزدحم بالمسافرين فأخذت أسير في شوارع المدينة قاصداً منزل بعض الاصدقاء الذين سيكونون لي عوناً في انجاز مهمتي فلما بلغت جوار نزل كبير من نزل العاصمة شاهدت على ضوء مصباح الشارع شبحاً يجري على مقربة مني فتأملته فاذا هو رجل قصير القامة كبير الرأس براق المقلتين نظر الي نظرة حادة ثم سار في طريقه لا يلوي على شيء

فلم يعترني من ذلك أقل خوف أو قلق لأنه كان بيدي جواز رسمي من

الحكومة ذكر فيه ان اسمي ايفان ايفانوفتش أحد الرعايا الروسيين مولود في أودسا ومقيم حالياً في مونيخ واني عائد الى بطرسبرج للتفتيش على شغل يقوم بأودي وفضلاً عن كل ما تقدم فاني كنت متنكراً أشد التنكر إذ قد حلقت لحيتي وشاربيّ وتزييت بزي غريب كنت معه في مأمن من اكتشاف حقيقة حالي حتى ان جواسيس السفارة الروسية في لندرا لو رأوني في تلك الحالة لم تداخلهم ريبة في أمري ولذلك كنت في غاية الأمن والاطمئنان

وما لبثت حتى بلغت عطفة في الشارع دخلت منها الى زقاق ضيق الى أن بلغت الشارع المقابل فوقفت أمام بيت بجانب حانوت كبير وقرعت الجرس فلم يكن سوى مثل غمض الجفن حتى فتح الباب بيدخفية فدخلت وصندوقي بيدي فوجدت نفسي في موضع ظلامه دامس تكاد تلمس ظلامه بانامك فوقفت حائراً لا أدري كيف أسير وماذا أفعل وبينما أنا كذلك اذا بيدٍ وضعت على كتفي وصوت رجل بجانبي يقول لي همساً

« أهلاً وسهلاً بصديقنا الذى بلغ الآن بطرسبرج تقدم واصعد السلم الى الطابق العلوي حيث أعددنا لك سائر وسائل الراحة »

فلما بلغت المنزل في الطابق العلوي وجدته رحيباً جميلاً فما جلست في غرفة الجلوس حتى عرفني الرجل بنفسه فاذا هو الموسيو كولدنبرغ أحد طلبة الطب في جامعة بطرسبرج ثم عرفني بصديق له هناك وهو صاحب مخزن الحلوى وفيما نحن كذلك اذا بسيدة هيفاء قد أقبلت علينا فقال لها كولدنبرغ « أحضري يا عزيزتي أولغا الطعام لضيفنا لأنه لا بد أن يكون جائعاً »

فأرسلت الى السيدة نظرة صرخت بعدها صرخة الدهشة والابتهاج لأنها كانت شقيقتي أولغا بعينها فلما تفرست فيّ لحظة عرفتني وجرت اليّ كالسهم المنطلق فطوقت عنقي بيديها اللطيفتين ولبثنا كذلك دقيقة من الزمن وكلانا يكاد يغمى عليه من شده الجذل وكانت شقيقتي لم تعلم حتى الآن ببقائي في قيد الحياة ظانة اني ميت أو لا أزال في سيبيريا لأني كنت أنتحل أسماء مختلفة فجلسنا نقص على بعضنا حديثنا وما جرى لنا أثناء هذا الغياب الطويل فعلمت أنها سجنت في

قلعة بطرس و بولص بضع سنوات بحجة أنهـا من صاحبات المبادىء السياسية المضرة بحقوق الأمة والدولة ولكنها لم تحاكم قط بل لبثت هذه السنين على هذه الحال الى أن أصيبت بالحمى التيفويدية فأخلى بعد ذلك سبيلها فخرجت الى العالم وهي تحصل قوتها بشغل يديها و بعد هذا ببرهة وجيزة من الزمن تزوجت بكولدنبرع الذي هو أيضاً من أعضاء الجمعية وادخلت نفسها بين عداد النهلست لتأخذ بثارها عما لحق بها من الاهانة والظلم أثناء هذه السنين الطوال فكانت من أجرأ الاعضاء وأشدهم إقداماً وأثبتهم جناناً حتى حيرت عقول ذوي النهى

و بينما كنت أقص عليها حكايتي واذا بالباب الخارجي قد فتح بمفتاح من الخارج ورجل صعد السلم صعوداً سريعاً ودخل علينا وهو يتنفس تنفساً سريعاً ويده على جانبه من شدة الاعياء فنظرنا اليـه فاذا هو رجل متوسط القامة اسود الشعر ذو عينين براقتين ففتح باب المنزل بسرعة شديدة ثم التفت الى الحضور وقال

« حذارِ حذار فان البوليس قادم في هذه الدقيقة للتفتيش بمنزلكم »

ثم التفت نحوي وقال

« فز بنفسك واختبىء وإلاّ أصبحت في عداد الأموات »

ثم خرج من المنزل في طرفة عين

فوقفت شقيقتي أولغا مذعورة وهي تصفق بيديها نادبة سوء حظها وتقول لي « اهرب يا غورتشا كوف اهرب لأنهـم اذا وجدوك قضوا عليك فالهرب الهرب »

ولكن كولدنبرغ التفت اليّ بتأنّ قائلاً

« لا مجال الآن للهرب لأنك اذا نزلت من هنا ألقوا القبض عليك عند البـاب فليس لك الى النجاة سوى طريقة واحدة وهي الاختباء وليس من موضع أفضـل للاختباء من النافذة التي في منتصف الحائط فاصعد اليها وخذ صندوقك معك »

فنظرت الى النافذة واذا هي عالية وليس الى بلوغها من سبيل فتقدم اليّ

كولدنبرغ وأحنى ظهره وقال « اصعد عليّ اليها »

فلم يكن سوى ثانية من الزمن حتى علوت ظهره و بيدى صندوقي فرميت به الى النافذة وصعدت اليها بعدجهدٍ عنيف ثم نزلت منها الى سطح بجانبها وأغلقت خشبها وكانت الريح عاصفة والسطح الذي وقفت عليه مائلاً حتى كدت أسقط من موضعي الى أسفل فتمسكت بخشب النافذة الى أن وجدت جدارًا صغيرًا الى جانب النافذة فجلست عليه وأحنيت برأسي الى الامام فتمكنت بذلك من مشاهدة الغرفة التي كنت جالساً فيها دون أن يراني أحد فوجدت أن شقيقتي أولغا جالسة بجانب النار و بيدها كتاب والى جانبها زوجها وصديقها وكانت لوائح الهدو والسكينة على وجوههم وذلك تغريرًا للقادمين

و بعدوصولي الى النافذة بدقيقة واحدة دخل خمسة أنفار من ضباط البوليس وما بلغوا باب المنزل حتى نظر اليهم كولدنبرغ وهو على أشد الاندهال رافعاً حاجبيه مقطباً جبينه من شدة الاندهاش بينا أن سافاروف تقدم وقابلهم نحو الباب بكل بشاشة وأنس وهو يرحب بهم بيديه و يدعوهم للدخول والتفتيش في الموضع أما أولغا فانها أظهرت لقدومهم انذعارًا عظيماً وقابلتهم بأنفة وكبرياء من أجل هذا التطاول بدخولهم بيت قوم أبرياء من كل مكيدة أو دسيسه

فوقف الضباط وهم حيارى يجيلون أنظارهم في نواحي الغرفة فلا تقع على الشبح الذي أتوا لأجله وسط هذه الزوابع والأمطار ثم حصل على أثر ذلك مناقشة طويلة وأسئلة وأجوبة شتى لم أتمكن من سماع شيء منها لشدة الزوابع والرياح ولكني كنت أستنتج وأستدل على ذلك بما أمامي من حركات اليد وملامح الوجه وكان سافاروف أول من سئل فأجابهم بتأن وابتسام دون أن يلوح على محياه شيء من علائم الاضطراب بينا أن كولدنبرغ كان واقفاً يدخن بلفافته وظهره مسند الى الحائط ينظر اليهم نظرة الرجل البريء يضحكه مثل هذا الموقف الذي هو أدعى الى السخرية منه الى الخوف ثم أتى دور شقيقتي أولغا فخاطبتهم كملكة لحق بها الحيف تو بخ أقواماً تجاسروا على اقلاق راحتها ثم رأيتها قد دفعت اليهم جوازها الذي فيه الاباحة لها بسكنى بطرسبرج فأعاده اليها الضابط الذي استلمه

بلطف وأدب وهي خطة بعض ضباط الروس في كل حال حتى ولو كنت ذاهباً بين أيديهم الى الشنق

ثم بعد هنيهة أمرهم الضابط الأكبر بينهم بتفتيش المنزل فذهبوا الى سائر جوانبه وأنحائه ولم يتركوا فيه زاوية أو خزانة أو صندوقاً دون أن يفتشوه وبينا هم كذلك خطر لي أمر ذعرت لأجله ذعراً شديداً وهو أنه قد يخطر لهم تفتيش النافذة التي كنت جالساً بجانبها فألصقت جسدي بجانب الجدار من الوراء ولم أكد أفعل ذلك حتى سمعت فتح النافذة ورأيت رأساً مطلاً منها يحدق في ذلك الظلام الدامس تحديق النسر فلبثت في موضعي لا أبدي حراكاً حتى اني قطعت التنفس ولم يكن إلا كلمح البصر حتى عاد فأغلقها قائلاً « ليس من أحد ههنا »

ثم عاد الى الغرفة وعاد الضابط الى تفتيش سائر الأوراق التي هنالك فلم يعثروا على شيء يلقي أدنى شبهة في أمرهم وبعد هذا العناء الشديد قفلوا راجعين فسمعت وقع أقدامهم على السلالم الى أن بلغوا الشارع حتى لم يعد يسمع لأصواتهم شيء من الصدى فنزلت إذ ذاك من مخبئي وتعانقنا لشدة جذلنا وللخلاصنا من الوقوع في شراك هؤلاء الاقوام وبعد أن تحدثنا طويلاً ذهبنا للمنام ولكن كولدنبرغ لبث قائماً يخفر المنزل خوفاً من اعادة البوليس الكرة علينا

***

وبعد بلوغي بطرسبرج بثلاثة أيام كانت محطة السكة الحديدية مكتظة بأمراء المملكة وأشراف البلاد وكبراء الوزراء وأعاظم الحكام ونخبة أعيان القوم قياماً بفروض الوداع للقيصر في هذا السفر الميمون والعساكر والفرسان على جانبي الطريق لاداء التحية العسكرية ولما تحرك القطار اهتزت جوانب الفضاء من هتاف القوم الذي بلغ عنان السماء فجرى القطار الهوينا، وكان مؤلفاً من خمس عربات تشغلها أعضاء العائلة القيصرية وحاشيتها الكبيرة وفي جملتها وزير المالية والداخلية والجنرال بيلي وزير الجاسوسية وغيرهم من أصحاب المنزلة السامية والمقامات السياسية وأما العربة السادسة التي كانت وراء القاطرة فهي المطبخ

الامبراطوري وتوابعه وكان في جملة خدمته أنا وصهري كولدنبرغ

أما الطريقة التي تمكنا بها من الدخول في عداد خدمة المطبخ الملكي أثناء هذا السفر فهي من جملة أسرار النهلست العظيمة الا أني اكتفي بافادتك أن خادمين من خدمة المطبخ مرضا أو تمارضا في اليوم التالي بعد وصولي الى بطرسبرج وان صديقنا سافاروف صاحب معمل الحلوى الذي هو جار كولدنبرغ أرسلنا لنكون بدلاً منهما وكان في جملة الخدمة الآخرين أحد أعضاء البوليس السري متنكرًا بزي خادم للمائدة الامبراطورية وعليه كنا على أشد الانتباه والحذر

فسار بنا القطار باسم الله مجراه يقطع البيد والقفار وينهب الأرض نهبًا في تلك السهول المترامية الأطراف بين هضاب ڤالدي ونهر الڤولكا وكانت الاحتياطات التي اتخذها القوم لوقاية القيصر في هذا السفر بالغة غاية الشدة والحذر حتى ان سائر الخطوط الحديدية كانت ملأى بالعساكر الكثيرة على جانبيها في أثناء هذه المسافات الشاسعة بين بطرسبرج وموسكو وهتاف الترحاب والدعاء باليمن والاقبال متواصل على الدوام حتى أنه لم ينقطع دقيقة قط ولما بلغنا موسكو لم يقف بنا القطار بل واصلنا المسير على خط تمبوف في أواسط روسيًا

وبعد نحو نصف الليل بساعتين ذهب أكثر الخدمة للنوم ليريحوا أجسامهم ساعة من الزمن ولم يبق منهم معنا سوى إثنين فقط فوقع لي اذ ذاك أن أحمل شيئًا من الخمر المعتق الى المائدة الامبراطورية حيث تناوله مني عند الباب البوليس السري المتنكر فتمكنت اذ ذاك من إجالة الطرف لحظة في داخل غرفة المائدة فرأيت أن القيصرة ووصائفها قد ذهبن الى غرفهن الخاصة بالمنام وان جلالة القيصر كان جالسًا مع اثنين من كبار الوزراء يدخّنون ويشربون الخمرة

فعدت الى عربة المطبخ اشتغل بتنظيف بعض الآنية الذهبية واذا بكولدنبرغ قد دخل عليَّ مقفلاً الباب وراءه ووجهه شاحب كأوجه الموتى والعرق البارد يقطر من جبينه فالتفت اليه منذعرًا وقلت له « ما وراءك يا كولدنبرغ ؟ »

فأحنى رأسه عليَّ وهمس في أذني قائلاً وهو يرتجف

« ان الآلة قد وُضعت وضعًا عاموديًا

— « منذ كم من الزمن ؟ »

— « لا أدري تماماً ولكني أظن منذ نحو ربع ساعة »

فلم أتوقف بعد هذا لحظةً قط بل فتحت الباب وسرت الى الجهة المركزية من العربات حيث كانت هنا لك خزانة فيها أنواع الحلوى فنظرت الى الأسفل فوجدت في قاعها قطعة من السكر هرمية الشكل صغيرة الحجم أحضرتها معي من لندرا ولا يمكن لأحد أن يشتبه في أمرها شيئاً على الإطلاق حتى أن جانباً منها كُسر من جهة الرأس واستعمله الطبَّاخ في تحلية الطعام وكانت لفافة الورق الزرقاء التي يُلف بها السكر لا تزال حول الأجزاء الباقية فلم يكن هنا لك من شيء يميزها عن غيرها من نوعها ولقد كنت أخذت سائر الإحتياطات في أثناء هذا السفر لإبقاء هذه القطعة مُسندة أفقيًّا فاستنتجت أن أحد الخدمة فتح الخزانة منذ بضع دقائق وإنه لما وجدها تروح ذهاباً واياباً بارتجاج القطار وضعها وضعاً عامودياً لكي لا تتحرك ولما لمستها لكي أعيدها الى وضعها الأصلي الأفقي وجدت أن أصابعي لمست مادة غروية كثيفة فأيقنت عند ذلك أنه لا يمكنني تأخير الخطب فقفلت راجعاً الى موضعي حيث كان كولدنبرغ فسألني

« ماذا نفعل الآن ؟ »

فأجبته على عجل

« ليس لنا الآن سوى سبيل واحد للخلاص »

« وما هو ؟ »

« ان نقفز من القطار طلباً للنجاة »

ثم تطلعنا من النافذة الى الخارج فرأينا أننا قد بلغنا محطة تبعد عن بوركي نحو عشرين ميلاً أي بجانب الموضع الذي عيناه لضرب الضربة القاضية فيه وكان في المطبخ الخادمان الآخران يدخنان ويشربان القود كما فقلت لكولدنبرغ بصوتٍ عالٍ لكي يتمكن الخادمان من سماعنا « تعال ننظر الى هذه المحطة فإن بجانبها بلدة أعرفها يوم كنت يافعاً » ثم خرجنا من المطبخ وفتحت باب العربة وكان القطار سائراً بسرعة شديدة والظلام حالكاً والامطار تتساقط بغزارة فقلت

لكولدنبرغ « أتبعني » ثم قفزت من جانب العربة الى الخارج فشعرت على أثر ذلك بلطمة على رأسي ثم فقدت الشعور ولم أعد أعِ شيئاً ولما عاد اليَّ رشدي رأيت كولدنبرغ واقفاً فوق رأسي ونحن في أرض مملوءة بالأعشاب فتطلعت واذا بالفجر قد انبثق

فوقفت على قدميَّ أترنح كالسكران ثم التفت الى كولدنبرغ قائلاً « ولكن ماذا جرى للقطار ؟ »

فقال لي وهو يهز كتفيه « كيف أعلم » ثم أشار بعد هذا بيديه الى رزمة من الثياب على جانب الطريق قائلاً « ان اخواننا في تمبوف لم ينسونا »

فقلت له بلهفة

« أتمكنت من أن تجدها ؟ »

فقال « نعم ولقد كانت مودعة في هذا الكوخ الحقير الذي بجانبنا »

ولم يمض سوى بضع دقائق من الزمن حتى خلعنا ثيابنا وارتدينا الثياب الرثة التي وجدناها في جوار ذلك الموضع وبذلك تقمصنا في مثل غمض الجفن من خادمين لجلالة القيصر الى فلاحين فقيرين وبيدنا جوازان كنا قد استحصلنا عليهما قبلا فيهما أسماء منتحلين وانا نتجول في تلك المديرية طلباً للأشغال

وبعد الجولان من موضع الى أخر بلغنا أخيراً بلدة أركاداك حيث نزلنا ضيوفاً في بيت العمدة الذي كان في عداد جمعيتنا وكانت الإحتياطات التى اتخذتها جمعية الثورة في تمبوف لتسهيل الهرب لنا بالغة غاية الإتقان والعناية فاننا بعد أن تركنا البلدة المشار اليها بقليل وجدنا هنالك عجلة نقل تنتظرنا فركبنا فيها ونحن ننتقل من بلدة الى أخرى الى أن بلغنا مدينة على الحدود تسمى فربمالن وصلنا منها الى كنغرسبرغ وسافرنا من هناك الى انكلترا وكان البوليس أثناء هذا السفر كلما بلغنا بلدة يفحص جوازنا فيجده على غاية ما يرام من اتباع الأصول المرعية الاجرآء في روسيا وقد اشتريت أثناء السفر في روسيا بعد نزولنا من القطار الملكي بعض أعداد من الجرائد الروسية كالنوفوفريميا وموسكو غازيت ونسكوي بشالا فلم يكن في أحدها ذكر قط للرحلة الامبراطورية وذلك لأن

وزير الداخلية أصدر أمرًا قاطعًا يمنع فيه الجرائد عن الايماء الى الحادث الذي لم أعلم بشيء من تفاصيله الاّ بعد عودتي الى انكلترا

ولما بلغت لندرا تلقاني الرئيس بتروف بالبشاشة والترحاب ثم أطلعني على أحد أعداد جريدة التيمس الشهيرة فكان فيه تحت العنوان الآتي بيانًا موجزًا للفاجعة

« فاجعة عظيمة في روسيا : مكيدة ضد القيصر »

« حدث عند بلوغ القطار الامبراطوري محطة بوركي فاجعة أليمة اهتزت لها جوانب الامبراطورية الروسية وهلعت قلوب الوزراء والحكام لهذا الخطب الجلل وذلك أن القطار الذي يقل جلالة القيصر والقيصرة ووزراء الدولة وعظماء الأمة نسف بالديناميت نسفًا فتحطمت سائر عرباته واحترق أكثرها وقتل عشرون رجلاً وجرح عدد غفير من الركاب وفقد أثنان من الخدمة أما الأسرة الملكية فقد نجت من هذا الخطب وكانت نجاتها اعجوبة عظيمة فان الديناميت حطّم في وسط القطار موضع الانفجار وعطل السكة الحديدية التي أسفله وما جاورها وفتح فيها فوهة كبيرة لحفر الارض حفرًا وسحق القضبان الحديدية الكثيفة أما البيان الشافي بهذا الخصوص فلم يرد منه شيء حتى الآن وذلك لأنه قد صدرت الأوامر بعدم نشر شيء من هذا القبيل الى أن يتم التحقيق بشأنه وقد ألقي القبض على سائر من بقي من الخدمة أحياء وادارة البوليس توالي البحث بجهد لا يعرف الملل ونشاط لا يدركه خمول ومتى انجلت الحقيقة أتينا على تفاصيلها الضافية الذيول »

ولا بد من الايماء هنا الى أن هذه المكيدة كانت أعظم المكائد التي قام بها النهلست وأدقها احكامًا وأوفرها اتقانًا وأغمضها أسرارًا فانه كان وسط ذلك الهرم الصغير من السكر آلة محكمة الوضع والاتقان قام على عملها أبرع العمال وهي مؤلفة من ساعة أميركانية صغيرة يتصل بها أنبوبان من الزجاج يتضمنان سائلين من أشد السوائل المعروفة تفرقعًا وأهلكها انفجارًا فاذا ما أديرت الساعة بالزنبرك ووضع الهرم وضعًا أفقيًا اقتضى لاتمام العمل وانكسار الأنبوبين وتلاقي

السيالين المتفرقعين نحوًا من أربع وعشرين ساعة أما اذا وُضع الهرم عموديًا دارت الساعة وانكسر الانبوبان واتحد السيالان وحصل التفرقع الهائل في نحو ربع ساعة فقط وقد كان الاختراع على هذه الصورة حتى اني اذا لم أتمكن من دخول القطار الامبراطوري في جملة الخدمة أدخلنا الآلة مهربة مع لوازم الطعام وأنواع الحلوى موضوعة وضعًا عاموديًا فتنفجر بعد ذلك بربع ساعة أما خلاص الأسرة الامبراطورية وعدم ذهابها ضحية هذا التفرقع الهائل فيعلل عنه بهذا الانفجار العامودي الذي ذهبت فيه قوة الديناميت بين الجو والأرض أما لو بقيت الآلة على وضعها الأصلي وانفجرت انفجارًا أفقيًا لم يسلم من سائر الذين كانوا في ذلك القطار شخص واحد ولأمست سائر العربات هباء منثورًا

وبعد أن انتهيت من مطالعة المقالة تقدم اليَّ بتروف وعانقني طويلاً ثم قال

« أهني صديقي غورتشاكوف سرجيوس فلاديمير لانتخابه رئيسًا عامًا وجنرالاً للنهلست في سائر أنحاء أوربا »

فوقفت متذعرًا وقلت له «ماذا تقول؟» فدفع اليَّ قرارًا رسميًا يعلن أن اللجنة العاملة قد انتخبتني في اجتماعها الأخير زعيم النهلست العام وانها وكلت بتروف بالذهاب الى روسيا لقضاء مصالح خاصة تتعلق بالجمعية

الفصل الثاني عشر

« وما ظالم الا سيبلى بأظلم »

بينما كنت تلك الليلة جالسًا مع بتروف في نادي الثورة أستريح من مشاق ذلك السفر الذي دوت لنتائجه أنحاء أوروبا دويًا عظيمًا هممت بالانصراف فأمسكني بتروف وقال ستبقى هذه الليلة معنا للعشاء وخصوصًا لأننا في انتظار أخ صدوق ثم دفع اليَّ كتابًا محررًا بالأحرف النهلستية التي لا يتأتى لأحد حلها سوانا فاذا فيه ما يأتي

« ان مزراكي أو بندورف الذي سيصل الى لندرا مساء الخميس القادم هو أحد الاعضاء المهمين في لجنة الثورة في موسكو ولقد سجن مرتين متواليتين احداهما في شلسبرغ والأخرى في سجن القديسين بطرس وبولص وأتيح له الآن الهرب ولقد بعثنا به اليكم لأننا على ثقة أنه سيكون من الاعوان الامناء الذين لخدماتهم شأن كبير وذلك لما هو عليه من الجرأة والاقدام ومعرفة كثير من اللغات الأوربية التي تسهل عليه بلوغ المراد وبما انه ذو ثروة كبيرة فهو ليس في حاجة الى شيء من الدراهم أو تقديم اسعاف له من اللجنة العاملة ومتى بلغ لندرا يسلمكم كتاباً منا لتعريفه بكم

رئيس جمعية الثورة في موسكو

مكس هونفرسكي

فأرجعت الرقيم الى بتروف وقد أحنيت رأسي على كرسي مريح ولبثت كذلك أدخن لفافتي وأنا أتأمل في الوقائع التي حدثت على يدي منذ عهد قريب واذا ببتروف وغيره من أعضاء اللجنة يترحبون بالزائر الجديد وهم يتكلمون الروسية ثم دخلوا جميعاً وعرفوني به فاذا هو شاب ربعة القامة يناهز الثلثين سنة من العمر ذو عينين صغيرتين براقتين فنزع عنه وشاحه وجلس بجانب النار ثم أخرج من جيبه رقيماً وسلمه لبتروف

ولما جلسنا على المائدة كنت بجانبه فأخذ يحدثنا عن حركة الثورة في روسيا وتنبه خواطر رجال الأمة الى المطالبة بحقوق الشعب وكان في انتقاده الحكومة شديد اللهجة حاد اللسان جريء الجنان وكان كلامه فصيحاً وحديثه يأخذ بمجامع القلوب والالباب وبعد أن انتهى من كل ذلك سألته أن يقص علينا شيئاً من أمره وما جرى له فقال ان المصائب التي حلت عليه لو وقعت على جبل لتصدّع ثم نظر الى بتروف وقال

« أتعرف سجن شلسبرغ المظلم وغرفه الرطبة التي هي تحت الارض ؟ »

فتأوه بتروف قائلاً

« كيف أنسى ذلك الجحيم الأرضي وقد سجنت فيه مع امرأتي وذقت مرارته وشدّة بلواه ولقد أودت هذه الحال بامرأتي العزيزة الى الجنون

وها هي الآن في مستشفى المجانين »

فالتفت أو بندورف الينا قائلاً

« ان الجنون هو نصيب أكثر أولئك التعساء الذين قضى عليهم الظلم والاستبداد بأن يدخلوا ذلك المكان الهائل ولقد كاد يعتريني الجنون أثناء سجني فيه ولكني كنت على الدوام أتمشى في غرفة السجن أنظم الشعر و بقيت على هذا المنوال أسابيع وأشهرًا ولولا ذلك لكان فيّ مسّ من الجنون ولبثت صابرًا على مر البلوى الى أن قيض الله لي الهرب وكيفية ذلك أن فريقًا كبيرًا من المجرمين القتلة أرسلوا الى هناك من بطرسبرج حتى غصت بهم غرف السجون فنقلني السجان من موضعي الى غرفة من غرف البرج الكبير هناك وهي غرفة بسيطة لها نافذة تطل على الجسر (الكبري) وهي عالية ولكن في أسفل النافذة أنبوبًا كبيرًا للماء ينحني على سطح مائل لا يتعذر على الجريء إستعماله سبيلاً للهرب ولما كانت هذه الفرصة هي الوحيدة التي تمكنت بها من الهرب عزمت على المخاطرة بحياتي لأن الموت أفضل من ذلك السجن الرهيب ولذلك اصطنعت حبلاً من ثيابي وتدليت على الجسر الذي يصل الى السجن بالضفة الأخرى من النهر و بينا كنت أهني نفسي على هذ الحظ السعيد الذي كان لي رآني أحد الحراس وصاح برفاقه لاتباعي فجريت في الحرج المجاور كالسهم اذا انطلق فجري ورآءي بضعة نفر من الحراس ولكنهم لم يتمكنوا من اتباعي إذ أني بعد بضع دقائق اختفيت بين الأشجار الغضة وأصبحت في مأمن منهم وما لبثت في مخبأي بضع دقائق حتى رأيت نحو عشرين فارسًا من حرس الفرسان ينهبون الطريق نهبًا فلما تواروا عن الأبصار خرجت من مخبأي وقصدت جانب نهر النيفا فرأيت على الشاطىء المقابل ما ظننته سواري مراكب وكان بجانبي عدد غفير من البحارة فعرضت روبلين على أحدهم لكي يقطع بي النهر الى الضفة الأخرى ولما سألني الرجل الباعث على ذلك أخبرته أنّ هنالك مركبًا أحب ركوبه فنظر إليّ الرجل شزرًا وسألني من أنا فأخبرته أني أحد الفعلة فحدق بي كمن اشتبه بأمري فخطر لي أن أجري ركضًا تخلصا من هؤلاء الأقوام ولكني رأيت بعد النظر أن

ذلك من المحال لأن عدد البحارة غفير وقد أصبحوا محيطين بي من كل جانب فاضطررت أخيرًا الى الاقرار بحقيقة أمري فثارت في قلبه عاطفة الحنان عليّ وقطع بي النهر ولما بلغت الضفة الأخرى نظر اليّ قائلاً « لا تقل لغيري بعد الآن انك تقصد مركبًا في هذه الضفة لأن ذلك كان منذ نحو عشرين سنة أما الآن فلا يوجد فيها مركب واحد أبدًا» فصرفت ذلك النهار وأنا تائه بين الادغال ولما أمسى المساء بلغ التعب والجوع مني مبلغًا عظيماً فأخذت أسير طلبًا للوصول الى قرية من القرى فلما وصلت اليها قرعت أبواب القوم فلم يكن منهم من يقبلني ضيفًا في بيته وأخيرًا ذهبت الى بيت عمدة البلدة ولما فتح لي الباب أخبرته اني أحد طلبة العلم في بطرسبرج حضرنا للنزهة ثم ان أصحابي عادوا وتركوني بعد أن غلب الكرى أجفاني من وفرة القودكا التي تعاطيناها فأخذني الرجل اليه وفي صباح اليوم التالي استأجرت قاربًا و بلغت بطرسبرج فنزلت عند بعض الأصدقاء الذين آووني ولبثت هناك آمنًا و بعد أن فتش عليّ البوليس جهده على غير طائل سافرت من بطرسبرج كأحد العمال الى أن بلغت لندرا»

ولما عدت الى منزلي تلك الليلة طلبت من أو بندورف أن ينزل ضيفًا عندي فقبل ذلك شاكرًا فكنا نجول سوية ونقوم ببعض الخدامات التي تطلبها جمعيتنا سوية فوجدته شديد العزم رابط الجأش كثير الحزم والاقدام فتمكنت بيننا عرى الصداقة والوداد وكنا نذهب الى نادي الحرية سوية حيث نلتقي بجمهور من أعيان الانكليز وجلة النهلست

وحدث ذات يوم بينما كنت جالسًا وحدي في منزلي ان أحد سعاة البريد قد دخل عليّ ودفع اليّ كتبًا عديدة باسمي واسم صديقي أو بندورف و بينما كنت أتأمل فيها وجدت أحدها باسم أو بندورف معنونًا الى السفارة الروسية وعليه طابع حكومة روسيا فعلمت ان الساعي قد أحضره الى منزلي خطأً فأقفلت الباب وفضضت الغلاف فاذا فيه ما يأتي

« عزيزي أو بندورف

« إن التقارير التي بعثت بها الينا بعد بلوغك لندرا أتت مصداقًا لما تكهنا

بخصوصه هنا وهو أن الفاجعة التي حصلت لجلالة القيصر انما هي مكيدة نهاست لندرا قام باخراجهامن حيز الخيال الى عالم الحقيقة ذلك المارق غورتشا كوف سرجيوس فلاديمير الذي سينال يوماً جزاء ما جنت يداه ولقد رفعنا خلاصة تقاريرك الى وزير الداخلية ولا يمر زمن طويل حتى يصدر الأمر بتعيينك رئيساً للبوليس السري في لندرا ومتى أنجزت مهمتك هناك تعود الى بطرسبرج مستشارا لوزارة الداخلية ولقد عقدت النية على التوجه الى باريز بعد أسبوع من الزمن فعليك بارسال سائر التقارير باسمي الى نزل الامراء في شارع اللوفر وسيكون قدومي الى عاصمة الفرنسيس صاعقة تنقض على أعدائنا من حيث لا يدرون »

الجنرال ملاكوف

هذا هو عدوي الألد ملاكوف الذي أوقعني وشقيقتي تحت أفاعي السياط فأدمى الجلد وكان باعثاً على ارسالي الى أقاصي سيبيريا ذلك المنفى الذي لا تزال أهواله مطبوعة على مخيلتي كأنها طبعت بنار — هوهو نفسه تعين رئيساً لبوليس بطرسبرج والآن قادم ليقع في الشراك التي نصبها لنا وهذا أوبندورف الذي ترحبنا به ترحب الاخ بأخيه والصديق الودود بصديقه الودود لم يحضر الا ليكون حية تسعى بين أعضائنا ورقيباً على حركاتنا وجاسوساً على أعمالنا فذهبت توًّا الى نادي الثورة ووزعت رقاع الدعوة على أعضاء اللجنة العاملة فانعقدت الجمعية تلك الليلة وحكمت على اوبندورف بالاعدام فلما عدت في المساء الى منزلي وجدت رقيماً من اوبندورف يقول فيه أن قد عرضت له بواعث تضطره الى تأجيل حضوره الي نحواً من أسبوعين

وبعد أسبوع من الزمن توجهت الى باريس فوجدت لجنة الثورة هنالك في اضطراب شديد فان ملاكوف قد بلغ المدينة مساء اليوم الماضي وقد علمت جواسيسنا هناك أن الموسيو لوران رئيس بوليس المدينة زاره في نزل الامراء ولبث معه برهة طويلة في حديث ذي شجون الغرض منه ايجاد وسائل سرية يمكن أن يبنى عليها حكم في تسليم بعض أعضاء الثورة هناك الى الحكومة الروسية واعادتهم الى تلك البلاد ومعنى ذلك الحكم على هؤلاء الاقوام الابرياء بالنفي

المؤبد والاشغال الشاقة في مناجم سيبيريا

ولما نزل ملاكوف في نزل الامراء ادعى أنه تاجر حضر لترويح النفس من مشاق الاعمال التجارية ولم يتظاهر بشيء من البذخ والاسراف بل كان عنده خادم واحد فقط يقوم على خدمته ويحترمه كثيرًا أحضره معه من روسيا وكان ملاكوف يتعهد مواضع اللهو ومتنزهات المدينة ويتغيب عن المنزل أيامًا بطولها دون أن يعرف له قرار ومتى عاد الى النزل حضر اليه جماعة من الأقوام بثياب رثة واطمار بالية ينثر الدنانير بين أيديهم نثرًا اذ كانوا يدعون أنهم أقوام ناخ عليهم الدهر بكلكله وعضهم القهر بنابه وأنهم أتوا يستغيثون بهذا الجواد الكريم والمحسن العظيم وما هم سوى لفيفه وآلات مكائده

وبينما كنت سائرًا ذات يوم في شوارع المدينة شاهدت الجنرال ملاكوف راكبًا عجلة وذاهبًا للتنزه الى حرج بولونيا فخطر لي خاطر غريب فسددت خطواتي الى نزل الامراء وقرعت باب منزل الجنرال ملاكوف واذا بخادمه قد فتح الباب وهو شاب نحيل الجسم أصفر اللون فقال لي ان سيده قد خرج ولا يعلم متى يعود فأخبرته اني قد أتيت لغرض هام ولا بد لي من الانتظار الى أن يعود ثم وضعت في يد الخادم جنيهًا فمر بي من القاعة وأدخلني غرفة فسيحة كبيرة تطل على الشارع وكانت تلك الغرفة للجلوس والكتابة معًا فلما انصرف الخادم وأغلق الباب وراءه تلفت فاذا بجانبي طاولة كبيرة عليها كتب شتى ففتحت واحدًا منها واذا هو تقرير مطول عن أعضاء لجنة الثورة في باريز من أحد جواسيس الجنرال وذلك على رقّ من الورق مطبوعة فيه الاسئلة الآتية

« يجب أن يملأ فراغ الجواب على هذه الاسئلة مرة في الاسبوع »

« (١) ما هو اسم الشخص الذي هو تحت المراقبة واسم أبيه وعائلته سواء كان رجلا أو امرأة ؟

« (٢) أين يسكن وما اسم الحي والشارع والمنزل؟

« (٣) أين التقيت به أولا وما هي الظروف التي رأيته فيها وهل رآك هو نفسه؟

« (٤) منذ كم من الزمن سكن في منزله الحالي ومن أين أتى وماذا تعلم عن

موضع سكناه السابق؟

« (٥) هل يسكن منفردًا أو يساكنه أحد آخر واذا كان الامر كذلك فمن يساكنه وماذا تعلم من أمر هذا الرفيق ؟

« (٦) هل في خدمته أحد واذا كان الامر كذلك فما اسمه أو أسماؤهم اذا كانوا أكثر من واحد واذا لم يكن له خادم فمن يرتب غرفته أو غرفه وما هي الاشياء الموجودة فيها ومن تغسل ثيابه وما اسمها وموضع سكنها ؟

« (٧) هل يتناول طعامه في منزله أو في مطعم وأذا كان الامر كذلك فما هو ذلك المطعم؟

« (٨) هل يتردد على مكتبةٍ ما وما هي الكتب التي اقترضها أثناء الاسبوع؟

« (٩) في أية ساعة يترك غرفته وفي أية ساعة يعود اليها؟

« (١٠) كيف يصرف وقته في منزله؟

« (١١) هل هو اعزب أو متزوج واذا كان الامر كذلك فهل له اولاد وكم عددهم؟

« (١٢) هل هو مغرم بامرأة واذا كان الامر كذلك فمن هي وما هو منزلها وأين يجتمعان؟

« (١٣) من يزوره أثناء الاسبوع وفي أي وقت من النهار سواء كان قبل الظهر أو بعده؟

« (١٥) هل صرف أحد الليل عنده سواء كان رجلا أو امرأة واذا كان كذلك فمن هو هذا الشخص أو الاشخاص وما موضع سكناهم؟

« (١٦) هل ترده رسائل أو جرائد من روسيا؟

« (١٧) أية ساعة أشد موافقة لالقاء القبض عليه؟»

وكانت الأجوبة على هذه الأسئلة غاية في الدقة والاسهاب فلم يترك الكاتب تفصيلاً الا أتى على بيانه ولا افادة الا أبان دقائقها أما توقيع التقرير الذي كان بيدي فكان بامضاء أحد الرقباء وعليه توقيع الجنرال ملاكوف ايماء الى انه طالعه ووافق على صحته

وبينما كنت منهمكاً بمطالعة هذا التقرير اذا بالباب قد انفتح ودخل

عليّ الخادم فذعرتُ من ذلك وأعدت الكتاب الى موضعه فتقدم اليّ الخادم باحترام وقال

« أرجوك يا مولاي غوتشاكوف سرجيوس فلاديمير أن تترك الغرفة قبل عودة سيدي »

فشعرت كأن صاعقة قد انقضت على رأسي وتفرست بالرجل قائلاً

« أتعرفني يا رجل؟»

فلم يجب على سؤالي بالكلام ولكنه أحنى رأسه وأدى الاشارة النهلستية فزادني ذهولاً ونظرت الى الرجل سائلاً

« ما اسمك وكيف تأتى لك الوصول الى خدمة رئيس الجواسيس ؟ »

« إسمي جورج كراكوفتش وقدانقضت الآن سنةمن الزمن وأنافي خدمة الجنرال »

« هل تعلم مضمون الرسائل التي ترد على الجنرال من جواسيسه ؟ »

« أنسخ كل تقرير على حدته وأرسله الى لجنة الثورة في بطرسبرج »

« رأيت الآن بين أسماء الذين وقعت عليهم الشبهة من أعضائنا إسم نبتوفسكي أحد اخواننا فهلاّ بعثت اليه تحذيرا ؟ »

« أجل يامولاي وقدباع الآن معمل التبغ الذي يملكه وهو مزمع على الرحيل الى لندرا »

« ولكن ما ذا جرى بابنته نينتا ؟ »

وبينما همّ بالاجابة واذا بصوت وقع أقدام فتقدم اليّ الخادم قائلاً

« أرجوك يا مولاى أن تعجل فهو ذا الجنرال قد أتى - العجل — العجل »

ثم تقدم نحوي وجذبني بيدي الى غرفة مجاورة وأقفل الباب فتمكنت بذلك من الوصول الى السلم والنزول الى الشارع دون أن ألتقي بالجنرال

ولما أرخى الليل سدوله جلست في غرفتي أتأمل بحوادث ذلك النهار وانه لا بد من التعجيل في رحيل نبتوفسكي واذا بأحد الاخوان من لجنة باريز قد قرع الباب شديداً ثم دخل على عجل قائلاً

« ان بوليس باريز قد ألقى القبض على نبتوفسكي وسائر أوراقه وأشيائه وفي جملتها قنابل ديناميت غير كاملة العدة »

فتطلعت الى الرجل منذهلاً وقلت

« ولكن نبتوفسكي قد حُذر وكان على أهبة الرحيل من باريز »

« ذلك صحيح ولكنه الآن في قبضة أيديهم »

فتفرست فيه وسألته نفس السؤال الذي لم يجبني عنه خادم ملاكوف قائلاً

« ولكن ما ذا جرى بابنته نينتا ؟ »

« خرجت من المنزل عصر أمس وحتى الآن لم تعد »

فتعجبت من تمكن بوليس باريز من العثور على قنابل ديناميتية في منزل نبتوفسكي بعد أن وردته رسائل التحذير واستنتجت بعد اعمال الروية أن جواسيس السفارة قد وضعتها هناك عمداً بطرق سرية كما جرى مثل ذلك قبلاً فلبست ثيابي وتوجهت مع صديقي الى موضع اجتماع الأعضاء لنتداول في أفضل الوسائل لانقاذ نبتوفسكي

وفي اليوم التالي حضرت محاكمة نبتوفسكي فوجدت المحكمة غاصة بالجماهير وبينهم شهود من جواسيس السفارة الذين شهدوا بمعاينة القنابل في منزل نبتوفسكي وكان بين الجمهور الجنرال ملاكوف لابساً ثياباً بسيطة وهو يراقب سير المحاكمة باسماً عن وجه يفتر سروراً بفوزه ثم أن بعضاً من رجال السفارة ذكر أن نبتوفسكي في جملة الهاربين من روسيا لجرائم كبيرة وان الحكومة الروسية تطلب تسليمه اليها بعد الذي بدا منه من صنع المفرقعات والآلات المهلكة فأيقنت عندئذٍ أن لا وسيلة لخلاص الرجل وأن نصيبه سوف يكون النفي الى مناجم سيبيريا

وبعد انتهاء المحاكمة توجهت مع صديق الى احدى القهاوي حيث اشترينا بعض أعداد من الجرائد فرأيت في أحداها وهي الايكودي باري ما يأتي

« عثر الليلة الفائتة أحد البحارة المسمى ليبرنيه وهو يصطاد سمكاً على جثة فتاة التقطتها سنارته في نهر السين ولم يوجد في ثياب الفتاة ما يُعلم منه حقيقة أمرها وقد بُعث بالجثة الى غرفة الموتى الى أن يجري بشأنها التحري اللازم »

فلم نبطىء بعد هذا ان توجهنا الى الموضع المذكور الذي هو وراء نوتردام فعلمنا من النظرة الأولى ان الجثة انما هي جثة نينتا السيئة الطالع

ولما وقفت على هذه الحقيقة توجهت توًّا الى منزل الجنرال ملاكوف فسلمني الخادم ورقة أسرعت الى وضعها في جيبي وكانت تقريرًا مفصلاً بخصوص سائر حركات ملاكوف أثناء الأربع والعشرين الساعة الفائتة

ثم ذهبت بعد ذلك الى نادي الثورة في باريز وعقدت اجتماعًا معجَّلاً أتيت فيه على بيان المهمة التي لأجلها أتى ملاكوف باريز ووضعت أمامهم الأدلة والأوراق التي تثبت الجنايات التي قام بها الرجل فبعد مداولة طويلة حكم عليه بالاعدام وألقينا قرعة كالعادة

وكان بين الأعضاء المجتمعين جورج كراكوفتش خادم الجنرال ملاكوف فمشينا سوية بعد ارفضاض الجلسة ولما صرنا في خلوة نظر اليّ قائلاً « لقد جَدّ عليّ من المشاغل ما يضطرني الى ترك خدمة الجنرال في أقرب آن» فتطلعت اليه قائلاً

« اذا كان لا بد لك من ذلك أفلا يمكن أن أحل محلك ؟ »

« بلى ويمكنك إذ ذاك من متابعة رقبه »

« وعلاوةً على ما تقدم فان بيدي شهادات تدل على حسن سلوكي وخدماتي السابقة من أسيادي السالفين »

فتأملني ضاحكاً وأجاب

« ممَّن ؟ »

« من البرنس أوختومسكي »

فتبسم وتابعنا سيرنا ولم يمر بعد هذا بضعة أيام حتى تعينت خادماً للجنرال ملاكوف تمكنت أثناء ذلك من نسخ سائر التقارير التي كانت ترد عليه من عماله السريين رجالاً وسيدات

وبعد نحو ثلاثة أسابيع عثرت بين أعداد الجرائد التي كنت اشتريتها من الباعة على تلغراف منشور في جريدة التان الشهيرة لمكاتبها في بطرسبرج يفيد أن نبتوفسكي الذي ألقي القبض عليه في باريز قد حوكم أمام مجلس عسكري وثبتت

عليه تهمة محاولته اغتيال القيصر فحكم عليه بالأشغال الشاقة المؤبدة في سيبيريا

ولم أكد أنجز مطالعة هذا التلغراف حتى قرع جرس الباب فوجدت هنالك رجلاً ربعة القامة يطلب مواجهة الجنرال و بيده جريدة وعليه ثياب رثة فدخل الى غرفة الجنرال وأغلق الباب وراءه فبقيت جالساً الى جانب الباب أنصت الى ما يكون من أمرهما واذا بملاكوف يقول للزائر

« لقد ثبت عليه تهمة محاوله الاغتيال ومتى علم جلالة القيصر ذلك انهالت علينا انعاماته المتوالية انهيال الغيث على ما أبديناه من الدهاء »

فأجابه الزائر قائلاً

« ولكنه دهاء لو عُلمت سائر تفاصيله انقلبت علينا و بالاً »

« ماذا يهمك أو يهمني لو خسر العالم نهلستياً من هؤلاء الطغام »

« قد يكون ذلك صحيحاً ولكن أنت تعلم يا مولاي الجنرال اننا لم نتمكن من القاء القبض على هذا الرجل في باريز وتسليمه الى الحكومة الروسية الا بتضحية حياة ابنته نينتا »

« ان نينتا انتحرت انتحارًا وعلاوة على ذلك فأنها دُفنت دون أن يعرف أحد جثتها »

فأجابه الزائر الذي لم يكن سوى أحد جواسيسه

« ان نينتا لم تنتحر ولكنها قُتلت قتلاً »

« كيف تعلم ذلك ؟ »

« ان جواسيس الحكومة الروسية حاضرة في كل مكان وكان أحدهم حاضرًا لما رُميت الى النهر وذلك الجاسوس الذي رأى ذلك هو خادمكم المطيع »

فأجابه الجنرال ملاكوف على عجل

« اخفض صوتك لأن خادمي في الغرفة الأخرى فقد يتمكن من سماعك فارع السمع لما أقول لك تجد أني كنت في عملي مصيباً فان لهذه الفتاة حبيباً يسمى مرلن كان من جملة موظفي السفارة الفرنساوية في بطرسبرج ولما كان الرجل يقدر أن يقوم لنا بخدمات مهمة تظاهرت بصداقته غير أني اكتشفت بعد

وجيز من الزمن ان الرجل يميل الى آراء النهلستيين وانه أحد أصدقاء نبتوفسكي الأقدمين ولقد تمكنت نينتا ابنته من معرفة شيء من أمري وان لي علاقة بجواسيس الحكومة الروسية فأغوت مرلن على سرقة بعض الأوراق التي تتعلق بأبيها فانه زارني مرة فتركته وحده في غرفتي بضع دقائق من الزمن تمكن أثنائها من احراز كتاب على غاية من الأهمية فانه لو اطلع عليه القوم في فرنسا كان جزآؤنا الطرد من أرضها لأن في ذلك الكتاب تفاصيل المكيدة والشبكة التي ألقيناها للرجل بوضعنا قنابل ديناميتية في منزله وأنت تعلم ان الوزارة الداخلية في بطرسبرج قد ضاق صدرها من الابطاء والتسويف فكان لا بد لنا إذ ذاك من ايجاد رجل يصح أن تلقي على عاتقه مسئولية ما »

« اذاً ما ترمي اليه هو ايجاد رجل نهلستي يُذنَّب سواء كان مجرماً أم لا »

« لقد أصبتَ كبد الحقيقة ثم أفيدك اني أخذت في رقب مرلن والفتاة حتى تأكدت أن الشاب قد دفع الكتاب اليها دون أن يعرف هو نفسه ما يتضمنه فكان لا بد لنا إذ ذاك من التوصل الى طريقة نتمكن بها من لجم لسان تلك الفتاة والطريقة الوحيدة الفعالة هي الموت وعليه فاني راقبتها حتى اذا ما كانا على مقربة من نهر السين . . . »

« لا لزوم لسرد ما تبقى من الحديث لأني تبعتك الى هناك ظاناً أنك قد تكون في حاجة الى مساعد فرأيتك تدنو من الفتاة بعد أن افترقت عن حبيبها ثم انتشلت الكتاب من جيبها ورميتَ بها الى الماء »

« لو لم أفعل ذلك كانت النتيجة ان الفتاة تذهب بذلك الكتاب الى أحد أعضاء الاشتراكيين في مجلس السناتو في فرنسا فيأخذ ذلك الحزب بناصرها و يطرحون في مجلس الأمة أسئلة بهذا الخصوص عاقبتها علينا الويل والحرَب والخذلان فينكشف أمرنا و يسقط احترام مصلحة البوليس السري الروسي في عيون الأمة الفرنساوية وتسلقنا جرائدها بألسنة حداد و يُحكم علينا بالطرد والخذلان»

فأجابه الزائر « أما الآن فلا خوف علينا من ذلك ولا نحن نحزن بل ان جلالة القيصر سيكون لنا من الشاكرين و يغدق احسانه علينا اغداق الكريم

الجوّاد فتمتلىء جيوبنا بالدنانير وتتألق صدورنا بالأوسمة وإني مقر لك يا مولاي بأنك أدهى دهاة السياسة وأعدك أن لا نعود الى ذكر هذا الحديث مرة أخرى»

وعند ذلك سمعت صوت أقدام في الغرفة فتراجعت الى الغرفة المحاذية فرأيت الباب قد فُتح والزائر خارجاً منه الى أن توارى عن الأبصار في أسفل الشارع

وبعد ساعة من الزمن دخلت على الجنرال ملاكوف فوجدته قد استلقى على مقعد في زاوية الغرفة وأوراقه مبعثرة على الطاولة وبينها مسدس

فلما رآني تفرس فيّ وقال

« ألأمرٍ حضرت اليّ »

فأجبته « لأمرٍ هامّ جدًّا »

« وما هو ؟ »

« لأستقيل من خدمة مولاي »

فنظر اليّ ملاكوف نظرة كلها سخرية وازدراء وأجاب

« أتسمي ذلك أمرًا هامًّا ؟ فأنت من هذه الدقيقة في حلٍّ من خدمتي فاذهب وغدًا أحضر من يقوم مقامك »

« أشكرك اذًا باسم مولاي الجديد »

« من هو هذا المولى الجديد الذي أشغاله السياسية تستدعي كل هذا الالحاح »

« خلِّ عنك المزاح يامولاي فان الرجل من أصحاب السياسة واسمه غورتشاكوف سرجيوس فلاديمير »

فجلس ملاكوف على المقعد كأنه وُخز بحربة وقال لي بلهفة

« هل غورتشاكوف سرجيوس فلاديمير في باريز ؟ »

« نعم يامولاي »

« ومتى حضر اليها ؟ »

« منذ نحو أسبوعين من الزمن »

« هل لك معرفة سابقة به ؟ »

« نعم فقد كنت خادمًا له برهة طويلة في لندرا »

« هل تعرف شيئًا من أمره ؟ »

« أعرف عنه ما لا يعرفه رجل سواي »

« أكان موخرًا في روسيا ؟ »

« لم يذهب فقط الى روسيا ولكنه ذهب حاملاً معه آلة الهلاك الديناميتية لنسف القطار الملكي »

« فنظر إليّ مندهشًا وكله عيون ومسامع وقال

« أتعلم شيئًا عن ذلك ؟ »

« أخبرتك يا مولاي أني أعرف عن هذا الرجل ما لا يعرفه سواي فانه من أسرة فلا ديمير الشهيرة بالثروة فان نصف ينابيع البترول في روسيا ملكهم ولكن أبو الرجل كان من عصابة النيهيلست فحلّ عليه غضب القيصر ونفاه الى سيبيريا وصادر سائر أملاكه ولما عاد إبنه وجد نفسه فقيرًا لا يملك شروى نقير فأخذ يتجول مفتشًا على أمه وأخته إلى أن حظي أخيرًا بهما الواحدة ميتة من الجوع على حصير بال في غرفة مظلمة رطبة والأخرى موثقة الى آلة خشبية ومعراة حتى وسطها والسياط تنهال عليها انهيال الغيث حتى أدمت جلدها وذلك لان ميكروب النيهيلست انتقل اليها من والدها فلما شاهدها شقيقها على هذه الحال ود تخليصها فأمر الحاكم بجلده وأخيرًا نفي الى سيبيريا ثم هرب من هنالك الى اندرا حيث دخل في عداد النيهيلست وقام بأعمال تقشعر لها الأبدان »

« سمعت شيئًا من ذلك ولكن الأمر الذي يهمني الوقوف عليه هو معرفة دخائل تلك الدسيسة التي تم بها نسف القطار الملكي الذي تشير اليه »

« ذلك من أسهل الأمور فإن النيهيلست لما أجمعوا على ذلك أقروا على اصطناع آلة جهنمية قام بصنعها نفس النيهيلستي الذي اخترع تلك الساعة التي دكت قسماً من قصر الشتاء الأمبراطوري ولكن هذه الآلة الأخيرة كانت أغرب صنعًا لانها كانت عبارة عن قطعة هرمية الشكل من السكر تتضمن السوائل القابلة التفرقع على شكل ساعة أمركانية اذا وُضعت عموديًا تفرقعت في ربع ساعة أو أفقية في أربع وعشرين ساعة »

فهز ملاكوف رأسه عدة مرات و بدت على وجهه دلائل الجد والأهتمام وأخرج من جيبه كتاباً وقلما وأخذ يعلق هنالك من الملاحظات ما عنّ له

« هل تعلم كيف دخل روسيا؟ »

« دخلها تحت اسم منتحل وذلك بمساعدة سكرتير الداخليـة الذي هو أحد أعضاء النهلست السريين »

فصاح الجنرال ملاكوف بأعلى صوته

« وهل اسبنسكي سكرتير الداخلية من هؤلاء الاقوام؟ »

« ليس منهم فقط ولكنه أشـدهم دهاء وأوفرهم مكرًا وهو الذي سهل له سبيل الدخول لان يكون هو وصهره كولدنبرغ بين خدمة القيصر في ذلك السفر »

فضحك ملاكوف قائلاً

« ها ها! الآن يتجلى لي ذلك اللغز العظيم — الآن تنفتح أبواب المجـد أمامي — تكلم تكلم ولا توجز »

« ولمـا بلغ بطرسبرج في ذلك الليل المدلهم تحت عصف الزوابع وقصف الصواعق شاهده أحد الجواسيس ذاهباً الى محـل صهره كولدنبرغ وفيما كان البوليس ذاهباً لالقاء القبض عليه ركض أحد جواسيس النهلست وهو في الظاهر أحد أعضاء جواسيس بطرسبرج واسمه ديمترا كي فحذره وخرج لا يلوي على شيء وقبل أن بلغ البوليس بيت كولدنبرغ كان غورنشاكوف فلاديمير قد خرج من النافذة التي في أعلى الحائط و بلغ السطح الذي هو بأسفله وهذا هو السبب الذي لأجله لم يعثر البوليس له على أثر »

فضرب الجنرال رأسه بيده عدة مرات وهو يحرق الأرّم من الغيظ و يقول « أديمترا كي أيضاً نهلستي؟ ذلك الرجل الذي كنت أظن أنه . . . » ثم استدرك فقال « ذلك الرجل الذي كان رئيس الجواسيس يظنه آمن عماله اهو أيضاً نهلستي؟

« هو نفسه يامولاي الذي حذر غورنشاكوف ولكن هذا تمكن من الانخراط في سلك خدمة القيصر مع نسيبه كولدنبرغ ولمـا أصبحت الآلة على وشك الانفجار تركا القطار يحملان جـوازًا مزورًا ثم عاد الى انكلترا وهما الخادمان

اللذان فُقدا من القطار عند حادثة الانفجار »

فأبرقت أسرّة الرجل وهو يدوّن ما رام من هذا الحديث ثم نظر اليّ قائلا

« وماذا يبغي غورتشا كوف فلاديمير من الحضور الى باريز؟ »

« الغرض من ذلك احباط مساعي رجل مهم من الروس قدم باريز منذ عدة أيام واسمه شبيه باسم حضرتك يا مولاي ولكنك أنت تاجر وذاك رئيس جواسيس روسيا فقد قدم هذا الموظف الى عاصمة الفرنسيس ليثير حرباً عواناً على النهلست »

« فحدّق فيّ هذه المرة ملا كوف بي وقد أوجس ريبة ولكنه أظهر التبسم وعدم المبالاة سائلا »

« هل عثر رئيس الجواسيس هذا على أمر مهم ؟ »

« حدث بعد حضوره الى باريز أن البوليس السري اكتشف وجود قنابل ديناميتية في منزل أحد هؤلاء الاقوام فسُلمّ الى الحكومة الروسية وهذا الامر قد حير غورتشا كوف غاية الحيرة لان الرجل نبتوفسكي كان قد حُذر قبل ذلك بعدة من أيام أن البوليس السري الفرنساوي سيفتش منزله فلم يفهم غورتشا كوف كيف أمكن بعد ذلك العثور على هذه القنابل في منزله »

— « ولكن كيف علموا ذلك حتى أنهم تمكنوا من تحذيره ؟ »

— « مولاي ان هؤلاء النهلست هم أبالسة في صور بشر وشياطين في ثياب حملان فقد رقبوا خطوات رئيس الجواسيس واكتشفوا رسالاته فان الخادم الذي أحضره معه الى هنا من بطرسبرج لم يكن سوى واحد من هؤلاء الاقوام »

فتميز ملا كوف غيظاً وثارت في رأسه سورة السخط ونظر اليّ قائلا والشرر يتطاير من عينيه

« هل كان خادمي سلنك نهلستياً ؟ »

« انى أقص على سيدي ومولاي حديثاً يختص بالجنرال ملا كوف رئيس الجواسيس الروسية ولا شيء له من العلاقة بأمر مولاي الذي حضر الى هنا ترويحاً للنفس من التجارة »

فاحمر ملا كوف ورفس برجله الارض على هذه الهفوة ثم نظر اليَّ قائلا
« ان ملابسة الاسمين قد أدت بي الى هذا الشطط فأ كمل حديثك »
فعدت الى تتمة المقال غير مكترث
— « و لما كان الامر كذلك استنتج غورتشا كوف أن جواسيس الجنرال ملا كوف أنفسهم وضعوا هذه القنابل الديناميتية ليتيسر لهم بذلك تسليم نبتوفسكى الى الحكومة الروسية ومحاكمته هناك ومهما يكُ من الامر فان الرجل قد سُلم وحوكم ونفي الى سيبيريا ولكن الأمر المهم الذي أشغل أفكار غورتشا كوف هو اختفاء ابنة هذا الرجل فانها ذهبت وحتى الآن لم تعد و بعد التفتيش والتنقيب الطويل انجلت لهم واقعة الأمر وهو أن الجنرال ملا كوف نفسه رمى بها في نهر السين »
فوقف ملا كوف على قدميه وقد اصفر لونه وغارت عيناه وهو يقول
« أبلغ من قحة هؤلاء القوم أن يلصقوا بي هذه التهمة ؟ »
« اني أطلب الى مولاي ألا تأخذه حدة الغضب وأ كرر على مسامعه مرة أخرى اني أقص عليه حديث ملا كوف رئيس الجواسيس لا ملا كوف التاجر الروسي »
فنظر اليّ باسماً ثم قال
« أنت هو الرجل الذي أطلبه منذ سنين فان كل جواسيسي بلداء وليس لهم أقل نفع فقد وضعت الآن من الافادات في يدي ما يؤهلني لمنصب وزارة الداخلية »
« وأنت يا مولاي هو الرجل الذي أطلبه منذ سنين عديدة فان لي أيضاً كثيرين من الجواسيس البلداء الذين ليس لهم أقل نفع »
فلم يتنبهْ ملا كوف الى جوابي اذ كان منشغلا بتعليق حواشٍ في كتابه ثم التفت اليّ قائلا وهو يبسم ابتسامة الفوز
« أيمكنك القاء القبض على غورتشا كوف هذا ؟ »
« سأضعه بين يدي مولاي بعد لحظة من الزمن ومقابلة لهذه الخدمة العظيمة

أرجوه أن يوقع امضاءه على هذه الاسطر الوجيزة »

ثم تقدمت اليه وسلمته ورقة فيها ما يأتي

« أنا الجنرال ملا كوف رئيس البوليس السري والجواسيس الروسيه أقر وأعترف ان القنابل الديناميتية التي وُجدت في منزل بنتوفسكي انما وُضعت عمداً بيد بعض الجواسيس الروسيين في باريز لتذنيب رجل بريء ولذلك أطلب الافراج عن هذا الرجل واعادته من المنفى »

فنظر اليّ غاضباً باحتقار وقال

« ما معنى هذا ؟ »

« المراد من ذلك أن تكفر باعادة هذا الرجل من منفاه عن بعض الأثم الذي ارتكبته في قتل ابنته »

« أمجنون أنت »

« هل الحديث الذي شرحته لك حديث مجانين ؟ »

« ما ذا يعنيني و يعنيك من كل هذا ؟ »

« يعنيك أنت لأنك ملا كوف جنرال البوليس السري والجواسيس الروسية في سائر الامبراطورية و يعنيني أنا لأني غورتشا كوف سرجيوس فلاديمير جنرال النهلست في سائر العالم »

فانقبض الرجل كما لو أنه جرى الى أعضائه تيار كهربائي عنيف وجحظت عيناه واكفر وجهه كأوجه الموتى ووقف تنفسه ولكن لم يكن الاّ مثل غمض الجفن حتى وثب نحو المسدس ولكنه لم يخطُ سوى خطوة واحدة أغمدت بعدها خنجري في صدره فأنَّ أنة طويلة وانقلب الى الوراء جثة لا حراك بها

وفي تلك الليلة بينما كنت مسافراً في القطار من باريس عثرت على خبر في أحد أعداد جريدة الدايلي مال مفاده أن رجلا يسمى أو بندورف في لندرا وجد قتيلاً في غرفته دون أن يتمكن أحدٌ من الوقوف على أثر للقاتل

الفصل الثالث عشر

« شرارة الثورة »

ولبث أمرنا على هذا المنوال بين هبة وضجعة ورقدة ونهضة الى أن استعرت الحرب اليابانية الروسية فكان ذلك في تاريخنا فجر يوم جديد طلعت في سمائه شمس جديدة تحيي منا ميت الآمال وتنعش ذابل الرجاء لأننا رأيناها الوسيلة الوحيدة التي ننال بها المنى ونجد ضالتنا المنشودة وكنا نتوقع ونتمنى من صميم الفؤاد فشل دولتنا في هذه الحرب لأن ذلك يفتح باباً جديداً لنا في اثارة خواطر الأمة الروسية بأسرها و يتاح لنا أن نقوم بحركة عامة تختلف عن سائر الحركات والأعمال التي قد قمنا بها حتى الآن وذلك باحداث ثورة عامة في البلاد شبيهة بالثورة الفرنساوية تهتز لها عروش الملوك وتهلع قلوب الأمم

فاذا تبينت ذلك فقهت الأسباب الباعثة بفريق من كبار الأمة ومقربي البلاط الامبراطوري الروسي الى المناداة علناً بوجوب اشهار الحرب على اليابان مع علمهم أن روسيا ليست في شيء من الاستعداد الى ذلك وقد أطلق على هذا الفريق لقب حزب الحرب وما هو سوى أعضاء نهلستيين سريين في خدمة الحكومة الروسية

ولقد كان القيصر نقولا الثاني كارهاً كل ما من شأنه اثارة هذه الحرب جانحاً بكليته الى السلام و بقي يسعى الى ذلك جهده و يأمل حل المعضلة بالطرق السلمية حتى انه بعد أن رفع اليه سفير اليابان بلاغاً ينذره بانقطاع العلائق السياسية بقي يختلج في صدره هذا الأمل الكاذب الى أن باغتت بوارج اليابان الاسطول الروسي في بورت أرثر في حلك الليل ونسفت بعض المدرعات بالتوربيد خلسة واغتيالاً فأصبحت الحرب إذ ذاك ضربة لازب اضطرت روسيا الى ركوبها مكرهة غير مخيرة

ولما استعرت الحرب أصدرت أوامري الى سائر لجان الثورة في روسيا أن تكون جميعاً متأهبة للاقدام على عمل عظيم يرن صداه في سائر أنحاء الكرة الأرضية

وتتشنج له روسيا من أقصائها الى اقصائها

ولبث الأمر على هذا المنوال حتى حملت الينا الانباء البرقية خبر حصار بورت أرثر فعلمت أن الساعة التي سنقوم فيها بتلك الضربة الهائلة قد اقتربت ولذلك عقدت مجلساً في لندرا مؤلفاً من نخبة أعضاء النهلست وبقينا نتباحث فيه حتى مطلع الفجر فقر رأي سائر الأعضاء على القيام بحركة عامة في سائر الأنحاء الروسية تكون نتيجتها ثورة هائلة تذكر العالم بأيام لويس السادس عشر وحكم الأعضاء بوجوب ذهابي الى روسيا حيث كان قد سبقني الى هنالك الرئيس السابق بتروف منذ زمن طويل لتمهيد الصعاب واعداد وسائل الثورة

ورأينا انهاضاً للهمم وتحريكاً للخواطر أن نشعل جذوة الثورة ليس في روسيا فقط ولكن في سيبيريا وسائر الاصقاع البعيدة بحيث يكون اضطرامها في وقت واحد ولما كان يتعذر تسهيل المواصلات والرسائل الى تلك الأنحاء الشاسعة ضربنا سقوط بورت أرثر موعداً للقيام بهذا العمل الخطير

فلم أبطىء بعد هذا عن التعجيل بالسفر الى روسيا ولما بلغت بطرسبرج اجتمعت ببتروف ولجنة الثورة هناك فأقمنا اسبوعين من الزمن ونحن في اجتماعات سرية دون انقطاع أتينا فيها على ما يجب تقريره عمله في بطرسبرج ولما كان الوزير بلفه ناظر الداخلية رجلاً مشهوراً بشدة الشكيمة وتصلب الرأي والضرب على كل ما من شأنه اصلاح البلاد واقامة الدستور موضع الاستبداد والتضييق على أعضاء جمعياتنا سواء كانوا مجرمين أو أبرياء عقدنا اجتماعاً خاصاً للنظر في أمره فتقرر بعد المناقشات الطويلة الحكم عليه بالاعدام فلم يمر سوى وجيز من الزمن حتى أنفذ ذلك الحكم على ما نشرت تفاصيله سائر الجرائد الاوروبية

وحدثت أثناء وجودي في روسيا حركة في الخواطر لم يحصل نظيرها منذ وفاة القيصر اسكندر الثالث فان لجان الثورة هنالك هبت من ضجعة الخمول ونفضت عنها غبار الذل فأخذ كثيرون من نخبة الشبان وطلبة العلم والسيدات ربات الجمال يتواردون علينا فرادى وأزواجاً حتى فريق من عداد جواسيس

الحكومةالروسية ولكي نتمكن من معرفة الحد الذي بلغت اليه تلك الحركة أقص عليك حديثاً واحداً مثالاً يكثر من أنواعه

بعدأن زرعت بذور الثورة في روسياعقدت النية على السفر الى ارجاء سيبيريا لتأليف لجان جديدةهناك عوضاًعن اللجان القديمة التي اندثر أمرها بسبب الضغط الشديد الذي أحدثه عليها الوزير بلف الذي لقى حتفه جزاء ذلك وكان لي غرض آخر وهو انقاذ أحد زعماء الثورة سابقاً ولكي أكون في مأمن من كل طارىء حصلت على جواز من بطرسبرج بواسطة بعض اخواننا من ذوي السطوة والكلمة النافذة يعلن اني من جملة موظفي الحكومة الروسية بل ذاهب في مهمة سياسية تختص بجلالة القيصر نفسه حتى لا يتيسر لأحدالتمكن من القاء القبض عليّ مهما كانت الأعذار الباعثة على ذلك

فقطعت في سيبيريا نحواًمن ألفي ميل و بينما كنت في مدينة وأنا على وشك السفر الى الأصقاع البعيدة واذا بأحد ضباط الفرسان وهو صديق قديم لي يسمى فارتنسكي ومن الأعضاء العاملين في جمعيتنا نقدم ورغب اليّ أن آخذ معي الى اركوتسك أحد أصدقائه فأجبته الى ذلك و بينا أنا أنتظر واذا بسيدة في ربيع الحياة ومقتبل العمر قد قدمت الينا وعليها ثياب السفر فتأملتها واذا هي غادة تزري قامتها بالغصن الرطيب وتخجل طلعتها البــدر فقال لي صديقي فارتنسكي « هذه السيدة هي الصديق الذي رجوتك بشأنه ولي الشرف أن أعرفك بها فهي السيدة ايدا سندرسكى» ولم يذكر لي بشأنها أكثر مما تقدم فكنت على جهل تام من أمرها والغرض الذي لأجله سائرة معي الى أقاصي سيبيريا

ولم يكن سوى طرفة عين حتى ودعنا أصدقائنا وأخذنا نقطع تلك الفيافي والقفار المغطاة بالثلوج المتراكمة بعضها فوق بعض فجرت بنا العجلة جرياً سريعاً و بعد أن تجاذبنا أطراف الحديث وصار بيننا شيء من التعارف التفت الى الغادة التي بجانبي وقلت

— «لماذا تتجشمين ياسيدتي مشاق السفر الى أركوتسك البعيدة ؟ »

فأجابتني بالافرنسية

« اعذرني يامولاي اذا أبقيت غرضي من هذا السفر مكتوماً» ثم تأملت لحظة من الزمن وقالت بصوت رخيم «ان ذلك لمن الأسرار التي لا يمكن الاباحة بها»

ثم لبثنا سائرين بعد ذلك دون أن ننبس بكلمة أخرى وكلٌّ منا غارق في أبحر هواجسه والظاهر ان ارتجاج العجلة افضى برفيقتي الى النعاس فأغمضت جفونها الطويلة الاهداب وأخذتها سنة الكرى فمال رأسها حتى لامس كتفي فغطيت وجهها الجميل بقبعة الفرو التي على رأسها ايقاء لها من زمهرير البرد وكانت تتكلم أثناء نومها بألفاظ مقتضبة غير مفهومة وكانت دلائل الوناء والكلال بادية عليها لأنها لبثت في هذا الرقاد على هذه الحال زمناً طويلاً وأنا لا أتحرك من موضعي خوفاً من ايقاظها مفكراً في ماعسى أن يكون الغرض الذي قد بعث بهذه السيدة اللطيفة أن تحمل سفراً بعيد المسافة يعجز عن القيام به أقوياء الرجال ولبثت على هذا المنوال كل ذلك الليل الى أن انبثق الفجر ووقفت بنا المركبة بجانب خان على الطريق فلما فتحت عينيها ورأت رأسها على صدري ذُعرت واحمرت وجنتاها واعتذرت اليّ ثم نزلنا في الخان ولبثنا فيه ذلك النهار والليل التالي

ولما ارتحنا من مشاق المسير واصلنا السفر فاذا وجدنا خاناً على الطريق نزلنا فيه والاّ تابعنا المسير ولبثنا كذلك أياماً وأسابيع نقطع تلك الثلوج حتى جاوزنا أوشيم وأومسك وكوليفان الى أن بلغنا تومسك بعد سفر ألف ميل فكانت ايداسندرسكي في هذا السفر لغزاً من الألغاز التي لم أتمكن من حلها وتبين لي أنها سيدة ذات صلة بالأشراف والأمراء لأنها كانت تقص عليّ أحاديث أقوام من أصدقائها في بطرسبرج يعدون في أعلى طبقات الأمة وأشراف أسرها وكنت أظنها سيدة من مقصورات الجمال وربات الخدور لما رأيت من ظرف حديثها وأدب كلامها ولكن لما ذكرت أنها صديقة فارتنسكي الذي اشتهر في بطرسبرج بالتردد على محال اللهو وبيوت الخلاعة ظننتها خلاف ذلك

ولقد التقينا في أثناء هذا السفر الطويل بكثيرين من السجناء الذين أناخ عليهم الدهر بكلكله فمشوا يجرون سلاسل الذل وقيود العبودية وسط تلك الثلوج الكثيفة واليأس قد كتب على أوجههم أسطراً من التعاسة والشقاء فكانت تنظر

اليهم ايدا بعيون ملؤها اللطف وقلب تختلج فيه عاطفة الحنو و بينا هي تنظر الى هؤلاء التعساء واذا بواحد من القوزاق رفع سوطه وضرب به ظهر امرأة من المنفيين ضئيلة الجسم شاحبة اللون فأثار ذلك حنق ايدا ونظرت اليّ قائلة

— « ما أظلم الشريعة الروسية ؟ »

فالتفت اليها وأجبتها

— « الافضل يا سيدتي أن لا يتفوه الانسان بمثل هذه الألفاظ في هذه البلاد لان انتقاد أعمال الحكومة الروسية قد يعود على المنتقد و بالاً وخسراناً »

— « لا يهمني ذلك ولو انك علمت بعض ما أعلم مما يجري في الامبراطورية الروسية من أنواع المغارم وألوان المظالم وأشكال الرشوة والفساد لم يكن لك الى السكوت من سبيل »

وكان كلامها بالافرنسية لكي لا يفهم السائق شيئاً منه فأحنيت رأسي نحوها وهمست في أذنها قائلاً

« اذاً يا سيدتي أنتِ في عداد النهلست »

فذعرت لهـذا الكلام ذعراً شديداً وارتجفت أعضاؤها واصفر لونها ثم مسكت بيدي قائلة

« من أخبرك ذلك وهل فعلت أمراً فشيت به سري ؟ »

« ان في كلامك اشارة بينة الى ذلك أما الآن وقد اكتشفت هذا السر أفلا تبوحين لي بهذا السر الآخر العظيم الذي تجشمين هذه الأسفار لأجله ؟ »

فارتجفت أعضاؤها ثم نظرت اليّ قائلة

« أستحلفك بالله ألاّ تعود فتفتح لي هذا الحديث مرة أخرى فان السائق قد يفهم شيئاً منه وعند ذلك نصير كلانا في عداد الأموات »

فأخذت يدها بيدي وهمست في أذنها الكلمة النهلستية ثم قلت

« أبقي عندكِ شك في اخلاصي ؟ »

« اني أثق بك غاية الثقة ولكن ماضيّ قاتم كالليل »

« ألا تسمحين لي بمعرفته أفلا يمكنني تخفيف شيء منه ؟ »

« ان ماضيّ مشوه بالخاتلة والمخادعة ولو عرفته لاحتقرتني فالأمثل بي أن

أحفظه مكتوماً طيّ صدري »

« ولكن اخبريني شيئاً واحداً وهو هل فارتنسكي ولي أمركِ ؟ »

فرفعت نحوي عينيها المغرورقتين بالدموع ثم قالت

نعم « هو — هو صديقي الوحيد »

فظننت سوءًا في الأمر ولمت نفسي على إلحاحي في سؤالها ثم نزلنا بعدهذا في خانٍ فسكبت ايدا الشاي لي وللسائق على جاري عادتها أثناء السفر فلاحظت أن السائق عند ما تناول قدحه بعدسكبه من الآلة التي نسميها في روسيا بالسموفر نظر الى ايدا نظرة كلها حقد وضغينة ولكن لم تلبث تلك النظرة على ملامح وجهه سوى لحظة واحدة عاد بعدها الى سكونه المعتاد فجلست وايدا نتجاذب أطراف الحديث أثناء الليل وتلك النظرة العدائية التي بدت على وجه السائق لم تبرح من مخيلتي وأنا أناجيّ نفسي أهنالك سرٌّ لاأدريه بينهما أو انه فهم ياترى مغزي السر الذي باحت لي به

ولما انبثق الفجر كنا لا نزال بعيدين نحو ستين ميلاً عن أقرب قرية في ذلك الجوار فخرجت أروح النفس بالرياضة قليلا وأتنشق ذلك الهواء النقي وأدخن لفافتي وأنا غارق في أبحر الهواجس أفكر في ماعسى أن يكون من أمر هذه الثورة التي قد قدحت زنادها في روسيا وسيبيريا ولبثت كذلك حيناً من الزمن فلما عدت الى الخان وجدت صاحبه قد علته صفرة الوجل وأعضاؤه ترتجف من شدة الجزع وقد بلغ منه الهلع مبلغاً عقد لسانه وأعدمه النطق فأدركت أن نائبة قد حلت في ذلك الموضع فلم يفه بكلمة ولكنه قادني بيدي الى داخل المنزل فشاهدت منظرًا تقبضت له أعضائي خوفاً ودهشة وذلك أن سائق مركبتنا واسمه بلزنسكي كان موسدًا على فراش من القش وسائر ملابسه عليه وفي صدره طعنة نجلاء بلغت قلبه وهو جثة لا حراك بها

أما ايدا فانها لما خرجت من غرفتها وعلمت بما حصل تبدت عليها لوائح الهلع والذهول ولم تدخل غرفة القتيل لأنها قالت أنها لم تطق مشاهدة مثل هذا المنظر الفظيع ثم دنت مني وأعضاؤها ترتجف ارتجافاً وهمست في أذني بالفرنساوية

أن نعجل بالمسير دون أدنى ابطاء فلما أخبرتها عن عزمي على التوجه الى اركوتسك لكي أبلغ البوليس خبر هذه الجريمة بدا على وجهها من ملامح الارتباك والحيرة ما دعاني الى الاشتباه بأمرها وخصوصاً لما بدا منها من الالحاح الشديد في متابعة السير دون ابطاء ثم لاحظت على رسغ احدى يديها خدشاً صغيرا فزادت الدلائل الباعثة على الاشتباه حتى أصبحت على يقين أنها هي الجانية فناجيت نفسي قائلا ان هذه الغادة الهيفاء رفيقتي في هذا السفر ليست سوى قاتلة وسفاكة دم

ولما بلغنا أخيرًا مدينة أركوتسك نزلنا في خان وكان الوقت أصيلا فتناولنا الطعام وارتشفنا الشاي وكانت ايدا صفراء اللون مضطربة الملامح ولكن كل ذلك لم ينقص شيئاً من جمالها الفتان فلم يكن سوى بضع دقائق من مناولة الشاي حتى اختفت عن الابصار ولما لم أجدها سألت عنها أحد الرجال الذي كان يتدفأ في جانب النار وكان قد وصل في تلك اللحظة وهو ينفض الثلج عن حذائه فقال لي أنه شاهدها وهو قادم داخلة سراي الحاكم ثم تبسم وقفّى على ذلك أن حضرة الحاكم من أرباب الذوق السليم وأن له خبرة تامة بالجمال والجميلات

فلم أتوقف لحظة بعد هذه الافادة بل تركت المنزل وتوجهت الى سراي المحافظة التي لم تكن تبعد عنا سوى بضع خطوات فعلمت عند بلوغي الموضع من الحارس الخارجي أن سيدة قادمة من سفر قد دخلت الى مقابلة المحافظ فأخذت أحد أتباع الحاكم على حدة وبعد مناقشة وجيزة في أمر السماح لي بالدخول نفحته بمائة روبل فأدخلني الى السراي الفسيحة الى أن بلغ بي غرفة جميلة الاثاث لاشيء بينها وبين غرفة المحافظ سوى ستائر كثيفة مدلاة من السقف حتى أرض الغرفة ثم تركني وانصرف فما أصغيت الا قليلا حتى سمعت صوت رجل أجش يقول بصوتٍ عالٍ

« اذاً قد حضرتِ بعد هذا الغياب أيتها السيدة اللطيفة ؟ »

فأجابته السيدة

« نعم عدت بعد هذا الغياب »

فعلمت من الصوت أن السيدة انما هي ايدا سندرسكى فتطلعت من بين

الستائر دون أن يتمكن أحد من رؤيتي فوجدت أنه يمكني مشاهدة كل مايحدث داخل تلك الغرفة التي هي أمامي فرأيت في منتصف الغرفة موقدا فيه نارمتأججة اللهيب والى جانبها واقف رجل كهل بلباس الحرس القيصري الابيض وصدره مملوء بالوسامات التي تتألق تألق النور وأمامه واقفة ايدا يعلو وجهها الاصفرار ولكنها ثابتة الجأش براقة المقلتين كأنها ملكة في قصرها ثم رأيتها تكرر جوابها الاول على مسامع المحافظ وتقول له بعزم ثابت

« نعم عدت بعد هذا الغياب ولكن أخبرك يا جنرال زغلوسكي أني أودالآن التحرر من ربقة هذه الاعمال الشاقة التي اضطرتني الى القيام بها منذ بضع سنين عند ما كنت رئيس البوليس السري في بطرسبرج فاني كنت عندئذ فتاة نهلستية لم أختبر شيئاً من أحوال العالم فألقيت القبض عليّ و بعثت بي الى المناجم ثم خيرتني بعد ذلك أن تمنح لي حريتي وتبقي على شرف أخي العسكري على شريطة أن أصير في عداد هؤلاء الجواسيس الادنياء الذين تستخدمهم لقضاء أوطارك فسلمت لك حينئذ بذلك لاني كنت في ريعان الصبا لم أكد أدرج من خدر والدتي وقد لبثت الآن في هذه الخدمة الممقوتة نحوًا من ثلاث سنين فقمتُ بهذه الواجبات المخجلة التي وضعتها عليّ قياماً أدى الى نفي كثيرين من الأقوام الأبرياء الذين يُسامون في هذه الدقيقة ضروب الذل وأنواع العذاب في المناجم التي هي في جوف الارض أو الاصقاع في أطراف سيبيريا بينا حضرتك جالس هنا تتنعم في هذا القصر الملكي برغد العيش وبذخه وتظهر أمام قيصرك مظهر الرجل العظيم الذي يكشف أسرار البشر ودسائس الاقوام ويفقه ماتكشف الصدور وما تكنّ »

فأجابها المحافظ بحنق شديد

« ولكن ماذا يعنيكِ من ذلك وهل يصح أن يكون حاكم نظيري عرضة لانتقادات فتاة مثلك ؟ وعليكِ أن تضعي نصب عينيكِ على الدوام أنكِ أحد عمال البوليس السري وأن واجباتكِ تقضي عليكِ بالسهر على أمن جلالة القيصر وأنه لابد لكِ من البقاء كذلك رضيتِ أم لم ترضي وإلا فاعلمي أنكِ

الآن في وسط سيبيريا وأنه لا يكلفني نفيكِ الى تلك المناجم الرهيبة سوى وضع امضائي على هذه الورقة التي أمامي فتصرفينَ بقية حياتكِ وأنتِ تجرّين سلاسل الذل وقيود الاستعباد وهناك تتعلمين من جنودي القوزاق كيف تكون الطاعة التي نسيتيها الآن فاذهبي أيتها الحمقاء ولا تريني وجهك في ما بعد »

ثم مدَّ يده ليقرع الجرس فتقدمت إيدا نحوه كاللبوة وقد أحرجت قائلةً

« لا بُد لك من سماع سائرما تحملت لأجله هذه المشاق لا قوله لك فاني أخبرك أني قد أتيت الى هنا لأخطرك اني عازمة على أبدال هذه الخطة الممقوتة التي أنا سائرة فيها — جئت لأخبرك أنه يترتب عليك توقيع امضاءك على هذه الورقة التي بيدي التي تحلني بها من هذا القيد الذي أُجبرت على وضعه في رجلي وألا يكون للحكومة بعدهذا حق في القاء القبض عليّ من جراء ذلك والا فاني ... »

« أتتهددينني أيتها الفتاة فأرجوكِ أن تفيديني ما مبلغ اقتدارك اذا رفضت طلبكِ؟ »

« لقد نصبتَ لي قبلا شراكك اللعينة فوقعت بها أما الآن فأنت واقع في شراكي فانك اذا رفضت بعثتُ الى جلالة القيصر بالبراهين الدامغة والاعتراف البيّن الذي به تعترف أنت نفسك انك أنت هو الرجل الذي قتل في غسق الليل ماري سكايا »

فانذعر المحافظ وتقبضت أعضاؤه وعلا الاصفرار وجهه وسألها بلهفة

« ولكن أنى لكِ معرفة ذلك ؟ »

ألا تذكر أنك أنت نفسك وقعت على هذا الاقرار وهل نسيت أننا نحن النهلست تتبعنا خطواتك واكتشفنا أمرك واضطررناك الى الاقرار فكان ذلك باعثًا على الابقاء عليك ؟ أو تجهل أني وقفت على الجريمة التي ارتكبتها منذ بضعة أيام وذلك أن أحد أخصائك المقربين قد قتل سائق مركبتنا في أرتنسك بطعنة خنجر في قلبه لان هذا السائق المسكين يعلم سرّ قتلك ماري سكايا ؟

فأجابها المحافظ بحنق

« انك تكذبين وماذلك سوى أفك مبين أترومين أن تبعثي بي انا نفسي الى مناجم سيبيريا ؟ ولكني أقسم لك انك ستموتين في حضرتي موتًا إذلالا بدلي من قتلك بيدي »

ثم أشهر في وجهها مسدساً وخطا نحوها فلم يكن سوى مثل وميض البرق حتى رفعت تلك الستائر الكثيفة وانطلقت نحوه انطلاق السهم ولكن يد الرجل كانت أسرع من خطوى فانطلق المسدس ولم تصب الرصاصة الغرض بل مرت فوق رأس ايدا وكسرت مرآة كبيرة في الجدار المقابل فهجمت عليه هجوم المستقتل واختطفت المسدس من يده قائلاً

« ان هذه الفتاة قد نيط الاعتناء بأمرها في هذا السفر بي ولقد سمعت سائر ما دار بينكما من الحديث وانا سنبقى هنا الى أن توقع امضاءك على هذه الورقة والاّ لبثنا أمامك طول الدهر »

فتهددني بالقاء القبض عليّ ولكني هزأت بتهديداته وأخبرته أن بيدي جوازاً يعلن أني في مهمة سياسية تختص بشخص جلالة القيصر وان يده أقصر من أن تصل اليّ بشيء من الأذى فتردد في الأمر نحواً من نصف ساعة وهو يفكر تفكير من لا يجد له مناصاً الى أن وقع امضاءه أخيراً على الورقة وقبل خروجنا من الغرفة التفتت اليه ايدا قائلة

«اذا أمرت بالقاء القبض عليّ فان أخي يبعث باقرارك الى جلالة القيصر »

فسألت ايدا بعد نزولنا قائلاً لها « ومن هو أخوك ؟ » فقالت ان أخي وولي أمري هو صديقك فارتنسكي فصحت عند ذلك صيحة الدهشة والسرور وقلت لها انها ستكون في أثناء هذا السفر أعز لديّ من شقيقتي

الفصل الرابع عشر

« جذوة من نار »

ولكي تفقه سرعة حركة الخواطر التي تهيأت في نفوس القوم للتحفز الى الثورة بسبب اللجان التي أنشأتها في أقاصي روسيا لا بد لي من سرد حادثة واحدة تكون دليلاً على كثير من أمثالها على النهضة التي حصلت من أنفس القوم وهبوبهم لكسر نير الظلم وقيود الاستبداد التي لبثوا راضخين لها مئات من السنين دون

أن يبدوا بشأن ذلك تذمرًا أو يرفعوا صوتاً

فاني بينما كنت راجعاً من تلك الاقصاء السحيقة رأيت قصر المحافظة في بلدة كنت قد أنشأت فيها من منذ بضعة أشهر أثناء مروري الى سيبيريا لجنة ثورية واذا ذلك القصر قد أصبح أطلالاً بالية ورسوماً دارسة فسألت أحد الأعضاء الذين خفوا لاستقبالي عن سبب ذلك فنظر اليّ الرجل نظرة المدهش لابداء مثل هذه الملاحظة ثم قص عليّ الحديث الآتي

ان المحافظ الذي كان يقطن هذا القصر الذي رأيته أثناء مرورك هنا وقد أصبح الآن رماداً انما كان رجلاً فظ الأخلاق شرس الطباع ظالماً عاتياً وكان وصياً على شاب يسمى درنفتش اغتصب منه أملاكه الشاسعة ولكنه سمح له أن يقيم معه في داره وكان المحافظ شديد الوطأة على الفلاحين الذين بلغ بهم الفقر المدقع مبلغاً فاحشاً وخصوصاً أن تربة هذه الأرض قاحلة لا تنبت سوى النزر القليل مما يقوم ببعض أود هؤلاء الفلاحين المساكين وفي أيام الشتاء يشتد البرد القارس الى حد لا يكاد يطاق وبسبب انتزاف مال الفلاحين لم يبق لهم ما يمكنهم من الحصول على وقود أثناء الشتاء أو شيء من ضروريات المعاش لسد جوعهم

وحدث ذات يوم ان المحافظ كان جالساً في قصره المنيف حيث كان يعيش بالبذخ والاسراف ان كاتم أسراره دخل عليه قائلاً

« ان على الباب يا مولاي فريقاً من الفلاحين يودون مشاهدتك »

فحدق فيه المحافظ وقال

« ماذا يروم هؤلاء الأقوام مني ؟ »

« لم يفيدوني يا مولاي ولكنهم يطلبون مقابلتك نفسك »

فوقف الحاكم عابساً وقال « اذا كان هؤلاء الأقوام قد حضروا ليبثوا لي شكواهم أو ليتذمروا من الحالة التي هم عليها فانهم سوف يدركون أي منقلب ينقلبون — دعهم يدخلون »

ولم يكن سوى دقيقة من الزمن حتى دخل هؤلاء الأقوام على المحافظ وهم في ثياب رثة وأعضاؤهم ترتجف من شدة البرد فحدق فيهم المحافظ قائلاً

«ماذا تريدون من مقابلتي وكيف تجسرون على الحضور الي على مثل هذا المنوال؟»
فخاطبه كبيرهم وقد كفّر بين يديه وسجد
« ارحمنا أيها المولى العظيم فاننا قد أتينا لنترامى على أقدامك »
« ماذا ترغبون ؟ »
« أتينا لنقص عليك ان الجوع قد أخذ منا مأخذه وقد أصبحنا في حاجة الى كل شيء ولذلك فان عبيدك لا يتمكنون من دفع أجرة المنازل التي اعتدنا قبلاً دفعها وغرضنا الآن أن نستميح منك الاذن لتتمهل علينا قليلاً ريثما يمن الله علينا بالفرج »
وكان سائر هؤلاء الفلاحين وقوفاً أمامه باحترام وقبعاتهم الرثة بأيديهم وعيونهم مطرقة الى الأرض لا يجسرون على رفعها نحوه وأعضاؤهم ترتجف من الخوف فنظر اليهم المحافظ بامتهان وقال
« لا بد لكم من دفع ما ترتب عليكم دفعه فاذا أبيتم عددت ذلك عصياناً وأنتم أدرى ما يحل بكم من العقاب أثر ذلك »
فعاد كبيرهم الى الكلام وهو رجل قد أحنى الكبر ظهره و بيض المشيب رأسه
« ان ما تطلبه منا الآن هو فوق الطاقة البشرية لأنه ليس لنا ما نسد به جوعنا حتى انه لو أتى أبونا القيصر نفسه وطلب منا ذلك لم نكن لنقدر على القيام بشيء منه »
« لست من الذين يحبون تكرير الكلام ولذلك أخطرتكم أنه لا بد لكم من دفع سائر ما عليكم خلال اسبوع واحد من الزمن »
« ولكن ذلك محال لأنه ليس لدينا شيء من الدراهم ولا ما نبيعه للحصول على ذلك »
« لا تكثروا أمامي الكلام فقد أخبرتكم انه لا بد لكم من دفع سائر ما عليكم خلال اسبوع واحد وانصرفوا الآن عني الى مواضعكم »
« ألا يوجد في قلبك شفقة على أطفالنا ونسائنا ألا يرق قلبك على هؤلاء المساكين الذين يتضورون الآن جوعاً ؟ »
فكان جواب المحافظ الأخير
« انصرفوا عني وعودوا بالدراهم بعد اسبوع »

وكان الشاب درنفتش جالساً بجانبه فحاول أن يستعطفه فلم يرَ سوى أذن صماء وقلب قُدّ من جلمود فانصرف القوم من حضرته وقد علت وجوههم صفرة الوجل ولما انقضى الاسبوع ولم يكن هنالك ما يسدون به مطالب المحافظ انهالت السياط على ظهور القوم تلدغهم كالافاعي فحنق الأهالي لذلك حنقاً شديداً وكادوا يثورون على ذلك الحاكم العاتي ولكنه أحضر شيوخ البلدة وجلد كلاً منهم مائتي جلدة في الساحة العمومية

وكان درنفتش يصرف أكثر أوقاته في التنزه في الجنائن والأحراج تخلصاً من وصيه العاتي وبينما كان مرة كذلك بجانب الأشجار رأى على مقربة منه ابنة بارعة الجمال بديعة الحسن ولم تكن الفتاة تشعر بوجوده الى جانبها لما كان بينهما من الأشجار الغضة فتأمل درنفتش في قامتها التي تزري بالغصن الرطيب وجمالها الرائع الذي يأخذ بالأبصار وعينيها الفاتنتين وشعرها الاسود الحالك ووجهها المزدان بملامح الطهارة كما لو كانت ملكاً فتقدم اليها وكلمها فذُعرت منه ولكنها ما لبثت أن استأنست به فعلم منها أن اسمها نكامولي ابنة شنوف احد مزارعي المحافظ فشغف بها شغفاً شديداً وتعاهدا أن يجتمعا سرًّا كل يوم في ذلك الموضع ولبثا يجتمعان على هذا الاسلوب حيناً طويلاً من الدهر وتعاهدا أن يكونا حبيبين ولما رأى درنفتش من حسن أدبها ولطف معشرها ما خلب لبّه صمم أخيراً أن يطلبها زوجة له من أبيها

فتوجه الى كوخ الرجل وباح له بحبه لابنته وطلب اليه أن يزوجه منها فلما سمع منه الرجل ذلك رفع يديه الى السماء قائلاً

« أأنت تحب ابنتي ؟ - أأنت واقع في غرامها ؟ — اني أستحلفك بالله أن تحول عن ذلك لأنه اذا علم المحافظ جلية الأمر كان ذلك علينا وبالاً وأورد ابنتي حتفها »

فطيب درنفتش خاطر الرجل وأخبره أنه يحميها من كل سوء ويرد عنها كل مكروه وانها متى أصبحت زوجته فان المحافظ لا يجسر على الاتيان بمثل هذه الأعمال البربرية فأبى الرجل مراراً ولكنه أذعن أخيراً بعد الحاح الشاب الشديد فتزوج بها سرًّا في بلدة أخرى عن يد قس قام لهما بالطقوس الدينية المألوفة ثم عاد

الى البلدة و بقي أمرهما مكتوماً فكانا يجتمعان في الجنائن أمامهما الزهور وفوقهما الأشجار الباسقة والطبيعة تبسم لهما عن ثغر يفتر بالسعادة و بينما كانا مرة على هذا المنوال التفت اليها درنفتش قائلاً

« أود يا حبيبتي أن أعلن بعد قليل زواجنا على رؤوس الاشهاد حتى تكوني سيدة عزيزة الجانب محترمة المقام » فأجابته قائلة

« دعنا نبقى الآن كما نحن لأنه اذا علم المحافظ أمرنا فرّق بيننا و بعث بي الى موضع آخر كما فعل قبلاً بفتاة أخرى من هذه البلدة »

واتفق ان كان على مقربة منهما كاتم أسرار المحافظ وهما لم يشعرا به فسمع ما دار بينهما من الحديث فقصه على سيده المحافظ

فلما عاد درنفتش الى قصر المحافظة بش المحافظ في وجهه وهش له على خلاف عادته ثم لم يكن سوى بضع دقائق حتى نظر إلى الشاب وقال له

« هل لك يا درنفتش أن تقوم لي بخدمة أحفظها لك مدى الدهر فاني في ضيق مالي شديد وأحب أن أرفقك برقيم الى أحد أصدقائي في احدى المدن المجاورة فتحضر لي كمية من الدراهم التي يسلمك إياها »

فرضي درنفتش بطيبة خاطر أن يقوم بهذه المهمة وركب لساعته فرسه وأخذ ينهب الطريق نهباً ولكنه بعد أن سار بضع ساعات خطر في باله أمر أقلقه وهو أن الحاكم قد يكون بعثه في هـذه المهمة ليوقع بامرأته شرّاً فأخذت منه الهواجس كل مأخذ و بعد أن سار هنيهة عزم أخيراً على الرجوع لأنه شعر انه ترك امرأته وحيدة شريدة ليس لها من يحامي عنها أو يأخذ بناصرها اذا وقعت في ضيم ثم أدار فرسه نحو الطريق التي أتى عليها وأخذ يعدو ولما عاد الى البلدة كانت الشمس على وشك المغيب فلما بلغ الساحة العامة وجد هنالك جمًّا غفيراً تعلو وجوههم صفرة الوجل فعلم أن لا بد من نائبة قد حلّت ولما تأمل قليلاً ذلك الحشد سمع صراخ امرأة يمزق الفضاء فعلم أن الباعث على ذلك الألم الناشيء عن الجلد بالسياط ولما دنا من الموضع شاهد منظراً تقشعر له الجسوم وتهلع القلوب إذ رأى امرأة معراة الى وسطها وهي مربوطة الى آلة خشبية

وأحد أتباع المحافظ يرفع سوطاً خشناً ثم ينزل به على تلك المنكودة الحظ حتى صبغ دمها ظهرها وجرى الى الأرض ولما تفرس بوجه المرأة وجدها عروسه

فهجم الشاب على الرجل الذي كان يجلدها وأمسك يده والتفت الى المحافظ قائلاً

« ماهذا الذي أرى امامي ؟ »

فأجابه المحافظ بخشونة

« ليس لك شأن هنا والأمثل بك أن تجري إلى دار المحافظة »

« لا أسمح بمثل ذلك لأن هذه الفتاة هي امرأتي »

« إني أعرف ذلك وهي غداً تكون على طريق المنفى إلى سيبيريا »

ثم التفت إلى الضارب وقال له

« أجهز عليها »

فحاول الرجل منعه ولكنه قبل أن يفعل ذلك وقع السوط على ظهر تلك المسكينة بذوائبه الرصاصية فسُمع صوت كفرقعة مسدس فلعن الشاب المحافظ ثم انتزع من جيبه مدية قطع بها وثاق الفتاة ووضع وجهها الأصفر على وجهه وقبلها بحرارة ولكنه لم يقبل عروسه بل جثتها إذ أنها أصبحت في عداد الأموات وإذ ذاك رفع نظره الى السماء وأقسم في قلبه أن يأخذ بثار امرأته من ذلك المحافظ القاتل

وكانت لوائح الغيظ والغضب تلوح على محيا الاهلين الذين شاهدوا هذا المنظر الفظيع ودلائل التهديد وشق عصا الطاعة تبدو على وجوههم اذ أني كنت في عدادهم أما درنفتش فانه تاه في الجنائن ولم يعد الا مساء اليوم التالي فوجدني مع عدة من الاهلين واقفين بجانب دار المحافظة ولما سألني عن السبب في ذلك أخبرته أنا أتينا لنأخذ بثار تلك الفتاة التي ذهبت أمس ضحية بربرية هذا الظالم فانتظم في عدادنا واذ كان قد جنّ الليل دخلتُ ودرنفتش وصديق آخر الى المحافظة خلسة حتى بلغنا غرفة المحافظ نفسه وكان اذ ذاك نائماً فلما شعر بحركة هناك ذعر ذعراً شديداً وهب من نومه حيران وأول من تقدم اليه كان درنفتش و بيده خنجر مسلول فلما رآه المحافظ جزع جزعاً شديداً وصاح به قائلا

« ابقِ عليّ يادرنفتش - ابقِ عليّ وارحمني »

فأجابه هذا بتهكم

« هل أبقيتَ على امرأتي أمس عند ما رجوت منك ذلك جاثياً على قدميّ واني لأجرعنك الآن كأس الحمام بيدي »

وما أتى على ختام ذلك حتى أغمد خنجره في قلب المحافظ فأنّ أنة عميقة ثم سقط على الارض جثة لا حياة بها ولما قضي على الرجل دخل سائر رفاقنا الذين تخلفوا عنادار المحافظة وأشعلوا فيها النار وسط ذلك الليل الدامس فكان منظرًا رهيباً لم أرَ في حياتي مثله قط ولما تبلج صبح اليوم التالي كانت دار المحافظة طللاً بالياً ررسماً دارساً

الفصل الخامس عشر

« فلها ثورة وفيها مضاء »

لما عدت الى بطرسبرج نحو مغيب العام الماضي كانت بورت أرثر آخذة في الاحتضار شيئاً فشيئاً يبتر جسمها عضوًا عضوًا و بينما كان الجنرال ستوسل يعلن على رؤوس الاشهاد أن تلك القلعة منيعة الجانب بعيدة المنال كان عمالنا ينبئوننا بالتلغرافات السرية التي كان يرسلها ذلك القائد تباعاً الى وزارة الداخلية يشرح فيها خطارة موقفه والاخطار المحدقة من كل جانب وأنه لا يتسنى له المناضلة سوى بضعة أسابيع اذا لم ينجده أسطول البلطيك

وكان كلما مرّ يوم من شهر ديسمبر الماضي أشعر بدنو تلك الساعة الرهيبة التي وقفت حياتي وثروتي لأجلها فتحفزت للوثوب الى هـذه الامنية تحفز الرئبال وعلمت أني اذا لم أضرب في مثل هذه الفرصة السانحة الضربة الهائلة التي تقوض اركان الاستبداد وتزعزع عرش الامبراطورية المطلقة في روسيا وتحدث بذكرها جرائد العالم وألسنة الناس من أقصاء المعمور الى أقصائه ذهبت سائر مساعيّ أدراج الرياح ولم أفز من الأماني والآمال التي بنيتها بوطر و بينما كان جلالة القيصر نقولا الثاني أمبراطور الروس جالساً في قصر الشتاء يصـدر أوامره الى انحاء

منشور يا وأسطول البلطيك كنت أنا غورتشا كوف سرجيوس فلاديمير أمبراطور النهلست. أصدر أوامري من قصر في بطرسبرج لا يبعد كثيراً عن قصر القيصر الى سائر لجان الثورة في انحاء الامبراطورية الروسية فيصدع بها ألوف من نخبة الشبان وأشراف الامة ووزراء الدولة الذين لم يكونوا سوى عمال سريين يرضخون لأدنى اشارة تصدر من زعيمهم كما يرضخ اليسوعيون لسائر أوامر جنرالهم دون أن يسألوا كيف أو لماذا

ولما انصرمت أيام العام الغابر وانبثق فجر العام الجديد أصبحت كمن على نار الغضا أحسب الدقائق أياماً والساعات أشهراً واليوم سنة وخصوصاً أن البوليس السري أظهر من النشاط وكثرة التنقل من موضع الى آخر ما يؤخذ منه أنه أوجس خيفة من مكيدة لم يقف حتى الآن على شيء من تفاصيلها. ولكنه لم يتبلج صباح اليوم الثالث من شهر يناير حتى أتت التلغرافات تترى تفيد ان لم يبق في قوس بورت أرثر منزع وان الحامية قد سلمت فكان سقوط تلك القلعة المنيعة أشارة إلى سائر لجان النيهيلست في روسيا ان الساعة للقيام إلى الثورة العامة قد حلت فكأن روسيا وبولونيا وسائر انحاء الامبراطورية الروسية بأسرها مخزن ديناميت كبير وسقوط بورت أرثر شرارة كهربائية وقعت عليه فألهبته

ولا بُد هنا من بيان الأسلوب الذي تمكنت به من تحويل حركة نهلستية بسيطة اعتيادية الى ثورة عامة التهبت جذوتها فى سائر انحاء المملكة وذلك أني رأيت عند قدومي الى روسيا قبل سفري الاخير الى سيبيريا أنه لا بد لنجاح هذه الحركة من اشتراك سائر العمال فيها على اختلاف أنواعهم ومهنهم في جميع أطراف المملكة فعند حلول الوقت المعين يضربون جميعاً عن العمل لمطالب يطلبونها من أصحاب المعامل ثم اذا مرّ على ذلك بضعة أيام تغيرت وجهة الاضراب عن العمل واصطبغت بصبغة سياسية بحتة ومن البديهي أن العمال انما هم جسم الأمة وقوامها فاذا امكن انضمام كلمتهم في مطالب سياسية كان ذلك أمام القيصر وأوربا والعالم بأسره عبارة عن مطالبة سائر الأمة الروسية بذلك وأصبح لهذه الحركة شأن يختلف كل الاختلاف عن سائر الحركات السياسية السابقة

ولكن لا بد من القيام بذلك ونجاحه من أمرين هامين أحدهما موافقة زعماء أولئك العمال على ذلك وثانيهما أن يكون الزعماء وحدهم عالمين بسريرة الأمر وأن يبقى العمال أنفسهم في جهل تام بخصوص تحول الحركة الى غرض سياسي بعد الاضراب عن العمل ولذلك كان الغرض الذي رميت اليه عند وصولي الى روسيا جمع كلمة هؤلاء الزعماء ولما كان اكثرهم من أعضاء النهلست لم يكن هنالك صعوبة كلية في الأمر فتمكنت بواسطة هؤلاء من ادخال الباقين في عداد جمعيتنا فأصبحوا جميعاً طوع بناني يأتمرون بأوامري وينتهون بنواهيّ

وفي منتصف ليل اليوم الثالث من يناير جرت بي مركبة تسابق خيلها الرياح الى قصر منفرد في أطراف بطرسبرج تحف به الجنائن الغناء من كل جانب ويتأرج من أزهاره أرج الروائح العطرية تنطح أشجاره الباسقة عنان الجو وتكسو نضارة الخضرة أرضه الفسيحة لا تبلغه جلبة القوم وضوضاء الجماعات بل هنالك سكون تام لا يسمع وسطه سوى هبوب الرياح وحفيف الاشجار

الى هذا القصر المنفرد المنيف سددت خطواتي بعد نزولي من العربة ولما بلغت قاعته الكبرى اذا بها غاصة بجماهير نخبة النهلست وزعماء العمال وكانت الأنوار تتألق فيها تألق الشموس فلما جلست على كرسي الرياسة تفرست في القوم فاذا هم صامتون كأنّ على رؤوسهم الطير وكان منظر ذلك الاجتماع مهيباً وقوراً ولا غروَ فانه أعظم اجتماع نهلستي التأم في الامبراطورية الروسية حتى الآن وحريٌّ أن يكون على هذا النمط نظراً لخطارة موضوعه والغرض العظيم الذي يرمي اليه والآمال السامية التي كانت معقودة بنواصيه والنتائج البعيدة التي ترتبت عليه مما لا يزال صداه يرن في الآذان حتى الساعة فانه مصدر الشرارة الاولى لهذه الثورة العظيمة التي لم يعهد لها نظير منذ أيام الثورة الفرنساوية والتي لا يعلم الا الله متى تكون نهايتها فاني أقص هذا الحديث عليك والتلغرافات لا تزال ترد فراداً وأزواجاً تنقل حديث عراك عظيم ومذابح دموية شديدة وصراخ يمزق كبد الجو وآلام تهلع لها القلوب وهي آلام أمة تربو على مائة وعشرين مليوناً آخذة في الخروج من دياجير الجهل والاستبداد الى جنائن العدل والحرية ولا

بد لها قبل بلوغ ذلك أن تخوض أقدامها في دم أبنائها وتتضرج أياديها بدم أطفالها

ولما استقر بي المقام في ذلك النادي الرهيب التفتّ الى الاعضاء مخاطباً

« أيها الاخوان لقد التأمنا الآن للمداولة بخصوص القيام بضربة عظيمة تحرر بلادنا من ربقة الاستبداد وتضرب على أيدي الجور وتغل عضد الظلم وتخرج بأعظم أمة أوربية من بيداء الرق الى جنات الحرية فهل أنتم راضون عن ذلك ؟ »

فأجاب سائر الاعضاء من دون تخلف واحد : « بلى بلى اننا راضون كل الرضى » : فعدت الى تتمة الكلام قائلاً : « اذا كان الامر كذلك فلا بد لي من تذكيركم أولاً أن الفرصة التي سنحت الآن قد لا يتيسر لنا الحصول عليها مرة أخرى في مستقبل العمر فان دولتنا مشتبكة في حرب تشيب لهولها الولدان في بلاد سحيقة حيث جيوش الحكومة التي هي ساعدها الاقوى بعيدة عنا لا نخشى شيئاً من بأسها ووطأتها ولقد سقط كثيرون من اخواننا جرحى في ميادين الوغى وارتدت ألوف من الاسر الروسيه أثواب الحداد فالامة الآن ناقمة على الحكومة اذ دخلت هذه الحرب الشعواء دون أن تكون من الاستعداد على شيء وكل يوم تعلو أصوات التذمر وغرضنا الآن من هذا الاجتماع أن نحوّل حاسيات الامة الى أصوات تكون رعوداً قاصفة تبلغ آذان القيصر وتحمله على منح الدستور للبلاد والامة واعلموا أننا اذا تمكنا من نوال الدستور في هذه الآونة فليس سقوط بورت أرثر سوى نهضة روسيا وليست بلايا الحرب الحاضرة ونوائبها سوى بركة عظيمة اذا كان من ورائها حرية مائة وعشرين مليوناً من النفوس والسؤال الذي أطرحه عليكم الآن هو ما هي الطريقة التي يجب علينا الجري عليها في نوال الغرض الذي نسعى اليه»

فحصل على أثر ذلك سكوت عظيم ثم قام بعض الأعضاء وأجابوا عليه كما يأتي

« الطريقة المثلى هي اغتيال القيصر » — « يجب علينا قبل ذلك اغتيال العمال الذين هم تحت سلطته » - « نقوم أولاً بأعمال ارهابية بقنابل الديناميت » — « يجب نسف سائر مصالح الحكومة دفعة واحدة في يوم واحد» — وبعد أن تكلم كثيرون على مثل هذا النمط عدت الى تتمة الكلام فقلت « لا يجب علينا أن نقوم بشيء من هذا في الوقت الحاضر لأننا كنا نقوم قبلاً بمثل هذه الضربات باسم النهلست وأما اليوم فاننا نتكلم باسم الأمة الروسية ونضرب بساعدها وها ان عيون

أور با والعالم بأسره شاخصة الينا فلا يليق بنا أن نتخذ جانب العنف والارهاب مما تعود علينا تبعته باللوم ولكن الطريقة الفضلى هي أن نطلب الدستور من القيصر أولاً باسم الأمة باللين والرفق ولما كانت الأمة ممثلة بجماعة العمال ترتب أن يكون ذلك على يدهم والذي أحكم بلزوم عمله هو اضراب العملة عن العمل ولما كان زعماؤهم حاضرين معنا الآن واخواناً لنا في المبدأ والرأي تيسر لنا القيام به ».

و بعد مداولات طالت نحواً من ثلاث ساعات قرّ الرأي على ما ترى الشروط التي لأجلها يضرب العمال عن العمل والتي يجب أن نتلى عليهم هي ما يأتي

(١) أن لا تزيد مدة العمل في النهار على ثمان ساعات (٢) تعيين قيمة العمل مما تقوم به لجنة مؤلفة من العمال والنظار عليهم (٣) تعيين لجنة دائمة تكون حكماً في مواد الخلاف (٤) أقل أجرة الفاعل اذا كان رجلاً روبلاً في النهار (٥) أقل أجرة المرأة نصف روبل (٦) لا يلزم العامل بالاشتغال أكثر من الوقت المعين وأن تكون أجرة العمل في مثل هذه الأوقات ضعفي المعدّل العادي (٧) تعيين أطباء وصيادلة يقومون بحاجات العمال الصحية اثناء المرض (٨) تحسين الأحوال الهيجينية في المعامل (٩) عدم معاقبة المعتصبين (١٠) لزوم دفع أجرة العمال أثناء الاعتصاب . أما المطالب السياسية التي لا يعلم العمال شيئاً منها عند تحول الاعتصاب الى صبغة سياسية فهي كما يلي

(١) استدعاء مجلس نواب تنتخبه الأمة بأكثرية الأصوات (٢) ايقاف الحرب في الشرق الأقصى (٣) العفو عن سائر المنفيين والمسجونين من المجرمين السياسيين (٤) حرية الجرائد والأديان (٥) حرية الاجتماعات والجمعيات

وترتب حركات الثورة على الاسلوب الآتي بيانه

في ١٦ يناير — يبتديء الاعتصاب فيتوقف ١٢٠٠٠ عامل عن الاشتغال في معامل بوتيلوف — وفي ١٨ ينقلب الاعتصاب سياسياً فيرأس الأب غابون ٥٥ ألفاً من العمال — وفي ١٩ يزيد عدد المعتصبين الى أن يبلغ ٧٥٠٠٠ — وفي ٢٠ يصبح الاعتصاب عاماً فيتوقف ١٠٠٠٠٠ عامل و يقفل ١٢٤ معملاً — و يسير المعتصبون في الأسواق و يضطرون بقية العملة الى الانضمام اليهم و يطلب الأب

غابون باسمهم ان ٥٠٠٠٠ يودون مقابلة القيصر

وعند بلوغ هذا الحد من المناقشة قام كبير زعماء العمال وقال

« اذا كان لا بد من نجح المسعى في اعتصاب العمال فلا بد من ايجاد وسيلة نتمكن بها من اسعافهم بالدراهم والا ذهبت سائر مساعينا ادراج الرياح لأن العمال اذا أضربوا اليوم عن العمل عادوا اليه غداً بحكم الضرورة ولما كان عدد المعتصبين في بطرسبرج وضواحيها يبلغ خمسمائة ألف نفس فما قولك بسائر العمال الآخرين في موسكو ولوتزو وسيبيريا و بولونيا وغيرها و يلزم للقيام بأود عائلات هؤلاء المساكين عدة ملايين من الروبلات وهو مما لا قبل لنا به ولذلك أرى ان القيام بالثورة دون هذا السند الوحيد العظيم حبوط مسعى » فحصل على أثر ذلك سكوت عميق دام بضع دقائق لأن سائر الأعضاء أدركوا أن الرجل قد أصاب المحز في اعتراضه . فعلمت إذ ذاك ان الساعة قد حانت للاجهار بما بقي حتى الآن مكنوناً عن اخواننا في بطرسبرج فوقفت وسط ذلك المحفل الرهيب وقلت

« ان الثورة التي نحن قائمون بها انما هي ضرب من الحرب وقد قال نابليون العظيم انه يلزم للحرب ثلاثة أمور أولها المال وثانيها المال وثالثها المال ولو لم أكن على يقين من ذلك لما كنت قد دعوتكم للاجتماع هذه الليلة للقيام بأمر خطير يقتضي له ملايين من الروبلات وعليه فاني أعلن الآن على رؤوس الاشهاد أن ثروتي البالغة خمسين مليون روبل والتي هي الآن في مصرف انكلترا ستكون جميعها تحت إمرة لجنة العمال ليوزعوها عليهم أثناء الإعتصاب ليس في بطرسبرج فقط ولكن في موسكو وسواها من المدن والأمصار الروسية وستكون برمتها هنا في نحو أسبوعين من الزمن » - فضج الحاضرون لذلك ضجيجاً عظيماً وصفقوا تصفيق الفرح والحبور حتى بلغ هتافهم عنان السماء

ولم يمر أسبوعان من الزمن حتى وردت حوالة مالية على مصرف بطرسبرج بقيمة خمسين مليون روبل باسم أعظم تاجر هنالك وهو واحد من عدادنا فكانت حوالة لم يسبق لها مثيل في تاريخ تجارة روسيا فلم نلبث أن وزعنا جانباً كبيرا منها في ٢١ يناير أي مساء يوم الثورة و بعثنا بالباقي الى موسكو وسائر المدن

والأصقاع الروسية حتى حدود سيبيريا وكان ذلك أعظم باعث على الاشاعات التي تواترت بخصوص الاسعافات المالية التي وردت روسيا من مصادر يابانية انكليزية

فاستعرت في اليوم التالي نيران الثورة الروسية التي هي فجر ثورات القرن العشرين وتقاطر أولئك العمال البسطاء مئات ألوف الى قصر الشتاء وهم يظنون أنهم ذاهبون لتناول ايقونات من يد امبراطورهم فابتدأ يومنا الأول الذي سُمي بيوم فلاديمير خطأً وصواباً — خطأً لأنه نسب الى الغراندوق فلاديمير وصواباً لان اتباعي ينسبونه الى غورتشاكوف سرجوس فلاديمير

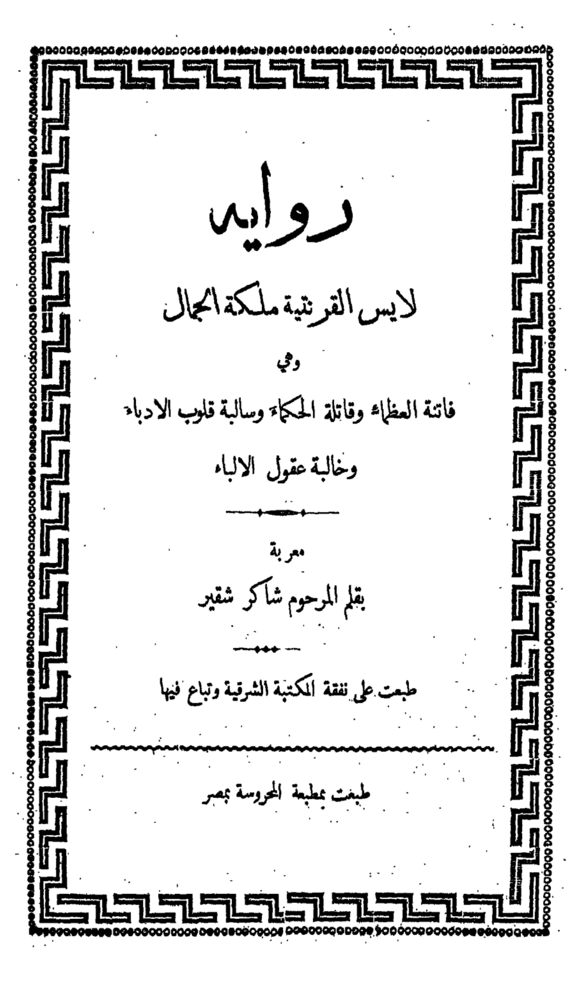
ولقد علمت يا عزيزي الطبيب من الرقيم الذي سقط مني أسرار مقتل الغراندوق سرجيوس والبواعث التي حملتني على مهاجرة الربوع في مثل هذا الحين أما السبب الذي لاجله ندمت على إشعال جذوة الثورة فهو لأني رأيت اني مطوّح ببلادي الى وهدة الخراب واني أساعد اليابانيين علينا في حين نحن أشد فيه حاجة الى الاتحاد منافي سواه ولما طالعت الاشاعات المتعلقة بشأن طلب روسيا الصلح على شروط تجحف بحقوقنا وتنزل من قدرنا أمام أوربا والعالم بأسره كدت أذوب حسرة وأسىً

ولا داعي أن أقص عليك تفاصيل يوم فلاديمير وما تلاه من الوقائع الخطيرة والحوادث الجسيمة لأن جميعها بنات أمس ولا تزال هذه الثورة الرهيبة حتى الساعة في سعير ولهب اذا خمدت في مدينه شبت في أخرى وسيكون لها في ارتقاء الجنس البشري ما كان للثورة الفرنساوية نحو مغيب القرن الثامن عشر فاذا كنتُ قد أسأت بها الآن الى وطني فمن حيث أردت الاحسان فانك لا ترى الساعة الاّ دموعاً مذروفة ودماء مسفوكة وحسرات تلوَ حسرات وزفرات تلوَ زفرات ولكنه سوف يأتي زمن وما ذلك ببعيد ترى فيه الأمة الروسية رافلة بأثواب المجد وعلى رأسها تاج الفخار وفي يمينها صولجان العزة فهي الآن في مهد الطفولية ومتى هرمت أوربا واشتعل رأسها شيباً وانحنى ظهرها كبرًا تكون روسيا غادة فتانة لا تزال في ربيع العمر ومقتبل الحياة واذا كانت هذه الثورة في عداد الأسباب التي تبعث بأمتي ووطني الى ارتقاء قمة الفخار في الاستقبال فكفى بها كفارة عن سائر آثامي وجرائمي التي أتوب عنها الآن الى الله انَّ الله وليّ التائبين

بسط واعتذار

أنجزنا هذه الرواية في نحو ثلاثة أسابيع من الزمن جرى القلم في خلالها خبباً واهماجاً الى حيث نريد ولا نريد وكان الغرض من وضعها أولاً أن تكون بمثابة أساس تبنى عليه رواية أوفر حجماً وأوفى بياناً ننقطع الى تدبيجها وتبييضها في ساعات الفراغ ولذلك وجدتها غزيرة المادة زاخرة بالحقائق السياسية الشهيرة والوقائع التاريخية الخطيرة خالية من الحشو الذي هو آفة كثير من الروايات العصرية حتى انه يصح اعتبارها تاريخاً صحيحاً للنهضة الثوروية الروسية منذ أصيل القرن التاسع عشر حتى مطلع القرن الحالي فرأى بعض الاصدقاء الخلصاء التعجيل بنشرها كما هي مخافة أن يجر عليها الدهر ذيل العفاء والنسيان فبعثنا بها الى المطبعة توّاً دون أن يتاح لنا تنقيحها واعادة النظر فيها ولذلك فقد تخلل صفحاتها من عثرات العجلة والاغلاط المطبعية ما عقدنا النية على ملافاته في الطبعة الثانية اذا قدر لنا بلوغ هذه الامنية فتقدمنا الآن بهذا الاعتذار الذي نحسبه ديناً أدبياً علينا الى بلغاء الكتاب ولا سيما لاننا في زمن اصبحت اللغة العربية فيه فوضى ولا فوضى الثورة الروسية . وعليه فاننا نرجو رصفاءنا أصحاب الاقلام أن يردوا ما يعثرون عليه من هذا القبيل الى باب مراعاة النظير!

الفهرس



روايه

لايس القرنتية ملكة الجمال

وهي

فاتنة العظماء وقاتلة الحكماء وسالبة قلوب الادباء

وخالبة عقول الالباء

معربة

بقلم المرحوم شاكر شقير

طبعت على نفقة المكتبة الشرقية وتباع فيها

طبعت بمطبعة المحروسة بمصر



الفصل الاول

« اوليه لايس »

هذه المرأة العجيبة الاحوال البديعة الجمال المشهورة بالكياسة وسلامة الذوق لم يكن في زمانها من يقاربها في المحاسن وجودة الاخلاق فكانت معدودة من عجائب الدهر كما سترى من باقي سيرتها . وقد أُخذت اخبارها من خطوط قديمة العهد جدًّا مكتوبة على ورق البردي وجدت في دير ميغا سبيلون في البيلوبونية (المورة) من بلاد اليونان وترجمت من اليونانية الى الفرنسوية في الربع الاول من هذا القرن . وهي مقسومة الى قسمين الاول هو الذي نحن بصدده الآن وهو يتضمن اخبار لايس وما جرى لها في حياتها والثاني يعرف بالليالي القرنية وهو يتضمن المباحث المختلفة التي كانت تدور بين فلاسفة اليونان وعلمائها ونجومهم لان لايس كانت تعقد لهم مجلسًا في مكان مخصوص سنأتي عليه بعد الفراغ من هذا الجزء ان شاء الله

اصل لايس من جزيرة ايجينه تيتمت منذ حداثتها فاتخذتها امرأة تبيع اكاليل الزهر وكانت ترسلها كل يوم تبيع الازهار في رواق الهيكل المختص

بالمعبودة « يونون لوكينه » فكانت النساء يشترين تلك الاكاليل اكي يعلقنها على تمثال المعبودة المذكورة طلباً لرضاها واستمرت على هـذا الحال الى ان صار عمرها عشر سنوات

فاتفق في احد الايام ان سكو باس نحاتُ التماثيل المشهور حينئذٍ كان يتمشى بقرب الهيكل يبحث بين النساء عن صورة تليق ان ينحت على مثالها تمثالاً للمعبودة وينوس ربة الجمال الملقبة الفخارية (اي المفرطة اللطافـة) فلما وقع نظره على لايس وهي رافعة يديها باكاليل الازهار الى حد كتفيها اخذهُ الانبهار من فرط محاسنها ورقة اعضائها ولطف التناسب بينهـا فدنا منها وتفرس فيها وقال قسماً بهذه المعبوده انكِ انت ضالتي المنشودة ولا يمكن ان اجد مثالاً اليق منك لنحت تمثال ربة الجمال . هاتي ازهارك وتعـالي معي الى منزلي فاعطيك الثمن الذي يرضيك وزيادة ففرحت الفتاة بهذا الامر ومضت معه وثاني يوم رحل بها سراً الى اثينا

وفي ذلك العهد كانت مشهورة بالجمال والمعارف امرأة يقال لهـا اسباسية الميليتية وهي زوجة بيركليس الخطيب السياسي الذي كان عصرهُ ازهى عصر في اغريقية في تقدم العلوم والفنون . توفي سنة ٤٢٩ ق . م . فتزوجت اسباسية بعدهُ بتاجر من الاغنياء وانشأت في اثينا مدرسة لعلوم الفصاحة وندوة للمذاهب الغرامية فكان منزلها مجتمعاً لاكبر رجال اثينا مثل سقراط وافلاطون وانتستينس وزينوفانس وغيرهم ممن في طبقتهم وكانت مع ذلك متقدمة في السن ففي مدرستها تلقت لايس اول معارفها في فن استمالة الانظار والقلوب الذي صارت بهِ بعد ذلك في اول مرتبة بين الهيتيرة (اي النساء المطلقات القياد اللواتي يجتمع عندهن ارباب العلوم والفنون .

وسنأتي استيفاء الكلام عليهن فيما يأتي) وهن اللواتي كانت اغريقية تفتخر بهنّ ·

وكان عمر لايس حينئذٍ ست عشرة سنة وعمر اسباسية نحو سبعين ولم يكن احد يرى لايس الا قضي لها بالتفرد بجمالها فاتخذتها اسباسية لخاصتها وكانت تفتخر بها ولا سيما لان تمثال وينوس نحت على مثالها فاعجب بها كل اهل اثينا لكنها كانت شديدة الرغبة في مدينة قرنتية لان اهلها ممتازون في الاعجاب بالمحاسن فيكون للحسان هناك المقام الاعلى ولذلك لما توفت اسباسية خرجت لايس من اثينا وقدمت قرنتية عازمة ان تستوطنها · وكانت بها مقر سكوباس المار ذكرهِ وكان في عصرهُ اول رجل في فن نحت التماثيل وهندسة البناء ·

ولما دخلت المدينة اخذت اكليلاً من الزهر لتقدمهُ لتمثال وينوس وكان يوم عيد والهيكل غاصاً ببنات الهوى وغيرهن وكلهن بالثياب الزاهية وكان الرجال مزدحمين حول الهيكل كالجراد · فلما رأوا لايس فتحوا طريقاً وصاروا يتعجبون من فرط جمالها فوصلت امام التمثال وكان من الذهب والعاج وقدمت الاكليل وصلّت قائلة ·

«يا افروديتة القديرة (هذا لقب وينوس في قرنتية) التي يعبدها كل اهل الاولمبوس (كناية عن السماء) استجيبي طلبة التي ستخصص نفسها من الآن لمذابحك في مدينة قرنتية التي اتخذتها وطناً وكوني راضية عليها الى الابد »

ثم نزعت عقدها من عنقها وجعلتهُ في عنق التمثال وقالت

« هذا اثمن شيء عندي اقدمهُ لك تكرمي بقبوله علامة حقيرة لشكري » فدنت حينئذ الكاهنة الكبرى واخذت اكليلاً عن رأس التمثال

ووضعته على رأس لايس وقالت لها

(اني اشهد يالايس انك اجمل نساء قرنثية وسيكون لك الاكرام الزائد وتنالين ثروة واسعة فاذكري حينئذ جميل المعبودة واكرميها بالهدايا)

فكشفت لايس النقاب عن وجهها لكي تقبل الكاهنة وانسدل شعرها الذهبي على كتفيها وظهر لجمالها رونق يبهر الابصار فلما وقع نظر الناس على تلك المحاسن الباهرة والالطاف الساحرة ثارت في رؤسهم الحماسة وتقدموا الى لايس وحملوها على الايدي وجعلوا يطوفون بها وهم يضجون فرحاً بها حتى ملأت الجو تهاليل الطرب

و بعد ذلك تقدم رجل من الاشراف وهو شيخ ليس له ولد وغناه وافر وقال للايس اعلمي ياعزيزتي انك تكوني وارثة لاموالي اذا ارتضيت ان تكوني في منزلي . فقالت له اذن تكون بمثابة ابي قال نعم لان شيخوختي لا تسمح لي ان اكون معك غير ذلك فتكونين ابنتي . وكان هذا الرجل الجليل ليونتيذس فاقامت عنده لايس ثلاث سنوات تجتهد في خدمته وتدبير منزله وهي مع ذلك تتلقى مع الفلاسفة والادباء انواع العلوم والفنون وتتدرب في ابواب الحكمة ورأوا من شدة نباهتها وفرط ذكائها ما ادهشهم حتى اجمعوا على انها ستكون فريدة عصرها

ولما شعر ليونتيدس بدنو اجله اوصي بكل تركته للايس لانه لم يكن له وريث شرعي

الفصل الثاني

حديقة لايس ولياليها

وهكذا استقلت لايس باموها ووجدت لديها من الاموال مالا يحصى

فنظرت في مستقبل حياتها نظر الحاذق البصير فرأت امامها طريقين احدهما سهلة هادئة توصل الى الخدر — اي انها اذا تزوجت فالامر سهل عليها لكنها تكون اسيرة بعلها و بيتها فلا تكون لايامها بهجة — والاخرى مفروشة بالازهار لكن يتخللها اشواك ومسالك صعبة متعبة غير ان شمس الحرية ساطعة فيها · فاختارت خطة الحرية لانها وجدت غايتها اسلم لها واشهى لانها تتمتع بلذاتها بدون معارض فاعلنت نفسها هيتيرة اسيرة امرأة حرة مستقلة · ومن ثم فتحت في قرنتية اقتداء باسباسية مدرسة للفصاحة وندوة للمذاهب الغرامية

وكان مركز هذا المجتمع العام في وسط حديقة في غاية الظرف والنظام جامعة لكل اسباب النزهة والمناظر البديعة وحينئذ جرى هذا المثل»

« اذا افتخرت اتينا بالبرتنون تفتخر قرنتية بحديقة لايس »

(والبرتنون هيكل مينروه في اتينا عظيم البنيان بديع النقوش)

واخذت عند ذلك تتفنن في طرق البذخ والترف وتجمع كل اسباب الملذات والملاهي ففرشت قاعاتها باثمن المفروشات وتجلت بانفس الملابس وتحلت بابهى الحلى وعقدت المجالس الحافلة فكانت فيها شمساً تبهر الابصار وتحير الافكار واجتمع لديها كبار الناس من الاقطار وانحبكت حولها القلوب كالاطار وخلبت عقول جلسائها بمحاسنها ومعارفها وذكائها وسحر فنونها وكان من يحظى بدخول بمنزلها يعد نفسه من اسعد البشر ومن يترامى على اقدامها و يحظى منها بابتسامة يحسب نفسه في اشهى نعيم فاجتمع لديها نخبة الاشراف والاغنياء والعلماء والخطباء والشعراء والحكماء ومن جملتهم افلاطون تلميذ سقراط (وكان سقراط قد مات) وانتستينس واسكينس وديوجانس

وارستيبس وغيرهم

وكان ارستيبس قد افتتن بها ونظرت هي اليه نظر القبول وتمكنت الصداقة بينهما فكان هو السبب الاكبر لشهرتها وكان يعلمها فنون الدلال ويثقفها ابواب المجاملة والحديث والحركات ويدربهما في حكمة الملذات وانواع الملاهي

ففي وسط تلك الحديقة الفيحاء والروضة الغناء على الكلاء الناعم تحت الاشجار الوارفة الظلال بين الروائح العطرية وخرير المياه وتغريد الاطيار كان عظماء البلاد يزدحمون حول لايس بين قيام وقعود ومتمشين وجالسين يتباحثون في ابواب الفنون والحكمة وهناك ذلت لعز لايس نفوس العظماء وخضعت لصولة جمالها عقول الحكماء وانحنت لدى اقدامها اعناق الكبراء . وانصب اليها المال من ايدي عشاقها سيولاً ولولا ذلك لما امكنها ان تقوم بتلك النفقات التي يعجز عنها الملوك ولا سيما بذل الاحسان لكل محتاج لانها كانت على جانب عظيم من السخاء

ولكن لم يكن يكفي الانسان ان يكون غنياً ويقدم الهدايا النفيسة لكي يجوز له الدخول في ذلك المجتمع حيث يجد كل ما به تقرّ العيون وتطيب النفوس من دواعي اللذة والانشراح بل يجب ان يكون حسن التربية لطيف المعشر خاضعاً مطيعاً لسلطان الجمال واحكامهُ المختلفة فالانسان الخشن الطباع القليل النباهة والادب لا يكون مقبولاً ولو كان مكسواً ذهباً في مجمع تتبارى فيه العقول وتتسابق فرسان المعارف والآداب اذ لم يكن يسمح لاحد ان يخرج عن قانون الحرية وخطة الاعتدال في الحديث والحركات الغرامية لانَّ اسباب الهوى عند لايس كانت محجوبة ضمن حجب

سرية لا يعرفها الا القليل من اصحابها على ما علم من رواية ارستيبس

وكانت قد وضعت شروطاً مع كل متجدد يحب دخول منزلها وسنت قانوناً لا يتعدّى · وذلك ان الدخيل يأخذهُ احد اصحابها المتعودين ويدخل به باباً في داخل الحديقة ويمشي به برهة في ظل الآس والورد فيصل بهِ الى فسحة محاطة بتماثيل بديعة وفي وسط هذه الفسحة تماثيل نساء بايديهن آنية ينصب منها الماء في فسقية من الحجر السماقي · ويخرج من تلك الفسحة مسلكان محاطان بشجر الدلب وينتهيان الى حوضين يسبح فيهما الاوز الناصع البياض بين تماثيل نساء يعرفن ببنات الماء ثم يجري به في طرق أُخرى مظللة ومسالك متشعبة لا يهتدي بها الا العارف الخبير حتى ينتهي الى مكان خفي قد نصب فيه تمثال الهوى السرّي وتحت قدميهِ كنانته التي يرمي بها سهام الغرام في القلوب واصبع يدهِ على شفتيهِ كناية عن لزوم السكوت وكتم السر وهناك تجد رياضاً صغيرة مفروشة باشكال الازهار والخضرة كالديباج وتماثيل مختلفة للغرام والجمال وربات اللطف واللذات ونحو ذلك والخمائل متكاثفة قلما يخترق النور حجاب ظلالها والمسالك في الغالب سرية مبهمة متعرجة ملتوية غامضة تتفرع بين المناظر البديعة من المياه والخضرة والوان الازهار ·
واخيراً يصل الدخيل الى علية قائمة على اعمدة ذهبية هي مقرّ ملكة الجمال وربة المكان السحري حولها عشرون بنتاً من الابكار الباهرات الجمال لكنهن كالنجوم بازاء البدر التام · فعند ذلك تأتي احدى هؤلاء العذارى وتأخذ الدخيل الى امام سيدتها فيكلمها كلاماً رقيقاً ثم يأخذ في مغازلة من تحلو بعينه من العذارى ·

وكان اجتماع الناس عادة ليلة الجمعة وهو اليوم المخصّص بالمعبودة وينوس

فيتقاطر الاصحاب افواجاً الى الحديقة وهي مملوءَة بالانوار الساطعة وتصدح آلات الطرب وترتفع الالحان من افواه المطربين ويدور الرقص والالعاب المختلفة وتنتهي الحفلة بتقديم مائدة عليها الاطعمة اللذيذة والفواكة والحلويات الفاخرة. وفي هذا الوقت اي بينما الناس جلوس حول المائدة تدور الاحاديث بينهم والمناظرات والمباحث في كل فن وعلم وباب ادب وحكمة فتسيل القرائح وتخرج بنات الافكار من مكانها والذي يكون لهُ زيادة عقل وفرط ذكاء يأخذ الشهرة ويشار اليه بالبنان في كل مكان ويكون جزاءه الفائز قبلة لطيفة من التي يهواها قلبهُ بمثابة الاكليل الذي يفوز بهِ الغالب في الالعاب الرياضية.

وسيأتي ذكر هذه المجالس الليلية الشديدة الاهمية في الجزء الثاني حيث تبسط الافكار ويعرف مقام الحكمة والآداب وبعض احوال سياسة ذلك العصر.

الفصل الثالث

بعض المسائل التي كان يدور عليها الحديث

في مجلس لايس — وصف المحاسن

قد يشتاق القارئ الى معرفة بعض الامور التي يدور عليها الكلام في تلك المجالس الشائقة والليالي الرائقة فنطلعهُ من الآن على البعض منها بوجيز العبارة

ما هو الانسان — وهل هو مركب من نفس وجسد

ما هي الحياة — ما هي السعادة — ما هي الآلام — ما هو الموت

ماهي احسن الوسائط واحكم الطرق لسلوك سبيل السعادة بلا عثار

ما هي الفضيلة — ما هي الرذيلة

ما هو الطمع — ما هي الكبرياء — ما هو حب المال -ما هو البذخ

ما هو مذهب الحسّ اي الذي ينسب بهِ الى الحواس اصل كل ما يخطر لنا من الافكار

ما هي الانانية . اي حب الذات

ما هو الحنث في اليمين

وبالاختصار ما هي الرذايل الكثيرة التي تخرب نظام الهيئة الاجتماعية وتنتشر راساً او بالواسطة من تمدن الانسان

هل لارباب الاحكام قلوب حية وشفقة ورحمة

لماذا يكون الذين يخالطون الملوك اصحاب وجهين ولسانين

وهل ينتج من الحروب ويل او خير

ونحو ذلك من المسائل التي يكثر الخوض في عبابها الى ان يجدوا لها حلاً موافقاً لروح ذلك العصر

وعند قرب الفراغ من الطعام تكون الخمرة قد لعبت بالرؤوس ورنحت الاعناق والمعاطف فتنفتح افواه النساء بمثل هذه الاسئلة

ما هو الجمال =هل يكفي ان تجتمع المحاسن في شكل الجسد ام يلزم ان تقترن باللطف وذكاء العقل

هل للمرأة التي تقوم بها حياة الرجل وسعادتهِ حق ان تعتبر مساوية له ام عليها ان تنحبس في خدرها تقاسي في الوحدة ملل الحياة وهي اسيرة الرجل كما هو جار في هذه الايام (اي ذاك العصر)

ماهي الصداقة او المحبة الحقيقية

ما هو الغرام او الحب المبني على الملذات

ماهي المسرة ولذة الشهوات الخ

فيعلم القارىء من هنا ان ليالي لايس لم تكن لمجرد تعاطي اسباب الملذات الحيوانية والشهوات البدنية ومطارحة الغرام ونحو ذلك كما يظن بعض من في عقولهم اعوجاج وفي افهامهم سقم الذين يتكلفون العبوسة والهدو ويلومون ارباب الغرام السليم النافع ويحرمون انفسهم من مسراته فيجلبون لانفسهم الحسرات لانهم لا يعرفون ان يتدربوا في سبله ويتدبروا تعاطي افراحه ·

فسألت لايس ليلة تلميذ سكوباس التماثيلي وكان صاحب كياسة وفطنة وادب قائلة هل يمكنك ان تشرح لنا بماذا يقوم الجمال الحقيقي في المرأة ·

فاجابها قائلاً

ان الجمال في الجسم يقوم بتمام التناسب بين الاجزاء والكل وبين الكل والاجزاء اي ان يكون كل جزء منه محكم الوضع موافقاً للجزء الآخر بحيث لا يكون اقل تنافر بين جزء وآخر وبهذا يكون مجموع الجسم تام الخلق من كل وجه

ولكن هذا الجمال هو جمال التماثيل فلكي يكون له رونق وحياة يجب ان يقترن بمحاسن العقل وهذه لا علاقة لها بالتكمل بل تصدر عن النفس الحية فاجتماع محاسن الخُلق والخَلق هو تمام الجمال

فاما اللون فمع انه يحسب من متممات الجمال الجسدي لا يعتبر ضرورياً جداً لتمام الجمال فان بعض النساء تكون صفراء البشرة ولكن لها ملامح غاية في الظرف وفي اعضائها تناسب تام · واما انت يالايس فقد جمعت كل معاني

الجمال في جسمك وعقلك وكل الناس مجمعون على ان تمثال وينوس انخاريته الذي صنعهُ استاذي سكوباس على مثالك هو طرفة هذا الزمان

فتبسمت لايس ولوت عنقها وقالت انك تستحق الشكر على هذا الثناء ولكن اخشى ان يقوم لي حساداً

فقال لها انك متفردة في محاسنك فاما ان يحسدك كل نساء الدنيا واما ان لا تقوم واحدة منهن في وجهك وتعترف عن طيب خاطر بتفوّقك

قالت فتمم كلامك الآن

قال قبل ان آخذ في وصف كل من اعضاء الجسم على حدة يجب ان اذكر فرقاً بين جمال الرجل وجمال المرأة · فان جمال الرجل يظهر رونقه بما يظهر من الاعضاء من شدة البنية وقوة الاوصال واما جمال المرأة فيغلب جمال الرجل بلطف الملامح ونظام الخطوط وليونة البشرة ونعومتها وشفافتها والآن آخذ في وصف الاجزاء الذي به يتم الجمال في المرأه

اما الرأس فهو اشرف جزء في الانسان وفيه مجتمع المحاسن يجب ان يكون مدوراً تقريباً لا كبيراً ولا صغيراً مكسواً بشعر طويل اسود او شعر لين ناعم الملمس مسند · لا على الظهر او مجدولاً جدلاً لطيفاً

واما الجبين فيجب ان يكون عالياً واسعاً عليه مخايل الذكاء والفهم · فاذا كان قليل الارتفاع وكانت خطوطه ذاهبة من عند الحاجبين بحيث تتلاشى تلاشياً خفياً يكون الجمال اكمل والمنظر الطف لان هذا شكل جبين وينوس وجبين لايس

واما العيون فهي مرآة النفس تلوح منها حواسنا واميالنا وهي اشد اجزاء الوجه تأثيراً فيجب ان تكون صافية نقية نجلاء فالسود منها اكثر نشاطاً ولمعاناً والزرق · تكون ساكنة ينعكس عنها لون السماء وتكون

حركاتها هادئة تدل على الحنو والحواجب النقيـة التخطيط زينة للعيون والوجه لا يستغنى عنها . ويجب ان تكون كثيفة عند اصل الانف ثم ترق بالتدريج بعد ان تتجاوز زاوية العين الخارجية بطرف دقيق واضح . والحواجب الكثيرة الكثافة والانحناء جافية المنظر واما التي يكون انحناءها خفيفاً يقرب من الاستقامة فانها تجعل للوجه منظراً صريحاً جذاباً واما الاهداب فيجب ان تكون طويلة منتظمة الوضع في اشفار الاجفان فانها حينئذ تكون آية سحر للنظر فالعيون التي يكون هذا تكوينها تكون اشد جذباً للقلوب وتفهم منها قوة العواطف فتكون لغتها افصح كثيراً من لغة افصح لسان اسأَلي صديقنا اروتيذاس عن القصيدة التي نظمها في لغة العيون

فقال اورتيذاس حقاً ان العيون مرآة النفس ولكنها ايضاً مصدر ناري تنبعث منه شرارات تحرق القلب وتذيبه واني مجرب

ونظر الى فتاة كان يهواها اسمها نليده وتنهد وقال نعم اني منذ شهر لم اكن لاعرف هذا السر وقوة المغنطيسية التي في العيون الجميلة وما فيها من الفصاحة والبلاغة والايجاز ولولا حركات احداقك ياعزيزتي نليده تتوقف معرفتي في ذلك الفن الذي سأَمتد في ابحاثه واتعمق في اسراره لكي استطيع وصف العيون كما احب

فاحمرت الفتاة وتبسمت ثم اتم ذاك كلامه قائلاً

واما الوجنات فيجب ان تكون مستديرة معتدلة السمن لا ضخمة ولا رقيقة موردة الوسط فهذه اجمل الوجنات

واما الانف فهو ركن من اركان المحاسن وعليه يعتمد في كمالها وهو النقطة الثابتة التي تجتمع حولها وتتأَلف سائر اجزاء الوجه فكأَنه محور تدور عليه

فالانف المستقيم الذي يقسم الوجه الى قسمين متساويين ويقع طرفه فوق وسط الفم هو زينة الوجه واجمل المناخر هي التي تكون معتدلة الانفتاح محصورة ضمن نصف دائرة من الوراء · ويجب ان لا يكون الانف كثير الطول ولا كثير القصر ولا ضخماً ولا دقيقاً جداً وبالاختصار يكون نظير انف تمثال وينوس الذي صنعه سكوباس ومعلوم عند جميعكم من اين اخذ مثاله ·

واما الفم فهو المركز البديع لابتسامة الغرام ومقام اللذة التي تتأتى من القبلة المهيجة كل العواطف واجمل شكل له ان يكون شبه قوس محلولة الوتر اي شبه قوس معبود العشق وهو اكثر اجزاء الوجه في المرأة اظهاراً للطف والمعاني · ففي تمثال وينوس المذكور الشفتين مشقوقتين قليلاً اشارة الى السرور واللذة · ويشترط في الفم ان يكون طرفي الشفتين قرمزيهما وان تنضما عند طرفيهما انضماماً لطيفاً بحيث يتألف هناك مكمن الابتسام واللذة وان تكون اللثة جامدة حمراء مرجانية يبرز منها · اسنان كاللؤلؤ انتظاماً وبياضاً

واما طرف الذقن فيجب ان يكون مستديراً صقيلاً مستوياً خالياً من كل تجعد وحفرة فيه يتم الشكل البيضي الذي عليه يتوقف جماله ومن اراد التحقيق فلينظر الى شكل وجه لايس ففيه اجمل الخطوط الهندسية البديعة

واما العنق فيجب ان تكون مرنة لينة دقيقة من الاعلى ثم تاخذ في الغلظ بحيث يكون وفاق تام في اتحادها بالكتفين وان يكون بياضها صافياً لا يشوبه شيء من زرقة العروق

واما الكتفان فيجب ان تكونا سمينتين متساويتين في الارتفاع منحنيتين

انحناء لطيفاً في خط يأخذ من اعلى المنكب وينتهي متلاشياً في قناة السلسلة الفقرية

واما الصدر فهو مركز مهم للجمال فيجب ان يكون مرتفعاً مستديراً استدارة لطيفة غير بارز الترقوتين

والنهود اجمل زينة الصدر ويجب ان يكون لطف وضعها اكثر من اعتدال حجمها فالنهد هو العضو الفتان الجاذب للأبصار رغماً عنها ولا يحسن ان يكون في مركز عال كثيراً او سافل كثيراً ويجب ان تكون قاعدته متسعة وشكله مستديراً وان تكون حلمته كافية في نشوئها لقضاء الحاجة الطبيعية المطلوبة منها اي لاضخمة بارزة ولا صغيرة غائرة وان تكون مدورة وان يكون بين الحلمة واختها من المسافة كما بينها و بين حفرة الترقوة وان يكون النهدان متشابهين في الشكل والحجم وان يكونا منفصلين ابيضين ناعمين كانزي اللحم على دائرهما و بالاختصار متشابهين لنهدي و ينوس

واما الذراعان فيجب ان تكونا حسنتي الاتصال بالكتفين متماثلتين في الطول كثيرتي العضل والعصب في الرجل ملساوين خاليتين من ضواغط العضل في المرأة و يجب ان يكون الرفقان مستديرين والخطوط الخارجة منهما تذهب مستقيمة الى الكف

واما الكف فيجب ان يكون بروزها من المعصم مندرجاً لطيفاً وان تكون بيضاء مكتنزة اللحم منتهية باصابع حسنة المفاصل دقيقة الانامل مستديرة الاظافر ورديتها شفافتها وان تكون مفاصل الاصابع خفيفة الظهور قليلة التجعد

واما القوام فيجب ان يكون ممشوقاً رشيقاً والخصر رقيقاً نحيلاً والردف ثقيلاً بحيث يظهر من انحناء قليل في القوام الى الامام

واما الرجل فيجب ان تكون صغيرة ضيقة منتظمة الاصابع

هذه هي مقتضيات الصناعة التي بها يتم جمال المرأة فالتي تكون فيها هذه الصفات تستحق عند الناقد البصير ان تقام لها معابد لان الكمال من صفات المعبودات

وقد بقي شيء آخر يبلغ به الجمال اقصى درجة الكمال وهو الانتظام والمناسبة بين الاعضاء ولا سيما المزدوجة منها كالعينين واليدين فالتناسب التام بين العينين والوجنتين والاذنين والنهدين وغيرها من الاعضاء المزدوجة له في النفوس تأثير شديد يزيد قوة بتناسب واعتدال الجبين والانف والفم بواسطة الخطوط الفاصلة بينها وفي بعض اقسام الجسم ايضاً وفاصلة بينها من مسافة الى مسافه بها يتم نظام التناسب ولو بغير وضوح لكن يعرف من النظر الاجمالي

فالخلل في نظام اجزاء الجسم وانتساق وضعها يمنع نشوءها فيه كما لو كان واحد معوج الانف وآخر ضخم الشفتين وآخر منضغط الاذنين وآخر قصيراحدى اليدين ونحو ذلك فكل هذه المناظر المشوهة تنفر منها الطبيعة وتشمئز منها النفس وتنقص الحواس فالتناسب بين اجزاء الجسم وحسن الانتظام مما لا بد منه لتمام الجمال

فقالت له لايس اراك شرحت شرح رجل حاذق خبير ولكنك ضربت صفحاً عن الالطاف والعواطف والمعاني

فقال لها كيف لي ان اذكرها امامك وانت جامعة لها كلها مع اني

اشرت الى ذلك في اول الحديث ولا بأس من ان اختم الكلام بذكر المحاسن العقلية فالجمال الجسدي اذا تم لا يكفي لكي يعجب الرجال الالباء ويجذب قلوبهم فيجب ان يصحبهُ موكب الغراقة

(الغراقة عند ارباب الميثولوجيات معبودات الالطاف والمعاني العقلية)

وهن ثلاث كما يأتي

فالمرأة التي كملت محاسنها الخارجية يلزم لها جمال باطني يفعل فعله المطلوب فالوجه الجميل الخالي من المعاني يمثل تمثالاً من الشمع ليس لهُ في النفس تأثير واما اللطف في هيئة الوجه فله حركات مختلفة والدلائل كثيرة فيرى البصير شيئاً من تلك المعاني وقبل ان يتمكن من وصفه يلوح له آخر. فالفم هو المستقر الاخص للالطاف ولا سيما متبسماً والوداعة والحنو وحدة البصر وحركات العنق المتوافقة والارتياح في النفس ولين العواطف وجلسة الجسم ووضع الذراعين والرجلين كل ذلك يتضمن معاني تجعل المرأة مالئة القلب والنفس بعد البصر وحيثما نقلت قدميها تكون الغراقة مرافقة لها

وقد افادنا ايسبوذس ان في الاولمبوس ثلاث غراقات الاولى اوفروسيني وهي مثال الرشاقة وصراحة الكلام والافراح. والثلاث يوجدن في سن الصبا دائماً ولا يزلن فرحات ضاحكات محتشمات آخذة الواحدة بيد الاخرى وليس لهن من الكسوة الا شعورهن البديع وكساء رقيق بسيط يزيدهن ظرفاً وقد علق سقراط صورة هذه المعبودات على مدخل هيكل مينروة في اثينا حتى يشاهدهن كل من يأتي الى هناك ويعجب بشكلهن ويفوز منهن ببعض المواهب. ولولا خوفي من ان اخدش وجه

الحشمة في هذا المجلس الحافل لكنت اقول ان مدرسة الفراقة في بيت لايس بقرنتيه

فشكرت لايس ثناءه بكل رقة ومالت الى ارستيبس صديقها الاخص وقالت له

ياصاحبي هل لك انت الآخر ان تفسر لنا معنى اللذة فقال لها يصعب جداً ان نبحث بالدقة والاصابة اللتين اتى بهما صاحبنا في حديثه اذ جعلك نموذج الجمال والكمال فانا اقتدي به واقول ان اللذة موضوعة في مرآتك اذا نظرت فيها صباحاً على اثر رؤيا حبية تعطر سريرك بروائحها المنتشرة من ازهارها الزكية لانك انت عين الجمال ومعدن التلذذ

— لست اريد منك مدحاً وتمليقاً

— افيقال امامك غير مثل هذا الكلام ومنظرك السحر الحلال

— يمكنك بطريقة اخرى علمية ان تطامنا على افكارك فاني احب ان يستنير عقلي ولو في ميدان الملذات فهات ايها الفيلسوف المحبوب فسر لنا ما معنى اللذة

— هي اطيب واشهى الحواس التي تخترق الجسم وتشق حجاب النفس فتدخلها وتملأها وتسكر الانسان سكراً هنياً ملياً

ففي كل من الحواس مقرٌّ للذة فيجب ان الشعور يمر في كل درجات المسرات والارتياح والهناء لكي يصل الى هذه السعادة الرقيقة الحواشي الآخذة بمجامع القلب التي تملأ العواطف بسرور داخلي لا يوصف فهناك تتولد اللذة و يلزم لها قبل ذلك استعداد وهو ان يكون الانسان قد اختبر دقة الحواس والشعور اختباراً طويلاً لكي يصير حي النفس

فاسأَلي راعي البقر الذي لا يعرف غير كوخه و بقراته هل شعر يوماً بما في شفتي المرأة الجميلة من اللذة المسكرة · واسأَلي المرأة الفلاحة التي ما عرفت غير حلب البقر وعمل السمن والجبن هل عرفت قيمة للافكار والمعاني الشعرية · فاذا طرق مسامع مثل هذين هذا السؤال يقف مبهوتاً لا يفهم ماذا يقال له فان هؤلاء الهمج لا يعرفون معنى اللذة الا ما تسوقهم اليه اللذة البهيمية القاضية باقامة النسل لايشعرون بلذة النفس المنعشة التي هي شعاع من انوار اللذة السماوية

واما نحن فلنا نفس تشعر بقوة الجمال وقلوب مفتوحة لدخول سهام الغرام فاننا نذوق في ساعة اجتماع مثل لذة النفس الغرامية هذه ونعرف قوتها الصادرة من مشاهدة امرأة محبوبة وسماع حديثها الشهي والشعور بمس اناملها اللينة تتلاعب بين شعورها رؤسنا وعوارضنا · واية لذة اعظم من هذا الشعور فانفاسها تمر بلطفها على جبيننا وشفتاها تلتصقان بشفاهنا وقلبها ينبض على قلبنا الخافق · فهذه هي اللذة التي ما فوقها لذة هذه هي اللذة التي تسكر المعبودات بخمرها

ولما فرغ ارستيبس من كلامه نظر الى لايس نظرة الوجد والهيام فقامت عن سريرها واتت على سريره بجانبه · لانها كانت تحبه وتؤثره على كل احد سواه ثم ملأت الكاس ومصت منها مصة وقدمتها له لكي يشرب الباقي · فاخذها من يدها اللطيفة واخذ يرتشفها وقلبه يفيض سروراً وكل حركاته ونظراته تمثل في وجهه وشخصه العشق والصبابة

الفصل الرابع

في حادثة غريبة جرت مع الفيلسوف

زينوكراتس

ولم تمض مدة قليلة حتى شاع خبر الليالي الحافلة والمجالس العظيمة التي كانت تقام في مجلس لايس واتصل الى اطراف اسيا وانتشر في اعماق بلاد اليونان فكان الامراء والاعيان يأتون من اقاصي البلاد جماهير جماهير لكي يتمتعوا بمشاهدة هذه المرأة الباهرة الجمال الطائرة الصيت في الآفاق ويقدموا لها اكرامهم وهداياهم

واتفق ان الخطيب ذيمستانس اراد ان يرحل الى قرنثية فكلفته هذه السفرة نفقة طائلة كما يظهر من خبره فلما عاد الى اثينا سأله بعض اصحابه عما رأى وسمع في رحلته وهل سر بمجالس لايس فكان جوابه هذا

«لا يسمح لكل انسان ان يذهب الى قرنثيه»

فصار جوابه هذا مثلاً لتجشم النفقات الكثيرة للحصول على لذة ساعة ومن جملة ما قال ايضاً لا يستطيع الا الملوك وعظماء الناس ان يحضروا مجالس لايس الكثيرة البذخ والاسراف

وكانت للايس صفات عديدة تحير بها عقول الرجال وتقيدهم بسلسلة غرامها فالذين لم يكن جمالها يؤثر فيهم كانوا ينجذبون بجاذب لطفها والذين لا يفعل في قلوبهم جمالها ولطفها كانوا ينجذبون بسحر كلامها وقوة عقلها فكانت على يقين ان قوتها عظيمة وسلطانها مطلق فكانت تعجب بنفسها وتدعي انه لايمكن لاحد ان يتخلص من شركها وكثيرًا ما كانت تسر بان توقع في حبائل مكرها ومحاسنها الفلاسفة الذين لا يبالون بشي من زخارف الدنيا

ونخفخة البشر ولا يسبيهم جمال ولا مال و بعد ان تنتصر عليهم كانت تسخر بهم

فلما رأى منها ذلك صديقها ارستيبس لم تطب نفسه على هذا الامر فاراد ان يذلل عنفوانها لكي تتوب عن هذا العمل وتلزم خطة الاعتدال فدبر لها التدبير الآتي

فقال لها يوماً يالايس لا يمكن لاحد ان يراك الا ويقع على قدميك معرقلاً بشرك هواك وبمجرد ان يسمعك احد تحدثين يفتتن بفرط ذكائك غير اني اعرف رجلاً اصلب قلباً من الصخر وامتن عقلاً من الجبل الراسخ فلا يكون لجمالك ولا لذكائك اقل تأثير في عواطفه

فتبسمت لايس مزدرية بادعائه وغير مصدقة كلامهُ

فقال لها اني اراهنك على صندوق متقن الصنعة ثمين جداً تجعلينه مستودعاً لاموالك ولا يكون له نظير بين ايدي الناس اقدمه لك اذا تغلبت على حواس الرجل الذي اعرفه والا فانت تقدمين لي هذه الزهرة التي بين نهديك فقبلت لايس بالمراهنة امام جمهور من الاصحاب والوجهاء

فخرج ارستيبس من عندها وغاب بضع دقائق وعاد و بصحبته الفيلسوف زينوكراتس . وكان هذا الرجل لا يزال في اول سن الكهولة لكنهُ بارد القلب جامد الدم الى درجة لا توصف ولا تصدق وله عزم اذا اراد انفاذ امرٍ لا تزعزعهُ قوة بشرية فكان اذا قال «لا» وخطرلهُ ان يقول نعم فاذا عذب اشد العذاب لا يمكن ان يتزعزع عزمه وكان دائماً عبوساً رزيناً لا يؤثر فيه شيء من الظواهر الحسنة مهما كانت فائقة في بابها ولا يتعجب من شيء مهما كان عجيباً ولم يكن قد بكى ولا ضحك مرة في زمانه حتى

لو تزلزلت الارض وتخرب الكون كان لا يبالي بما يرى ويسمع ولا يتحرك لشيء

فقال لها ارستيبس هذا هو الرجل وخرج فدنت لايس من زينوكراتس وبشت في وجهه على عادتها من هيئة الغنج والدلال واشارت اليه ان يقعد بجانبها على سرير مفروش بالخز الحرائر ففعل

فقالت له ياعزيزي زينوكراتس اني اعرفك بشهرتك من مدة طويلة واحسبك رجلاً قادراً فيلسوفاً من اول درجة وما هذا رأيي وحدي بل راي الناس كلهم لان الجميع يعلمون ان سقراط الحكيم مقدمك على سائر تلاميذه فيكون لي الحظ السعيد والافتخار بان اعدك من جملة اصحابي الاصفياء .

فقال لها انك بديعة المحاسن يالايس وكلامك حسن جداً لاخلاف في ذلك وكل ما قلته يكون لغيري مقبولاً جداً واما انا فلا ينفعني الثناء فكأنه بخور يوقد لحجارة

— اذا كان الثناء لا يهمك افلا يحرك عواطفك الجمال

= اني لا انكر فضل الجمال غير انه لا يؤثر بي شيئاً

= والالطاف الرقيقة والمعاني الدقيقة

= كل هذه الامور حجاب لحقيقة عوجاء

= وعشق امرأة جميلة ماذا تقول فيه

= ما هي الا العوبة غالية الثمن غالباً اقدر ان استغني عنها

= واين النعيم الذي يحصل عليه الانسان من هذه اللذة

= النعيم الوحيد والسعادة الحقيقية في الحكمة والحكمة في الحقيقة

=فهل وجدت هذه الدرة الثمينة التي تسعى لاجلها الفلاسفة منذ عهد قديم
— لاازال ابحث عنها كل يوم
= يزعم صديقي ارستيبس انه وجدها في ملذات الحياة المعتدلة
= قد يمكن ان يكون مصيباً واما انا فاسعى في طريق آخر للوصول اليها
= هل تظن انك تدركها في وقت قريب
=اذا حبط مسعاي قبل الوصول الى الغاية المطلوبة يأخذ آخر بعصاي ويتم المسير في سبيلي
= يازينوكراتس تعجبني اخلاقك وقد اصاب سقراط بقوله انك احكم حكماء اليونان ولكن هذا لا يمنعك من ان تتردد على منزلي لاننا نحتاج غالباً الى انوار نيرتك لكي تحل مشا كل معضلة
=اذا كانت هذه المسائل متعلقة بالحكمة فعليك بسقراط واذا كانت مختصة بالفصاحة والبلاغة فان ذيمستانس يكفيك مؤونتها وان كانت ممن يدور على الولائم والمجالس الانيقة ففي ارستيبس كل الغنى فما انا في كل ذلك الا دخيل

نعم ان ذيمستانس خطيب مصقع لكنهُ بخيل شديد الحرص وقد اهداني بالامس مرآة يقول اصحابي انها صحيحة تري الوجه كما هو واما انا فلا اعتقد هذا الاعتقاد فاحب ان اريك اياها لكي تحكم لي الحكم الصحيح
وقامت فاتت بالمرآة وناولته اياها
فقال ان صنعتها دقيقة حقاً
قالت انها ترضي في خارجها ولكنها في الداخل فاسدة ككثير من الناس المرائين

— اراك تنطقين بالحكمة فتمي حديثك

— انظر انها تريني صورة عيني وابتسامتي صحيحة ولكن يظهرلي انها تكبرفي وتحيط عيني بدائرة لا اصل لها وتقصر وجهي وتغير ملامحي اما ترى هذا

— فيجب اذاً ان تطرحيها على المزبلة · كيف ذاك وثمنها عشرة وزنات

— فاحفظيها عندكِ

— وكيف احفظها وهي تقبح صورتي

— فيجب ان ترميها

— وماذا يقول ذيمستانس

— ما هو الا مجنون فقد كان يمكنهُ ان يستخدم دراهمهُ بعمل آخر نافع

— ما هو كلام ظرف يازينوكراتس

— من طبعي الرزانة

— بلغني انك كنت تشتغل بالتصوير قبل الدخول في الفلسفة

— والذي بلغك صحيح

= فعندك مخبرة بمعرفة الالوان والاشكال وتوفيق اجزاء الصورة · فما رأيك في ثنايا ردائي اتظن ان رفع ذيلي بشنكل ذهب الى ما فوق الركبة يأتي بنتيجه حسنة

فلم يجب على هذا السؤال · فقالت

وكيف تجد ساقي

— كساقي سائر النساء

ـــوما قولك في هذا العقد اللؤلوء البديع اللون الكبير الحب و بهذه الاساور المرصعة بالالماس وهذه المنطقة التي تنطبق على خصر افروديتة (وينوس العشقية) هل يعجبك كل هذا

وكانت وهي تسأله تكشف اجزاء بدنها التي اشارت اليها ثم قالت له مالك لاتجيب

قال اني اسمع

اريد ان اعلم هل اجاد سكوباس بتمثيل عنق افروديتة وكتفيها وللحال كشفت عن كتفيها

ثم قالت وهل اجاد بتمثيل انسدال الشعر وتجعيده

(وحلت شعرها واسدلته على منكبيها الفضيين ففاحت منه الروائح العطرية ثم قالت)

وهل تظن ان خطوط الصدر ودوائره صادقة في التمثال

(وكشفت له عن اعلى صدرها العاجي المتلألي بين ظلال الشعر حتي اذا رآه من به اقل شعور لا يلبث ان يفتتن)

فلم يهتز زينوكراتس لهذا المنظر السالب العقول

فقالت له كيف ترى الآن

فقال ارى ان هذه الاشياء تفقد قيمتها اذا تجردت للنظر فالاحسن ان تبقى مستترة

= لك حق فيما تقول فان اضعف نفس يذبل نضارتها

ثم دنت منه حتى احتكت ركبتاها بركبتيه وقالت له وهي تترنح دلالاً اسمع يازينوكراتس · ان العشق هو نسمة الحياة في الدنيـا فهو الذي

قام بنظام الكون واحيي اجزاء الطبيعة ونفحته تضرم النار في قلوب المعبودات والبشر واني اشعر بشدة حرارته الآن · فانظر كيف يخفق فؤادي وترتفع وتهبط نهودي

– فقال ان النبضان في صدرك متواتر فهل اصابتك حمى

– نعم حمى العشق التي اضرمها وجودك عندي

– فانا اذهب من امامك لانه لا يهون عليّ ان اكون سبب انزعاجك

– بل تبقى هنا لانه يلذ لي ان اراك بجانبي

– فانا ابقى

– انظر اليّ يازينوكراتس وتأمل في محاسني اما ترى بمجرد النظر الى عينيّ وابتسامتي وفي سمع كلامي اني اكون سعيدة اذا حظيت بمحبتك

– ما ارى شيئاً من ذلك

– كيف لا ترى شيئاً امعن النظر · حقق · دقق

(واخذت احدى يديه بين يديها واظهرت من حركات الغنج ما يحرك ويسيل قلب الجماد وقالت

والآن يازينوكراتس اما ترى شيئاً

اري امرأة تضيع وقتها وتعبها بالفارغ

فلما سمعت هذا الجواب الجافي الفظ دفعت يده وانتصبت في وجهه كافعى وقالت يازينوكراتس احفظ ما اقول لك · ان الحكماء الحقيقيين يقدرون الاشياء حق قدرها ويميزون بين المليح والقبيح وبين الحكمة والعشق والجنون ومن جملة هؤلاء سقراط وافلاطون ففي جسدهما نفس حية فيعطيان لكل من الاثنين حقهُ واما انت يازينوكراتس فانك جسد بلا روح احمق وحشي الطباع

قالت هذا بكل حدة وتركتهُ وخرجت واما هو فقام ولم ينزعج من كلامها واخذ عصاهُ وخرج بكل سكوت

وكان ارستيبس كامناً في حجرة يرى ويسمع ما يدور بينهما فخرج من مكمنه وتوجه الى لايس وقال لها وهو يضحك

اتعرفين الآن انه يوجد اناس لا يؤثر فيهم شيئاً من صولة الجمال وسطوة الكلام

فاجابت بصوت موجز يدل على حزازة في الصدر وقالت لا ازال في ريب من هذا

— لكن تعرفين على كل حال انك خسرت معي

= اما رأيي فلم اخسر لاني راهنت على ان اغلب رجلاً لا صنماً

— احسبيهِ صنماً ولكن ما هو الا رجل حي قد غلبك فحق لي ان اطلب الشرط الذي وقع عليه الاتفاق

فلم يسعها الا أن تجيب طلبه ومدت اناملها واخذت الزهوة من بين نهديها واعطتها لارستيبس فتناولها بشوق ووضعها على شفتيه وتبشقها ملياً

الفصل الخامس

زيارة لايس للنحاة ميرون — الشاعر

اور يبيذس وماجرى لهُ

كان ميرون النحات المشهور من جملة الذين يتوقون الى التقرب من لايس والقيام برضاها فدعاها يوماً الى وليمة حافلة في بيت له في البرية شائق المناظر فاجتمع هناك اشهر الفلاسفة والشعراء وارباب الصنائع واجمل

شبان قرنتيه واتينا وكان ميرون قد اعد لمثل هؤلاء الاماثل الفخر المفروشات وانواع المشروب والمشموم وكان البخور يُحرق في كل جهة والازهار منثورة على الموائد بين اقداح الذهب والفضة وقناني البلور. والموائد مصنوعة الطف صنعة من الاخشاب الثمينة

ولكن هذه المعدات الثمينة الظريفة كُسف رونقها بازاء وجوه الحسان وزينتهن الباهرة

وبينما كان الناس مجتمعين في القاعات كان ميرون في اضطراب وشغل بال يروح ويجيء ويدخل ويخرج ويأمر وينهي والخدم في حركة مستمرة واختلاط شديد يقضون اوامره وهو كيفما مشى لايزال موجهاً انظارهُ الى جهة الباب الكبير

وبينما هو في هذا القلق والناس في انتظار شيءٍ مهمّ اذ سمع صوت الشبابات وعلت ضجات التهاليل واذا بامرأة كسفت بحسن وجهها كل تلك الوجوه قد دخلت محفوفة بالبنات الابكار. وهل من شبهة في كونها صاحبتنا المعهودة . لايس محور الجمال

فتقدم اليها ميرون الولهان وكاد يحتملها بين ذراعيه فمشى امامها الى ان اجلسها على منصة الشرف الفخيمة

وكانت لايس لابسة ثوباً رقيقاً ناعماً لاصقاً ببدنها بحيث تظهر معه تقاطيع جسمها اللطيفة المنتظمة التي تخلب العقول وجدائل شعرها مرسلة على منكبيها ضمن شبكة مصنوعة من الذهب واللؤلؤ يلوح وجهها تحت ذلك الظلام ابهى من البدر في رابع عشر نيسان. وتنبعث من عينيها النرجستين اشعة الغرام اللطيفة وعلى شفتيها القرمزيتين اللتين هما اطرى واندى

من زهرة الورد في الصباح ابتسامة تسبي العقول

فكانت كل الابصار شاخصة فيها وعلى كل الوجوه امارات الاعجاب والاندهاش والصبابة · وكانت كل النساء يعترفن عن طيب خاطر ان لايس القرنثية ملكة الجمال التي هي اعشق والطف واظرف من كل نساء قرنثيه

فارتفع ضجيج الاستحسان والحماسة من اكثر من مئة فم لانه لا يمكن لاحد ان يرى لايس الا و يتعشقها

غير ان واحداً من الموجودين لم يرفع كأسه ولا فتح فاه بل كان ينظر الى الجمع نظرة الشفقة والاستخفاف حينما هاجوا وماجوا بمجرد النظر الى ملامح امرأة

وهذا الرجل هو اوريبيذس شاعر الفواجع

فقال له واحد بجانبه · عجباً منك تبقى ساكتاً ساكناً وعواطف الناس في اشد الهيجان والقلوب لا تستقر من الخفقان

فقال له اني احفظ حماستي لفرصة اخرى اكثر مناسبة

— الا ترى ايها البارد القلب العديم الحواس · الا ترى لايس تبتسم

— ارى امرأة من جملة النساء ليس الاَّ

ولكن هذه المرأة اعجوبة قرنثية بل اعجوبة الدنيا

وللحال سمع صوت آلات الطرب مشفوعاً باصوات بشرية رخيمة فلم يقدر اوريبيذس ان يجاوب · وذلك ان جماعة من الاولاد دخلا القاعة و بايديهم الاكاليل فصاروا يقدمونها لمن يحب ان يضع اكليلا على رأسه وملئت الكؤوس حينئذٍ وكثرت حركة الاقران وقام الناس من مجالسهم واخذوا يزدحمون حول لايس وكل منهم يتمنى ان يحظي منها بكلمة او بنظرة

لطيفة · وكانت هي قد ازدادت بشاشة وهشاشة فلم تدع احدًا الا راضيًا فشكر ميرون من شدة سروره بالكرامة التي يقدمها الناس لمحبوبته فاخذ اكليلهُ بيدهِ وهزه وقال

قسماً بالمعبود باخوس (هو معبود الخمر) ان لايس اجمل النساء وقد ثبت لي الآن ان تأثير جمالها في البشر اشد من تأثير افروديتهٌ في المعبودات فلا يستطيع احد من البشر ان ينجو من فتك جمالها

فقال له ثيوفانس الايكوري « اي من مذهب ايكور الذي يعتقد الناس انه موقوف على الملذات » غلطتياميرون فان من الناس من قلوبهم كالحطب لو تجلت لهم وينوس في سحابتها الذهبية لم يبالوا فلما سمعت لايس هذا الكلام انقبض وجهها قليلاً

فقال ميرون من يكون هؤلاء الناس وكيف خلقوا وهل من احد صاحب شعور لا يفتنهُ الجمال

فقال تيوفانس انظر هناك · اترى ذلك الرجل الغائر العينين المصفر الشفتين المتجهم الوجه فهو ذاك فان له قلبًا اجف من خشبة في شمس القيظ

فقال ميرون اهو هو ! اوربيذس كنت اظن انه متزوج ثم دنا من الشاعر العبوس وقال لهُ كيف ذاك يا اوربيذس ترى كل الناس تكاد تطير صبابة وانت لا تحرك ساكنًا

فاجاب اوربيذس وهو مقطب الحاجبين وقال · دعني ياميرون من مثل هذا الحديث ولا تكدر صفائي في وليمتك فاني انما اتيت لاحدث فلاسفة لا نساء .

– لكن الا تعلم ايها الشاعر ان بوجود النساء قيام صناعتك

– ليس عندك حديث آخر

– يا للعجب منك ماذا جرى عليك ما الذي امات عواطف نفسك

فقدمت لايس اليها وقالت انا اخبرك ماذا جرى له انه يمقت النساء لاجل ما جرى على سقراط من تعذيب زوجته العنيفة الشرسة الطباع ومع ذلك كان يحتمل محنتها بكل هدو وسكينة واما اوريبيذس ... فنظر اليها اوريبيذس نظرة الاحتقـــار وقال كانت زوجة سقراط امرأة شريرة كأكثر النساء

فقالت له انك مخطئ في شيء يا شاعر العصر وهو انك تعمم الصفات الخاصة فتأخذ البري بجريرة المذنب وتدخل السليم في علة السقيم . نعم ان الدنيا لا تخلو من نساء شريرات ولكن المرأتين اللتين طلقتهما لم تكونا بهذه الصفة

– اطعنًا وشتمًا يا لايس

– ليس كلامي من باب الطعن غير اني مجبورة ان ادافع عن بنات جنسي فانك لا تزال تطعن في اخلاقهن وتحتقر جمالهن كلما سنحت الفرصة حتى بلغني انه يقال في شوارع اثينا ...

– وماذا يعنيني من سفاسف الشوارع

– لك حق في عدم المبالاة بالاراجيف لكن نرجع الى بحثنا لماذا وانت تلميذ سقراط لم تقتد باستاذك في تحمل الاساءة بالصبر

– ومتى صار لامرأة نظيرك حق ان تسألني عن كيفية تصرفي وتقف على مقاصدي في اعمالي

— حقاً يا اور يبيذس اني اخطأت فارجو منك السماح ولكن لا يبرح من بالك اني ادافع عن بنات جنسي

— اذكر ذلك وكفى

اذا كان كلامي لا يرضيك فانا اسكت مع ان حكمتي ترضي الجميع غير انه يسوءني منك انك قليل الاحترام للجنس اللطيف

— لو كنَّ يستاهلن الاحترام لما كنت ابخسهن حقهن . فقال فتى ظريف من الحاضرين وقد ضاق صدره من جفا اور يبيذس حقاً ايها الشاعر انك مخطئ جداً بكونك تقابل لين امرأة لطيفة بالقسوة . فقال اور يبيذس بحدة . اقول ما يخطر لي

— اذا كان ما يخطر لك صحيحاً فطريقة التلفظ به خشنة جداً لا يطاق ان تصدر من رجل بربري فكيف من رجل آتيني .. تف ..

— ما يهمني الامر — ويك لا يهمك كون الكلمة قاسية بشرط ان تكون صحيحة فبناءً على ذلك اجيبك بمثل فظاظتك بان اقول الحق وفي الحال وقف الفتى على خوان وقال بصوت يسمعه القاصي والداني « اعلموا كلكم انتم الذين حضرتم بدعوة ميرون الى مجلس طرب وانس يجمع اسباب الحب والمسرات » اعلموا ان شاعرنا هذا المشهور شاعر الفواجع الممثلة في وجهه صورة سوفكليس الصفراء انه تزوّج مرتين وطلق ولكنه لا يطلق الثالثة اذ لم يبق له نصيب من النساء .. فان زوجته الاولى كانت بشوشة الوجه خفيفة الروح ظريفة الطباع سليمة القلب وكان اور يبيذس يسيء اليها توهماً منه انها عبوسة الوجه خبيثة النفس كاللصوص الذين يصفهم في فواجعه وزوجته الثانية كانت بديعة الاوصاف وديعة القلب ولم تكن تطلب منه الا انه

يولدها ولداً ٠٠ وما كان يقترب منها ولا يقدم لها الا مقاطيع شعره الممقوت عندها فلما ضجرت نفسها من احتجابه عنها وانها كه باشماره عرضت امرها للمجمع فحكم المجمع على اوربيذس ان يجامل زوجته و يقيم نسلاً للوطن والا كان لزوجته حق ان تتركه وتقترن بغيره اذا ارادت

فقال اور بيذس ما هذا المزاح ايها الفتى الظاهر ان سورة المدام خلطت عقلك ٠ فقال الفتى نعم شربت كأسي والحقيقة التي كانت فيه خرجت منه وصفعت قفاك ايها الشاعر

— مالك وللتعرض لاهل الادب والبيوت المستورة ارجع اقصف مع بنات الهوى — ما افضل ادب الذي يسيء الى نسائه ويخرجهن من بيته ما اجمل هذه المبادئ اما تعلم ان هؤلاء النساء اللواتي تمزق اعراضهن لهن قلوب تعرف حقيقة المحبة اما قلبك يا اور بيذس فلا يعرف الا البغضاء والكبرياء

— فلترجع شيمتك على رأسك ايها الفتى المحتقر وكان الغيظ قد اخذ يحتدم في فؤاد اور يبيذس وتجهم وجهه وكاد يستشيط لولم يتداركه زينوفانس بدنوه اليه وقوله يا تلميذ سقراط اذكر صبر استاذك وسكينة تمستوكليس! » وذلك ان تمستوكليس كان قائد اسطول اليونان لما اتى الفرس لمحاربتهم وكان اور يباذس الاسبرتي قائد الجيوش العام فوقع خلاف بينهما فاغتاظ اور يباذس ورفع عصاه لكي يضرب به فقال تمستوكليس « اضرب لكن اسمع فصار مثلاً في التأني والسكينة » وقالت لايس بصوت رقيق تناسَ ايها الشاعر تناسَ هذيان هذا الفتى الذي نتج عن فعل الخمرة ولكن لا يخفى عنك انك لو كنت تحب النساء كنت محبوباً عندهن لكن سعادتهن ان

يحببن ويكن محبوبات

فاشار اوريبيذس اشارة الازدراء بهذا الكلام ففعلت هذه الاشارة في احشاء لايس فعل السهام فقالت له بصوت عال — اعلم ان الكبرياء في الرجل اشد اذىً من الفخفخة في المرأة والحكيم الحقيقي لا يمتنع عن ذكر آرائنا وتقديرها قدرها فاسأل سقراط وبريكليس ألم يستفيدا شيئاً من محادثة اسباسية وانت خطاك مضاعف لكونك تطعن في النساء اللواتي من طبقتي لانكم انتم ايها الرجال الزمتموهن ان يطلبن التخلص من استبدادكم فبأي حق تحبسوننا في الخدور فجوبيتير لما خلقنا هل ختم على جباهنا ختم الاستعباد فلمَ تحرموننا من المدارس الكبرى والمجامع العامة ونوادي الفلاسفة التي تهذب النفس وتوسع دائرة العقل افليس النور للنساء كما هو للرجال ولا بد ان المرأة ستفوز بحقوقها في الاجيال المستقبلة ولا تعود مجبورة ان تسمي نفسها هيتيرة لكي تتمتع بانوار المعارف والحرية فانها مساوية للرجل بحسب الطبيعة فيجب ان تجري واياه معاً في سبيل هذه الحياة لان المساواة تولد المحبة وقد تعلمت مثلك يا اوريبيذس مبادي الفلسفة من الفلاسفة الذين كانوا يترددون على بيت المرحوم ليونتيدس الذي تبناني فاستنارت بصيرتي بنور عقولهم ولكنني لم اتعلم بغض الرجال كما تبغض انت النساء لانه رسخ في فكري مبدأ مبني على الحكمة وهو «الحب جمال النفس والبغض قبحها» فصفق الحاضرون كلهم استحساناً لهذا الخطاب وتعجب كثير من الحكماء من عمق افكار لايس وسمو مداركها ومن جملتهم زينوفانس الرواقي «نسبة الى الرواق الذي كان زينون الفيلسوف يعلم فيه مذهبه وهو الرزانة في الكلام والاعمال والتجلد في المصائب» ثم قالت لايس فياقرين سوفكليس اذا اردت ان تبرهن

لنا ان بغضك للنساء مبني على مسند صحيح فهل لك ان تجبني على ما اسالك عنه — قل لي ماهي المراءة · فقام اور يبيذس لكي ينصرف فتعلق بذيله احد عشاق لايس وقال له اقسمت عليك بهرقل الا اجبت على سؤال لايس لانه اذا تكلمت و ينوس ربة الجمال فعلى البشران يطيعوا امرها فقل لنا ما هي المرأة فقل اور يبيذس ارى ان الخمرة ملأت دماغك ايها الفتى وهذا الجمال اطار صوابك فقال الجميع بصوت واحد ليس هذا موضع البحث والمراد ان تقول لنا ما هي المراة قال اتجبرونني ان اجيب — قالوا نعم فقال ما المرأة الا والدة ومرضعة وخادمة للرجل وليس لها عمل على الارض الا ان تلزم خدرها ولا تتجاوز عتبة الباب ويجب ان تولد وتموت في بيتها فحينئذٍ يحق لها الاكرام · واما النساء اللواتي يشهدن الولائم ومحافل الرجال و يضرمن نار الشهوات و ينفثن سموم السكر في الحواس فماهن الا ·· فقام فتى كانت صبية جميلة تملأ له الكأس وقال عذاري من حور الجنان ارسلتهن افرودتية الى الارض لاجل سعادتنا فنظر اليه اور يبيذس باحتقار وقال هنّ عار النسا كما انك رجس الرجال فلما سمع الفتى هذا الجواب الفظ كاد يتميز من الغيظ ووثب على اور يبيذس لكي يمزق لحمانه باظفاره واسنانه ولكن حالت الجماعة بينهما و كثر الصخب والقيل والقال ورأى كثيرون منهم ان يخرجوا ذلك الرجل الثقيل من المجلس غير ان لايس وقفت واسترعت السمع فما عدت تسمع صوتاً حتى حبس الناس انفاسهم لشدة ما كان لها من النفوذ والهيبة في القلوب والنفوس · ثم قالت بصوت رزين يا اور يبيذس ان بغضك للنساء قد اضلك فشردت عن سبيل العدل حتى صرت تطعن في جنس لم يأتك باذية ومـا ذاك الا انك لم ترتض من امرأتين فعلى مذهب استاذك

انكساغوراس لا يكون حكمك منطقياً فيا ايها الشاعر السريع الغضب اذكر ان لك والدة واخوات في « سلامينه » فتلك الوالدة التي حملتك في بطنها وولدتك بالالام وقاتتك من لبن ثدييها وتعبت السنين الكثيرة بتربيتك لا تستصوب منك هذا الطبع الشديد . فتعلم اذن ان تكرم النساء واميل قلبك اليهن ايها الشاعر وهن يكافئنك وفي تلك الدقيقة اتفق دخول ديوجانس فصاح قائلاً لافض فوك يا لايس فقد نثر اللؤلؤ والمرجان وقد اصاب قولك كبد الحقيقة فلو رفعت عصاي هذه ونزلت بها على صلبك ايها الشاعر لما كان لها تأثير مثل هذا الكلام من فم امرأة فانه ثلم صيتك الى الابد وغداً اخبر صديقي ارستوفانس بما سمعت ورأيت وانت يمكنك ان ترجع الى انقباضك وتهجمك

فلما سمع الجمهور كلام ديوجانس وهو يهز عصاهُ استغرقوا في الضحك فانسل اوريبيذس من بينهم وهو يحتدم غيظاً لان امرأة فضحته واذلته وجعل الكل يثنون على لايس بكل شفة ولسان وتقدم ميرون وقدم لها اكليلاً كالاكاليل التي تعطى لمن تكون له الغلبة في الفصاحة والبلاغة وقبل يدها وعادت الافراح الى مجاريها واما لايس فلم تحقد على اوريبيدس على سوء طبعه بل ابدت له من كرامة الاخلاق ما يدل على شهامة النفس وسلامة الطوية فانها اذ كانت تعلم ان والدته واخوانه في ضيق من العيش ارسلت اليهن ثاني يوم رسولاً الى سلامينه يحمل كسوة ونقوداً كافية لهن والنكتة اللطيفة التي شرفت هذا العمل المبرور انها امرته ان يقول لوالدة اوريبذس ان هذه الهدايا من عند ابنها

الفصل السادس

« الخبر عن ارشمباز الامير الليدي وعشقه للايس »

من جملة العظماء الاغنياء الذين شوقتهم شهرة لايس الى قدوم قرينة كان امير اشتهر بشدة اسرافه وكثرة بدخه. فكان يخرج في مركبة مرصعة بالذهب تجرها اربعة افراس جياد خيل تراقة وكان طيلسانه من الارجوان وثيابه على الطرز المشرقي تتلألأ بالجواهر وكان اذا سار ينثر الذهب حوله كما تنثر الاولاد قبضات الرمل وكان حسن الشكل مليح القوام جميل الصورة ولم تكن امرأة تنظر اليهِ الاّ وتتعجب من محاسنهِ سوى لايس فانها كانت تراهُ كما ترى غيرهُ من الرجال لانها تعرف طباع الرجل فكانت على يقين ان هذا الفتى لا بد ان يتعرقل باشراكها اما من سبيل العشق او من سبيل الاعجاب بالنفس وكان اسم هذا الفتى ارشمباز وابوه حاكم سرديس عاصمة ليديا وهي دهقانيه « ولاية » من اسيا الصغرى واذ كان وليّ العهد ولا بد ان يتولىّ الدهقانية بعد ابيهِ في تلك البلاد الغنية كان يتجول في كل مدن اليونانية و يبذل النفقات الباهظة لكي يتمرّن في كل ابواب السياسة وتكون له خبرة كافية في الاحكام فلما رأى لايس غير مبالية بجاههِ ومالهِ وجماله مع ان كل النساء يتمنين القرب منهُ تأججت في احشائهِ نار الوجد وحتم انه لا بد ان يحصل على هذه الفتانة المعجبة بنفسها · ففي صباح ذات يوم ارسل لها رسولاً يحمل اليها هدايا نفيسة ويطلب منها ان تسمح لهُ بمقابلة ساعة على خلوة فردّت لايس الهدايا وقالت للرسول انها لا تقبل في بيتها الاّ الاصحاب فاخذ الرسول يقصّ عليها خبر شغف مولاهُ بها ولكونه كان شيخاً

عاقلاً محنكاً سرد لها براهين كثيرة توجب قبولها زيارة مولاهُ الهائم وبعد الالحاح وعدتهُ انها تتفرغ له عند طلوع الزهرة فوق الافق « اي بعد المغرب بقليل » وبعد ذهاب الرسول شرعت تهيئ وليمة فاخرة تليق باولاد الملوك فوزعوا في الحديقة الانوار الباهرة وفرشوا قاعاتها بالحرير والقصب الفاخر والسجادات العجمية ووضعوا على جانبي المسلك السري الذي يوصل الى القاعة صفين من انية الازهار البديعة العطرة وكانت تلك المزهريات منحوتة من الرخام الناصع البياض واختبأت المغنيات والعازفات بالشبابة بين الاشجار المختلفة ينتظرن الاشارة لكي يطربن باشجى الانغام وجلست لايس في قاعتها على عرش عالٍ مكلل بالازهار وقامت بجانبها ثلاث جوار من ابدع ما يكون يمثلنَ الغراقة الثلاث وعند اقدامهنّ تماثيل ربات الموسيقى التسع ورموزهنّ بايديهنّ وعلى بعد قليل بقية العذارى الحسان من وصائفها وهن يتبسمنَ شاخصات العيون في مولاتهنّ . فكل ما كان لاولئك العذارى من الجمال واللطف وهنّ مكشوفات الاكتاف الى نصف الصدر وامارات الحب تنبعث من عيونهنّ الزرق لم يكن بازاء جمال سيدتهنّ الا كنور القمر بازاء الشمس وكانت لايس لابسة ثوباً من الحرير الناعم يلتصق باعضائها العلياء فيجلو بديع تكوينها . فلما كانت ساعة الميعاد حضر ارشمباز الى باب الحديقة فاستقبلتهُ فتاة رشيقة القوام خفيفة اللبس وفي الحال اعطيت الاشارة فسطعت الانوار بالوانها المختلفة وصدحت الموسيقى بالحانها الشجية تصحبها اصوات العذارى الرخيمة الى ان وصل ارشمباز الى باب الحديقة فلما وقع نظره على اولئك الجواري الحسان المصطفات بترتيب بديع امام مولاتهنّ البديعة الجمال الباهرة المحاسن انبهر نظره وانقلبت افكاره وظن

نفسه في السماء امام و ينوس ووصائفها العرائس · وبعد ان بقي في ذهوله برهة عاد اليه صوابهُ فصاح من شدة دهشته قائلاً : احلمٌ ما اراهُ ام حقيقة ليس لها في الدنياء نظير: ايتها الشمس الباهرة التي تلقي على قرنتية اشعتها السحرية يا لايس الفريدة المحاسن والالطاف اسمحي لي ان اقدم لدى اقدامك الاكرام الذي يليق ان يقدم للمعبودات · وللحال جثا ذلك الامير الذي سيكون مالكاً مطلق السلطان على كل شعوب ليديا على اقدام فتاة قرنتية لشدة ما لقوة الجمال من السيادة على كل قوة · فنزلت اثنتان من الغراقة على درج العرش البلقيسي واخذتا بيد الفتى واصعدتاهُ الى مولاتهما فقامت له واجلستهُ بجانبها ثم باشارة منها انطفأت الانوار الاّ ما يكفي للرؤْية عن قريب كنور الشفق وانقطعت الالحان وانسحبت كل الجواري · كل ذلك في لحظةٍ ولم يبقَ في المكان الا لايس وارشمباز فقال لها يا مليكة القلب ومعبودة الروح كم رأَيت طيفك في المنام يتردد بازائي ذهاباً واياباً ويعدني بسعادة ما فوقها سعادة اصدري امرك قولي كلمة واحدة ماذا تريدين ان اعمل لكي احظى بذرّة من محبتك · فقالت له يا ارشمباز اعلم ان الحب ليس هو باليد فيعطى لمن اراد ·· بل هو يتولد في القلب من تلقاء نفسهِ ويجري بحرية تامة مطلقة والتكليف يخنقهُ ويقتلهُ وكثيرًا ما يتفق ان امرأَة تكون خالية القلب من الحبّ فتهوى فتى لم يكن قلبها يميل اليه ويشتدُّ عشقها لهُ اذا تحققت انه صادق النية في حبها قولاً وفعلاً = فبناءً على ذلك يجب ان تكوني قد عشقتني من هذه الدقيقة يا منية القلب لاني اقسم بمعبودة الجمال انك انت اول امرأَة تعشقها قلبي عن خلوص ووفاء وتكونين آخر امرأَة علقت بها نفسي لان كل قوى قلبي

ونفسي قد اجتمعت على حبك وتجردت لك وحدك دفعت واحدة اذ لم اعشق قبلك ولا اعشق بعدك — لا يصح ان نحلف اعتماداً على المستقبل لان يمين العشق اشبه بالبخار يضمحل بنسمة خفيفة؟ فتكلم عن الحاضر — هل تحبني ؟ — اموت على هواك · قلبي وروحي في يديك · اي برهان تطلبين مني لكي تثقي بصدق كلامي اتطلبين اموالي اتطلبين مملكتي · اترغبين في الاقتران بي — لا اريد شيئاً من ذلك احب ان اكون مطلقة القياد لا يسود عليَّ احد سيادة شرعية يكفيني ان يكون قلبك لي اكن لي وحدي بلا شريك فاذا شعرت باول انحراف منهُ الى سواي اموت قهراً في بلوتي ونظرت اليه متبسمة بغنج اضرم في فؤاده نار الغرام وقطع كل عروق قلبه فقال لها وقد امسك يدها واحرقها بانفاسه · يا مليكة الحسن واللطف لا يطيق فؤادي الخلاص من ربقة عبوديتك يا لايس حبيبتي ومالكة قيادي اشهد السماء والارض على خلوص حبي لكِ واذا كان في نيتي ان اخونك دقيقة في حياتي فلتسحقني الآلهة تحت قدميكِ وهكذا لبثا ساعة في تلك الخلوة السعيدة يتغازلان ويتناغيان · وكانت لايس بحذقها ودهائها قد احسنت ملاطفتهُ حتى اججت لهيب الاشواق في فؤاده بحيث لا تخمد مدى العمر وجعلتهُ سكران من خمرة الحب · وبعد ذلك قالت لهُ يا ارشمباز قد انقضت الساعة ومن عادتي ان انصرف من هنا ولكن اكراماً لخاطرك ساحيي لك هذه الليلة بالطرب والملذات فانك تتناول العشاء هذه الليلة عند لايس في قرنثية وبعد ذلك نعمل لها وليمة عندك في سرديس وقد دعوت اصحابي هذه الليلة لكي يعلموا منذ هذا المساء اني اخترتك عشيقاً لي ولما فرغت من كلامها وهو ذاهل خافق القلب اخذت من رأسها سهماً صغيراً من ذهب وضربت به على صنج من

فولاذ وحالما سمعت رنته في الخارج سطعت الانوار في الحديقة وعادت الالحان الى مجراها والجواري الى اماكنها وبعد ذلك خرجت لايس وارشمباز من القاعة وقصدا قاعة الوليمة وصار المدعوون يفدون الواحد بعد الآخر حتى اجتمع هناك نخبة الاغنياء والاعيان والحكماء والشعراء ونحوهم فغص بهم المكان وكانوا كلهم يأتون ويؤدون لايس أليق التحية والاكرام . فلما دنا منها ارستيبس لكي يبوس يدها قالت له مشيرة الى ارشمباز هو ذا اعزّ واحسن اصحابي فيكون مجلسه بجانبي في ليالي المباحث العلمية واما في هذه الليلة فيسمح لك بمكانه . وكان ارستيبس يعرف ارشمباز فبش في وجهه وقال لا بدّ ان كثيرين يحسدونك على المكان السامي الذي حظيت به لان منزلة شخص بالقرب من لايس بمثابة منزلة له في فؤادها . ثم قدمت من الوان الاطعمة اطيبها ومن الخمور اشهاها والفيلسوف منهم الذي كان يراعي السكوت والوقار في الرواق او الاكاذيميه طرح الحكمة هذه المرة جانباً واطلق لنفسه العنان فبالاجمال كان العشاء لائقاً بمقام ذلك الامير الخطير وكل الرؤوس كللت باكاليل الورد وكانت العذارى يتطايرون كالحمام حول المائدة ويسكبن الخمور الفاخرة في اقداح البلور المذهبة القديمة النقش وكان السرور عاماً طافحاً على الوجوه ودار الحديث بين الفلاسفة واطلق الشعراء والخطباء السنتهم فسطعت انوار الحكمة ونفذت سهام الطُرَف والملح وظهرت دقائق الافكار فكانت النفوس تتهلل والقرائح تشحذ والالسنة تنطق بانواع النوادر والفكاهات الغرامية فحينئذٍ التفت ارشمباز الى لايس وقالت لها ما اسعد حظ اصحابك فهشت اليه وقالت وان حظي اسعد اذا كنت تجد هذه الوليمة لائقة بمقامك وعند ذلك توسطت القاعة صواحب الشبلبات واسمعن الطف

الالحان حتى رقصت لهن الجدران وصار كل عارف من الفلاسف والشعراء يقترح نشيداً على معنى من معاني الافراح ومجالس الشرب واللهو وكل جوق من اجواق العذارى ينشد بنظام تام واتقان والخمرة تتدفق من الكؤوس فتدور سورتها في الرؤوس حتى اهتز المكان باهتزاز الابدان ثم تقدم العبيد بامر لايس ورفعوا اقداح البلور وبدلوها باقداح الذهب المنقوش وبدلوا ايضاً الاكاليل وعادوا الى الشرب والغناء وانشاد الشعر واصوات الطرب وبينما هم كذلك دخلت جماعة من العذاري مكللات بالآس والخزام وجعلنَ يرقصن رقصاً تلين حركاته الدلالية كل صخر اصم وبعد الرقص اخذوا يلعبون الالعاب الاشارية اي التي لا يصحبها كلام بل تفهم بها المعاني بمجرد الاشارات والايماء وبعد ذلك عادت العذاري فرقصت رقص الحلقة بطريقة لطيفة جداً وكانت بخارات الخمرة وانفاس الجمهور الحارة وكثرت حركاتهم قد اثرت في ازهار الاكاليل فذبلة ثانية فبدلوها . وكانت اشعة الغرام تنبعث من العيون كلهيب النار وكثيرون من الشبان قاموا من مواضعهم لكي يختلطوا مع الراقصات واذ بلايس قد ضربت على صنجها فخرجت العذارى كلمح البصر فصاح الجميع بصوتٍ واحدٍ عاشت لايس ملكتنا وقال آخرون ليحيي ذكر باخوس وقال آخرون على سر الهوى فملئت الاقداح وافرغت في جرعة واحدة فقالت لايس يا اصحابي قد صار الهواء هنا ثقيلاً وضاقت الصدور من الحرّ فقوموا بنا الى الحديقة فذلك افرج بنا واروح لنفوسنا وخرجت مستندة على يد ارشمباز وتتابعت وراءها الجماعة الي ان تفرقوا في جوانب الحديقة واحيوا باقي الليلة بكل انبساط .

الفصل السابع

(توجه لايس الى سرديس . وما حصل لها من الاكرام لاجل جمالها)

وكان ارشمباز يزداد شغفاً بمحبوبتهِ يوماً بعد يوم وقضى عندها اياماً في لذة النعيم وفيما هو متمتعاً بمسراته واذا بساعٍ جاءهُ من عند ابيه يطلب حضوره بالحاح فما استطاع الاَّ ان يمتثل الامر فالتمس من لايس ان تصحبه لانها فرصة مناسبة لكي تتمع بمناظر تلك المدينة الفخيمة المعدودة في الرتبة الاولى بين مدن اسيا فاشتاقت نفس لايس الى التفرج على تلك المدينة واجابت طلبه . فدبرت امورها ووكلت ببيتها قهرمانتها الامينة باكيس ثم ودعت اصحابها ووعدتهم انها تعود اليهم قريباً وتجدد ليالي الافراح . واقتضت الظروف ان ارشمباز يقف عن المسير في مدينة افسس فاشتهت لايس ان تزور هيكل المعبودة ديانا (و يقال لها ايضاً ارتاميس وهي بنت جو بيتر و يحسبها اصحاب الميثولوجيا معبودة الصيد وملكة الغابات)

فلما رآها الكهنة اندهشوا من فرط جمالها والتمسوا منها ان ترجي رحيلها بضعة ايام لان عيد ديانا كان قريباً وكان من عادة اهل افسس ان يقيموا بالنيابة عن معبودتهم اجمل امرأة يجدونها لحفلة العيد فلما كان يوم العيد البسوا لايس الملابس التي كانوا يمثلون بها ديانا وجعلوا في تبعتها عشرين بنتاً من اجمل اهل البلد واجلسوها في مركبة فاخرة في يدها القوس وعلى كتفها الكنانة وطافوا بها حول اسوار افسس وفرشوا الازهار في طريقها وكانوا يوقدون البخور حيثما مرت وازدحم الناس يهرعون من كل فج عميق لكي يتمتعون بذلك المنظر البديع وقدموا لها الهدايا الثمينة فكانت من نصيب الكهنة وكتبوا في التاريخ ان ذلك العيد لم يكن له نظير ثم لما وصل ارشمباز الى

سرديس عرض لايس على ابيه واخواته فنزلت عندهم منزلة رفيعة واحسنوا الالتفات اليها وكان لدخولها سرديس ابهة عظيمة ومجد لم يسبق له مثيل فان المدينة اشتغلت بالانوار واستمرت الافراح ثلاثين يوماً والناس كلهم في ملاعب وملاهٍ وغناء ورقص واجتمعت فرق الجيش في ساحة الدار التي نزلتها وصارت تجري المناورات الحربية والتمرينات العسكرية وكان الجميع يظهرون الغيرة الشديدة لارضاء خاطر اعجوبة الزمان

وعين ارشمباز لخدمتها مئة جارية ولتسليتها مئة وصيفة يغنين ويضربن آلات الطرب ومئة امرأة يركبن الخيل بصحبتها عند خروجها للتنزه في البر . واذا عمل وليمة اكراماً لها لم يكن المدعوون اقل من خمسمئة يقوم بخدمتهم خمسمئة عبد كل ذلك بفخفخة واسراف فائق الحد وكانت مدينة سرديس كبيرة وفخيمة جداً لم تكن اتينا وقرنتية بالنسبة اليها الا نظير قريتين فكان عدد اهلها خمسمئة الف وكذلك عدد العبيد فيها . فلم ترَ امرأة في زمانها من الفخر والمجد ما رأت لايس في تلك المدينة حتى ضجرت نفسها وطاش رأسها من كثرة التبجيل والتفخيم وما عادت تذكر كلمة مما تشتهي نفسها لانها حالما تتفوه بامر او يشعر عشيقها ارشمباز بشيء من مشتهياتها ترى كل المدينة قامت على ساق وقدم لتقضي مرادها فلا يمكن ان تتمنى شيئاً الا وتناله بهمة ارشمباز لانه متى آمر وجب على كل الناس ان تطيع ويؤيد ما لحقه من الجنون العشقي كتاب ارسلته لايس الى ارستيبس هذا نصه

من لايس الى ارستيبس .

سرديس في . . . سنة . . .

عزيزي ارستيبس

انت تعرف كل شيء وتريد ان لا يفوت معرفتك شيء . اسألك ايها الفيلسوف العزيز هل تعرف دواء يزيل علة الملل القتال الذي على رأي اسكولابس « معبود الطب عند الاقدمين من اليونان » ينشأ عن فرط الملذات . لعلك تسألني هل انا متمتعة بلذة الحياة في سرديس فاجيبك يا صديقي العزيز ان مسرّتي فائقة الوصف حتى لقد ضجرت منها ولقد عرفت صدق الحكمة القائلة : ان من الناس من هم ادرى بلذة الحياة الشقية ممن يتنعمون بحياة الرضاء وانا من جملة هؤلاء لاني غارقة في بحر من الملذات لاقرار له وهذا منافٍ للتعقل فان ارشمبازغنيٌّ جداً محبوب جداً كريم جداً ملاطف جداً متنبه اشد الانتباه الى اقل مشتهياتي فمن اين لي ان اجد ينبوع هذا الحب الذي لا يفرغ وكيف اقدر ان أكافي هذا الوداد والجميل والاحتياط والانس والدعة والرقة والاهتمام اني اعترف بقصوري من ايفاء ماله عليَّ من الجميل الذي لا يكافاء . لعلك تذكر اني كنت اخشى منه ميلاً الى الغيرة والآن قد ايقنت ان علاقته بي اشد علاقة فليست غيرته في ان لا يس قليلة الحبّ له بل غيرته على نفسه لانه مفرط في محبتي فاعلم يا صاحبي ان كل اهتمامه بي لا بنفسه وكل رغبته في رضاي مع قطع النظر عن كل ما ليس لي به علاقة . . همهُ الوحيد رضاي فاحكم بحكمك الصائب على هذه الحادثة الغريبة — كنا في ذات يوم في وليمة حافلة قد جمعت اعيان البلد فبالاتفاق قال احد المدعوين انه مرَّ صياد ومعه سمكة ذهبية الحراشف فحمل الله بي وقلت يا حبذا لو كانت هذه السمكه عندي

فقام ارشمباز من مكانه واختفى كوميض البرق و بعد دقيقتين سمعت حركة من كوكبة خيالة قد امروا ان يجر وانهارًا وليلاً .و يأتوا باناء فيه عدة من مثل تلك السمكة وهذا السمك لا يوجد الا في الطرف الشرقي من بحر بنطس « المعروف الآن بالبحر الاسود » ومن ثم كنت احترز اشد الاحتراز من التفوه بكلمة او اشارة تشف عن مقاصدي لاني اعلم ان كل اشارة تبدو مني وتحتها معنى اشتهاء شيء لا بد ان تكون سبب نفقات واتعاب عظيمة لهذا الرجل المحبوب المغرم والولائم التي تقام في كل يوم لا يكون لها نظير عند الملوك حتى اكاد اجن من الفرح والابتهاج . ففي هذه الولائم كنت جالسة على كرسي من الذهب المسبوك مرصع الجوانب بحجارة الماس فكان النور يتلألأ منهن فيبهر البصر واذا بصف من العذارى يتقدمن نحوي وكلهن من بنات الاشراف الاغنياء لابسات ثيابًا شفافة مزينة باللؤلؤ وقد جعلن شعورهن حول رؤوسهن كالاكاليل واسدلن بعض خصل منه على اكتافهن وصدورهن مكشوفة وعلى خصورهن مناطق من الحرير المزين بالذهب وكلهن ذوات جمال بديع فاخذ بعضهن بايدي البعض وجعلن يرقصن حول كرسيّ و ينشدن نشيدًا غراميًا حتى لو مر بهن احد المعبودات لوقف لديهن ذاهلاً . واختصار القول يا عزيزي ارستيبس اني لا اقدر ان اصف لك حق الوصف ما في قصري من الزينة والفخامة وعدد العبيد الذين في خدمتي وكثرة المال الذي بين يدي افرقه كيف اشاء فارمي الذهب للناس بالقبضبات فلذلك تراهم يجلون مقامي كل الاجلال وكنوز ارشمباز وافرة لكن اذا بقيت ابذرقها كما افعل الآن فلا بد ان تنقص كثيرًا غير ان الخيرات تندفق في بابه كالسيول فما اظن

ان ملكة بلغت من الكرامة والمجد والصولة ما بلغتهُ انا عند هذا الدهقان ٠
كل الناس يخضعون لي و ينحنون امامي ولا اتلفظ بكلمة او اطلب شيئاً
الا و يكون امامي باسرع من البرق حتى اني يا عزيزي ارستيبس قد ضجرت
شيئاً من شدة خضوع هذا الشعب لي وطاعتهم العمياء وانقياد العظماء
والاغنياء الى مواطئ اقدامي واطراء مدحي وشكري نعم قد شبعت نفسي
جداً وادركني الملل ولذلك عزمت ان اعوذ الى قرنتيه لكي اجتمع باصحابي ٠
لا بد تُعجب من كلامي هذا مع انه الحق المحض لان السعادة لا توجد
حيث تفقد الحرية الشخصية ٠ يا ارستيبس كم اتحسر على تلك الايام
السعيدة حين كنا نجلس معاً في ظلال الاشجار امام هيكل الصداقة
ونبحث في المحبة بحثاً فلسفياً ولا نطلب من المسرة اكثر مما يكفي نفوسنا
فقد اشتقت جداً الى تلك الايام السعيدة لاني مللت من هذا المقام
الملوكي ٠ فقد وطنت النفس على الرحيل الى قرنتية واذا لم اعجل بالمسير
فذلك لانه يجب عليَّ ان اسلك مع ارشمباز مسلك الصدق واللياقة اذ لم
اجد منه الا كل ما يحمد فاريد ان احمله بالتدريج والانس على انه من
تلقاء نفسه يطلب انفصالي عنهُ نعم ان هذا الامر يصعب عليَّ جداً لان
حبهُ لي لم يفتر دقيقة واحدة غير ان عندي افكاراً لا اظن انها تخيب
وانت تعلم ان تدابيري تأول الى نجاح ٠ ومع ذلك اذا حبطت هذه
المساعي التي اتصورها فلا حيلة لي الا ان اعرض على هذا الدهقان الفتى
ان نذهب معاً ونغرق انفسنا لكي يتخلص هو من عشق لا نهاية له واتخلص
انا من عبثه وصعوبة مقدرتي على اجابة طلبه دائماً بطريقة ممـلة على اني
ارجو ان لا تصل الى هذا الحد والسلام ٠ استودعك الله

الفصل الثامن

رجوع لايس من سرديس الى قرنتية وما صادفت من الاهوال والمشقات في الطريق

وبعد ان اقامت لايس في سرديس سنة كاملة عادت الى قرنتية على اشد الاسف من ارشمباز وكان عزمه ان يتزوجها ٠ فارسل معها من التحف النفيسة شيئاً كثيراً ولكن لما وصلت بها السفينة الى مدخل خليج ايجينة داهمتها زوبعة فما استطاعت ان تجتاز الراس فلجأت الى مينا سونيوم « وهي مدينة من بلاد اتيكة ومنها يسار الى الفسيس وهي الى الشمال الغربي من اتينا فيها هيكل للمعبودة كيريس ربة الزراعة يحتفل لها فيه بعيد جليل) فلما خرجت من السفينة الى البر نظر اليها الناس باندهاش شديد وشخصت في جمالها الابصار وكان بين الجموع المزدحمة حولها جماعة من رسل كاهن الفسيس العظيم قد اتوا ليبحثوا عن اجمل امرأة لكي تكون في ذلك العيد بمثابة المعبودة كيريس فلما وقع نظرهم على لايس صاحوا قائلين : ها هي التي نطلبها وفي الحال اخترقوا الجموع ودنوا منها وقالوا لها ايتها المرأة لتكن لك الكرامة والشرف فان واسيلياس كاهن الفسيس العظيم قد اختارك لتكوني ربة العيد فنستحلفك باسم كيريس ان تأتي معنا ٠ فلما سمعت لايس هذا الكلام اصابتها رعشة من قمة رأسها الى اخمس قدمها وارتفع ضجيج الناس استحساناً لطلب الرسل وقبل ان تجيب بكلمة رفعوها بين ايديهم ووضعوها في محفة وساروا بها الى هيكل مينروة السونية فلم تستطيع ان تقاوم الجمهور لئلا تجلب على نفسها الاذية ٠ وثاني يوم ساروا بها الى الفسيس في موكب عظيم ٠ وسبق الجمع احد الرسل لكي يبشر الكاهن بقدوم الجميلة القرنتية لانهم لم

يكونوا يعرفون اسمها بل كانوا على يقين انها اجمل امرأة في بلاد اليونان وكان عمر الكاهن خمس واربعين سنة فقام لاستقبالها بأبهة وجلال ولما امسك بيدها لكي ينزلها من المحفة شعرت لايس بارتعاش يده فعلمت انه وقع في هواها من ساعته وشعرت بما ينتج من الاضرار من عشق الكاهن لها ولكنها تكلفت البشاشة لاجل شدة الاحتفاء بها غير ان صدرها تضايق في الحال وخاف فؤادها سوء الاستقبال . وسار بها الجمع مبتهجين حتى اوصلوها الى المنزل الذي أعد لها بكل سرعة فاقامت في الهيكل خمسة ايام والكاهن يراودها عن نفسها فاستعمل اولاً اللطف والمداهنة والرياء والخبث لكي تجيبهُ الى طلبه ثم وعدها بالتحف والخيرات الكثيرة وهي تمتنع ثم لجأ الى الوعيد والتخويف بالعذابات الشديدة غير انها ثبتت على عزمها وكانت قد ايقنت بخبث نواياه . وفي اليوم الخامس صرّح لها ببغيته وكشف الستار عن شدة عشقه وقال لها ايتها المرأة الغريبة الوحشية الطباع ساجعلك كاهنة اذا اجبتني وانت تعلمين ان هذه الرتبة من اشرف ما تتمناهُ امرأة ولا يحظى بهذا الشرف الاّ رؤساء بيوتات اغريقية فتكونين حاكمة على الجميع والكل يحنون لديك رؤوسهم واعلمي ان سطوتي ليس لها حد وكل هذا الشعب ينقاد الى اوامري انقياد اعمى حتى ان رؤساء الجمهورية يرتجفون من هيبتي وبرهاني القاطع على شدة صولتي ما اصدرت من الحكم على سقراط وغيره من الفلاسفة الذين خالفوا امري مثل وذياغوراس والكيبياذس

(سقراط أتهم بالكفر لان تعاليمهُ كانت تنافي مذهب اهل عصره لصدق مبادئها فحكموا عليه بشرب السم سنة ٣٩٩ ق . م وذياغوراس يلقب بالفيلسوف الكافر ايضاً وهو من ابناء القرن الخامس ق . م حكم عليه

بالاعدام ايضاً) ثم ختم كلامه بقوله · فاذا اجبتني الى مرامي تكون لك الحياة والنعمة وان امتنعت فالعذاب والموت فاجابته قائلةً ايها الكاهن الاَّ تذكر انك نذرت على نفسك العفة لكي تستحق درجة الكهنوت قال ما ذلك النذر الا رياءٌ وكذب وقد عشقتك ولا اقدر ان اعصي فيك فؤادي

قالت ايها الكاهن دع عنك هذا الكلام فلا يفيدك وعدٌ ولا وعيد فان قلبي ليس في يدي ولا اقدر ان اميل اليك · قال بحياتك لا تقولي هذا القول القاسي فانه يوقعني في اليأس وحينئذ لا يعود في الدنيا يمنع نفوذ سطوتي فقد بقي لك يوم واحد فغداً بعد انتهاء حفلة العيد أخذ منك الجواب الشافي فلما كان ليل اليوم السادس زينوا لايس احسن زينة ووضعوها في محفة مستورة وساروا بها سرًّا الى اثينا وعند طلوع الفجر كانت الجموع تنتظر في الكيراميكوس (وهو القسم الاعظم من اثينا حيث الحدائق والاكاذيمية واشهر الآثار والابنية) وكان المدعوون لحفلة العيد قد وقفوا صفين على جانبي طريق الهيكل وبايديهم المشاعل وبعد قليل ظهرت المركبة الالفسيسية مزينة بالذهب الوهاج والاكاليل البهية وتقدمت ببطء في طريق الهيكل وامامها المشاعل وبنات جميلات يحملن تقدمات للهيكل وجماعة الموسيقيين والرواقص وحولها الطبقة العلياء من ارباب الكهنوت بلباس الذهب والارجوان وفي هذه المركبة جالسة لايس بمجد عظيم وجمالها يبهر العيون وكانت المركبة تقف حيناً بعد حين حيث يكون معبد مصنوع والبنات ينثرن الازهار في الطريق وبعضهن يحرقن البخور في مجامر ذهبية وآلات الطرب تصدح بالحانها وترافقها اصوات المنشدين والراقصات يدرن حول المركبة والجموع تهتف بالتهليل حتى لم يشهد اهل اثينا نظير ذلك العيد

وكان من جملة المتفرجين في ذلك الموكب القائد ليونتيدس وهو قرنتي الاصل لكن دخل من مدة طويلة في الخدمة العسكرية في جمهورية امبراكة وكان قد عرف لايس حينما كان يزور وطنه كل اربع سنوات فلما امعن فيها النظر تحقق انها هي الهيتيرة القرنتية المشهورة وبالاتفاق وقع نظرها عليه لما دنا من المركبة فعرفته وتبسمت لهُ فلم يبق لها همّ الا ان تعرفه ببعض الاشارات حرج موقفها وضيق صدرها فاظهرت على نفسها هيئة الكآبة وفي حركات وجهها امارات الخوف واليأس ففطن ليونتيذس لدخيلة امرها وتقدم اليها لكي يعلم ماذا تطلب منهُ ان يفعل

ولما قاربت المركبة الفسيس انكسر منها دولاب فسقطت منها لايس وانجرحت يدها فبادر اليها ليونتيذس وانهضها وحاول معالجتها مدعياً انه طبيب فقطع قطعة من ردائه ومسح الدم وضمد الجرح فهمست في اذنه قائلة نجني من ايدي الكهنة والا هلكت وكان هو يكره الكهنة فاخذ يسعى بطريقة يخيب بها آمال الكاهن العظيم فبينما الصناع يصلحون الدولاب اسرع الى شاطئ البحر واستأجر زورقاً باجرة باهظة واخذ ميثاقاً من صاحبه انه يكون متأهباً للسير عند دخول الليل ثم اشترى بدلة من ملابس الارقاء ورجع الى حيث المركبة ولما وصلت لايس الى رواق الهيكل أُنزلت بهيئة جليلة واوصلت الى امام المذبح وهناك صار الناس يتقدمون ويسجدون لها لانها في مجلس المعبودة فادعت ان جراحها تؤلمها وطلبت ان يختصروا طقوس العبادة فاجابوا طلبها حتى اذا جاء الليل كان الموسم قد انتهى وجعل الناس ينصرفون وكان ليونتيذس قد استصحب عبداً له مخلص الطاعة فلزم المركبة وكان يهتم بأمر لايس وصحبها الى المكان الذي بقيت فيه محبوسة خمسة ايام

واراد الكاهن العظيم ان يصرفه و يستعيض عنه بطبيب الكهنة الخاص فأبت لايس قائلة انه لايقوم باتمام معالجتها الا الذي ابتدا بها واصرت على هذا الطلب فاضطر الكاهن ان يوافقها على مرادها فاذن بابقاء ليونتيذس وعبده ولكن وضع على الباب حراساً شدّد عليهم الامر بدقة المراقبة وان يعلموه بكل مايجرى فلما خلا ليونتيدس بلايس وعرفا ان لا احد يسمع حديثهما ولا تراهما عين رقيب قال لها بصوت ضعيف — العجل العجل يا لايس اخلعي هذة الثياب والتفي بهذا الكساء والقي القبعة على رأسك وهيا بنا فيبقى في مكانك هذا العبد الامين وانت تمشين ورائي فيظنك الحراس عبدي فلا يعارضوننا وانا اقصد رئيس الحراس واقول له اني ضمدت جرحك بعد الكشف عليه فلحقك من الالم عناءٌ وادركك النعاس فلا ينبغي ان يوقظك احد ولا ان يسمع صوت حول منزلك لئلا تنزعجي لان الراحة ضرورية لك وكان الامر كما حسب ليونتيدس فانهما فرّا تحت الظلام ولم ينتبه اليهما احد واسرعا الى شاطىء البحر فوجدا الزورق بالانتظار فركباه وتقلبت مجاذيفه في اللجة حتى امعن في عرض البحر وحفظ الحراس وصية ليونتيدس فعم السكون والسكوت حول منزل لايس لئلا تستيقظ فتنزعج وفي الصباح اتى الكاهن العظيم وسأل عن حالها فقيل له انها نامت نوماً هنيأ كل الليل ولعلها باقية مستغرقة في النوم و بعد مضي ساعتين عاد الكاهن ليستخبر عنها فاجابوه كالاول فتقدم الى الباب وفتحه بهدو ومد رأسه لكي يراها ولكن ياللعجب وللحيرة فانه لم يرَها في سريرها فهجم الى داخل المنزل فرأى العبد راقداً في زاوية المكان فقبض على شعره وهزه هزّاً عنيفاً وصاح في وجهه قائلاً — اين المرأة وسيدك — فرفع المسكين يديه الى العلاء وقال

قسماً بالمعبودة وابنتها اني نمت من اول الليل ولم استفق حتى الآن ولم اعلم ماذا جرى فاستشاط الكاهن غضباً وقال القوا على الشقي اشد العذاب فاطاعوا الامر ولم يستفيدوا شيئاً فكانت امانتـه سبب هلاكه واشتد حنق الكاهن لاجل هذه الحيلة وارسل القوم يقتفون الاثر من كل جهة ووعد من يأتي بلايس وصاحبها بكل خير واكرام — واستمرت لايس وليونتيذس جاريين في عرض البحر وقد وافقتها الريح فلم يصادفا ما يكدرها وسألتهُ ان يحلف لها بكتم هذا السر الى الابد قائلة لهُ ان غضب هذا الكاهن لا يطاق ولا بد ان يسعى في الانتقام مني اما علمت بما فعل غضبه الخبيث بسقراط وغيره من الذين انتقم منهم ونحن نقول للقرنتيين اننا قادمان من سرديس رأساً لحفظ حياتي متوقف على كتم هذا السر العظيم

وكان ليونتيدس ايضاً في اشد الخوف من هذا القبيل فطلب اليها ان تعدل عن المسير الى قرنتيه قائلاً : اعلمي يا عزيزتي ان الفنسيس غير بعيدة عن قرنتية ولا بد ان الكاهن يرسل سعاته ورسله الى هناك للتفتيش عليك فيتجسسون اخبارك ويجدوك فلا يغرك حب القرنتيين لك فانهم قوم اصحاب خفة وخرافات كاهل اثينا ومن طبعهم انهم يبقون متوغلين في شعاب الجهالة لكي لا يخالفوا اوامر الكبراء غير مبالين بتثقيف عقولهم وتهذيب اخلاقهم واصلاح الفاسد من عاداتهم فأخشى ان ينسون حسناتك و يسلمونك الى ايدي عدوك . أفلم يكن سقراط والكيبياذس محبوبين من ابناء وطنهم ومع ذلك لم يسلما من الحكم الظالم فاقبلي نصيحتي واصحبيني الى مدينة امبراكية

حيث لي مقام رفيع فلا يكون عليك باس هناك بل تكونين تحت رعايتي فيكون لك كل الاكرام والاحترام — فقالت لهُ اني اشكر حسن التفاتك وقد اعجبتني نصيحتك لكن ارى انه مقدر عليَّ ان اتوجه الى قرنتيته فاجتهد ليونتيذس باقناعها بشدة الخطر اذا دخلت قرنتيته فذهب تعبهُ باطلاً

· فلما شاع في قرنتية خبر قدوم لايس ترك اصحابها كلهم مصالحهم واتوا يهنؤنها بسلامة الوصول واجتمع على بابها جمهور غفير من الفقراء الذين لم ينسوا فضلها لانها كانت مفطورة على حب الاحسان الى كل محتاج فقد تفردت بصفاتها بين النساء فكانت حالما تشعر باحتياج احد الى المعونة المالية تعطي بلا حساب فعلقوا على بابها الاكاليل من الازهار المختلفة وكان الناس يبشرون بعضهم بعضاً بوصولها وكان الفقراء يملأُون الجو من الصياح طالبين ان يروها فاضطرت ان تظهر لهم فعلا حينئذ هتافهم بالتهاليل والشكر لاحسانها فجعلت تنثر على رؤوسهم الدراهم من كف سخية وهم يصفقون لها ويضجون ضجيج الفرح فعرفت بتأكيد ان محبتها لاتزال متمكنة في قلوب القرنتيين واما باخيس التي كانت امة لايس فاعتقتها وجعلتها قهرامة بيتها في مدة غيابها فبادرت حال وصول مولاتها وعلقت المصابيح في جوانب الحديقة واقامت النافخات بالشبابة في موضع مخصوص ووزعت اجمل الجواري لكي يسكبن الخمور والمطربات للزائرين من فلاسفة وخطباء وشعراء واعيان ·

فاجتمع عند لايس في ساعة واحدة نخبة كبار المدينة كأن بينهم ميعاداً وقدم عليها للتهنئة وفد من كاهنه وينوس ميلانيس ووفد من اجمل الهيتيرات مزينات بنفائس الحلل الا انها كانت اجملهن وكلهن اظهرن لها شدة السرور بقدومها · فكان ذلك اليوم من اسعد ايام لايس احدقت بها الافراح

وارتفع منار مجدها وكان وفد الكاهنة ثلاث كاهنات فقبل ان يرجعن من عندها تقدمت اليها احداهن وقالت بصوتٍ مرتفع تذكاراً ليوم رجوعك الذي عمّ به السرور اهل قرنتية ولكي يبقى ذكر هذا اليوم مطبوعاً على صفحات قلوبنا قد ارتأت كاهنات ونيوس ان ينصب تمثال لايس في هيكل افروديتة بقرب زهرة المحبة ·

فقالت لايس اني اشكر فضلكنّ ايتها الكاهنات البديعات الاخلاق لاجل هذا الاكرام الذي منحتني اياهُ فغداً اتوجه الى هيكل ونيوس لكي اقدم لها اكرامي وشكري الزائد على اهتمامها بي واضع على مذابحها الهدايا اللائقة بمقامها · واني افرح وافتخر بكم ايضاً يا اصحابي لحسن الاستقبال الذي ظهر لي منكم ولكي اقوم ببعض فروض شكري لكم وامتناني من انعطافكم اليّ قد عزمت ان ادعوكم الى وليمة حافلة واعقد لكم مجلساً عاماً فنقضيها ليلة بالصفاء والسرور والحاضر منكم يعلم الغائب من بقية اصحابي وان الدعوة تكون بعد ثلاثة ايام وهذه وليمة المحبة بيننا · فصفق لها الجميع استحسانا ولا سيما الشبان الذين ما عادوا يقدرون ان يصبروا الى ان تنقضي هذه الايام الثلثة وشاع خبر هذه الدعوة شيوع البرق في كل مدينة قرنتية وضواحيها وبلغ خبرها مدينة ميغارة ومدينة اتينا وجزيرة ايجينية وجهات اخر فاشتاقت نفوس كثيرين الى الحضور الى قرنتية ليشاهدوا ما سيكون من عجائبها وبينما كان اصحاب لايس فرحين بوجودها مستبشرين بكل خير كانت رعود الويل تدوي فوق راسها فان احد رسل الكاهن العظيم كان قد دخل قرنتية بعدها بقليل وسمع بالخبر وذكر اسمها فداخله الريب في امرها فاحتال حتى توصل الى بيتها ورآها فعرفها فرجع في الحال الى القسيس واعلم الكاهن بها

ولما كان الغد خرجت جواري لايس من الباب الكبير ليذهبنَ الى هيكل وينوس وكان عددهنَّ ست عشرة جارية لابسات احسن الملابس خمس منهنَّ يحملنَ سلالاً فيها التقدمات وكنَّ في مقدمة الجماعة ثمان منهنَّ صفين كل اربع صف واحد فمشينَ على جانبي الطريق وبينهنَّ لايس كالملكة لكنها لابسة لبساً بسيطاً في غاية اللطف وكان شعرها محبوكاً بشرائط من الذهب والارجوان وعلى جبينها العاجي اكليل من الورد وفي يدها اليمنى غصنٌ من الآس ووراءها اربع نساء بايديهنَّ اكاليل الزهر — فسارت هي وصواحبها في موكب جليل الى ان وصلت الى الهيكل حيث تنتظرها الكاهنات واشهر هيتيرات قرنتية · فنزلت الكاهنة الكبيرة عن العرش واخذت بيد لايس وصعدت بها الى المذبح حيث وضعت الجواري التقدمات والاكاليل وعنــد ذلك رفعت لايس الاكليل عن رأسها ووضعته عنــد اقدام وينوس ثم رفعت يديها الى التمثال ودعت دعاءً حسناً : اوله

ياوينوس يالذة البشر والارباب التي تبهج بنظرها السماء والارض انت التي بابتسامة منها تبدد العواصف وتسكن الزوابع وتتشتت الغيوم انت تنمين الزهور في كل مكان المجد لكِ يامعبودة القلوب كل من في هذا الكون يخضع لنواميسك ويعترف بقدرتك · فاجابت الكاهنــة وقالت : وانت يا اجمل واكرم نساء اغريقيا تقبلي اليوم جزاء فضلك عنوان الكرامة والمجد وللحال رفعت ستراً فظهر وراءه تمثال لايس قائماً بجانب تمثال زهرة المحبة فاندهش الناس من ذلك المنظر البهي فقالت الكاهنــة للناس اعلموا ايها القرنثيون ان هذا التمثال الرخامي عمل سكوباس الخالد الذكر سيخلد بينكم تذكار جمال لايس الجسدي والادبي · ثم قبلت لايس وقالت حفظتك الارباب زمناً

مديداً لتمتع بمحبتك ففاضت من عيون لايس دموع الفرح لاجل هذا الاكرام الزائد التي حصل لها فسجدت امام المذبح وقدمت للارباب شكرها الخالص

وكان الشعب يصفق لها ويضج فرحاً المرة بعد المرة فثبت عندها صدق محبتهم لها = ثم ان الكاهنة الكبيرة انهضت لايس من سجودها واخذتها الى منزل مخصوص في الهيكل لكي تستريح هنالك ريثما تنفض الجموع وعند المساء خرجت لايس من الهيكل بصحبة جواريها لكي ترجع الى بيتها فلما دخلنَ في غابة صغيرة تختص بالمعبودة نبتون انقض عليها زمرة من الاشقياء بسلاحهم واخذوها بين ايديهم فقامت صيحتها وصيحت جواريها واذا بفارس وراءه بعض اصحابهِ قد هجم على الاشقياء ومزّق شملهم وانتشل لايس من بين ايديهم. وكان هذا الفارس نفس ليونتيذس فانه بعد ما شهد حفلة النصر التي حصلت للايس في الهيكل سبق وانتظرها بقرب تلك الغابة لكي يظهر لها فرحه وهي راجعة ويرافقها الى منزلها فلما وقع ما وقع تعجب جداً من امر هؤلاء الجماعة واراد ان يقف على حقيقة الخبر فتقدم الى جريح منهم لم يستطيع النهوض ولا يقدر على الفرار لان الدم كان يتدفق من جرحه حتى كاد ينزف وبقي وهو على آخر رمق وقد يبس لسانه ولم يستطيع ان يجب بكلمة فلما وصل هو ولايس الى باب الحديقة التفتت اليه وقالت لله درك من بطل همام . تبقى عندي هذه الليلة الى الغد لاني محتاجة ايضاً الى نجدتك وبوجودك تسكن مخاوفي. فقال لها يالايس قد بلغتني منيتي فاني ما كنت ارجو الحصول على هذه النعمة العظيمة فاخذت بيده وادخلته غرفة بديعة مزينة بالصور والنقوش الفاخرة وقالت له ياصاحبي مرتين انقذتني من

الهلاك وانا احسب العبودية اشر من الموت فكيف اقدر ان اكافئك على صنيعك فقال لها نظرة واحدة من عيونك الفاتنة تكفني وان الوخ في خاطرك حيناً بعد حين فهذا اعظم جزاء لي = في كل كلامك كل الطمأنينة ياليونتيذس ولا يفوق حلاوة حديثك الا علو شهامتك

— اعلمي يا لايس اني مغرم بك من يوم وقع نظري على رسمك بقي راسخاً في فؤادي لكي يزيد لهيب الوجد ضراماً

— لو كانت واحدة غير لايس لكانت تبتهج بهذا الحب واما انا فلا اقدر ان اتمتع بهذا السرور الذي يصحبني في حياتي لانه قد يولد حسرات

= من اين تأتي الحسرات اتظنين اذا احببت جمالك الجسدي لست عاشقاً لكمال صفاتك الادبية

— يقول المثل عين المحب عمياء والمحبة تستر النقائص

— فهل يوجد امرأة تقاربك في لطف الطباع والوداعة وكرم الاخلاق فاسمعي يالايس . لكون الارباب سمحت بتقرب احدنا من الآخر باتفاق غريب يكون ذلك دليلاً على انهم يريدون ان نقترن فدعي صنعة الهيتيرة وصيري زوجة لي وغداً نسافر الى امبراكية

— ياترى هذا في بالك ياليونتيذس انت قائد جيش امبراكية تتزوج بامرأة نظيري

— الم يتزوج بريكليس اسباسية وهو ارفع منزلة مني

— كانت اسباسية ذات مطامع تطلب ارتقاء المعالي . واما انا فليس لي من مطمع الا ان اكون محبوبة . ومن المعلوم ان المرأة اذا صارت زوجة شرعية تباعدت منها المحبة

— ما هذا الكلام وهذا الفكر الاعوج

— الحق ما اقول . وفضلاً عن ذلك يحصل لك بهذا الاقتران ضرر في عقول اهل امبراكية

— ابعدي عنكِ هذا الوهم

— لو لم يكن بريكليس شديد النفوذ رفيع المنزلة جداً عند اهل اثينا لما توصل الى الاقتران باسباسية ولم يكن لاحد غيره هذا الامتياز

— الظاهر ان ذاكرتك ضعيفة يا لايس فاني اقدر ان اذكر لك عدة اشخاص حصل لهم ما حصل لهُ ولم يكونوا في رفعة مقامهِ

— يا ليونتيذس اما اليوم فبلغني محبتك واما اقترانك بي فهذه مسألة نبحث فيها في وقت آخر

— وا اسفاه . امتنعين . اترفضين . طلبي

— ليس هذا الرفض محتوماً لان تثبيت العزم على امر خطير كهذا يقتضي اعمال الفكرة وتدقيق النظر من جهتي ومن جهتك

— لكن اعلمي يا لايس ان في الفسيس رجلاً يسعى في اتلافك وانهُ الكاهن العظيم وسطوته شديدة .

— لا يعرف ان التي يطلبها اسمها لايس

— مع البحث والوقت يتصل الى الحقيقة فلا يمنعهُ عن طلبك حيثما كنت

— ولماذا نستخرج من الوهم مخاوف .

— اذا لم يفز بالمطلوب بالرضي فانه لا يدع حيلةً ولا دسيسة ولا مكيدة ولا فظاعة الا ارتكبها لتنفيذ مآربه

— ارأيت كيف نبت لنا الويل هذا اليوم

— ولا يبعد ان يكون هو الذي ارسل هؤلاء الاشقياء لاقتناصك

— يا ويلاه قد ارتعدت فرائصي . اتظنُّ هذا

— اذا صدق ظني فليس لك بعد اليوم امان ولا اطمئنان في مدينة قرنتية . اتعرفين قصة دياغوراس الميلوسي الفيلسوف المشهور .

سمعت انهم حكموا عليه حكماً صارماً لكن ما وقفت على تفاصيل المسألة

— مضى كثير من الليل فليس لنا وقت الان لكي اسرد لك حكايتهُ وقد تعبت مما جرى لنا من اولئك الخبثاء فيجب ان نطلب الراحة لجسمنا وافكارنا وغداً اقصُّ عليك خبر دياغوراس ثم انهُ امسك يد لايس وقبلها وانصرف الى الغرفة التي أعدت لهُ كما سبقت الاشارة .

واما لايس فاخذت تفكر في امورها وتعيد في ذاكرتها تهديدات الكاهن العظيم ولعلمها ان ليس لها في الدنياء عدو غيره وقد سمعت من فمهِ انهُ لابد ان يصطادها بالف حيلة تراكمت عليها المخاوف وعرفت ان ملجاها الوحيد في مثل هذه الظروف هو ليونتيذس محبها الصادق فغلب على فكرها ان تطاوعه في ما اراد

ولما كان الغد وتقابلا اطلعها على قصة دياغوراس واخبار حياته بالتفصيل وما يتعلق منها باسرار الفسيس (وهذه القصة نأتي على ذكرها مفصلاً في الجزء الثاني)

فلما سمعت تلك الاخبار تأثرت جداً وعزمت من يومها ان تسير مع ليونتيذس لتكون له حليلة

الفصل التاسع

الدعوة

وقبل ان تهجر لايس قرنتية احبت ان تبقي لها فيها اثرًا يذكر وعملا يشكر فعمدت الى اعداد وليمة لم يسبق لها نظير واحيت ليلة لم يكن مثلها في بيتها سابقًا فابرزت كل ما كان عندها من تحف المصنوعات من اثاث وآنية واوعية ومنقوشات وادوات زينة من كل نوع وفرشت كل ما عندها من نفائس الفرش وانارت ابهر الانوار والبست جواريها افخر الملابس فصرن كانهنّ عرائس و ينوس في علو سمائها وكانت هي بينهنّ نظير تلك المعبودة في جلال مجدها · وحضر الى منزلها أشهر الهيتيرات جمالاً وظرفًا وكل من كان صاحب ظرف وحلاوة عشرة وعلم وحكمة ودقة صناعة ومعرفة في الشعر والخطابة وهلمّ جرًّا ولم يكن الذين من قرنتية فقط بل من سائر مدن اتيكية والبلوبونيسة والجزائر القريبة فلم تكن حفلة اجلّ ولا اشهى من تلك الحفلة · وكانت الروائح العطرية تعبق في كل الانحاء والازهار تفرش في كل مكان والاصوات الرخيمة تشنف كل الاذان ونغمات آلات الطرب ترقص لها القلوب والوجوه الحسان تشخص فيها الابصار وتسرّ بحركاتها النفوس فكان المجلس غاصًا باسباب المسرات طافحًا بانهار الملذات حتى ترنح الجميع من خمرة الافراح قبل خمرة الاقداح ونصبت الموائد في انحاء الحديقة ولحقت الناس هزة طرب شديدة وكانت المائدة التي جلست عليها لايس واصحابها الاخصاء محاطة بصفين من عشاقها الذين لم يكونوا يشبعوا من النظر الى محاسنها وكان ليونتيذس ممسكًا بيد لايس اليسرى وسكوباس

باليمنى وارستيبس بازائها عن يمينه كريسيذس الصير في الكبير وعن يساره ميرون النحات المشهور وعلى طرفي المائدة مزدحمة زمر الفتيان الشعراء واصحاب الصناعة ونحوهم ·

وبعد تقديم السكيب للعبودات كما هي العادة اخذ جوق المغنين والمطربين بالآلات ينشدون نشيد الافراح ويذكرون لايس والجمهور يجيبهم · وانظرت لايس الى ما حولها وقالت ليس هنا كل اصحابنا فاني لست ارى ديوجانس افلم يبلغه خبر هذه الدعوة · فقال احد الظرفاء رأيت فقيرنا الحكيم البارح في بستان الاكاذيمية في اتينا يعطي دروساً لافلاطون العبوس · فقال آخر كيف ذاك ايحتاج افلاطون الى درس ديوجانس هذا لا يكون لان افلاطون يدعي انه بلغ اوج الحكمة فلا يتنازل الى اضاعة وقته في سماع كلام رجل فقير متسول · فقال جماعة من الحاضرين اذا وقع الامر بطل عدم الامكان فقال المعترض وكيف وقع الامر هات الخبر · قال المخبر انتم تعلمون ان افلاطون يكون في الاكاذيمية وبين يديه عدة تلامذة ومن عادة ديوجانس انه يتهكم عليه كلما سنحت له الفرصة فقال له يوماً اذا كنت تحب استاذك وتحترمه فلا تنسب اليه من القضايا مالم يقله بل هو من مخيلتك الوهمية فلم يبالِ افلاطون بكلامه بل ازدرى به وادار له ظهره · فقال ديوجانس ايها الرجل العريض المناكب اني ارى في منظرك عموماً من الكبرياء اكثر مما كان سقراط يرى من خروق جبة انتستينس فانعطف افلاطون ونظر اليه باحتقار فاشار اليه ديوجانس باصبعه وخاطب القوم قائلاً اترَ ان هذا المخرور الكبير الذي لا يحترم رفات الاموات فيحمل سقراط المسكين ثقل افكاره الوهمية وكان الاتينيون يطربون بتهكم ديوجانس على

افلاطون فقال له احدهم · ما افدتنا شيئاً جديداً · فقال ديوجانس ابلعني ريقي حتى اوصلكم الى الجديد فاعلموا ان افلاطون بعدما قلب آراءه ودقق البحث في المتضادات وفي المبادي الاهلية شعر بالامس ان الحد الذي وضعه كل من الفلاسفة لماهية الانسان هو ناقص وفاسد فاراد تصحيحه بجد من عنده فاخذ يفكر ويجهد قريحته ويفرك جبينه ويعض شفته ويعصر خاصرتيه حتى بدا له لحسن حظه ان يقول = الانسان حيوان يمشي على رجلين لا ريش له فدهش تلامذته من قوة ذكائه واشاعوا كلامه في كل ناد فلما بلغ الخبر ديوجانس كاد ينشق من الضحك وجعل يتمرغ في التراب ويبدي الحركات التشنجية كأنه اصيب بقولنج شديد فاجتمعت عليه الناس متعجبين · وكان يصرخ قائلاً : يا افلاطون حقاً ان كل فلاسفتنا ليسوا الا تلامذة خاملي الذكر بالنسبة اليك واهاً واهاً لهذا الفكر الثاقب والذهن المتوقد وبينما هو يصرخ هكذا ويستغرب في الضحك خرجت من فيه هذه الكلمات« ما ابدع هذه المهنة ما كنت اعرف ان تلميذ سقراط يشتغل بعلم الفشار » وجعل يتلوي من شدة الضحك حتى كاد يسقط واهياً ثم خاطب الجمهور بقوله = ايها المشاة على الرجلين ولا ريش لكم ما وقوفكم هنا امام ديوجانس

اتجهلون الاكتشاف البديع العجيب الذي انتجبه دماغ افلاطون فبادروا حالاً واصنعوا اكليلاً من ذهب لهذا الفيلسوف العظيم

وعاد يضحك اشد من الاول والناس يضحكون لضحكه ثم قال لهم يا مشاة على رجلين ولا ريش لهم اكتبوا هذه العبارة على رخام باروس « هي جزيرة من جزائر اليونان اشتهرت بجودة الرخام » لكي تكون غنيمة للعصور

الآتية ـ فماذا عمل ديوجانس حينئذ . اخذ ديكاً حياً ونتف ريشه وخباه تحت جبته وتوجه الى الاكاذيمية واجتاز صفوف التلامذة حتى وصل امام افلاطون فكشف عن الديك والقاه لدى الفيلسوف وقال للتلامذة انظروا ايها التلاميذ الذين يلهونكم بالكلام الفارغ هوذا الانسان على رأي استاذكم فبهت افلاطون متحيراً من هذه النكتة الغريبة وما قدر بعض التلاميذ ان يملكوا انفسهم من الضحك فالقى افلاطون جبهته على كفه واصلح عبارته بانه زاد عليها « عريض الاظفار »

فلما فرغ المخبر بهذه الحكاية من كلامه نقلاً عن لسان ديوجانس قال ارستيبس حقاً ان تلميذ سقراط لا يخلو من امور تضحك ولو كان كبير العقل فقال زنيوفانس صدقت ولكن اي رجل قوي ليس فيه شيء من الضعف فقالت لايس وانا اوافق الحكيم زنيوفانس على رأيه فان افلاطون اشتهر بالاختراعات العقلية وقوة الثبات في الرزانة ورقة الذوق في التهكم وسلامة العبارة والتلاعب باساليب الكلام فهو فيلسوف وشاعر معاً . فقال احد المهندسين صواب هذا الكلام ولكنه لم يشتهر بضبط العبارة ولا بوضوحها وقال سكوباس . ولا بسلامة الذوق في الغرام فانه يهوى ارخيا ناسة العجوز المجعدة الجلد الذابلة الوجنات فاذا كان هذا مذهبه في الحسن فلا اريد لنفسي الا ان اكون تلميذ مدرسة . فضحك الجميع لهذه العبارة والتفتت لايس الى ليونتيذس وقالت له وانت ما رأيك . قال رأيي من رأيك ايتها الجميلة لايس وكلما يعجبك يعجبني وكل ما تحبين أحبّ . فسمع صوت خشن يقول دعونا من افلاطون فانما اتينا الى هنا لكي نتمتع بالمسرات لا لكي نضيع وقتنا باخبار صاحب الخيالات . فقال ميرون حقّ هذا الكلام

واخذ الكاس بيده واندفع يغني بمثل هذا الكلام

بالنساء والخمر ترقص قلوبنا وتسرُّ نفوسنا وتزول اوجاعنا · ما اطيب الجنون بالنساء والخمر اما انا فمتى ملأت كاسي لا يبقي عندي شيء من الهموم · هنا تدور الكأس و يدور الحديث فيقول كل واحد ما يخطر بباله بمناسبة المقام كما تري

سكوباس = حياك الله يا معلم ميرون النحات العظيم والشاعر تستحق اكليلين الواحد من الغار والآخر من الآس

احد الظرفاء — اسكبي اسكبي يا نايدة الجميلة فان عيونك توحي الغرام والخمر تهيج السرور

احدى النساء — وتكبر البطن ايضاً انظروا بطن كريسيذس الصير في ·

كريسيذس — ينظر الى بطنه — ما ارى فيه شيئاً فوق العادة ·

امرأة اخرى — ومع ذلك ليس هو قبيحاً كما هو عليه الان

كريسيذس — معناك انهُ حسن

لايس — يا اصحابي كفوا برهة عن كريسيذس السمين لكي نسمع انشاد ارستيبس

ارستيبس — رغماً عن اعضاء الاكاذيمة الذين يضيعون اوقاتهم سدًى اقول ان اسمى فلسفة في مذهبي هي فلسفة الملذات وانتم تعلمون ان الدنياء طريق مسافر كل يوم تورثنا مشقة فلكي نسهلها يجب ان نحي منها الاشواك الحادة ونمشي على الزهر ·

(عدة اصوات) عشت عشت ايها الفيلسوف الكبير

(اوريباتس) ما احسن فلسفة ارستيبس فانها على رأيي احسن

فلسفة (ميرون) بها وحدها نلقى السعادة

(كريسيذس) وانا الآخر اسلم بها ولكن لا اسلم بضربات العصي التي اوقعها دنيس السرقوسي على فيلسوفنا

(سكوباس) اصحيح ما تقول

(كريسيذس) هو الحق اليقين

(لايس) ما كنت اعلم بهذه الحكاية مع ان ارستيبس ما كان يخفي عني شيئاً

(ميرون) ولاي سبب ضربهُ

(كريسيذس) لان ارستيبس استقبح امرًا استطيبهُ الطاغية ·

(ضحك عام) ودنيس هذا طاغية سرقوسة ويعرف بدنيس الشيخ كان شديد الحذر على نفسه كثير المخاوف والوساوس من امر يدهمهُ او احد يغدر بهِ فكان لا يخلع الدرع من تحت ثيابهِ ولا يدخل احد عليه الا ويفتش في ملابسه لعلّ معهُ آلة جرح ولا يدع حلاقاً يحلق لهُ حتى انهُ ما كان ينام ليلتين متواليتين في غرفة واحدة فضرب بهِ المثل في شدة الحذر)

(ارستيبس) الامر وقع بالحقيقة ومن ذلك لنا دليل على انه لا يجوز لاحد ان يقاوم الاقوياء

(كريسيذس) ولم يمنع هذا الامر ارستيبس ان يتغدّى عنده ثاني يوم ·

(ارستيبس) وهذا صحيح ايضاً وهو من مبادئ فلسفتي ان لا يترك الانسان اللذة تفوتهُ حينما وجدت

(كريسيذس) اصبت ولكن ضرب العصي

(ارستيبس) هل نسيت المثل القائل لا راحة الاّ بعد تعب ولا سرور

الا بعد كدر ولا لذة الاّ بعد حرمان

(هيبياس) واما انستينس الذى يكره الذين يحبون المال و يسلكون كل سبل الدناءة للحصول عليه يلوم كريسيذس وارستيبس على حب المال

(كريسيذس) نعم اني احب المال ولكن لا احب ضرب العصى

(باخيس) ارستيبس يجمع المال بعقله و ينفقه بسعة واما انت فتحبسه في صناديقك

(كريسيذس) اراك ايتها الحمامة الظريفة صديقة موساريون الذي طلب مني بالامس وزنة فرددته. والذي قلته لا يمنع كون سقراط وافلاطون وديوجانس وكثير من غيرهم يوافقون انستينس على رأيه

« باخيس» وماذا ينتج من هذا

(كريسيذس) ينتج ان ارستيبس يعمل اقبح من عملي للحصول على المال

(لايس) اعلم ان من مبداي ان ادافع عن اصحابي وارستيبس صاحبي فيجب ان اقول ليس له هوس بجمع المال فيستغني عنه كما يستغني ديوجانس اذا امكن الحصول على الملذات مجانًا والدليل على ذلك هو ما جرى مما لست على ظني تعمله وذلك ان ارستيبس حصل مرة على مبلغ وافر وحمله غلامه واذ شعر ان الغلام يتعب من حمله و يمشي مشية بطيئة قال له اطرح ما يزيد عن مقدرتك

(باخيس) لو كنت انت في مكانه يا كريسيذس لما فعلت هذا

(لايس) ومرة اخرى سمح ارستيبس لاحد مديونه بوزنتين لكي لا تقع عيلته في هاوية الفقر وفي نفس ذلك الوقت كان هو نفسه محتاجًا الى الدراهم وعندي براهين كثيرة عن مثل ماذكرت بخصوص صديقي

ارستيبس افيكون هذا دليلاً على حبه للمال

(سكوباس) كلاّ ثم كلاّ

(صوت من الجماعة) لكنهم يتهموني بالتخضع والتملّق للطاغية دانيس

(ارستيبس) ولولم يكن ذلك لكنت وحدي بين الناس خالياً من الحساد

(لايس) واني ادفع عنه التهمة الاخرى بالحادثة الآتية

اتفق مرة ان ارستيبس كان يشفع عن دنيس باحد اصدقاء افلاطون اذ اتهم بموءامرة ضد الملك فابى الطاغية ان يشفعه فترامي ارستيبس على اقدامه فاراد احد الندماء السفلة ان يظهر للملك ذلة ارستيبس ودناءة طبعه بكونه وقع على قدميه. فقال ارستيبس لست انا مخطئاً لان اذني دنيس في رجله فضحك الطاغية من قوله ورضي عن الذي كان يشفع فيه. فعند ذلك قام ليونتيذس وذينوفونس وسكوباس وميرون وكثيرون غيرهم وصافحوا ارستيبس وهناءوه بهذا الفوز اللطيف. وقالت لايس اعلموا انه بالنظر الى استصواب الجمع عمل ارستيبس يكون ابلغ الخطباء الذين من طبقة ذيمستانس عاجزاً عن الحجة

فقالت باخيس. مالك ياسيدي ليونتيذس لا تفوه بكلمة مع ان المسرات التي نحن فيها تقضي على كل شفة ان تتحرك فعليك ان تنشدنا صوتاً جميلاً كما تعودنا منك قبلاً ولا تظن اننا نعفيك منه — لايس تتبسم وتقول — هلم ياعزيزي ليونتيذس لاعذر في الامتناع عما يطلبه الحاضرون منك

(ليونتيذس) اذا طلبت لايس البهية المحاسن الفريدة الجمال واشفعت الطلب بابتسامة من شفتيها الرقيقتين فما علينا الا الطاعة ثم تناول العود وانشد ما معناه — عندي ان لذة الخمر وسكرتها سرور يهيج العواطف. وما

ذالك الا من عيون الحبيبة التي منها كل ملذة . قد اضرم النار جمالها في فوءادي فهو يخفق لمجرد سمع صوتها الرخيم . ويخرق نظرها باطني كشقة من الحب والسعادة

(سكوباس) . اهذا وقت اللاح والتغزل . بماذا تفكر ياليونتيذس

(ليونتيذس) . ماشغلي الا الصبابة والغرام

(باخيس) . ان ما قاله ليونتيذس هو ترجمان حواسهُ فانهُ عاشق

(كريسيذس) . وانا ايضاً عاشق

«امرأة» . انت يا عباد المال ما عشقك الاَّ للخمر والدراهم

«كريسيذس» . وانتِ تعلمين ان وينوس نفسها تحترم المال

«امرأة اخرى» . انظر لهذا البرميل العتيق

«ميرون» . وانا الآخر احب الخمر والنساء

«سكوباس» . ايها الاستاذ هل يعود لنا الشباب

«ميرون» . اوَّاه

«كريسيذس» . يا حبذا

«ارستيبس» . اعلموا يا اصحابي ان الحكمة تأمرنا بحب كل ما يلذنا بحيث لا نضر غيرنا فان ميرون وكريسيذس يحبان سعة العيش واما النساء عموماً فغرامهنّ احاديث الهوى ونشوة الخمر وهو امر طبيعي . فتقول لايس لقد اصاب ارستيبس بقوله لان كل منكم تكلم على هوى نفسه اما انا فتلميذة ارستيبس اذهب مذهبه وانشد رأيه ثم تاخذ العود وتنشد ما معناه — كل ما على وجه البسيطة من اسباب الجمال والشباب والعشق والخمر والعافية والغنى انما هو موهبة من المعبودات ولكن اذا افرط الانسان في

استعمال هذه الامور فان اخرتهُ الوبال ولكنهُ لا يصيب الحكيم فعلى الانسان ان يعتدل في تعاطي الملذات و يطرح اسباب السكر ويتجنب كل ما يسرع بالشيخوخة اذ يندم حين لا ينفع الندم · ذوقوا الملذات ولكن لا تفرطوا ·

ارستيبس — اسمعتم هذا الكلام تجدون لايس محاطة بدواعي المسرات لكنها تجد واسطة لارشادنا الى الحكمة

ليونتيذس — واني اشهد مخالفاً لرأي ذيمتانس ان منزل لايس هو مجمع الحكمة والادب والذوق

ارستيبس — الشيء بالشيء يذكر وحيث ذكر اسم ديستانس اسألكم سؤالاً : هل علمتم ان الاريو باغس حكم عليه بان يسمح لفعلتهِ الحدادين بنوم ست ساعات · فقالت لايس ان هذا الحكم عجيب فهل تعرف تفصيل الخبر قال ارستيبس · كل منا يعلم ان ذيستانس على جانب عظيم من الحرص فهو يكلف فعلته شغل خمس عشرة ساعة كل يوم والحق ليس عليهم اكثر من شغل عشر ساعات وما ذالك الا لكي يجتمع له المال بوقت قصير فاتفق يوماً ان استاذهُ في الخطابة التقى بثلثة فعلة قد اضناهم الفقر واضنكهم الجوع فرفع عليه الدعوى وصدر عليه الحكم بما قلنا · فقال ليونتيذس قد اصاب الاستاذ بما فعل ولكن اسألكم سؤالاً ايها الادباء واحب ان تجيبوني عليه بالصدق اي افضل الاثنين ذيستانس الذي يهلك خدمهُ لكي يملأ صناديقة ام لايس التي تمنحهم مطلق الحرية لكي تتخذهم اصدقاء لها

فنظرت اليه لايس نظرة يفهم منها انها تلومهُ على التعرض بمدحها ·

ثم قالت · انه يسوء اتينا في عصر بريكليس ان رجلاً سامي المقام نظير ذيمستانس يهتم بجمع المال غير مبالٍ بعذاب الرجال فقالت باخيس انهُ يقتدي بالحريص كالياس فان صناديقهُ كالقبر يدخلها ما لا يخرج منها · فقال ارستيبس و يبيع الجمهورية وسائر اغريقيــة لكي يحصل على المال · فقال موساريون · لا تزالون تذكرون ذيمستانس وكالياس ولا تذكرون من هو اشد بخلاً واكثر حرصا وهو كريسيذس

كريسيذس انا ؟ يا للعجب · فقال موساريون نعم انت فانك تلتهم في غداء واحد قيمة ثلاث وزنات لكي تشبع بطنك وتترك مستخدميك يموتون من الجوع · فقالت باخيس ان هذا فعل الادنياء ولا يفعل ذلك الاّ كل ذئبٍ خاطف · اجابها كريسيبس ما هذه التهمة القبيحة التي أتهميني بها ؟ قالت لايس انما الكرم يجرى مع البخت الحسن فطوبي لمن تكون له هذه الفضيلة الحسنة · فقال ميرون اكراماً لخاطر لايس ولسروري برجوعها الى هنا اعتقت البارح ثلاثة من احسن عبيدي · فقالت له لايس اني اشكرك بلسانهم وستجزيك المعبودات احسن جزاء فقال ارستيبس · وما كان يقول ميرون لو علم ان لايس اعتقت كل عبيدها قبل سفرها الى سرديس · فقال ميرون هذا عمل لا يكون الا من ملكة · فقالت باخيس وماذا كان يقول ميرون لو علم ان اولئك العبيد كانوا يؤثرون العبودية عندها على الحرية في بيوتهم · فقال ليونتيذس كانوا يقولون ما اقوله انا — اذا اشيدت الهياكل لاجل جمال لايس يجب ان تشاد هياكل لاجل احسانها · فقالت لايس حقاً ايها الجنرال ليونئيدس انك اليوم طلق اللسان في مدح اوصافي · اجابها ليونئيذس قد تعودت يا سيدتي ان اعطي صاحب الحق حقهُ · وعندذلك سمعت اصوات

مختلفة حول الحديقة · فسألت لايس ما هذه الاصوات فقالت احدى الجواري هم اولاد الفقراء يقصدون تسلق جدران الحديقة غير ان البستاني يطردهم بعصاهُ · فقالت لايس · افكهذا امرت خدمي ان يعاملوا الفقراء فليحضر هؤُلاء الاولاد اذا سمح اصحابي فاني احبُّ ان اراهم · فقال ليونتيدس يحقُّ على كل منا ان يشكر فضلك يا لايس لانك لا تزالين تظهرين العواطف الشريفة · فقال ارستيبس ويحق لي ان افتخر بتلميذتي – واذ ذاك دخلت امرأة فقيرة ممسكة بكل من يديها ولدًا صغيرًا ومعهم ولد مراهق يقود شيخًا اعمى · فقالت المرأة العفو يا سادتي اعلموا حقًا اننا لسنا ممن يطلب تكدير الراحة غير اني عرفت ان هنا وليمة حافلة فاراد هؤُلاء الاولاد ان يدخلوا ويلتمسوا صدقتكم لانهم جياع اجابتها لايس فلتطب نفسك يا خالة لا بأس عليكم هنا فاننا نصنع الخير فقولي ما الذي تطلبينهُ قالت الفقيرة اني زوجة جندي مسيني جرح في معركة الاسبرطيين الذين اكتسحوا بلادنا ونهبوها ثم حبس وها نحن نطوف في البلاد انا واولادي وحميّ الاعمى نلتمس الاحسان فقالت لها لايس وهل زوجك حيٌّ حتى الآن · اجابتها الفقيرة نعم هو حيّ ولكن بصفة ميت · آه لو تعلمين طباع اولئك الاشقياء المدعوين اسبرطيين فان طمعهم في المال كطمعهم في سفك الدماء فانهم طلبوا من حمي هذا الاعمى وزنتين فدية ابنهِ ومن يملك وزنتين غير الملوك فقال ارستيبس اسمعت يا لايس كلامها فقد نقض الاسبرطيون شريعة ميكرغوس واشربت قلوبهم حب المال ولا يبعد انهم عن قريب يبيعون اغريقية للفرس وهذه تعد نقطة سوداء في تاريخ اعمالهم · فقالت لايس للفقيرة لا تقنطي من رحمة ربك ايتها المرأة الصالحة اجابتها تلك وا آسفاه من اين يكون لنا رجاء نحن المساكين

فقالت لها لايس الذي تحسبينه مستحيلاً هو سهل جداً فاذا صار بيدك وزنتان فماذا تصنعين بهما فقالت الفقيرة ليس الرجاء الا بان تقعا لنا من السماء لاننا نجول في البلاد منذ ثلاث سنوات ولا نكاد نحصل على مانقتات به . فقالت لها لايس . يجب على الانسان ان لا يقطع رجاءه من رحمة الله فكثيراً ما تستجاب الدعوات حين لا ينتظر الانسان . قالت الفقيرة . فاذا كنت تطيبين قلبي بالمواعيد وتمنيني بالحصول على المطلوب فانت من جملة المعبودات لكني شعرت بفرط فضلك بمجرد النظر الى فرط جمالك « تقع على قدميها » فتحنني واسعفينا . فتقول لها لايس . انهضي ايتها الصالحة فما انا الا بشر نظيرك وقد منحتني المعبودات هذا الجمال لكي استطيع ان اعمل به خيراً فانا قادرة وحدي ان اعطيك الوزنتين لكي يرجع الاب الى عياله على اني لا احب ان يخسر اصحابي لذة الاحسان تجيب الفقيرة بدهشه ما هذا يا مولاتي اصحيح ما سمعت ؟

تجيبها لايس . نعم هو الصدق بعينه « وتأخذ سلة وتدور على الجماعة » وتقول اني ابتدي بك يا كريسيذس فانك اغنى منا كانا فاظهر دلائل كرمك فقد قلنا ان كرم اليد عنوان شرف الغنى . وانت ياميرون وانت ياسكوباس لتكن الامال فيكما محققة وليكن ما تهبان لائقاً بمقامكما فاجاب ليونتيذس . اما انا فاني ادفع كل مالي لاجل نظرة واحدة من لايس التي تغمر الجميع بالاحسان فينشرون عبير ثنائها .

بعد ان تجمع لايس من الموجودين ما يتيسر وترجع الى مكانها يقول ارستبيس من ينكر الان ان لايس قد حصرت في نفسها كل الكمالات الجسدية والعقلية

تقول باخيس كل حياة مولاتي مشهورة بالمبرات يتقدم احد المدعوين واسمه دولياس وهو غير معروف من الجميع يضع هديته في السلة ويقول اما انا فاقدم وزنة واذا حصلت لي لايس اقدم عشرين فقالت لايس ان كلامك ايها المولى ككلام الملوك · يقول ليونتيذس لارستيبس ان هذا الكلام اشبه بكلام المتوحشين فهو هنا في غير محله · يجيبه ارستيبس وخال من الذوق السليم · تقول لايس لالزوم لاطالة الكلام لاننا قد افلحنا بما فعلنا فارجح ان في هذه السلة وزنتين على الاقل فهما تكفيان لاطلاق السجين وانا ازيد عليها واحدة لكي لا يكون له اهتمام بمسألة المعيشة · فخذي نصيبك ايتها المرأة المسكينة واشكري فضل الجماعة فرفعت المسكينة يديها الى العلى وقالت

يا اله السماء والارض · اليس هذا حلماً اني ارى قصراً جميلاً وازهاراً بديعة وآنية ذهبية وانواراً ساطعة · وفوق كل ذلك جمال التي تكسف الشمس ببهائها ثم المال الوافر ماهو الا حلم سعيد وعسى ان يتم في اليقظة · فقالت لها لايس افرحي ايتها الصالحة ما هذا حلم بل هو الحقيقة بعينها كما قلت لك خذي هذا المال فانه صار لك واذهبي افدي زوجك وعيشي مع اولادك عيشة هنيئة فالتفت اليها تلك المسكينة بانكسار وقالت لها — لا اقدر ان اصدق هذا الكلام

فقالت لايس · ها هو المال خذيه ولا ترددي · وسعادتك براحة بيتك · وما هي الا فضلة الغني قالت الفقيرة اني اطلب الى معبودة الجمال والجود التي انت مثالها ان تكافئك على هذا الفضل العظيم لاني انا المسكينة لا استطيع ان اكافئك · قالت لايس · تقدرين ان تكافئيني بشيء واحد وهو انه حالما تقرع يد الفقر بابك تذكرين التي صنعت معك اليوم

هذا المعروف « تتقدم الفقيرة --- تبوس يدها » وتقول

اني اقسم بشرف هذه اليد الكريمة التي ابوسها و بحياة اولادي الاعزاء اني اصنع مع الغير اذا قدرت ما تصنعين معي الآن واذا كنت انقض كلامي هذا فلتمنع عني الالهة كل رزق . واني انا وزوجي مخلصان لك الود والوفاء

لايس — ايتها المرأة الفاضلة اني اشكر رقـة عواطفك واحسب ذلك منك افضل من الجميـل الذي صنعته « تخرج الفقيرة باولادها وهي تبدي كل دلائل الشكر »

لايس — اعلموا يا اصحابي ان الفرح الذي ذاقت هذه المرأة لذته قد خامر نفس فؤادي فارى نفسي في سرور زائد

ليونتيذس — هذا الفرح الذي شعرت به يدلنا على ان فيك قوة الهية

لا يس = اجيبوني يا اصحابي على سؤال واحد اليس عمل الخير موهبة ونعمة تفوق كل الملذات . واأسفاه على الذين يجهلون هذا الامر

ليونتيذس — هذه حكمة سامية

ارستيبس — اليست هي تلميذتي على اني اقول ان الافراح الادبية كلها تأول الى سعادة الانسان واني اوافق رأي لايس من جهة تشكيل الملذات كما قيل تنقل فلذات الهوى بالتنقل — و بينما هم يتحدثون بمثل هذه الامور نهضت امرأة وتقدمت الى الامام وكانت فصيحة العبارة تلقي دروسها عن افلاطون فرفعت صوتها بين الجميع قائلةً :

ايها الفلاسفة والشعراء وكبار الامة احسنتم فيما ذكرتم عن سجايا لايس الحسنة وهي اليوم رفيعة المقام ومكرمة في قرنثية عن استحقاق ولكن في الاعصر الاتية لا يذكر التاريخ شيئاً من حسناتها افيجوز هذا . فقام ليونتيذس

وقال بصوت عالٍ — كلاّ ثم كلاّ اني اقسم برب الارباب إن التاريخ لا يسكت عن محاسن لايس فانا اذهب بنفسي واحفر اخبارها على رخام باروس — وعند ذاك تقدم جوق من المغنيات ووقفن في الوسط وانشدن ما معناه:
افتحوا قلوبكم للهوى واقطفوا ازهار المسرات · اغتنموا فرصة الشباب فانها سريعة الزوال واذا فاتت لا تعود واحيوا ذكر باخيس واله الحب ما احسن حياة العشاق ايامهم سعادة وسماؤهم صافية الاديم وصوت القلب يحيي فيهم انقى حواس الغرام — ثم صدحت آلات الطرب ورقصت الراقصات حتى اهتز المكان طرباً وبعد ذلك جعل الناس يقومون عن المائدة ويدخلون القاعة الكبرى حيث دارت بينهم الاحاديث الظريفة والملح المستعذبة وفي هذه الفرصة اغتنم ليونتيذس انهماك الجمع وغاص هو ولايس في اقصى الحديقة وانتهزا لذة الخلوة · فقال ليونيتذس · يا لايس كلما نظرت اليك وسمعت كلامك تزداد محاسنك في عيني رونقاً حتى يقضي بي الامر ان احسبك آلهة نزلت من السماء كما حسبتك هذه المرأة الفقيرة ويسلب حبك عقلي ·

— بل ستكون حكيماً لانك تعلم كما اعلم انا ان السعادة لا لذة لها الا اذا اقترنت بالحكمة في كل شيء

فقولي لي انك تحبينني · قولي كلمة واحدة فقط فهي الذّ عندي من كل نعيم الدنيا

— يا ليونتيذس لا اتجاسر ان اسلم نفسي الى نعيم هواك ·

— ومما تخافين ·

— لان احسب امراة نظيري تلقب هيتيرة لا تكون من مقام قائد

جيوش امبراكية ·

بل اكون بذلك اسعد خلق الله

— أيليق بمقامك ان تتزوج هيتيرة ولا تندم فيما بعد وتحسب ان عملك هذا ضرب من الجنون ·

— بحياتك يا لايس دعي هذا الكلام فاني لست احسبك هيتيرة بل اراك امراة جمعت فيها الارباب كل المحاسن الكاملة فاذا كان اهل قرنثية يعبدون جمالك فان اهل امبراكية يعبدون كمالك ·

— قد شرد الغرام صوابك يا ليونتيذس

— اياكِ هذا الوم يا لايس ليست نار الشوق الحسي التي تحرقني بل نار حبٍّ طاهر يوافق صفات قلبك الثمينة والظاهر ان القضاء حكم بوصولي اليك لكي احميكِ من عشق رجل وحشيّ لا تجهلينهُ

— ما المراد اوضح كلامك

— ذاك الشقي كاهن الفسيس لا يزال ذكره يطرق فكري واني احسبهُ الدّ عدوٍّ لي لانهُ طامع اليك ولا يبعد ان يكون هو الذي نصب لك هذه المكيدة

— ايمكن هذا

= بل هو المرجح عندي آه يا لايس اذا خرجت من يدي فاني اموت لا محالة ولذلك الحّ عليك ان تخرجي وتصحبيني الى امبراكية وهناك يتم سعدي بالاقتران بك

— لا شك عندي في صفا قلبك وسمو مقاصدك وعسى ان اقدر على مكافاتك بما تشتهي في وقت قصير

— يا للنعيم اذن تحبينني · وفي تلك الدقيقة اتى غلام وقال احد رجال الحكومة يريد ان يكلم ليونتيذس في مسألة ضرورية جداً · فقال ليونتيذس قاتل الله الثقيل ما شأنه في هذا الوقت اللذيذ ماذا يريد مني قل لهُ يأتي اليَّ بعد اذن لايس · فقال الغلام لا يمكن ان يعرف احد ما يكون بين مولاي وبينهُ فاياك وحدك يطلب في خلوة تامة فقالت لايس · اذهب اذن يا ليونتيذس وانا ابقى هنا انتظر رجوعك فلما صارت لايس وحدها دنا منها رجل اسمهُ دولياس كان من جملة الموجودين في الوليمة وامره مجهول فقال لها وانا ايضاً ايتها الجميلة لي معك كلام في مسألة مهمة تتوقف عليها سعادتك وثروتك حتى حياتك · فاستغربت كلامه وقالت يلوح لي من كلامك ما يخيفني ·

— كوني مطمئنة فالذي ارسلني اليك لا يريد لك الا كل خير

— ومن يكون هذا

— هو ذلك المغرم بمحاسنك الذي ارسل رجاله فرصدوكِ وحاولوا ان يسبوك

— يا لهُ من خائن شقيٍ

— بل هو يذوب وجداً فيك ويقدر ان يبيد كل اهل اغريقيه لكي يفوز بقربك خذي واقرئي فتعلمين من هذه الرسالة مقدار قوته وشدة وجده

فتناولت الرسالة وقرأت ما يأتي

باتفاق لم اكن اتوقعه وقفتِ على مقاصدي وافلتِ من يدي مرتين لكن لا بد من وقوعك في يدي حية او ميتة فان سطوتي تفوق سطوة

الملوك وكل انسان يطيع اوامري فاذا عصيت ارادتي تهيجين غرامي وتوقعين على نفسك اشد العذاب · يالايس اعيدي اليّ الراحة التي سلبهامني جمالك الخمدي في فؤادي السعير الذي اضرمتهُ عيونك طاوعيني على هذا الحب تكوني اسعد البشر واغناهم وارفعهم مقاماً في اتينا وقرنثية وسائر البلاد امعني النظر في امرك واجيبي رسولي الجواب الشافي ففي اجابة طلبي حياتي وحياتك ونعيمي ونعيمك وفي الامتناع هلاكك لا محالة »

فلما اتت لايس على اخر الرسالة ثارت بها سورة الغضب وصاحت قائلة تباً له من خبيث شرير ابا لوعيد ينال محبتي ·

فقال دولياس · اني اريد مصلحة نفسك ولذلك اشير عليك بان تجيبين طلبه والا فموتك محتوم وانت تعرفين مقدرته

— ماذا تريد مني · ما هذا الطلب الفاحش ·

— حياتك متوقفة على ذلك فان مولاي اذا قال شيئاً فلا بدّ ان يكون ولا يخالف له امر

— اخرج من هنا ايها الشقي

— اتمتنعين

— قلت لك اخرج من هنا والاّ دعوت من يطردك جبراً ·

= اما وقد اصررت على العناد فسيكون لنا شأن = قال هذا وانصرف · وكانت لايس قد فقدت قوتها من شدة تأثرها ونادت باخيس قهرمانتها وصوتها لا يكاد يسمع وسقطت على الارض واهية · فبادر اليها ليونتيدس و باخيس فلما رآها ليونتيدس على تلك الحالة تعجب وارتاع وقال لها·

ماذا جرى في غيابي · فقالت له وهي ترتعد الايزالون يخوفوني

بالتهديدات

— اوضحي لي الامر بحياتك

— هذا الغريب الذي كنت قد انكرت امره كلمني كلاماً هائلا فانه مرسل من قبل ذلك العدوّ الخفي الذي يسعى الى هلاكي ٠

— خيبهُ الله ٠ نعم قد رابني امره حتى سولت لي نفسي ان اخنقهُ

— فماذا قال لكِ٠

— في نفس هذه الليلة تسلب اموالي مني واطرح في السجن

— قاتلهُ الله ولكن سكني روعك يا عزيزتي واعلمي اني انا هنا محافظ عليك فاما ان اقتلهُ او ان اهلك ٠ اتعرفين يا باخيس اين يكون دولياس هذا

— رأيتهُ خرج من الحديقة مسرعاً واتجه الى البحر

— فاسمعي الآن يا لايس واصغي الى كلامي ٠ لا بدّ ان الذي طلب مقابلتي يكون رسولاً آخر من عند ذلك الخبيث الغدار وقد اعطاني هذه الورقة وقال ان فيها ما سيحلّ بك ٠ فاذا اطعتِ الامر احرق هذه الورقة والاّ اطلعك على ما فيهافما الذي طلب منكِ ٠

— ان اسلم نفسي الى ذلك الفاجر

= ساءَ فالهُ ٠ الستِ لي بكليتك اليست حياتي في يديك يا لايس فقد صرتِ في اشدّ الاحتياج الى من يدفع عنك غوائل العدوّ واني اقسم باعظم الاقسام اني ابذل حياتي لديكِ قبل ان تؤخذ شعرة من راسك ٠

فضلك عظيم يا صديقي الامين

وكانت باخيس قد اشاعت بين المدعوين خبر تلك الحادثة فتسارعوا كلهم الى لايس واظهروا لها كل عواطف الوداد

فقالت لهم لايس اعلموا يا اصحابي ان الامور التى طرأت هائلة جداً فاصغوا الى كلامي لاني اطلب رايكم ومساعدتكم . هذه الليلة التي ابتدأت بالمسرات حسب العادة لكنها ستنتهي بالاكدار

فصاحوا كلهم بصوت واحد . عجباً ماذا جرى فقالت لهم لايس اسمعوا لاخبركم ماذا جرى وانت يا ليونتيذس اعطي الورقة لارستيبس لكي يقراها على مسمع من الجميع فاخذ ارستيبس الورقة وقرأ « ان المسمى ليونتيذس قائد جيوش امبراكية من اعمال قرنتية ونسيب الشريف ليونتيذس الشيخ الذي توفى في قرنتية في اول سنة من الاولمبياذة التاسعة والتسعين هو الوريث الشرعي لليونتيذس المتوفي المذكور الذي اتصلت املاكه الى امرأة غريبة ولذلك لا يعمل بالوصية التي كتبها المتوفي والحق في الميراث المذكور قد صار من الآن للقائد ليونتيذس

فتعجب الناس من ذلك غير ان لايس ابدت سرورها وقالت اذا كان هذا الامر صادراً من اعضاء المجلس فاني مطيعة له بكل قبول وعوض ان يشفي العدوّ الخفي غليلهُ بما يظنه تكديراً لي لا يزداد الا غيظاً لاني عظمت في العيون . فقال ارستيبس انا كنا على تثني سكونك وسمو مداركك وحسن ادابك

فقالت اعلموا يا اصحابي اني لا استطيع بعد الآن ان اعمل لكم دعوة في هذه الحديقة لانها خرجت من يدي لكن ليونتيذس ينوب عني في ذلك . فتحمس ليونتيذس وقال : اعلمي يا لايس ربة الجمال ان هذا العدو الذي يسعى في تكديرك ليس الا نذلاً نظير امثاله من الجبناء الاراذل ولو

علم اعضاء المجلس خيانتهُ التي اعلمها انا لما حكموا هذا الحكم الجائر ومع ذلك فاني لا اعتبر هذه الورقة أكثر من زبالة وها انا امزقها اماكم وادوسها برجلي وعسى ان استطيع ايضاً سحق ذلك الشقي الذي رسولهُ دولياس الماكر

فابتهجت لايس وقالت يا لشرف القلب وعزة النفس

فقال كريسيذس حقاً ايها القائد ان عملك هذا ما هو الا احتقار للغنى وازدراء بالمال وهذا الاسراف الخارق العادة والكرم الذي لا نظير له ليس الا ناتجاً عن جنون في العشق ·

ونقدم كل اصحاب لايس وصافحوا ليونتيذس وشكروا مروَّته · وقال ارستيبس · ايها القائد ان عملك هذا من اشرف الاعمال وهو أكثر اعتبارًا من الانتصار في ميدان الحرب وسيخلد لاسمك شرفاً لا يمحي اثره من ذريتك وغداً تضفر لك قرنتيــة أكليل الفخار · واتصل خبر تلك الحادثة بكل من وجد في تلك الناحية فلم يبقَ احد الا اتى يفتقـد حال لايس فازدحم الناس حولها ايّ ازدحام وفي تلك الساعة وصلت من بين الجموع فرقة الجنود يتقدمهم رئيسهم فقال رئيس الجند اني آتٍ من قبل المجلس للقبض على لايس فلما سمع الحاضرون هذا الكلام انزعجوا جميعهم ودنت لايس من ليونتيذس واتكأت على يده وقالت · اترى يا صاحبي ها قدتمّ ما توعدني به دولياس

فتقدم ليونتيذس الى رئيس الجند وقال انا ننكر على المجلس ان يأمر بالهجوم على هذا المنزل ولا نسلم اليكم لايس · فاجابه رئيس الجند : عليَّ ان اعمل بما امرت به · فقال له ليونتيذس وانت من ارسلك · اجابه ارسلني رئيس المجلس ·

فقال ليونتيذس ما معني هذا القبض على امرأة كريمة لم تجني اثماً

— ما ادرى شيئاً من ذلك والذي على عمله ان اطيع الامر ·

— انا امضي بنفسي امام اكابر قرنتية واكشف للمجلس شر الخيانة التي يقوم بها رجل خسيس ساقط النفس

= شانك وما تريد واما انا فيجب ان انفذ الامر · فقالت لايس · يااصحابي لا يجوز ان نخالف امر الحكومة فها انا امضي خاضعة

الفصل العاشر

(السجن والمحاكمة)

ولما وجدت لايس نفسها في السجن اخذت تفكر في احوالها قائلة يا للعجب من تقلب الايام · البارحة كنت في نعيم العيش متمتعة بكل الملذات واليوم وحدي مطروحة في هذا السجن لا يبالي بي احد حتى ان اصحابي نسوني وما اعلم لي عدواً في قرنثية فمن اين وصلت لي هذه المصيبة حقاً لقد اصاب ليونتيذس ما نكبتي الا من الكاهن الخبيث الذي لم يخجل ان يحل نقمته على امرأة وما التفت الى نصائح ليونتيذس وكان يجب ان اعتبر بنكبة دياغوراس وسقراط والكيبيادس فما حيلتي الآن هل اجد بين اولئك الاصحاب الذين كانوا ينجذبون الي جمالي و يطرحون اموالهم بين يديّ من ينقذني من هذا البلاء · آه يا ليونتيذس هل تقدر صداقتك وانا في هذا الضيق ·

وما فرغت من كلامها حتى انفتح باب السجن ودخل ليونتيذس وتقدم اليها بلهفة زائدة فصاح كلاهما بصوت واحد : لايس · ليونتيذس · والصق

شفتيه بشفتيها ولم يكن قبل ذلك نال هذه الحظوى . ثم قال لها هلي يا عزيزتي لئلا تفوتنا الفرصة يجب ان تبادري الى الخروج من هذه البلدة الناكرة الجميل .

فقالت له العفو يا عزيزي اني اقاوم برهان حبك هذه المرة ايضاً فان كلام سقراط لم يزل في اذني وهو ان الفرار دليل الجريمة فاريد ان تعلن براءتي على رؤوس الملا

— ويلك ايتها المرأة المحبوبة اتقتحمين الموت

— الموت احبُّ اليّ من وقوع الشكوك بفراري عند القرنثيين .

— اتعرفين من الذى يعتدي عليك

— من اين لي ان اعرفه

= فانا اقول لك انه كاهن القسيس العظيم

= كنت في ريب من ذلك

— لا يخفى عليك ان هذه الطغمة شديدة الحقد شديدة النقمة افتبقين على رأيك من البقاء هنا

— اقتدي بالحكيم سقراط

— اذا كنت تحبينني يا لايس استحلفك بهذه المحبة ان تطاوعيني . واذا بالسجان يقول يا سيدي ما بقي لك وقت هنا فقال لها هل قد سمعتِ قومي واخلصي من هذا العناء

= اني ممنونة لمحبتك الصادقة واودُّ لو كنت استحقها غيران في الفرار كل العار

— ما اعظم شهامتك عسى ان الالهة تأخذ بناصرك وتخرس اعداءك

– وتكون انت المدافع عني

– يطيب لي ذلك لكن على شرط ان اموت معك اذا لم انجح بخلاصك وحينئذٍ دخل الجنود وامامهم رئيسهم واعلموا لايس انه قد حان ساعة مثولها لدى القضاة فالتحفت برداء ابيض واتكأت على ذراع ليونتيذس وخرجت من السجن وكان اصدقاءها ارستيبس وسكوباس وميرون ونديمتها باخيس مع الجواري ينتظرونها فصحبوها الى الساحة التي فيها القضاة والشعب فلما وقفت امام القضاة اخرج رئيس الجند كل اجنبي ممن تبعوها وما بقي الاّ ليونتيذس لكي يدافع عنها فاوقفوها ضمن حلقة من الجنود مزدوجة و بازائهما المشتكي والشهود محاطين ايضاً بالجنود و بعد ان نادي المنادي بحفظ النظام والسكوت التام تكلم الرئيس قائلاً يا لايس قد اشتكى عليك بكونك كافرة بالمعبودات ومضرة للناس فعقاب هاتين الجريرتين الموت وليس لك للمدافعة عن نفسك الا ساعة واحدة بموجب الشريعة فمن تختارين للمدافعه فرفع ليونتيذس يده وقال انا المدافع واسمي ليونتيذس الامبراكي فاين المشتكي

فقال دولياس : انا هو دولياس بالنيابة عن كاهن الفسيس فقال له ليونتيذس : انت دولياس الخائن الجاحد فضل لايس = ايها القضاة ليست هذه الشكوى في محلها دولياس : بل هي في محلها بخلاف ما تتوهم فان الذي قدمها هو الكاهن العظيم كاهن الفسيس الذي بيده اسرار العبادة وانا نائب عنه والشهود يؤيدون شهادتهم باليمين

ليونتيدس : انت خائن يا دولياس وكاهنك منافق وانا اكشف سر مكره والذين اتوا لكي يشهدوا ما هم الا اوغاد اخذوا المال رشوة لكي ينفذوا

امرهُ وسيتضتج امرهم

دولياس : اما تعلم ياليونتيذس اي رجل تهين

ليونتيذس : اخرس يا رسول الخداع والكذب لا يضر الحق الا المجرمين . وانتم يا خير الشعب والقضاة المحترمين كلكم تعرفون لايس ذات الجمال الباهر التي تحسب من عجائب قرنتية ولكنكم تجهلون ان محاسن اخلاقها ومعروفها تفوق بهاء جمالها وكل يوم من حياتها يذكر بطرفة من احسانها . اسألوا الشعب كلهم فليس منهم الا من يعترف بفضلها فانها تنفع الناس بوجه الاجمال وكل الناس يحبونها اتعلمون لماذا وقفت لايس في هذا الموقف . اتعرفون ذنبها . يصعب عليكم ان تصدقوا ذلك انها على غير قصدٍ منها اضرمت في فؤاد كاهن الفسيس نار العشق الفاسد وامتنعت عن إجابة طلبه رافضة تقدماته السنية وموثرة سلوك سبيل الفضيلة على رجسات ذلك الكاهن الفاسق .

دولياس : نسي هذا الانسان حرمة مقام الذي يشتمه فانا اطلب من القضاة ان ينضم في المحاكمة الى لايس الكافرة

وعند ذلك حصل هياج في الشعب وذلك ان رجلاً بيده عصا اقبل وجعل يزاحم القوم لكي يصل الى مركز المحاكمة والحراس يصدونه وهو يزداد هياجاً واقتحاماً و يقول .

وعوني ادخل لكي اوضح الحقيقة . اما تعرفوني من هيئة ملابسي عميتم كلكم حتى ليس فيكم شيء من سليقة كلاب اثينا واسبرطه لمعرفة ديوجانس دعوني ادخل فاني قادم راساً من اثينا لكي اوقف حكومة قرنتية على الحقيقة .

القاضي : من هو هذا الرجل

ديوجانس : رجل حرٌّ من ابناء البلد عليه فضل لايس قد اتى ليدافع عنها ضد شخص دنيء ويخفف الثقلة عن القضاة في حكم ظالم ·

القاضي : من تكون انت حتى تتفوه بهذا الكلام

ديوجانس : انا رجل خامل الذكر ولكن يصعب ان يقوم له بديل

القاضي : وما اسمك

ديوجانس : اسمي ديوجانس الذي يسعى في وجود رجل وما لقي الا امرأة وهي لايس التي لاجلها اتيت لاظهر حقها بصفه واحدة من اهل قرنثية ·

دولياس : اعلموا ان هذا الرجل شحاذ مجنون

ديوجانس : بل انا رجل حر وانت خادم عبدٌ مستاجر

دولياس : ما هذه الوقاحة يا ناس

ديوجانس : لكوني من ابناء قرنتية اطلب حقوقي

دولياس : ليس لك شيءٌ من الحقوق اذ ليس لك بيت

ديوجانس : كيف ليس لي بيت اعلموا ايها القضاة اني لم اكذب قطفانا صاحب بيتين الواحد اعطاني الاريوباغوس في اتينا والآخر في قرنتية بنته لي لايس انا صديقها ديوجانس

دولياس : ما بيتك الآن البرميل

ديوجانس : وما وجه الضرر اذا كنت اكتفي به ياقضاة قرنتية ان مقتل سقراط الذي كان احكم الناس هو قريب العهد والاسف في القلوب شديد جداً حتى انه يصعب على الناس تجديد مثل هذا الاضطهاد في

ايامنا هذه . وما اكتفى الشرير انيتوس من انه يحرم اغريقية فيلسوفها الاعظم حتى اتهم بالكفر دوكون وانكساغوراس واسباسية زوجة بركليس غير ان المعبودات اوقعت نقمتها على الفاجر انيتوس فطرد ورجم واليوم يريد كاهن الفسيس ان يجدد الفظائع هذا مما لا نطيقه ولا نقبله القضاة المنصفون

دولياس : حذار ديوجانس

ديوجانس : ليس تكريم الآلهة بسفك دم العباد وقد قال افلاطون ان ميتة سقراط تكون آخر ميتة من هذا النوع

دولياس : ديوجانس قلت لك احذر

ديوجانس . اقرأوا سيرة لايس وسيرة المشتكي عليها فلا تجدون في سيرتها الا كل ما يدل على الحب والمروءة ولا تجد في سيرة المشتكي الا كل ما يدل على الكبرياء والبغض والكذب

دولياس . ديوجانس اني اقيم عليك دعوى الكفر

ديوجانس . اترك المزاح . لا يجوز اسراركم الا على الجهلاء والآن يضحك منها الكل انما نؤمن بالمعبودات التي تفعل الخير لا بسافكي الدماء واذا سمح لي القضاة ان اقاص المتهم زوراً بعصاي يكون لهم برهان قاطع على ان المعبودات لا يحامون عن الاردياء

القاضي . كفى ياديوجانس قد سمعنا كلامك (هنا يتقدم رجل و يقول للقضاة ان جماعة من رجال ونساء يريدون الدخول لكي يبدوا رأيهم في المدافعة عن لايس فيأذن رئيس القضاة فتدخل اولاً امرأة وابنتان لها فتقول المرأة)

ايها القضاة انا زوجة الشاعر اوريبيذس كنت انا وابنتاي هاتان نئن من ثقل الفاقــة واذا بمعونة لم تعرف مصدرها وصلت الينا وانتشلتنا من الضيق و بعد حين علمنا ان ذلك من فضل لايس · فقال ديوجانس سلوا دولياس هل يمكنه ان يقول عن مولاه مثل هذا القول

يدخل عسكري بسلاحه هو وعياله

ايها السادة اني آتٍ لكي اوفي عني ديناً مقدساً وهو تقديم الشكر للايس فاني كنت مسجوناً وعيالي يطلبون الصدقة فتكرمت لايس بفدائي وانعمت على عيالي نعمة طائلة وها قد ربحتم بي جندياً جديداً يخدم وطنه فيا سادتي قد اتيت لادافع عن المحسنة اليّ او اموت فداءً عنها : فتقول امرأة الجندي : ياسادتي خذوا حياتي وحياة اولادي واعفوا عن لايس لانها عون البائسين

ديوجانس : ايها القضاة قد رق فؤاد ديوجانس جداً وكلكم تشاركونهُ في هذه الرقة

احد الفتيان : ايها القضاة اني اعترف بخطاي ولو لبست العار · كنت انا واصحابي من اشرف بيوت قرنتيه غارقين في لذات الجهالة فمشورات لايس هي التي انقذتنا من العار فلها الشرف · (تتقدم ثلاث من كاهنات و ينوس مكللات بالآس وتقول واحدة منهن)

ياقضاة قرنتيه العظام اسمعوا كلامي · ان لايس قــد اظهرت تقواها وشكرها للآلهة بكونها بنت هيكلاً للمعبودة و ينوس الميلانية وجعلتنا كاهنات لهُ فتهمتها بالكفر محض كذب وافتراء (اصوات مختلفة من الشعب)

ان اسم لايس مكرم عندنا كاسم معبودة محسنة فلها الشرف والعار على المشتكي عليها

ليونتيذس : يا مختاري الامة القضاة الاشراف هل يمكن لاحد ان يضاد الآن بعد ما سمعتم ورأيتم واذا كان قد بقي شيء من الريب عند احدكم فانهُ يزول باطلاعه على الرسالة التي كتبها المشتكي الى لايس بعد ان خاب مسعاهُ في المكيدة التي نصبها لها . (يقدم الرسالة فيتداولون قراءتها)

دولياس : ان هذه الرسالة مزورة وانا اطلب الحق ممن اهان شرف كاهن الالهة العظيم

ليونتيذس : عليك يقع القصاص وعلى اصحابك واذا كان عدل الناس لا يوقع النقمة في الحال فان الالهة الذين تدنس اسمهم ينتقمون منك

ديوجانس : آه لو كنت انا جوبيتر وكانت بيدي الصاعقة عوض هذه العصا لكنت اسحقك بها سحقًا انت ومولاك وامثالكما

رئيس القضاه هل بقي شيء للمحامي يقوله

ليونتيذس : بقي ان اقول هذا : ان الشعب يثق بعدل قضاته وهو ينتظر فوز لايس بفروغ صبر وانتم انفسكم ايها القضاة لكم من الحكمة والنيرة كفاية لا توقفون الحكم على فريدة قرنتيه وسائر العالم فانظروا اليها واصدروا حكمكم . وحينئذ ازاح ليونتيذس الحجاب عن وجه لايس فصاح الشعب صيحة الاندهاش من فرط جمالها . فنادى احد المقدمين قائلاً : اسمعوا اسمعوا الحكم الذي يصدره القضاة للايس فكلكم باتفاق الاراء يبرء ساحتها فضج الشعب استحسانًا وصفقوا تصفيقًا شديدًا حتى اذا عاد السكون واصغت الناس لصدور الحكم

قال رئيس القضاة

أيها القرنتيون بموجب الانصاف في هذا الحكم يرى القضاة من الواجب

ان يكرموا الالهة باحترام اجمل صنائعهم فيستحقوا محبة ابناء وطنهم لكونهم اخذوا للضعيف البري من القوي المعتدي · ايها الحرس اقبضوا على المشتكي فارتفعت من الشعب ضجة استحسان عظيمة جداً ثم ان ديوجانس هزَّ عصاه وقال للحراس · ايها الحراس هل تريدون عصا تؤدبون بها هذا الشقي فضحك الناس لكلامه ضحكاً متواتراً ثم استرعى رئيس القضاة السمع وقال

وانت يا لايس اصعدي الى هيكل وينوس وقدمي لها الشكر على ما المتنا من الحكم العادل · فصاح الناس من كل جهة قائلين · الكرامة للقضاة وتعالى ضجيج الفرح وساق الحرس دوليـاس وهو يستغيث باسم كاهن الفسيس ولا يسمع له احد واخذ ليونتيدس بيـد لايس الى امام رئيس القضاة لكي تشكره وتقدمت معها جواريها وسائر الذين اتوا للمدافعة عنها والقيت الاكاليل لدى القضاة وكان كل الجمع يصفقون طرباً ثم قال رئيس القضاة خذ ياليونتيذس هذا الاكليل وكلل به لايس شهادة على احسانها النادر وجود نظيره في ايامنا هذه · فاخذ ليونتيذس الاكليل ووضعهُ على رأسها قائلاً باسم شعب قرنتية وباسم الانسانية على وجه الاجمال اقدم الشكر للقضاة لانهم اصدروا حكماً يؤرخ في بطون الاسفار الى الابد واعطوا البريّ حقهُ واوقعوا الحكم على المجرم الذي هو شخص كاهن الفسيس الممقوت ·

واحدق بلايس اصحابها وتبعها الجمهور يصحبونها الى هيكل وينوس ولشدة ما نال القرنتيين من الحماسة والسرور ابوا ان يتركوها تمشي فحملوها على الايدي الى ان وصلوها الى د ج الهيكل وهم يصيحون صيـاح النصر والافراح فكانت تلك الحفلة من اعظم ما رأت لايس في زمانها

وضرب اهل قرنتية نقوداً مخصوصة يخلد بها ذكر ذلك الحكم العادل الذي حكمهُ القضاة وكان عليها صورة لايس واقفة على قاعدة عمود والشعب يقدمون لها الاكاليل ·

الفصل الحادي عشر

عزم لايس على مبارحة قرنتية · شجاعة ديوجانس

(مأثرة قام بها اور بيذس)

بعد تلك الحادثة التي كادت تذهب بحياة لايس صار من اللزوم ان تخرج من مدينة قرنتية وقد اشار عليها بذلك ليونتيذس وميرون وارستيبس وسكوباس وديوجانس وغيرهم · وقال لها الحكيم زبوفونس لو كان اهل قرنتية يعتقدون بالخرافات مثل اهل اثينا لكنت هلكت اليوم يا مسكينة ولكن لحسن طالعك لا يبالي القرنتيون كثيراً بالخرافات الدينية وعلى كل حال يجب ان تعتمدي على خبرة اصحابك وتسمعي نصيحتهم لان كاهن الفسيس لا ينفك عن ملاحقتك ولا يزال يسعى بالمكائد لاجل هلاكك · وقال ليونتيذس : اذكري يا لايس دياغوراس الميلوسي الذي اطلعتك على قصته · فقالت كيف اخرج من قرنتية وافارق الذين يحبونني الموت اهون من ذلك ولكن يجب ان امتثل لنصائح اصحابي و يكون رحيلي بعد ثلاثة ايام يلزم فيها ان اكتب وصيتي وادبر اموري فقال ليونتيذس ثلاثة ايام يا لايس مدة طويلة فكم يجري فيها من الاهوال وانت تعلمين معزتك عندنا وشدة خوفنا عليك · فقالت لا يكفيني اقل من ثلثة ايام فتكون انت مقيماً معي ملازماً لي نظير ظلي فلا اخشى باساً وانا في حماية

لبونتيذس · فصاح الجميع كلنا نحميك لان كل واحد منا يبذل نفسه فداءً عنك يا لايس يا ام الاحسان والفضل · فقالت ما اعزكم عندي يا اصحابي واعلموا ان مفارقتي اياكم وحرماني سمع كلامكم البديع اصعب عليَّ من الموت ثم جعلت تصافحهم الواحد بعد الاخر والدمع يترقرق في عينيها حتى رقت عواطفهم واكثروا من لوم الكهنة لشدة الضلال الذي يلقون فيه الشعب من جهة الاعتقادات الدينية ·

و بعد ذلك اخذت لايس تهتم بتدبير مصالحها ودعت اليها باخيس قهرمانتها وقالت لها · يا عزيزتي كنت دائمًا صادقة في محبتي امينةً في خدمتي فانا احبك نظير اخت فاحلفي لي بمعبودتنا وملكتنا ونيوس انك لا تهملين حرفًا مما اوصيك به فاندهشت باخيس من كلامها وضاق صدرها من فراقها ثم مدت يدها امام التمثال ونيوس وتلت اليمين التى لقنوها اياها · ثم قالت لايس اني راحلة من هذه المدينة وربما قضي عليَّ ان اموت في الغربة ففي مدة غيابي اوصي لك ببيتي وحديقتي وكل ما فيها فقالت باخيس وقد وقد اخذها الذهول آه يا مولاتي · اسمحي لي ان ارفض كل ما تقدمين لي واسألك نعمة واحدة وهي ان اصحبك الى حيث تذهبين ولا افارقك ساعة حتى اموت

· فقالت هذا غير مستطاع يا باخيس فاني محتاجة الى خدمتك وليس عندي احد سواك اركن الى امانتهِ فمتى رحلت من هنا تعتقين كل عبيدي رجالاً ونساء ولا تبقين الاَّ الذين يحبون ان يبقوا معك برضاهم التام فعندي من المال خمسمئة وزنة هي وديعة عند كريسيذس يعطيني دخلها كل سنة خمسين وزنة فاجعلي ثلثي هذا المال لنفقات البيت واعانة الميتيرات

اللواتي تدركهن الفاقة والثلث الاخر توزعينه في يوم مولدي كل سنة على فقراء قرنتية • واذا اقتصدت في نفقة البيت فالذي يبقى معك تقدمينه لهيكل ونيوس الميلانية هذه وصيتي اليك احب ان تحفظيها وتعملي بها • ولكنني نسيت امراً ضروريًا فاعلمي ان الاولاد عطلوا برميل صاحبنا ديوجانس فيجب بكل سرعة ان تبني له كوخًا من خشب الارز مسقوفًا بقرميد مطلي

وما فرغت من كلامها حتى دخل ديوجانس والدم يجري من يده فصاحت لايس مرتاعة فقال لها العفو ياعزيزتي ما كان بودي ان اقطع حديثك ولكن وجب ان آتي واعلمك ان حياتك صارت تحت الخطر في هذه المدينة الناكرة الجميل التي افضت بها خيراتك وقد خطر لي ان كاهن الفسيس يرسل جواسيسه اليك فاقمت رقيبًا كل الليل على الباب الخارجي من الحديقة فوقع ان ثلاثة اشقياء اتوا وحاولوا تسلق السور فنزلت عليهم بالعصا حتى ارتدوا خائبين وسقطوا تحت السور واظن ان واحدًا منهم انكسرت رجله وتحمّل عليّ الآخران بالخناجر غيران عصا ديوجانس الزمتهما ان ينهزما بعد ما جرحا يدي • فدهشت لايس من شجاعته ونخوته واخذت تمسح دمهُ بمنديلها وفي تلك الدقيقة دخل ليونتيذس وارستيبس فقال لها ليونتيذس اراًيت يا لايس ان ظنوني في محلها•

واقبل الخادم فقال ان بالباب رجلاً طويل اللحية عبوس الخلقة يريد ان يقابل لايس فاذنت بدخوله واذا هو الشاعر اوريبيذس فقال لها ان فؤادي يترنم بمديحك ولساني يترجم فقد بلغني ما صنعت من الجميل لعيالي ولست انساهُ ابدًا ولذلك اتيت من اثينا لكي انذرك بالخطر المحدق

بك فان كاهن الفسيس طلب من الاريوباغوس ان يرسل رسولان
الى قضاة قرنتية لكي يجددوا الحكم عليك فلا شك انك تقعين هذه المرة
في الفخ فرايت من الواجب عليّ ان آتي واحضرك لكي تنجي بنفسك
فشكرت لايس واصحابها همة اوربيذس وقعدوا للمخابره · فقال ليونتيذس
ان ارستيبس يشيع في البلد ان لايس لجأت موقتا الى هيكل و ينوس وان
ديوجانس يكمن مع جماعة من الاشداء ليحافظوا على الحديقة وانه هو
ولايس يركبان البحر في اول الليل · والذي حسبهُ ليونتيذس وقع فان
رجالاً من قبل الكاهن في مقدمتهم دولياس اتوا ليلاً وهجموا على بيت
لايس وكانت بينهم و بين ديوجانس ورفاقه وقعة شديدة قتل فيها دولياس
وثلاثة من اصحابه وفرّ الباقون منهزمين الى شاطئ البحر وقاتل ديوجانس
قتال الابطال ولم يمنعهُ جرحه ولما رجع من خلف المنهزمين ما وجد من
رجاله غير اثنين · واذ عرف ان التهمة ستقع عليه خاف و بادر الى البحر
وركب سفينة قاصدة جزيرة ايجينة فلما ابعدت عن الشاطئ باغتها القرصان
وتوجهوا بها الى كريت وهناك باعوا ديوجانس عبداً لرجل يقال له
زينياذس ·

وسنأتي على تفصيل اخباره في القسم الثاني انشاء الله ·

الفصل الثاني عشر

وصول لايس الى اميراكية · لحاق ارستيبس وكليون بها
« حديث بين الاصحاب الثلثه »

وسارت السفينة بلايس وليونتيذس بريح طيبة ثلاثة ايام والقت

المراسي في مينا امبراكيه فبادر اليها اصحابها وسائر من عرفوها وهم فرحون برجوعها اليهم وهنأوها بالسلامة وثاني يوم عملوا لها وليمة فاخرة · وكانت تجذب الانظار اليها وتستأسر القلوب برشق الحاظها ولطف ابتسامها ورقة احاديثها ورخامة صوتها وزادت الفرح بهجة لما اخذت عوداً وضربت عليه لحناً غرامياً · حتى ارقصت المجلس فوضعوا على رأسها اكليلاً من ذهب وقرروا انها صارت من اهل امبراكية وعزموا ان يقيموا لها تمثالاً من الرخام لكي يخلدوا ذكر قدومها الى تلك المدينة

وثاني يوم كانت حفلة زفافها على القائد ليونتيذس فكان الفرح شاملاً واقامت معه سنة بكل راحة وهي تبذل الاحسان على عادتها حتى صار اسمها جليلاً جداً وولدت لليونتيذس بنتاً تمكنت بهـا العلاقة الودادية بينهما وقررت مجلساً خاصاً ليلياً · للفلاسفة واصحاب الفنون كما كانت تعمل في قرنتية وشاع خبر تلك الليالي العلمية التي بواسطتها نشر ارستيبس واصحابه راية التمدن هناك · ففي ذات يوم قيل لها ان رجلين يطلبان مقابلتها فقالت لابد ان يكونا من الاصحاب وقامت للقائهما فاذا هما ارستيبس وكليون فسلمت على ارستيبس سلام الاحبـة وقالت ما خدعني قلبي كنت الآن افتكر بك وافتكرت ايضاً بديوجانس فلماذا ليس هو بصحبتك · فقال رفيقي هذه المرة كليون فانه ما قرّ له قرار من حين مفارقتك قرنتية فهو مشتاق اليك جداً · قالت : اني اعلم انه من جملة عشاقي الصادقين ولكن الآن ان يجب ينقلب عشقه الى مودة سليمة لاني صرت زوجة ليونتيذس · فخفض كليون رأسه وقد اسودت الدنيا في وجهه لهذا الخبر وايقن انهُ لم يبقَ له امل بلا يأس فجعلت هي تخفف آلامه ولوعته وتطيب قلبهُ بلطف عباراتها

ثم التفتت الى ارستيبس وقالت له ومالي لا ارى ديوجانس معكم واين هو اليوم ياترى ؟

آه ياعزيزتي لو تعلمين ما طرأ من الاهوال بعد رحيلك فان رسل الاعداء هاجموا بيتك ليلاً ودافع ديوجانس دفاع الابطال فقتل من الاعداء اربعة من جملتهم دولياس فخاف ديوجانس سوء العاقبة ونزل في سفينة مسافرة الى ايجينية لكن اخذها القرصان و باعوا ديوجانس عبداً في كريت

— ياللداهيه ما هذا الخبر الشديد . راجع فكرك يا ارستيبس لعلك لم نقف على الحقيقة

— هذا الذي علمتهُ بكل تأكيد

فيجب اذن ان يذهب احد الى كريت و يعطى الفداء عنه مهما كان مقداره فقال كليون سيكون ما تحبين يا لايس لان امرك عندي مطاع ولو بذلت مالي وحياتي

لا تخفى عليَّ مروءتك يا كليون فشكري لك جزيل وليس بكثير على من كان مثلك شهم ان يسعى مثل هذا المسعى المبرور

فاخذ يدها و باسها وعقد النية على الرحيل بعد ثلاثة ايام . فقالت لايس ان زوجي غائب اليوم في خدمته ولكن غيابه لم يمنع عن قيامي بما يليق بكما من الاكرام فغداً اعقد لكما مجلساً عظيما فترى يا ارستيبس ان سنة واحدة كفت للايس لان تبث العلوم والاداب بين الامبراكيين وسيطير شهرة حكمتها اللطيفة بين القوم وارجو ان لا اخرج من هذه المدينة الا ولي عدة تلامذة

— لم اشك قط في مقدرتك على صنع العجائب

فقال كليون اي انسان يمكنه ان يقاوم هذه المحاسن الفتانة ولكن سوء حظي انا انقطع حبل الامال التي كنت اتعلل بها · فقال ارستيبس مسكين كليون · على ان القدر سائد في هذا الكون والحكمة تعلمنا الاذعان لاوامره ثم قال للايس · وهل انت مسرورة يا عزيزتي بهذا القران وهل اطاع قلبك العاصي داعي الهوى فقالت · ان حب ليونتيذس لي لا مزيد عليه واهتمامه براحتي ليس فوقه اهتمام فاني اجد نفسي في نعيم بوجوده غير ان العلاقات التي بيني و بينه ليست مبنية على الغرام فقال كليون وقد استغرب قولها · افلا تحبينه اذن

— ليس ميلي اليه ميلاً عشقياً غير ان ميله الشديد الي لا يكافأ الا بان ابذل حياتي في سبيل رضاه ولا سيما لانه جليل القدر مكرم الاسم سامي المزايا فقد وقفت عليه حياتي وشرب السم افضل عندي من ان احنث بيميني

فقال ارستيبس حقاً يا لايس انك فخر لبنات جنسك والعواطف التي عندك لا توجد في امرأة سواك فتستحقين كل اكرام وتبجيل · ثم مضت بهما الى حديقة فاخرة ومدت مائدة الطعام والشراب وجعل ارستيبس يقص عليها ما جرى في قرنتية بعد رحيلها · فقال ان قضاة قرنتيه شعروا بمكائد كاهن الفسبس فطلبوا من الاريوباغوس محاكمته فتمنعوا فاستاء القرنتيون ولا سيما لاجل فراق عزيزتهم لايس وانفصلوا عن الاتحاد الاثيني وصدر الامر الى قائد الاسطول ان يدخل مواني قرنتية وكادت الحرب تقع بين الفريقين واذا بالكاهن مات فجأة فقيل بالسم وقيل بداء السكتة وان الظفر الذي ناله اهل طيوة تحت قيادة ابا ميننداس استلفت انظار كل اهل اغريقية

والفوز الذي فازه ذلك القائد في معركة لوكترة وما اوقع من الضرر على اسبرطه مما القى المخاوف في قلوب الاتينيين والقرنتيين وزاد القلق باخذ استروس وسيليونة ووصول عسكرطيوة الى اسوار قرنتية فعوض ان يتحد الاتينيون مع ابا ميننداس وكانت غايتــه الوحيدة ابادة قوة اسبرطة فارسلوا عليه جيشاً تحت قيادة ضبرياس فرفع الطيوبون الحصار عن قرنتية ومضوا الى بيوتية ولولا هذه الامور لم يكن بعيداً ان تنتشب الحرب بين الاتينيين والقرنتيين بسبب لايس · فتعجبت لايس من هذه الاخبار وقالت اولم يتضايق اهل قرنتية وطني المحبوب من ذلك الحصار · قال كلاً لم تزل قرنتية المدينة الغنية التجارية ذات الهيتيرات المشهورات والليالي الشهية لا ينقصها الا عزيزتها لايس قالت وهل تقوى على مقدرة ابا ميننداس وحيلهِ الحربية وحسن توفيقه · فقال كليون نسي ارستيبس خبراً وهو ان ابا ميننداس طلب نجدة الاتينيين لكسر شوكة اسبرطه فما اجابوه وعبثاً ذكرناهم انا والفتى فوتيون بما فعلت بهم اسبرطه في يوم ايغوس بوتاموس وهدمهم اسوار بيريوس واقامتهم حكومة الثلاثين طاغية فلم يبالوا وادى بهم الطيش الى الاتحاد مع عدوتهم · فقال ارستيبس صدق كليون فان اتينا ترى كل يوم نقصاً من مجدها ولا يقوى صوت الاريوباغوس على صوت عامة الشعب الجاهل الكثير الخرافات الذي دأبه التمرغ في الذنوب فانهم باصدارهم الحكم على القواد العشرة الذين نالوا الظفر في ارجينوسه وعلى سقراط وتراسيبس و بنفي انكساغوراس والكيباذس وغيرهم ممن تعرفين حرموا الجمهورية من رجالها الكبار وكانت تلك الاعمال واسطة سقوطها الرفيع ولذلك عزمت انا ان اعود الى وطني مدينة كيرينة وهناك في خلواتي اللذيذة اشتغل بفنون الحكمة فقال كليون وانا الآخر

قد ضجرت من عدم ثبات الاتينيين فعزمت ان اعود الى قرنتية واجعل نفسي من ابنائها اذا ارادت لايس ان تعود اليها

فتنهدت لايس وقالت لا تزال انظاري موجهة الى قرنثية المحبوبة ولكوننا دخلنا في حديث الاثينيين اخبركما بما فعلوا برفات اسباسية حتى تلطخوا بعارٍ لا يمحى

منذ عشر سنين دخلت اتينا لكي اودع اسباسية الوداع الاخير وكانت قد بلغت اواخر الايام و بقيت اعجوبة بين الاصحاب القليلين الذين بقوا لها وبقي عقلها صحيحاً الى آخر ساعة من حياتها فامسكت يدي وقالت اشكر معروفك لكونك تذكرت صداقتي بعد عهد طويل فاسمعي يا لايس ما اقول لك انا كنت في زماني محبوبة جداً وانت فوق مالك من الجمال الباهر واللطف المشهور عندك موهبة الاحسان الثمينة التي تجعل كل انسان يحبك ويكرمك كنت سابقاً تليذتي فاسمعي مني الآن لكي تكوني دائماً سعيدة في حياتك لا تدعي قلبك وعقلك يتغلبان عليك

قالت هذا واسلمت الروح وعندها بعض اصحابها وقد ذهب جمالها وسمو مداركها تحت الثرى وهي التي علمت بيركليس السياسة والفصاحة وكان سقراط وانكساغوراس والكيبياذس يقتبسون من ادابها ومعارفها وحكمتها الباهرة ومع هذا ابى الاتينيون ان تدفن في قبر زوجها بيركليس مدعين انها تزوجت بعده بتاجر غنم فلم تعد تحسب زوجة بركليس رئيس الجمهورية. وقد نسي اولئك الجاحدون ان اسباسية كانت زهرة اتينا ونخرها وبدونها لم يشتهر عصر بيركليس فاخذت انا و باخيس رمادها ووضعناه في لحف جبل ايمتوس في حديقة احد اصحابي وثاني يوم ودعت اتينا الجاحدة

وداعاً لا رجوع بعده ودخلت قرنتية ثم حدثت حوادث اقلقت قرنتية فاضطررت ان اذهب الى جزيرة ايجينة وكان الاسبرطيون قد انشأوا حكومة الظلم في طيوة فطردهم منها البطل بيلوبيذاس كما طردهم سابقاً تراسيبولس من اثينا وانا ما مال قلبي قط الى هذا الشعب الفظ الغليظ الطباع الوحشي العوائد وانت ما رأيك فيهم يا ارستيبس

— رايي من رايك يا لايس فطالما سمعت انهم متكبرون بخلاء اعمالهم وحشية وما سمعت قط ان فيهم شيئاً من الانسانية فانهم يؤثرون الاطعمة الخبيثة على الالوان النفيسة التي يفتخر بها الاثينيون ويلبسون جلود الحيوانات بصوفها وشعرها وانا مذهبي ان احسب نجاح الامم وتمدنها باتقان ونظافة لوازم المعيشة واما هؤلاء فكالوحوش ٠

— كنت دائماً احب ان اقف على كل عادات هؤلاء الفخورين الادنياء وما وجدت احداً يعرف تفصيل اخبارهم وكانت اسباسية مرة قد حكت لي حكايات تتعلق باقامة الكيبياذس في بلادهم لكن خلاصة تلك الحكايات ان نساء اسبرطه لا يمتنعن عن الرجال

— هذا امر مقرر ولكن لكي تقفي على حقيقة احوالهم يجب ان تسمعيها من رجل اسبرطي وهذا امر صعب جداً ٠

وعند ذلك دخل الخادم وقال ان رجلاً مدججاً بالسلاح وصل من قرنتية ومراده ان يواجه لايس فنهض كايون لكي يراه لعله من جواسيس الاعداء فامسكته لايس وقالت ٠ ليس لي في قرنتية الا الاصحاب فليدخل هذا الرجل فانا اريد ان اكلمه بنفسي وبعد هنيهة دخل الجندي وسجد امام لايس وقال ٠ قبل ان اعلمك بسبب قدومي عليّ ان اكرر

شكري لك يا لايس المحسنة عليَّ انا اوذاماس المسيني ما رأيتني الا مرة واحدة
في ساحة البلد امام القضاة كنت منذ خمس سنين اقاسي عذاب الاسر في
اسبرطه فنجوت بواسطة احسانك لانك اطلقتني من الاسر وانعمت بسعة
العيش على اولادي فلتكافئك الالهة وقد صار لك حق بحياتي ودمي
واعدُّ نفسي سعيداً اذا بذلت حياتي على اقدامك . فقالت لايس . ان
المعروف عند من يستطيعه فرض على كل انسان واما انا فاحسب سعادتي
بعمل الخير ولا سيما اذا حصلت على شكر من احسن اليهم فانهض يا
اوذاماس واقعد بيننا واعلمني بسبب قدومك فقال لها يا لايس انك
المرأة التي تستوجب اكثر من الكرامة التي اجمع عليها القرنتيون واعلمي ان
الشعب قد فرغ صبره لاجل غيابك ولما شاع الخبر انك قدمت امبراكيه
تسارع الناس الى الساحة العامة وكانوا يصيحون بصوت واحد و يطلبون
رجوعك اليهم وجددوا اجتماعهم هذا اياماً متوالية حتى خشي ان تحدث
فتنة في المدينة وتقدموا الى هيكل و ينوس واخذوا تمثالك ونصبوه في
الساحة وازدحمت الاقدام حوله ووضعوا عليه من الاكاليل مالا يحصى
وتحركت عواطف القضاة واجتمعوا مع الناس وخطب في الشعب قائلاً
ان الشعب متكدراً جداً من غياب عزيزته المحسنة اليه لانه لم تنفتح
بينهم يد بالمعروف كيد لايس معينة البائسين فنحن نريد رجوعها وتعالت
اصوات الجمهور جداً وهم ينطقون باسم لايس حتى ان رئيس القضاة ما قدر
على اسكاتهم وتجمع الحراس لهذه الغاية فارتفعت انا على ظهر عسكري وصحت
بملء صوتي : يا اخوان انا واحد منكم قد وصل اليَّ فضل لايس عزيراً
فلا يحق لاحد نظيري ان يخلص النية في خدمتها ولكن اقسم عليكم بالالهة

ان لا تجعلوا غيابها من بينكم سبب فتنه فانا اذهب بنفسي وآتيكم بها

فسكنت حينئذٍ اصوات الشعب وعلا ضجيج الاستحسان فرفع رئيس القضاة غصن زيتون وطلب ان يتكلم ثم قال لي ·

اننا نشكر همتك يا اوذاماس ونثني على مروءتك فقد اقمتك رئيساً على مئة جندي واستصوب القضاة ما ذكرت وهم يكلفونك ان تذهب وتأتينا بلايس فضج القوم ايضاً بالفرح ثم هدأت الجلبة شيئاً فشيئاً وتفرق الجمع في شوارع المدينة · فهذا هو يا لايس الشريفة النفس والاخلاق سبب قدومي الى هنا · فقالت لايس ما اطيب قلوب هذا الشعب فان ما اظهروا من دلائل حبهم لي يجعاني في اوج السعادة واشكر همتك يا اوذاماس وما بذلت من الغيرة يلذ للانسان ان يكون محبوباً ومكرماً في قومهِ

— افتقبلين ان تذهبي معي

— ياحبذا فان زمامي ليس بيدي يا اوذاماس فقد تزوجت القائد ليونتيذس فالامر له في هذه المسألة

— فما عاد لقرنتية الحظ السعيد برجوعك اليها يا نادرة الزمان ولكن ما احسب ان ليونتيذس يكون قاسي الفؤاد فلا يطاوعه قلبه ان يبقيك اسيرة عنده وهو يحبك الحب الشديد ولا يحرم القرنتيين من طرفتهم البديعة وصاحبة الفضل المشهور بينهم

— متى عاد ليونتيذس من غزوتهِ تطلعه انت على هذا الامر فنعلم ما يكون من ارادته فاخبرني الآن عن حال زوجتك واولادك

— اقسمت ان لا اتخذ وطناً الا البلد الذي تكونين فيه فاذا امتنع ليونتيذس عن اجابة القرنتيين آتي واستوطن امبراكية · فقال ارستيبس

شكر الجميل من الفضائل النادرة الوجود في ايامنا وانت ممن اتصفوا بهذه الفضيلة يا اوذا ماس ولا تتأخر عن القيام بكل مافيه رضى لايس

— هذا هو الحق اليقين فان حياتي وقف على لايس واحسن يوم في حياتي هو اليوم الذي اقدر ان اخدمها فيه خدمة صادقة ٠

= ما هذا الذي اطلبه يا اوذا ماس بل اسألك هل اقمت في اسبرطة مدة طويلة ٠ فاجابها ٠ نعم خمس سنين قضيتها بانواع العذاب في تلك المدينة الملعونة

— فانا اريد ان تطلعني على عوائد اهلها واخلاقهم لانك لاشك خبير بها

— اختبرت كل طباعهم واعمالهم ولا يذكر اسم اسبرطه الا واتطير منه ولكن اجابةً لطلبك لا اخفي عنكِ شيئاً مما علمت

— احسنت ولكن ذلك يكون غداً فاني اجمع اصحابي لكي يسمعوا حديثك الشائق ٠

الفصل الثالث عشر

الاسبرطيون

وثاني يوم اجتمع عند لايس نخبة الاعيان والعلماء والادباء فجعل اوذاماس يقصّ عليهم ما عرف من اخبار الاسبرطيين وعوائدهم بعد اختبار مدة طويله فقال ٠

بعد سقوط تروادة بستين سنة ضاق الرزق بامة الدوريين وهي امة نصف متوحشه فجعلت تهجر الكهف الشمالي من جبل اثينا قاصــدة بلاد اتيكة

والبيلوبونيسه تحت قيادة رئيس اسمه ارستوباخوس من سلالة هرقليس غير انهم لم يفلحوا في غزوتهم الاولى فتقهقروا الى بلادهم غير ان ظروف الحال اضطرتهم ان يعيدوا الكرة في طلب الرزق وساعدهم هذه المرة اللدوريون فلم يقوَ عليهم الجيش الاخائي فدخلوا البلاد ظافرين وفتكوا في اهلها وتوغلوا فيها فقتل ارستوماخوس وخلفه اولاده الثلاثه ارستوذيمس وكريسفونتس وتيمينوس وافتتحوا اكثر البيلوبونيسة وقُتِل ارستوذيمس وله ولدان فاقتسم البلاد اخواه فاستولى كريسفونتس على ميسني وتيمينوس على ارغونيدة وتيرنتية واخائية وجعل كرسي ملكه في ارغوس · واعطى ولدا ارستوذيمس بلاد لاكونية وهي قليلة الخيرات واسم احدها اورسينش والآخر بروكليس وكان الوصي عليهما عمهما تيراس ومن ذلك الوقت يبتدي تاريخ اسبرطة فاختار تيراس كرسي ملكه مدينة لقدمونية في سفح جبال تياجنس وكان حكامها الاتريديون ورئيسهم اغاممنون فصارت للهرقليين هؤلاء نسبة الى هرقليس المار ذكره وكان تيراس رجلاً حكيماً فرفق بالناس واوقع المسالمة بين قومه واهل لقدمونية واشاع بينهم الزواج فاتخذ الدوريون نساء من اللقدمونيين وصار الجميع شعباً واحداً وهذا كان اول اساس لقوة اسبرطة في المستقبل · ولما بلغ ابنا اخيه سن الرشد طلبا حقوقهما فتخلى لهما عن المملكة ومضى مع جماعة من الدوريين واللقدمونيين وانشاء في كالستي مستعمرة تيرا ولكن بعد مدة وقع الخلاف بين الاخوين وكان بركليس قاسياً واراد ان يجعل فرقاً بين الدوريين الفاتحين واللاكونيين المخضعين واعانه بعض رؤساء الدوريين فلقب الدوريين بالاسبرطين نسبة الى اسبرطس الذي ادعي انه من سلالته وجعل مركز اقامتهم في القلعة اي المركز العسكري ولقب

اللاكونيين باللقدمونيين وجعل منازلهم تلك الضواحي والارباض فسمي منزل الدوريين اسبرطه ومنزل اللاكونيين لقدمونية

وبعد وفاة اورستينس العادل حاول بروكليس فتح احدى مدنهُ فقتل في الحصار وملك بعدهما اجيس ابن اورستينس وسوُس ابن بروكليس وشدّدا الوطأة على الشعب واتفقا على الفتوحات واكتسبا عدة مدن واستعبدا اهلها للامة الاسبرطية . ثم تابع الملوك الهرقليون ووسعوا مملكتهم بفتح البلاد المجاورة غير انهم عجزوا عن فتح مدينة اميكايـة التي كانت للقدمونيين لكنهم اخيراً ملكوها بالخيانة كما سترى. واستمر ملكهم الى زمان ليكرغوس المتشرع العظيم وكان آخر من ملك منهم اخا ميكرغوس فاراد الشعب ان يملكوه غير انه علم ان امرأة اخيه حبلى قال لهم انه يتخلى عن الملك للمولود الجديد اذا كان غلاماً . فاشتغل قلب امرأة اخيه حسداً وعرضت على ليكرغوس انها تقتل الولد اذا اراد ان يتزوجها ويشاركها في المملكة فاستفظع ليكرغوس هذا الطلب غير انه كتم الامر بحكمة واراد ان ينقذ الولد فاجابها انه يقبل طلبها اذا استحيت الولد وارسلتهُ اليه سراً وعليه هو ان يدبر ما بهِ مصلحتها ومصلحتهُ . فلما ولدت ارسلت الغلام الى ليكرغوس وكان على المائدة هو وجماعة من الشرفاء فرفع الولد بين يديهِ واقامه ملكاً فاستشاطت الخبيثة غضباً واقسمت لتنقمنّ منه واما ليكرغوس لما رأى حالة البلاد في اضطراب وانشقاق عزم ان يضع للناس شرائع حميدة فاستحصل على الشرائع التي سنها احكم اهل الزمان وامر بعض الشعراء ان ينظمها شعراً لكي يسهل حفظها وتمهدت له الصعوبات الكثيرة بجودة رأيهِ وكثرة فطنتهِ وذلك انهُ قدّم تحفاً سنية لهيكل دلفي حتى اعلنت الكاهنة عن

لسان الوحي ان ليكرغوس صديق جوبيتر واحكم البشر وهكذا استطاع ان يفوز بمقاصده ففي ذات يوم حضر في الساحة العامة التي يجتمع فيها الناس للمخابرة واعلن لهم انه آمر بلسان الوحي ان ينشي مجلساً مؤلفاً من ٢٨ شخصاً و يقيم ملكين فعارضه الشعب اولاً لكن بمساعدة اصحابه الاعيان تغلب عليهم والف المجلس وجعل نفسه رئيساً وشرع اولاً في تقسيم الاراضي فاستاء الخواص ورضي العامة ومنع العلوم والفنون لانها داعية الى ميتة السلم ومنع استعمال الذهب والفضة لانها تولد الرذائل وضرب نقوداً حديدية ثقيلة قليلة القيمة حتى يصعب نقلها بكميات وافرة وامر العبيد بحرث الارض والاسبرطيين بالتمرن على السلاح فقط وامر ان يكون الطعام مشتركاً بين جماعات فانشأ قاعات تسع الواحدة عشرين شخصاً وكان الجميع ينفقون على هذه الولائم ولم يكن في الاطعمة لحوم ونحوها من المواد الكثيرة التغذية الا نادراً ولم يكن يسمح لاحد ان يأكل في منزله حتى الملك وقسم الشعب الى اسباط لكل سبط رؤساء من شيوخه وجعل الملك بالارث محصوراً في فرعي الهرقليين لكل فرع ملك وكانت سلطتهما محدودة ·

واعظم مزية كانت تعتبر عند الاسبرطيين القوة البدنية ولذلك لم يكن يسمح للملك ان يتزوج الا بامرأة قوية البنية حتى يكون الاولاد اشداء وكان على الملكين كل سنة ان يحلفا امام الشعب بان يكونا امينين في الاحكام واذا اتهم احدهما الآخر تجرى محاكمة المتهم لدى الشعب وكان القضاة يختارون من الشيوخ عمر الواحد بين خمسين وستين وكان لهم كل نفوذ حتى اذا ارادوا يخلعون الملك واما الشريعه بخصوص الاولاد فكانت ان كل اولاد الاسبرطيين يختصون اولاً بالجمهورية ثم بوالديهم و بعد ولادة

الولد بستة ايام يؤخذ الى مجلس الشيوخ لينظروا في سلامة بنيته فاذا وجدوا فيه عيباً اهلكوه واذا وجدوه صحيح الجسم استحيوه وكان الاولاد اربع طبقات الاولى اولاد الاحرار من السلالة الدورية مهما كانت حالة والديهم من الدنيا · الثانية المولودين من رجال اسبرطيين ونساء اجنبيات ومن جملتهم اولاد العتقاء الذين اشتهروا بخدمة الامة · الثالثة اولاد الاجانب الذين يدخلون اولادهم في جملة الاسبرطيين لكي يتربوا على عاداتهم · الرابعة الاولاد الغير الشرعيين الذين يولدون من بنات اسبرطة وقت الحروب · ومتى بلغ الولد خمس سنوات يرسل الى مدرسة الموسيقى الرياضية لكي يتعلم الحركات العسكرية وتقسيم الانغام على الشبابة · وفي السنة السابعة يجتمع ابناء هذا العمر تحت مناظرة رجل وطني خبير مجرب فيتعلمون القراءة والكتابة وشرائع ليكرغوس والالحان الدينية والحربية واما تربيتهم البدنية فصارمة جداً فانهم يعودونهم تحمل الجوع والعطش والحرّ والبرد وسائر المشقات وابواب المصارعة ويسمحون لهم بالسرقة ولكن بحيث لا يشعر بهم ويعودنهم احتمال العذاب بان يجلدوهم جلداً شديداً حتى تسيل دماؤهم ومن العار ان يسمع صوت المعذّب شاكياً وبين السنة العشرين والثلاثين تنحصر اعمالهم غالباً في الخدمة العسكرية والتمرن على استخدام الاسلحة ولا يتعاطون عملاً آخر ·

فالاسبرطي يقضي حياته منذ نشأته الى شيخوخته في خدمة الوطن واما تربية البنات الجسدية فتقارب تربية الصبيان فانهنّ يتعودن الرياضة البدنية والمصارعة عاريات الاجسام وليس ذلك معيباً عندهم · اولاً لكي تتصلب اعضائهن ويلدن اولاداً اقوياء · ثانياً لكي يتعود الرجال النظر اليهنّ عاريات

فتضعف عندهم الرغبة ولكي يكثر النسل سنّ ليكر غوس شريعة غريبة وهي اباحة النساء اذا كان رجالهنّ عاجزين عن اقامة نسل . ثم ان طاعة الشعب للروءسا من الزم الامور . و بعد ان نظم ليكرغوس شرائعه اجرى عليها الشعب سلّم زمام الملك الى ابن اخيه واسمه كاريلوس ثم جمع اعيان الامة وقال لهم ان الوحي امره بالسفر الى بعض الجهات ثم اخذ عليهم المواثيق بالايمان المغلظة بان لا ينقصوا شيئاً من شرائعه الى ان يعود ومضي من بينهم الى كريت على نية ان لا يعود لكي تبقى شرائعه جارية ومات هناك .

وبعد سفره رأي اللاكونيون ان شرائع ليكرغوس ستقضي عليهم مع الزمان ان يصيروا عبيداً للاسبرطيين فشقوا عصا الطاعة واول من ثار منهم اهل مدينه ايجيس الواقعة على تخوم اركاديا فحمل عليهم ملكا اسبرطة اركيلاس وكاريلوس واخذا مدينتهم واستبعداهم ثم كرر الاسبرطيون الغزوات وفازوا فيها كلها فكبرت نفوسهم وطمعوا في فتح كل بلاد اركاديا الوافرة الخيرات فجهزوا انفسهم سراً لغزو مدينة تيجية وهي مفتاح اركاديا غير انهم فشلوا هذه المرة لان التيجيين علموا بدسائسهم فكمنوا لهم في مضايق الجبال . الرجال في وجوههم . والنساء من ورائهم وفتكوا فيهم فتكاً ذريعاً واسروا كثيرين منهم فقامت الفتنة في اكثر مدن لاكونية فلجأ الاسبرطيون الى الحيلة واستولوا على مدينتي فاريس واميكليا بالخيانة وامتنعت عليهم مدينة هيلوس لكثرة ما حولها من المستنقعات لكن خان بعض اهلها واسلمها الى الاعداء

فنهبوها وخربوها واستعبدوا اهلها ثم طمحت نفوسهم الى فتح بلاد مسيني التي هي اغنى قطر في البيلوبونيسه ولكي يفتحوا باب الشر عمدوا الى الحيلة . وذلك ان احد المسينيين كان عنده من المواشي شيء كثير

ولم يكن لها مرعى في البلاد لانها كلها مزروعة فاجرها لرجل اسبرطي لكي يرعاها في بلاده حيث لا يوجد زرع. فاخذها و باعها وادعى ان اللصوص سطوا عليه وسلبوها غير ان احد الرعاة كذب الاسبرطي فترامى الغادر على اقدام المسيني ووعده انه يرجع اليه المال ولكن الخائن قتله حالما دخل حدود بلاده فلما علم والده تقدم الى قضاة اسبرطة ورفع دعواه فوعدوه بالانصاف وجعلوا يماطلونه فلما ذاق ذرعاً سطا على بعض الاسبرطيين وقتله وفر الى بلاده فطلب الاسبرطيون من المسينيين تسليمه فلما وقفوا على الحقيقة ابوا ان يسلموه ففتح الاسبرطيون الحرب واستمرت بين الفريقين عشرين سنه وانتهت بتغلب الاسبرطيين واستعباد المسينيين ووقعوا تحت اضطهادات عنيفة استمروا يتحملون عناءها نحو اربعين سنة حتى ضاقت صدورهم وامتلأت قلوبهم من الاحقاد واشتاقت نفوسهم الى الاستقلال وفي ذلك الزمان قام بينهم قائد عظيم اسمه ارتوفانس فخلعوا طاعة الاسبرطيين وطردوهم من ارضهم

و بقي ارستومانس يناوش الاسبرطيين القتال مدة ثلاث سنوات حتى اوقع الرعب في قلوبهم وشعروا بعجزهم عنه وكان جيش من الاركاديين قد انضموا الى المسينيين تحت قيادة ملكهم ارستوكراس فدخل معه الاسبرطيون بالخداع واغروه على الخيانة فلما التقى الجيشان في المعركة القاضية واشتبك القتال انعطف ارستوكراكس بجنوده على المسينيين فاضطروا الى الانهزام بعد ما قتل منهم جم غفير فمضى ارستوفاس بمن يعتمد عليهم من جنوده وتحصن في احدى المدن وكانت على رأس جبل فاطلق الاسبرطيون ايدي المظالم في المسينيين وضربوا نطاقاً حول الجبل الذي تحصن فيه

ارستومانس حتى تضايق جداً وكاد الجوع يفني جنوده فجمع قواته وخرج من المدينة نهاراً وخرق صفوف الاعداء وقد ذهلوا من جسارته ولم يقدروا مع كثرتهم ان يمنعوه عن الفرار غير انه لقي في طريقه جيشاً كثيفاً فقاتل هو وجنوده اشد القتال لكن الكثرة غلبت الشجاعة واصيب ارستومانس بحجر في رأسه فسقط فانقضوا عليه واسروه وقادوه مع من اسروه من جماعته واصدروا عليهم حكم القتل بطرحهم في هاوية عميقة كان من عادة الاسبرطيين ان يلقوا فيها المجرمين فجردوهم من ثيابهم وطرحوهم في الهاوية واما ارستومانس فاحتراماً لبسالته ونسبه القوه آخر الكل ولم يأخذوا ثيابه ولا سلاحه فوقع على اجسام اصحابه ولم يتضرر واذ علم ان نجاته مستحيلة التف بكسائه وانتظر الموت فمن الاتفاق الغريب انه سمع في اليوم الثالث صوت حركة خلفه فرفع الثوب عن رأسه والتفت فرأى ثعلباً يأكل من الجيف فعلم ان هناك منفذاً فامسك بذنب الثعلب وجرى وراءه حتى بلغ المنفذ فجعل يوسع الخرق بيديه حتى امكنه المرور وخرج من الهاوية ورجع الى المدينة فلما راه قومه استغربوا الامر وفرحوا به اشد الفرح وصاروا يجتمعون اليه فبلغ احد الخائنين الاسبرطيين خبره فتعجبوا ورجع هو بجنوده الى مقاتلتهم حيثما وجدهم وهكذا شبت نار حرب ثانية بين الفريقين ٠ وفي تلك المدة جاءت اعياد للاسبرطيين فطلبوا هدنة اربعين يوماً فاستغنم ارستومانس تلك الفرصة وخرج يوماً يتفقد اسوار المدينة فصادفه سبعة من رماة النبال فهجموا عليه واوثقوه وقادوه اسيراً الى بيت ارملة ليس عندها الا بنتها فلما علمت الصبية ان الموثق هو القائد المشهور سقيت الجماعة خمراً حتى سكروا وفكت وثاقه فقتل الجماعة وفر هارباً واستمر على الحصار عشر

سنوات واخيراً اشتد بالقوم الجوع فخرج بهم ارستومانس مستقتلاً وبعد محاربة ثلاثة ايام استطاع الفرار فلجأ الى مدينة تيجية من بلاد اركاديا وهناك جمع ثلثمائة من اشداء قومه وانضم اليهم ثلثمائة من الاركاديين وعزموا على غزو اسبرطة فارسل الملك ارستوكراتس الى اسبرطة رسولاً ينذر باثم وشعر بدسيسة الاركاديون فقبضوا عليه ورجموه ولعنوا نسله وهكذا كان ظفر اسبرطة بالخيانة التي كانت ركن سياستها فاستولت على مسيني وضربت على اهلها الضرائب الفاحشة ووقعت مهابتها في قلوب الامم المجاورة لها وعلمت اثينا اتساع سطوتها فندمت لانها لم تساعد المسينين وبالتدريج قويت شوكة اسبرطة حتى قهرت اثينا

هذا هو القسم الاول من تاريخ اسبرطة واما القسم الثاني فيبتدئ بحرب البيلوبونيسة لان نيتها كانت ان تستولي على كل بلاد اغريقية ولعدم وجود رجال حاذقين في اثينا بعد وفاة بيركليس سقطت تحت قوة اسبرطة فازداد نفوذها وتعاظمت جدًّا لكن الدهر دولاب فلزيادة تشامخها ومطامعها هوى نجم مجدها بعد ذلك . ولم يكن انتصار اسبرطة على مسيني بالحذق وحسن التدبير بل بالحيل والخيانات كما سبقت الاشارة وكذلك بالرشوة كان ظفرها وساعد على ذلك تسلط الطبقة الكهنوتية على عقول الاثينيين الضعيفة حتى نفوا اكثر قوادهم وقتلوا بعضهم ولولا ذلك لما وقعت في يد اسبرطة وفقدت مجدها العظيم ثم جاء الزمان الذي نبغ فيه ابا ميننداس وكسر شوكة اسبرطة واذلها انتصاراً للانسانية وحقناً لدماء المظلومين وذلك ان اولئك الوحوش الضارية كانوا قد عقدوا مجلساً حكم بقتل كل من يصادفونه من اعاديهم غيلة فكانوا يكمنون في الكهوف وشقوق الصخور ويسطون على ابناء السبيل

والفخر لمن يقتل من العبيد المظلومين اكثر من غيره وكانت نقمتهم تنصب خصوصاً على اهل مسيني بعد هلاك قوادها الكبار حتى خربت بلادهم وتاهوا في الارض بلا نصير بعد حروب طويلة ٠

ثم ان اسبرطة لم تكتف بما قتلت من اولئك العبيد فجندت منهم جيشاً تعويضاً عن رجالها الذين قُتلوا وكانت تقدمهم امام الصفوف فيضطرون ان يحاربوا اخوتهم وابناء وطنهم فاجتمع مجلس الشيوخ مع الملكين واستعانوا بحيلة جهنمية لكي يهلكوا المساكين فانهم طيبوا قلوبهم بالكلام اللطيف ودعوهم لحضور وليمة خصوصية في صباح يوم معين ٠ وكان من جملتهم فتى بديع الجمال معروف بالشجاعة والاقدام قد عشقتهُ زوجة احد اعضاء المجلس فاعلمته ان القصد من هذه الدعوة قتل جماعته عن اخرهم وكان اسمهُ نيوكليس ثم البستهُ ثياب امرأة وآمرت اثنين من خدامها ان يخفراه الى ان يخرج من البلد وامرتهُ ان يقيم في مدينة فيها اهلها الى ان ترسل اليه باوامر جديدة ولكنهُ قبل خروجه اعلم من وجد من رفاقهِ لكن لم يبلغ الخبر الجميع ففي ثاني يوم قتل الاسبرطيون من اجتمع للوليمة وكانوا نحو الف وسبعمائة واقتفوا آثار الذين فروا تحت امرة نيوكليس حتى ادركوهم وكانوا ٣٠٠ فقسم نيوكليس جماعته الى ثلاث فرق وهجم على الاسبرطيين القادرين وابادوهم وما نجا منهم الا القليل وبقي في الاسر عشرون رجلاً و بلغ الخبر الاسبرطيين فتفرقوا في الشوارع والطرق وكانوا يقتلون كل من وجدوه من العبيد واصدر مجلس الشيوخ الاوامر الى كل البلاد بالقبض على كل من يوجد منهم غير ان نيوكليس كافأ الاسبرطيين بالعكس فانه جمع اسراه وقال لهم ايها الغادرون الفاتكون يا من قتلتم اخوتي ظلماً وعدواناً ها انا قادر ان اهلككم الان لكنني

اعفو عنكم لكي تعيشوا ملطخين بالعار لان الغدر شيمة الانذال والعفو شيمة الاحرار وقد اشتهرت اسبرطة بالغدر والخيانة في كل مواقعها . ثم اطلق سبيلهم ولجأ الى الجبال وكانت بينه وبين الاسبرطيين مواقع كثيرة استخدموا فيها انواع المكائد والدسائس فلم يقدروا عليه وفي تلك الاثناء شاع خبر ان ابا ميننداس القائد الطيوي العظيم قادم من بيوتيا في عسكر جرار لمحاربة اسبرطة فارتاع الاسبرطيون وجمعوا جموعهم واما نيوكليس فتقدم بجماعته الى ابا ميننداس واعلمه بغدر الاسبرطيين وما جرى عليه وعلى اصحابه من خياناتهم فطيب قلبه وضمه الى عسكره ثم كانت الواقعة العظمى التي جرح فيها ابا ميننداس وانكسر الاسبرطيون كسرة هائلة سقطوا بها فلم تقم لهم بعدها قائمة وابلى فيها نيوكليس وجماعته احسن بلاء وشفوا غليلهم من اولئك الخائنين غير انه جرح جراحاً بليغة مات على اثرها هو وابا ميننداس ولما بلغ اسبرطة ما حل بعسكرها من الفشل والوبال هاج الناس وماجوا وانتشروا في الشوارع يصيحون ويولولون وقد ملأ الرعب قلوبهم ولا سيما لما رأوا النار قد شبت في ارباض المدينة فصار كلٌّ منهم يطلب ملجأ يختبئ فيه خوفاً من هجوم الاعداء فهذه هي شجاعة الاسبرطيين فلو دخل الاعداء المدينة لحاهم رجالاً ونساء عن بكرة ابيهم لان الخوف شلّ اعصابهم لكن وردت اوامر من طيوة بعد وفاة ابا ميننداس برجوع العسكر لكي لا يطول الوقت حتى يكتسح ملوك مكدونية بلاد الاسبرطيين فلا يبقون لها ذكراً يذكر ولا اثراً يشكر .

واما اخلاق الاسبرطيين فهي العبوسة والرياء والخشونة والغدر والجبن وعدم النظافة الى درجة قصوى وعند النساء ضعف القلب وشدة الرعب

باقل حادث وقلة الحياء حتى انهنَّ يغتسلنَ في النهر افواجاً بلا تستروالوخامة في لبسهنّ واعمالهنّ وعدم الترتيب والذوق وسخافة العقل بخلاف كل ذلك عند اهل اثينا رجالاً ونساء

الفصل الرابع عشر

اثيناواهلها

فلما فرغ اوداماس من حديثه استحسنه الجميع واثنوا عليه و بالغت لايس في اكرامه ثم قالت اليها الامبرا كيون قد سمعتم اليوم اخبار اسبرطة والاسبرطيين فلكي تتم الفائدة واللذة ارجو من صديقنا كليون ان يقص علينا غداً اخبار اثينا والاثينيين لان هذه المدينة امُّ التمدن وحاضرة العلوم فنظر كليون اليها نظرة الحب وقال ان الذي تأمر به لايس لا يخالفهُ احد من البشر فغداً ان شاء الله اطلعكم على اخبار اثينا التي نبغ فيها رجال الحكمة والفنون

فلما اجتمعوا ثاني يوم فتح كليون حديثهُ قائلاً

· قال بعض المؤرخين ان الذى اسس اثينا رجل مصري اسمه ككروبس وقال آخرون انه رجل بلا سجي اسمه هيلانوس ولم تكن في اول امرها الا قرية صغيرة يحكمها رئيس يلقبونه باسيلفس اي ملك · ومع ان اثينا اسم في الاصل لمينروة ربة الحكمة فسميت المدنية بها لانها جعلت تحت حمايتها وخصصت بها ولم تستحق ان تدعي عاصمة الا بعد وفاة كودروس آخر ملوكها ·

فبعد فاة هذا الملك ابي الاثينيون الحكم الملكي وجعلوا حكومتهم جمهورية واقاموا الرئيس عليها ميدون ابن كودروس ولقبوه ارخندس و بقيت

الارخندية بالوراثة مدة طويلة ثم عينوا مدتها اولاً عشر سنوات ثم خمساً ثم سنة واحدة وكانت الراحة في اتيكة عامة في المدة الاولى ونمت الصنائع وانتشرت الفنون وكثرت ايضاً الاحتياجات والرذائل وثقلت الديون على الشعب وسلب الاغنياء اموال الضعفاء فوقع الشقاق بين الاغنياء والفقراء فاختاروا رجلاً عاقلاً اسمه دراكون فتدارك الامور غير انه لقساوة طباعه سنّ شرائع صارمة جدًّا فلم يطقها الشعب وثاروا على دراكون ففرّ الى ايجينة فوقعت الانشقاقات الداخلية وكثرت الفتن فسلم الاثينيون امرهم الى الحكيم سولون المشهور باجماع الاراء فوضع شرائع سامية توافق روح العصر وحلفت الأمة ان تحفظ شرائعه الى مدة عشر سنوات وسافر فلما رجع بعد انقضاء هذه المدة وجد ان بيسستراتس استولى على الاحكام اختلاساً فقيل انه مات بالسم ·

· وبعد بيسستراتس استولى على زمام الحكم اخواه هيبياس وهيبرخوس فاساء التصرف فقتل الشعب احدهما ونفي الآخر بعد مدة بواسطة كليستينس فارضى الشعب وقسمه عشرة اسباط لكل قسم مجلس مؤلف من خمسين عضواً فساد العدل واستراحت الامة واخذوا يرتقون في سلم النجاح وقاموا باعمال جليلة وفتحوا الفتوحات وانشأوا المستعمرات ونبغ فيهم اعاظم الرجال وتقاطرت الى اثينا الفلاسفة وارباب الفنون ففتحوا المدارس والمعامل وازدادت ثروتهم جدًّا ووصل تمستوكليس المدينة بفرضتها بيروس باسوار عالية متينة واقيمت فيها الابنية الفخيمة وازدادت القوة العسكرية برًّا وبحراً ثم قام بركليس فكان عصره ازهى اعصر التمدن الاغريقي فاستقل بالملك وارضى الشعب وازهت في ايامه المعارف والفنون واشتهر الترف وكثرت اطائف المصنوعات واتقن فن النحت والتصوير والبناء كل الاتقان وانشاء هيكل

البرثنون ووضع فيه تمثال مينروه العظيم غير انه بعد مارفع بلاده الى اوج المجد والحضارة كان هو سبب سقوطهاوانحطاطها فانه منح الشعب الحرية المطلقة فتورطوا في الملاهي وعيشة الترف حتى ضعفت فيهم الرجوليه والاداآب ومما يلام به انه فتح الحرب على المخالفين للجمهورية لكي يزيد ثروة الاثينيين وقطع المواصلة بين اثينا واسبرطة واذ لم يكن يطيع الا مطامعه اضرم نار الحرب البيلوبونيسة لكي يوطد سلطته وزاد داعي السقوط بجمال زوجته اسباسية التي اتخذها رغما عن ارادة الشعب وثورت الكيبياذس ابن اخيه بالملذات فاقتدى به شبان وشابات الاثينيين فوقعوا في ضعف العزائم وعم الفساد وانتشر بسرعة فلم يعودوا يتعاطون الا اسباب القصف والملاهي والولائم الليلية واحياء ليالي الطرب وزينة الملابس وسائر اسباب الطياشه والرخاء والفجور فاقتضى الحال لمنع هذه الاسراف ان بركليس يبعد الكيبياذس من اثينا فسكنت طياشة الشبان مدة · قال كيلون — واما اخلاق الاثينيين وسائر اهل اتيكه فتمتاز عن اخلاق سائر شعوب اغريقية فانهم اصحاب ذكاء وادب ومحبة للحرية غير ان فيهم خفة وعدم ثبات وحماسة يصبون الى كل جديد و ينسون المساء ما ابهجهم صباحاً يعرفون قيمة الفضل و يتحفون بالاكاليل رجالهم العظام ثم يسقونهم السم · من غرائزهم الصلاح وعمل الخير لكن لهم هوى في الاعمال الخشنة واما ميلهم الى الخرافات فحدث عنه ولا حرج فانهم يصدقون الوحي والانباء بالغيب وظهور اشياء خارقة الطبيعة ولذلك ترى بضاعة المحتالين رائجة عندهم كل الرواج وشدة تمسكهم بالاعتقاد في معبودات وهمية سبب تأخرهم او توقفهم في سبل النجاح فتكثر بواسطة الدجالين الاعياد والذبائح والتقدمات الخرافية و يحسبون الف حساب

للحوادث الجوية كالكسوف وسقوط حجر جوي وتساقط النجوم وايضاً لعواء كلب وبكاء طفل وانكسار شيء في البيت وامثال ذلك ما يتشاءم به الجهلاء وقد وضع الكهنة لهم نواميس لاجل غاياتهم يعد من خالفها كافراً فيقع تحت اشد العقاب حتى الموت ولا سيما الحكماء وامثالهم ممن تستنير العامة بمعارفهم · فاذا علل احد العلماء عن حادثة جوية مثبتاً انها غير فائقة الطبيعة ينسبون اليه الكفر ومن لا يؤمن باحد معبوداتهم الوهمية حكموا عليه بالاعدام وهكذا تبقى السيادة لروساء الدين ويشفون غليلهم من المتنورين ومن جملة فظائعهم قتل الفيلسوف سقراط بالسم · وهم مغرمون بالاعياد والافراح والملاعب والمأكول والمشموم والمشروب والملبوس وسائر ما يلذذ الحواس ويطرب النفس ويكثرون من الكلام ويسرعون به حتى قيل في المثل يتكلم اهل اثينا في يوم اكثر مما يتكلم اهل اسبرطة في سنة ولهم رغبة شديدة في الاطلاع على كل شيء والازدحام لاية حادثة كانت ولو من احقر الحوادث حتى اتفقت ان مجلس الاعيان كان منعقدا يوماً وخواص الامة مجتمعين للبحث في مسائل جليلة فافلت عصفور من يد احد العوام فركض لكي يمسكه وتبعه رفاقه ثم صارت الناس تتوارد وخرج اهل المجلس وتبعهم اكثر الشعب كل ذلك لكي يعلموا ما هذاالذي حدث فلما علموا ان كل تلك الحركة لاجل عصفور صاروا يضحكون على خفتهم واجسام الاثنيين شديدة وصورهم جميلة ويتعودون الرياضة البدنية منذ حداثتهم واما معارفهم فقواعد اللغة والانشاء والبيان والخطابة والموسيقى والشعر وكلهم اصحاب فطنة وذوق سليم واما الحكمة والبلاغة فرجالها قليلون لانه يقدم بينهم جماعةسفسطيون يموهون بزخارفهم ويفسدون

الحقائق فتخلف الرذائل واما نساء اثينا فاشهر نساء الدنيا في الغنج والدلال واكثرهن تحبباً وتأدباً غير ان محاسنهن وما يتعاطين من التزيين والتبرج قد اثرا بتلك المحاسن . اما داخل خدورهن ليس لهن من الحرية ما لنساء اسبرطة فلا يعرفن الا بيوتهن و يمنعن عن مخالطة الرجال الا في المحافل الرسمية فيخرجن محجبات وحولهن جماعة من العبيد يحرسوهن غير ان بنات الخلاعة لهن مطلق الحرية لكن لا تدخل في مصافهن الهيتيرات اي النساء الحرائر المطلقات القياد اللواتي يخالطن الفلاسفة والادباء نظير لايس فهؤلاء قد يبلغن شهرة شاسعة بآدابهن ومعارفهن وفضائلهن والجمال في النساء اقل مما في الشبان ولذلك وضعت شريعة تقضي على كل امرأة ان لا تهمل شيئاً من اسباب الزينة والنظافة في ملابسها وحلاها و بدنها منذ الصباح والتي تخل بالقانون تحمل غرامة ثقيلة فلا تسل بعد ذلك عن النفقات الفاحشات التي كانت النساء ينفقنها على الملابس والحلي ومواد التحسين وتشكيل الازياء حتى كانت الواحدة لا تلبس اليوم الثوب الذي لبسته امس وحتى قيل ان حذاء الواحدة كان يكفي عدة بيوت مما عليه من الذهب والجواهر فضجر الرجال اخيراً وشكوا امرهم لمجلس الشيوخ فاصدر امراً بتخفيف النفقات ولكن لمن نقول فان المرأة اذا تهورت لا يعود عنان يرد جماحها – ومع كل ذلك كانت المحافظه على العرض شديدة جداً فجزاء الخائنة القتل والخائن التنكيل به قيل ان كهلاً تجوز صبية فعشقت فتى جميلاً واتفق ان ذلك الرجل دخل بيته بغتة فوجدهما معاً فاستل خنجره فاعترضه الفتى قائلاً اضربني انا لانها ليست هي المخطئة بل انا مغتصب ولكن افتكر في ما يلحقك من العار متى شاع الخبر انك تصير مضغة في الافواه و يسخرون بك حيثما سرت غير اني اعدك اذا

ستترت الامران اخرج من اثينا ولا اعود اليها ابداً . فنكر الرجل في المسألة وامسك عن الفتى واخذه الى ان وصلا الى شاطئ البحر فركب احدى السفن ورجع الرجل الى بيته فلم يجد زوجته فانها خافت ان يقتلها زوجها فالتحفت بجبة رجلٍ وخرجت على اثرهما فلم يشعر بها احد ونزلت الى السفينة التي ركبها محبوبها — وبالاختصار فاخص مزايا الاثينيين عدم الثبات وطلب الحرية وحب الجديد والمفرح و بسبب عدم الثبات ستذهب سلتطهم من يدهم . و يقسم تاريخهم بالاجمال الى اربعة اعصر . الاول عصر الابطال وهو عصر الخشونة والتوحش . الثاني عصر دراكون وسولون وهو عصر الشرائع . الثالث عصر تمستوكليس وارستيذس وهو عصر المجد . الرابع عصر بيركليس وهو عصر الزهو والفنون وهو نفسه عصر انحطاط القوة والتمدن .

الفصل الخامس عشر

وفاة ليونتيذس ورجوع لايس الى بلدها

وحالما فرغ كليون من كلامهِ اقبل جندي وطلب ان يقابل لايس فادخلوه فانحنى امامها وناولها رسالة فقرأتها لايس وظهر عليها الجزع والتحبت ونزعت عن راسها اكليل الزهر وطرحتهُ بعيداً ثم غطت راسها بمنديل طويل فشخصت فيها الابصار وعمّ السكوت وظهرت على الوجوه امارات الحزن فقدمت لايس الرسالة لارستيبس وقالت اقراء واعلم اشراف امبراكية بالمصيبة التي وقعت عليّ والخسارة التي خسروها فقرأ . ارستيبس ما يأتي

بعد معركة عنيفة انهزم العسكر التسالي اقبح هزيمة وانتصرت جيوشنا انتصاراً جليلاً لكنهم اسفوا اشدّ الاسف لفقد القائد الشجاع ليونتيذس

فنزع كل الموجودين اكاليلهم وخرجوا من القاعة ولما شاع خبر وفاة ليونتيذس لبس كل الناس الحداد لانه كان عند اهل امبراكيه بمنزلة بيركليس عند اهل اثينا وفرشت قاعة لايس بالاسود واشعلت قناديل الحزن واقفلت كل محلات اللعب واللهو وشمل الحزن كل اهل البلد وكان له مأتم جليل حافل ولم يتخلف احد عن تشييع جنازته وكان امام الجمهور مئة جندي مكللون بنبات الحداد و بيد كل واحد منهم غصن من الغار ووراءهم مئة عذراء حاملات اكاليل الازهار واغصان السرو وفي مقدمتهن لايس على رأسها المنديل الاسود وقد نثرت عليه حبوباً من الفضة واصحاب القائد يحيطون بالوعاء الذي فيه رماده وهم يمشون مشية بطيئة على نغم الشابة وفي اثناء ذلك تشق اصوات النوادب ارجاء الجو فلما وصلوا الى الضريح وُضع وعاء الرماد فالقى عليه الشبان والعذارى الاكاليل وهم يدورون حوله و بينما الناس يرقصون رقص الحزن و يقدمون السكائب كانت لايس راكعة امام الضريح ملقية رأسها على الرخامة — و بعد حفلة المأتم دخلت لايس منزلها وانحبست فيه وحدها عشرة ايام لا يدخل اليها احدا كما كانت العادة الجارية في امبراكية. وفي اليوم الحادي عشر زارها ارستيبس وكليون واوذاماس فوجدوها حزينة جدًّا وقد اختلطت افكارها لا تدري ماذا تعمل فجعلوا يعزونها فقالت لهم ان بهاء مجدي قد خمد ورونق ايامي قد ذهب فان ذكر ليونتيذس يبقى حياً في قلبي الى الابد لكثرة ما صنع معي من الجميل وابدى من صدق الوداد فليس لي بعده هناء في العيش ولا راحة في الدنيا وقد تحيرت في امري كيف اعيش واين اذهب وكيف اقضي بقية ايامي امدوني برايكم الصائب يا اصحابي الاعزاء فقال اوذاماس اما تذكرين يالايس اني اتيت

رسولاً من عند القرنتيين لكي اخذك اليهم لانهم لايحبون الحياة بدونك وانت بهجة مدنيتهم واحسانك غمرهم ·

· وقال ارستيبس رأيي يالايس ان تخرجي من امبراكية لان حياتك هنا لا رونق لها بعد فقد القائد العظيم فتهملين اذ لاسند لك ·

· اما كليون فاستصوب رأي ارستيبس · فقالت لم يبق اذن الاّ الذهاب الى وطني والاقامة بين شعبي · ثم اعدت لوازم السفر وفرقت على الفقراء جانباً عظيماً من الثروة التي خلفها لها ليونتيذس وودعت اهل امبراكية وهم آسفون لفراقها فتلقاها اهل قرنتية بفخر واكرام لا مثيل له وعيدوا لها ثلاثة ايام يطوفون بها بين الاكاليل واغصان الغار والآس وكان عمرها اذ ذاك ثلاثاً وثلاثين سنة وقدتمت محاسنها وازداد رونق جمالها وتوسعت دائرة معارفها وزادت بصيرتها استنارة بكثرة معاشرة الحكماء والادباء والظرفاء ونحوهم وصار لها في احوال البشر خبرة كافية واقامة في قرنتية بالاجلال والاكرام

الفصل السادس عشر

وقوع ليس في العشق والآمها ووفاتها

و بقيت لايس في قرنتيه اكثر من اثني عشر سنة في صفاء العيش وهناء البال وراحة الجسم محترمة مكرمة عند الجميع مواظبة على ممارسة الحكمة والاداب مواصلة الصدقات قائمة بكل ما يمكنها من اعمال البر و بذل الحسنات لكل محتاج الى ان فاجأتها الايام بداهية دهياء ومصيبة صماء اوهنت قواها وكدرت صفاها وذهبت بحياتها في حالة التعاسة والشقاء بعد ذلك النعيم والهناء وذلك انها لما بلغت الخامسة والاربعين من سنيها اتفق انها

رأت فتىً جميلاً لطيف المعشر رشيق القوام كامل المحاسن اسمه او باتيس لكنه مجهول الاصل لا حسب لهُ ولا نسب فعشقته عشقاً مبرحاً ولم تر في استطاعتها ان تحول عنه افكارها وعواطفها مع انها قضت حياتها حاكمة على عقلها وقلبها لا تميل الى دواعي الغرام فحاولت جهدها ان تسلو هـذا الفتى واتخذت كل واسطة فلم تقدر وكان عشقها له يشتد يوما بعد يوم حتى هجرت اصحابها لاجله وما عادت تطيق معاشرة احد غيره ولا تفكر باحد سواه ولا تطيق الحياة بدونه وكانت كلما ازداد منها تقربا ازدادت به ولوعاً ٠

ففي ذات ليلة كان ديوجانس مستتراً خلف شجرة في الحديقة فسمع صوت او باتيس المرائي يحلف امام لايس باعظم الاقسام انه كلف بها ما يتغير عن حبها فعرف ديوجانس من نظره اليه انه كذاب لا يحب لايس بل يطمع في اموالها ٠ فظهر لها من وراء الشجرة وهو يضحك وقال ما هذا يا لايس كأنك تريدين ان تتزوجي ثانية ٠ فدهشت لايس من هذه البغتة واستغربت الكلام الذي سمعته فاغتاظت من ديوجانس وامرته بالانصراف فقال لها مرادك ان تحرميني استنشاق نسيم حديقتك العصر وانا صديقك اتظنين ان رجلا مجربا مثل ديوجانس يحرم نفسه التنزه هنا لاجل رجل مراء يعمل على خداعك ٠ وكان العشق قد اعمى بصيرة لايس وناره المتأججة في فؤادها انستها خلوص ديوجانس ومعروفه معها فازدادت غيظا حينما سمعته يشتم حبيبها فكررت عليه الامر المشدد بالخروج من حديقتها فقال لها قبل ان يخرج يا لايس خففي حدة عواطفك واعتدلي في تصرفك فهذا الفتى الذي انكرت اصدقائك لاجله سيأخذ بثاري منك بخيانته اياك ٠ وبعد ايام خافت لايس ان يتركها او باتيس بسبب من الاسباب فارادت ان

توطد علاقتها معه بالاقتران به لانها رأت نفسها عاجزة عن مقاومة العشق وان السلوان مستحيل مع انها كانت قد امتنعت عن الاقتران باشرف شبان عصرها فعرضت عليه الامر لكي يشاركها في ثروتها فاجاب طلبها بالرياء ووعدها انه يأخذها معه الى وطنه اذا سعت له بالفوز في الالعاب القرنتية · وكان قد نظم بعض اشعار ليست من طبقة عالية غير ان شهرة لايس واعتبار الناس لها و بذلها المال امور قضت بان يقضي لهذا المحبوب الخائن بقصب السبق · وكان يهوى فتاة وعدته ان تقترن به اذا فاز في الالعاب المذكورة فلما نال مرامه هرب خفية من قرنتيه بعد ان ارسل الى لايس هذه الكلمات

— استودعك الله يا لايس فاني مسافر ولم اخلف وعدي فان معي صورتك آخذها معي الى وطني · فعوض ان تضطرم نار الغضب في فؤاد لايس لاجل هذا الازدراء والخيانة سقطت تحت اثقال الهم والحزن حتى تقرحت اجفانها من سكب الدموع لان كل قوى عقلها كانت منحصرة بهذا العشق المشؤوم فبادرت تسعى وراءه وتجول بين البلدان لعلها تقف له على اثر فقضت في مساعيها عدة اشهر بين الغموم والمشقات حتى استولت عليها الاسقام ورجعت الى قرنتية خائبة ووقعت في علة شديدة الوطأة

وكان ارستيبس يسيح في الجزائر فلما بلغه الخبر بادر الى قرنتية وكانت ايضاً قد ارسلت كليون يسعى في البلاد لكي يعرف مكان اوباتيس فرجع بالخيبة واجتمع هذان الحكيمان يسليانها و يجتهدان ان يخففا اوجاعها ولكن كان كل ذلك بلا فائدة لان العلة قتالة حتى ان عقلها ايضا اصابهُ شيء من الخمول فما عادت تتكلم الا نادرًا ولا تفهم الا القليل مما تسمع وهزل جسمها وزالت نضارة وجهها ولزمت بيتها وصرفت جواريها واطلقت سبيل عبيدها

ولم تبق عندها الا من يكفي للقيام بخدمتها واشار عليها الاطباء بوسائط كثيرة فامتنعت ان تسمع كلام احد لان علة القلب غلبت علة الجسم وفي اواخر ايامها امرت ببناء قبر لها من الرخام وانفقت عليه اموالا جسيمة و بنت هيكلا بقرب القبر على اسمه و ينوس وهناك علقت مرآتها لانها ما عادت تطيق النظر اليها ووضعت معها صحيفة مكتوب عليها ما يأتي

اقدمها لونيوس لانها دائمًا جميلة واما انا فصرت اكره النظر اليها لانها تضاعف احزاني على نفسي — ولما دنت ساعتها جمعت اصحابها لكي تودعهم واوصت ارتيبس ان يعمل بموجب ما توصيه بعد وفاتها وذلك انها قسمت ثروتها الجزيلة اربعة انصبة الاول لمساعدة هيتيرات قرنثية اللواتي يحطّ بهن طول العمر او يخونهن الدهر فيحتجن الى النفقة والثاني للنفقات على الهيكل التي بنته عند قبرها وعلى الكاهنات الثلاث اللواتي وكلتهن بخدمته . والثالث انعمت به على جاريتها باخيس الامينة التي كانت قدوة في الخلوص والامانة

والرابع وهو عبارة عن حديقتها جعلته وقفًا لمدينة قرنثية مكافأة لاهلها على محبتهم لها وشدة اكرامهم اياها واحتفاظهم بها

ثم اوصت جاريتها باخيس ان تضع على راسها اكليلاً من الآس وتجمع جواريها المغنيات والراقصات في الحديقة امام تمثال ونيوس وتنار القناديل وتشعل المباخر و يطلق فيها البخور والندّ وذلك لكي تودع الجميع بمجلس طرب ووداعي . فلما انفذوا اوامرها حملوها الى المكان المذكور وتمموا كل امرت به وكان ذلك عند غروب الشمس فمرّت اشعة من النور على وجه لايس وجسمها وانقضت بسرعة فتنهدت لايس وقالت لاصحابها ان

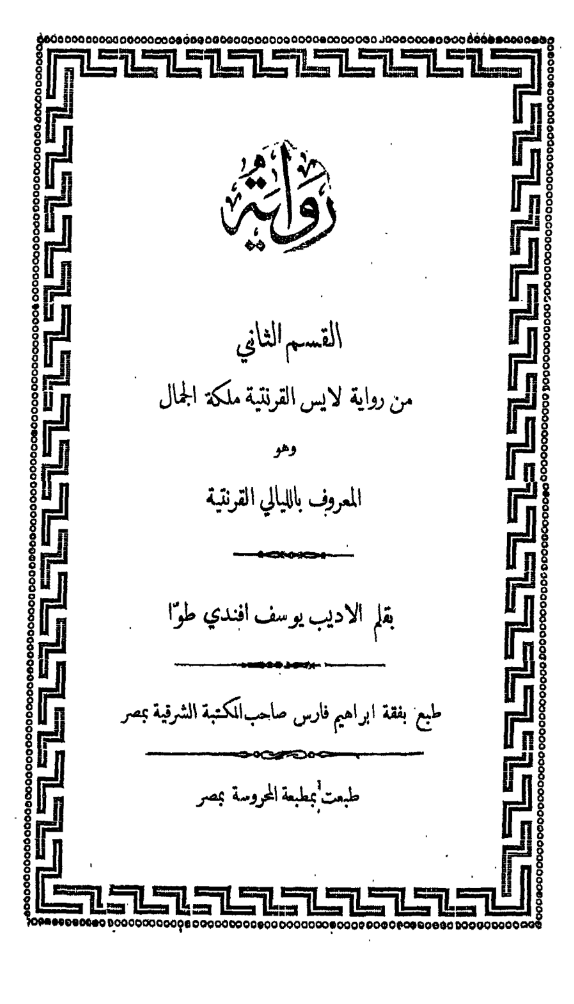
مارأيتموه من فضلة شعاع الشمس التي لن اراها منذ الان اشارة الى آخر دقيقة من حياتي السعيدة الفائتة فجعلوا يذرفون الدموع وهي تلاطفهم بوداعها وصوتها يضعف شيئاً فشيئاً ثم جمعت فضلة ما بقي لها من القوة وقالت استودعكم الله يا اصحابي الامناء لاتخلوا افكاركم من تذكري لست آسفة على شيءٍ من هذه الحياة الا اني افارقكم وهذا واسفاه فراق لالقاء بعده

وللحال فاضت روحها وبهذه الحالة التعيسة انتهت حياة امرأة طبقت الخافقين باخبار محاسنها ومعارفها حتى ان الملوك والامراء والفلاسفة والادباء وسائر طبقات ارباب العقول والاذكاء كانوا يقفون لديها كالعبيد . وعمل لها القرنتيون ماتماً فاخراً جداً وضربوا باسمها نقوداً نقشوا على احد جانبي السكة صورة ضريحها وعلى الجانب الاخر صورة امرأة مكتوب تحته

« لايس القرنتيه »   (تم)

﴿ تنبيه ﴾ انتهى طبع هذا الكتاب وفيه حياة لايس ملكة الجمال بتمامها وسنباشر بطبع الكتاب الثاني وفيه ذكر لياليها الشهيره التي كانت تعقدها للفلاسفة والعلماء وهي المعروفة « بالليالي القرنتية »





رواية

القسم الثاني

من رواية لايس القرنتية ملكة الجمال

وهو

المعروف بالليالي القرنتية

بقلم الاديب يوسف افندي طوّا

طبع بنفقة ابراهيم فارس صاحب المكتبة الشرقية بمصر

طبعت بمطبعة المحروسة بمصر



الفصل الاول

الهيتيرات او نساء اليونان العالمات والمحظيات من فتيات اليونان

(كما رواه ارستوفان البيزانسي)

في اثينا وقرنتية النساء الهيتيرات قسمان · الاول النساء العالمات · والثاني المحظيات لدى الملوك والامراء وعظماء الشعب · وسببهُ جمالهنَّ الفاتن وعقلهنَّ الباهر ·

· فالقسم الاول اي النساء الهيتيرات لا يملنَ الى كسب المال لان همهنَّ كسب العلم وتحصيله من وجوهه حتى يصير قولهن القول الفصل ورأيهن من احكم الاراء في كل ملة او عقدة علمية ولذلك فضلنَ المعيشة مع من تختاره انفسهنَّ من الرجال على الزواج الشرعي القاضي عليهنَّ بان يلزمن الخدر · ويعشن عيشة من في القبر ·

والقسم الثاني اي المحظيات يملنَ الى مصاحبة ذوي اليسار والاقتدار طمعاً في جاههم ورغبة في ثروتهم ومالهم وهنَّ اقل علماً وفهماً من الهيتيرات واكثرمنهنَّ جمالاً

ولا يخفى ان المعاشرة والاختلاط بذوي العقول الحصيفة يزيدان الانسان ذكاءً في عقلهِ واضاءة في ذهنه · والنساء اليونانيات في ذلك العهد اذا

تزوجن كان يحظر عليهن الخروج من خدرهن الا في الاحتفالات الدينية والسياسية وعليه اذا زفت الفتاة وانتقلت من بيت ابيها لبيت زوجها تخرج من خدرها الاول ليحجر عليها في الخدر الثاني . وكانت العادة قديماً اذا اوصلوها الى زوجها بعربة ان يحرقوا احد دواليب العربة والمعنى بذلك انها دخلت في دائرة حكم رجل جديد فيتعين عليها الرضوخ لامره والعمل بارادته واذا خالفته تصبح هيتيرية فتفقد صيتها الحسن وتقفل دونها ابواب منازل العائلات وعندئذ يسوغ لها ان تعكف على درس العلوم ومخالطة العلماء وهكذا تتسع دائرة عقلها وتستنير افكارها بالانصباب على تحصيل العلوم وارتشاف سلسبيلها العذب . ومن البواعث القوية على خروج النساء المخدرات عن طاعة ازواجهن هو الضغط الحاصل من الرجال عليهن اذا حاولن تثقيف عقولهن بالعلوم وكان لهن بذلك ميل وانعطاف فيتركن ازواجهن ويعشن عيشة حرة و يخالطن من شئن و بذلك يصبحن هيتيرات واذا حصلن على شيء من العلوم والمعارف زدن بذلك رفعة في اعين العظماء والامراء ولذا من كان له المام بالعلوم او على شيء من سلامة الذوق من هؤلاء لا يستنكف من الزواج باحدى الهيتيرات اللواتي لا يضر بهن ما يشيعه الشعب من حريتهن الزائدة في حدها بل ربما كان سبباً لزيادة الشهرة

ولا انكر ان تقدم الحرية واطلاقها لمن هواهل لها متوقف على تقدم المعارف في البلاد شيئاً فشيئاً والحرية في ذلك الزمن كانت مطموسة تحت آثار الجهل ومعالمه الدارسة

ومعروف عن النساء الهيتيرات انهن على جانب عظيم من سعة المعارف

والتوسع في الفنون الجميلة وعلم الموسيقى حتى انك قلما ترى بينهنّ من لا تحسن ذلك ومنهن من شدت في ضروب السياسة او تعمقت في فن الادب وبلغت بها شأواً عظيماً ليس وراءه غاية لمزاحم وكانت بيوتهنّ على جانب عظيم من فخامة البناء وحسن التزويق وجمال المنظر وكفاك وصفاً لها انها منازل ربات الجمال اوآلهة العلم والجمال ومحط رحال اعاظم الرجال واشجع الابطال من اهالي البلاد القاصية والدانية كسقراط وبركليس واناكساغورس والسيبيادس وهؤلاء تغني شهرتهم عن ذكر افضالهم ومدح اعمالهم . وكانت منتديات عاشقات الحرية والعلم غاصة دواماً بامثال هؤلاء الرجال العظام وبمن هم اقل منهم درجة فتتبارى الاراء العلمية وتحصل المباحثات الادبية فتنشحذ القرائح الخامدة وتستنير العقول الجامدة فيصبح الجاهل عاقلا والجبان شجاعاً ومبغض الوطن شهماً فاضلاً يناضل عنه بحسامه ولسانه

. وقد حصلت الهيتيرات في قرنتيه خصوصاً وبلاد اليونان عموماً . على شهرة بعيدة في الجمال الطبيعي والكمال الادبي المضاف اليه رقة العواطف والاحساسات وقد اعترف لهنّ بذلك من اسعده الحظ وفاز بالتقرب منهنّ . ان الهيتيرات من اعظم نساء العالم . في اجتذاب العقول بسلافة كلامهن ورحيق ادبهن واكبر شاهد على ذلك لايس القرنتية ملكة الجمال . واسباسية ربة اللطف والدلال وهذه نشأت بين ارجاء اثينا وارتضعت من لبان المعارف وحصلت على اكبر جانب من العلوم وشهد لها اعداؤها انه لولاها لما وصل بركليس الشهير الى قمة المجد والفخار فقد كانت لها طلاقة كلام وفصاحة لسان اذا وقفت على ذروة المنابر شخصت لها الابصار وامتدت اليها الاعناق وهي هي التي كانت تنشيء خطاب رئيس الجمهورية ليتلوه علناً على

جمع عظيم من الكبراء والعظماء من الشعب · اما لايس فاوصافها الحسان لاتقع تحت حصر ولا يأخذها عدّ لكثرتها فقد جمعت بين طلاقة الوجه وجماله ورشاقة القدّ واعتداله ما يأخذ بالعقول رواء ويجذب القلوب ذكاء ·

وقد كانت مدينة قرنتية تتباهى في عصرها على كل مدن اليونانية · والشهيرة سافوا التي لقبها الناس بالهة الموسيقى والفنون الجميلة قد تخرج عنها كثير من شهيرات النساء الهيتيرات كارينة وتلسيل · وميرتيس · والشهيرة كودين التي علمت بنار اروس الشعر وحازت قصب السبق في الالعاب الاولمبية الشهيرة كانت هيتيرة وكذلك داموا ابنة الفيلسوف فيثاغوروس فانها خلعت عنها رداء الجهل وادرعت ثياب العلم وتعلمت من ابيها زبدة العلوم ونشرتها بين بنات جنسها فاستفادت وافادت من ذلك · وقد ادت بنا العوائد ان نحجز على المرأة ونضيق عليها في منزلها ظناً منا انها خلقت لتلزم بيتها ونقوم بترتيبه وتربي اولادها ·

· اما اذا كانت طليقة من قيود الزواج وشرائعه الظالمة على النساء فمن اسهل السهل على المرأة ان ترغب عنه وتأخذ باساليب العلوم وتطرق ابوابها تتحصل عليها من جميع وجوهها وكل اسبابها ·

وهكذا كان مركز النساء قديماً في الهيئة الاجتماعية واخسر به من مركز حرج · وقد كان الناس رغماً عن مزاعمهم الواهنة واكاذيبهم الساقطة التي كانوا يشيعونها عن الهيتيرات لا يمكنهم سوى احترامهنّ وتكريمهن · اولاً لانهن كاهنات المعبودة افروديتة · ثانياً لما لهن من سعة النفس واتقان الصنعة في فنون النقش التي كنّ يعلمنها للنقاشين والمصوّرين ليزينوا هيكل

الهـة الجمال افرودتية بالصور الجميلة والتماثيل المزخرفة · وبهـذه الامور كانت الهيتيرات تحصل على شهرة عظيمة في جمالهنّ وعلومهن والنساء اللواتي يبتن بين الاستار والحجب يبقين خاملات الذكر مجهولات الاسم · ولا جناح علينا اذا اعترفنا بفضل الهيتيرات في تقدم العلوم بيننا وترقينا في سلم المدنية والحضارة و ببناء قصور العلم الباذخة على اطلال الجهل الدارسة فهنيئاً لهنّ وفخرا

الفصل الثاني

(الكلام على بنات الهوى)

ولنذكر الآن طرفا عن سيرة بنات الهوى وحالتهنّ امام الهيئة الاجتماعية حيث قد حكم الشارع الحكيم بضرورة وجودهنّ في العمران حفظاً لشرف المخدرات ان يثلم «وقيل انهن سياج الحرائر» وقد وضعن تحت قوانين صارمة لزيادة تعاستهنّ وكل من تعدت تلك القوانين كانت تجازى اشد الجزاء ·

ونقسم هـذه الفئة الى قسمين · الاول العـازفات بآلات الطرب كالشبابة وما شاكل ذلك ويسمين «بالاكيس» ومنهن ايضاً الهيتيرات من الطبقة الثانية اللواتي حط بهن الدهر من اوج العز والدلال الى هوة الذل والفقر وهؤلاء اقل من القليل والقسم الثاني الفئة السافلة جداً التي ليس بايديها شيء من وسائل المعيشة وليست نساؤها على شيء من حب العمل للقيام باودهنّ فينطرحن لذلك في غمرة الموبقات ويبعن انفسهن سلعة رخيصة لمن يجود عليهنّ بشيء من الدراهم وفقرهن المدقع يزيد في بلائهن

وشقائهن فيطفن في الازقة والشوارع وربما صادفت منهن في خرابات الدور او بين شوائخ الصخور وفي الكهوف والمغائر التي لا تأوي اليها اللصوص ولا يدعنَ وسيلة من وسائل الكسب الدنيئة الا واتينها عن مهارة وحذق شأن من انحط في مهاوي الضعة والابتذال فيسلبن دراهم الساذجين وقليلي العقل من الناس بتمويه الحقيقة وطلاء الحيلة والاكاذيب المختلفة والترهات الباطلة وقد شاهدت مرة بعيني ثلاثاً من النساء في منتهى شارع سينوجارجس يدفعن ثلاثة من الشبان الى البيت الذي يبتن فيه وكان احدهم صاحياً لم تكن الخمر قد لعبت بعطفيه كرفيقيه فاخذ يصرخ ويهددهن قائلا يا ايتها السارقات الماكرات ارجعن لنا الدراهم التي اخذتنها منا ولما لم يجبنه الى طلبه همَّ بالدخول عنوة الى المنزل فدفعنه الى الخارج ونزلنَ عليه بالضرب حتى لانت اعطافه فابتعد عنهن وهو يلعن ويسب

وهذه الفئة من بنات الهوى يمقتها اليونانيون كثيرًا وترسم عليهن الحكومة ضريبة واهية تتقاضاها منهن بطريق العسف احيانًا وغالبا كانت تكل امر تحصيلها الى احد الاغنياء فلا يدع طريقة من طرق الجور الاَّ ويأتيها ليحصل على المال ولذلك كن يطرحن انفسهن لكائن من كان حتى يحصلنَ على الدراهم المطلوبة والقانون المختص بهن يلزمه تعديل وتبديل كثير توصلا لتخفيف بعض البلوى عن هاته المسكينات

ومما سبق يعلم ان بين الهيتيرات و بنات الهوى بونا بعيدًا في المعيشة فبنات الهوى يهدمن بسفالتهن ما يبنينه الهيتيرات من الشرف الباذخ والمجد الرفيع

الفصل الثالث

في زينة المحظيات اليونانيات

هذا هو دأب المحظيات اليونانيات ان يتبهرجنَ بملابسهن ويتبرجن بزينتهن وهذا التبرج وهذه الزينة يشغلان قسماً عظيماً من النهار كما سيأتي وصف ذلك

فبعد ان كانت تنهض المحظية الجميلة من نومها صباحاً كان يدلكها ثلاث من الجواري بايديهن ذاهبات جائيات ليجري الدم في المفاصل بسرعة وبعدئذ يأخذنها الى الحمام فيتركنها مقدار نصف ساعه في الماء المعطرة بانواع العطور وبعده يفركن جسمها لازالة الاوساخ السادة للمسام الجلدية ثم يشرعن بتنقية الوبر الناعم ويلقينها على السرير وهنالك مجال تقدر به ان تفتكر بما عساها ان تلبس من الثياب وتحسب حساباً عظيماً لذلك . فلا تدع شيئاً من ادوات الزينة حتى تتزين به لتسلب العقول وتستولي على الافكار وتبهر الانظار بمرآها الفتان فتنظر نفسها في المرآة وتتبسم كبراً وخيلاء وتمرن نفسها على ما يجب عمله من الحركات اذا ارادت اظهار المودة لاحد عشاقها ثم لما يقر قرارها على رداء تلبسه تومئ الى الجواري المستعدات لخدمتها فتسرع بخلع الدثار عنها وتقوما حداهن بترويح جسمها بمروحة من ريش النعام بعد تنشيف المبتل من جسمها ثم يلقين عليها رداء طويلا من عنقها حتى قدميها ويأخذن في تلبيسها الملابس التي تكون اختارتها ويعقصن شعرها . وهذا اصعب عمل يعملنهُ لانه يجب ان يمشط بالمشط بعد ان يدهن بالزيوت العطرية لينعم ويلمع ثم يكوى بمكاو مخصوصة تحمى في النار لعقص الشعر وبقائه على حالته هذه فيضفر الشعر ضفائر يتخللها شرائط

من الحرير الوردي معلق بها شيء كثير من الحلي والجواهر ويشك في وسط الشعر دبابيس من الماس لجمع الشعر ويوضع فوق الجبهة عقد من اللؤلوء الابيض تحت ذلك الشعر الحالك فيضيء ظلامه ثم يشرع بتزجيج الحواجب بطلاء اسود ويمرّ بملقط صغير به دخان بخور زكيّ الرائحة على شعر الجفون واهداب العيون لتكبير المآقي وظهور شعرها ظهوراً جميلاً وبعدئذ تنظف الاسنان « بفرشة » مغطوطة بمسحوق عطري ويوضع في الفم شيء من الحبوب العطريه لتتعطر الانفاس به ثم يدهن الجسم بماء قابض لبسط التجعدات بواسطة اسفنجة جملة مرار وبعده يبدأ بطلاء الوجه والعنق والصدر لنعومة الجلد وزيادة بهائه

وفي الاخير يأتي دور اليدين والرجلين فتقلم الاظافر وتمد المساحيق العطرية على باطن اليد وظاهرها وبعد ذلك تغطس رؤوس الاصابع بدهان وردي ليكتسب لون الاحمرار وبعد ان يتم كل ذلك ياخذ في الباسها الملابس وهاك بعض تفصيل عنها . (الكيتو) اللباس الاسفل (اورثوساد) رداء متدل الى الرجلين بثنيات متناسبة (فاروس) الرداء الوطني (كروكوتس) رداء اصفر متدل الى عقب الرجلين « بيبلوس » رداء يلبسه الجنسان اللطيف والنشيط

(كلينه) اللباس السميك (فيلونيس) رداء يلبس عند رداءة الطقس (ليدوس) ثياب من الجوخ مطرزة تلبس فوق اللباس العادي

(ابوميس) رداء قصير يتدلى فقط الى الحزام (ستول) لباس طويل منسدل (زوسترون) حزام . ويلي ذلك نقاب ثم عقود من اي معدن كان واسورة من الذهب ومشبك مرصع بالماس

و بعد ان نلبس هذه الالبسة على الوجه الذي تقدم ذكره يشرع بالزينة الكمالية فتفتح علب المجوهرات الثمينة كالعقود والاساور والخواتم والاقراط والمشابك الماسية وغيرها بترتيب كامل حسب ما تصفها الغانية الواحدة بعد الاخرى مقدمة الاحسن على الحسن فتضع كل شيء في مكانه من جسمها الناعم . ثم تجلس على مقعد مكسو بالاقمشة الحريرية المزركشة وتستعد لملاقاة عشاقها الخاضعين لدولة جمالها الهائمين في بيداء غنجها ودلالها . و بعض الاوقات تقل مركبتها ذاهبة الى المتنزهات والمراسح او الى دعوة احدى زميلاتها من النساء حيث ترى كثيراً من الشبان ذوي المال والجمال الذين يرؤ عمرهم ضياعاً بين اقداح الراح ومداعبة الخود الملاح وهناك تنصب لهم شراكاً من جمالها وحبائل من غنجها ودلالها فلا يسع ارباب الغرام الثبات امام تلك المحاسن البديعة وذلك الجمال الباهر فيقعون امام هاتيك المناظر منجذبين اليها بمغناطيس لطفها الساحر الكامن في العيون والمحاجر وهي اذا رأت من احد الشبان تزلفاً اليها وتقرباً منها ازدادت عنهُ رغبة ومالت بوجهها عمداً منها لتزداد محبتها في فؤاده وتمتلك حبة قلبه فيخلص لها الود و يأتيها منقاداً اليها بسلاسل الهوى وحبائل الغرام والمحظيات المثريات في مدينة قرنثية قد اخترن المتنزه في حرش افروديته آلهة الجمال اذلا يقرب حمى الالهة الا الملائكة

﴿ ملائكة الحب وآلهة الجمال ﴾

اما في اثينا فيختلف عن ذلك تماماً حتى انك قلما ترى له نظيراً في اليونانية

هل رأيت في اثينا حي السيراميك ذلك الحي الواسع الارجاء المزروعة به الحدائق الغضة ذات الاشجار الباسقة والزهور العطرية اليانعة . فبين هذه الزهور وتلك الاشجار كانت قبور شهداء الوطنية وابطال اليونانية محاطة بالتماثيل الرخامية البديعة المنظر الممثلة للملائكة السماء تحمل اكاليل الغار فوق تلك القبور كانها تقول هذا جزاء شهداء المجد والفخار اضعها فوق رؤوس الابطال لتكون علامة مدى الايام والدهور على حب الوطن والدفاع عنه بالنفس والنفيس وخوض بحار المنايا لا عزازه ورفع مناره و بين تلك الزهور والقبور عيون ثرة من الماء القراح وجداول جارية على حصباء مثل الماس اذا انعكست عليه اشعة الشمس

في هذه البقعة الجميلة و بين تلك الحدائق الحسنة كانت تسرح غزلان النقاء وتمد شباكها الغزلية فتصيد قلوب الشبان وتفتك بسهام عيونها السحرية بهم فتكاً ذريعاً وحول تلك الحدائق سور عال ابيض الحجارة يحيط بها من باب ديبيل حتى منتهي حي سيراميك

وهذا السور كاني به صحيفة يكتب عليها الشبان الذين دخلوا من باب الغرام حديثاً وشغفوا بمحاسن هاته الملاح ولا يستطيعون من الدنو اليهن سبيلاً اسماء من جذبتهم بجمالهن الساحر حتى اذا خيم الظلام ترسل كل واحدة من تلك الخود الفاتنات من يقرأ لها الاسماء المسطورة فاذا كان بينما اسمها بكرت في اليوم التالي بالذهاب الى هناك ولما تصل تسند بجسمها الى الحائط مكان اسمها وهناك تنتظر وصول ذلك العاشق الولهان (هذا اذا لم يكن قد سبقها الى ذلك المكان) فاذا اجتمعت به تشاكيا الغرام وتحالفا على الحب والوداد و يالها من ساعة على قلوب العاشقين و بعد ذلك يتفقان على

وسائل المعيشة وترجع تلك الغادة طالبة منزلها وعشيقها يتبعها كظلها فما احلى هذه البرهة وارقها

الفصل الرابع

في ما يستعمله المحظيات من الطلاء كالحمرة وما شاكلها لازالة التجعدات والكلف وجعل الجسم ناعماً

نجتزئ بسرد ما رواه الشاعر الهزلي الكسيس عن هذا الامر لان به تمام الفائدة حيث وصف لنا ذلك في احدى رواياته المعروفة (بايستوستاسيون) او الميزان اذ جرت العادة قديماً في اثينا ان يزنوا مقدار جمال المرأة او علمها بميزان العقل والتمحيص قال الراوي الكسيس — ان شغل المحظيات الشاغل هو ميلهنّ الى التبرج والتزين فلا يدعنَ وسيلة من الوسائل المعروفة الا ويستعملنها توصلاً الى هذه الغاية نابذات ماسوى ذلك ظهرياً · فاذا كانت المرأة قصيرة القامة اخذت حذاء عالياً فتطول قامتها واذا كانت طويلتها اخذت حذاء واطئاً وامالت برأسها الى احدى كتفيها وارسلت من كنانة عينيها سهام الحب فتغرب في قلوب العاشقين وتقتلهم واذا كانت الغادة هزيلة الجسم عملت مابوسعها لتجسيم هيئتها فتبرز الى عاشقها بحلةٍ مزركشة تختال بها وتجرُّ ذيولها عجباً واذا كان البطن بارزاً الى الامام شُدَّ عليه حزامٌ من الصوف الناعم فيرق · واذا كانت الحواجب قليلة الشعر استعيض عنها بتزجيجها بكحلٍ اسود من دخان البخور واللون الاسمر يبيض بطلاء من معجون الكرز والاصفر يحمرُّ بطلاء (ايدروتا) اى القرطم وهو فصيلة من نبات احمر ينمو كثيراً في الديار المصرية فاذا طلي به الوجه اكسبه لوناً وردياً والمحظيات شديدات الدهاء كثيرات الاهتمام في اساليب

اظهار جمالهنَّ فاذا كانت الغادة منهنَّ ذات اسنان لؤلؤية لا تفتر برهة عن الابتسام واذا كانت اسنانها صفراء او غير مصفوفة كما يجب بحلقها وضعت ورقاً من الآس بين شفتيها فلا تظهر بشاعة اسنانها اذا تكلمت او تبسمت ثم انهنَّ شديدات الرغبة في لبس الانيق من الثياب وتكحيل المآقي بكحلٍ مائلٍ الى الزرقة يقلدنَ في ذلك النساء الهنديات ولا يسهو عن بالهنَّ ازالة الوَبَر الناعم من كل اجزاء جسمهن ثم يطلين رؤوس اصابعهن بطلاء احمر و يغتسلنَ دواماً لنظافة الجسم وليونته وقصارى الكلام انهنَّ لا يدعن شيئاً الا ويستعملنه لزيادة محاسنهن واخفاء بشاعتهن

حاشية على الفصل السابق

«المواد التي يستعملها المحظيات لطلاء اجسامهنَّ وتحسينه»

قد افرغ المصنف جهده في البحث والتنقيب عن المواد التي كانت تطلي به المحظيات اجسامهنَّ حتى توصل اخيراً لمعرفـه ذلك وهاك بعض الشيء عنها .

« الطلاء الابيض » كيفية استعماله . هو ان تسحق كربونات الرصاص سحقاً جيداً ويمزج بالماء حتى يصبح لزجاً ثم يطلى به الجلد فيزيد في بياضه ويمحو اثر التجعدات التي به

« الطلاء الاحمر » يمزج « الاورسيل » مع القرطم . وفي ايامنا هذه يستعمل القرطم فقط وهو اشد نفعاً واقل ضرراً انما قد ابطلت هذه العادة تدريجاً لان نساءنا أعزهنَّ الله عرفنَ بعد البحث ان هذا الطلاء سام يضرُّ البشرة فرغبن عنه حتى لم يعُد يستعمله الآن سوى الممثلات في المراسح العمومية

« طلاء للوجه والذراعين واليدين »

هذا الطلاء يعمل من المواد الآتية

جزء من مسحوق اللوز · مع قليل من العسل · وصفار البيض المخفوق توضع هذه المواد في الهاون وتخفق جيداً حتى تصير كالعجين وبعد ذلك يضاف اليها بضع نقط من موادٍ عطرية ثم يطلى الوجه كله حتى يتكون به طبقة سميكة · ونعم ماقال الناقدون في ذلك « وهو ان الزوج لا يرى وجه زوجته الحقيقي الاَّ نادراً »

« مسحوق لزينة الاظافر »

يظن ان هذا المسحوق هو مزيج من الكاد الهندي وصمغ الصنوبر وقليل من البخور الجاوي المسحوق واستعماله بان تغمس به قطعة من القماش مبلولة بالزيت ثم تدلك به الاظافر حتى تكتسب النعومة واللمعية واللون الوردي الجميل

« طلاء الشعر »

اشتهرت نساء اليونان قديماً بجمال شعرهن وكيفية عقصه وضفره فكن يستعملن غالباً الزيوت ليلين شعرهن وينسدل بسهوله وقد وقفنا على بعض وصفات قديمة تبين لنا كيفية عمل المزيج الاتي وهو المعروف بالطلاء القورنثي

زيت اللوز المقشر	٦	اواق
شحم عجل مغسول ومدقوق	٢	»
زيت البندق	١	»

يضاف الى ذلك بخور جاوي وقرفه حلوة وعنبر

سائل لزينة البشرة

كان القدماء يستعملون لذلك طرقاً جمة منها ما ياتي بفائدة و بعضها عديم الجدوى وهاك بعض الطرق

ماء الورد . مع ماء العسل وقليل من البخور الجاوي يوخذ منها اجزاء متساوية

ومنهم من كان يستعمل قطرات الكروم والندى الساقط على اوراق الزهور وعصارة بعض نباتات او نشاءها السكري

ولازالة التجعدات كانوا يغلون ماء النبات المعروف بلسان الحمل «وهو عشبه قابضة» مضافا الى مطبوخ قشر الرمان وعصارة الليمون

مسحوق اسود لتزيين العيون

هو مزيج من الرصاص والاثمد «حجر الراسخت» وكحل اصفهاني وقد كان بعضهم يستعمل دخان البخور و برادة الحديد مضافة الى ذلك عصارة كثيفة من قشر الرمان ثم يغط بهذا المزيج فرشه صغيرة ويمر بها على الحواجب وعلى ظرف الجفون فيقتم لون الحواجب ونساء الشرق يستعملن في ايامنا هذه مزيجاً يقرب من هذا واسمه الكيفور

مادة لازالة الشعر والوبر

كان القدماء يستعملون مواداً غير سامة كالتي تستعمل الان لازالة الشعر وهذه المواد التي يستعملونها مركبة من الراتينج (صمغ الصنوبر) وعسل يمزج جيداً ثم يصب في وعاء خزفي و بعدئذ يعمل طبقات سمك الواحدة سنتيمتراً ثم تطلى بها اجزاء الجسم النامي بها الوبر فتلتصق هذه الاوبار بتلك الطبقة اللزجة وتصبح هذه ناشفة لتجمع المواد عليها ثم تنزع عن

الجسم مع تلك الاوبا روالكي لا يتهيج الجلد بنزع هذا الطلاء يدلك حالاً بدهان من الزيت والشحم الطري٠

(مسحوق الاسنان)

هو مزيج من مسحوق الفحم والمرجان والكاس الناعم المعروف بالطباشير يسحق في وعاء من الحجر السماقي سحقاً ناعماً ثم يضاف اليه بعض نقط من مادة عطرية ٠ ويستعمل هذا المزيج باسفنجة لها يد من العاج وايضاً باداة غيرها مصنوعة من البقس المثنيّ من احد طرفيه حتى تصير كفرشه عادية

وتمضغ النساء صمغ الضرو (المستكي) وهو يصقل الاسنان و يبيضها و يعطر رائحة الفم والنساء الشرقيات في ايامنا هذه يمضغن هذا الصمغ وقل من لا تستعمله منهنّ

(الغلافات ذات الرائحة)

قد شاع بين النساء اليونانيات والرومانيات قديماً استعمال هاته الغلافات في كل زمان ومكان حيث كانت توضع بها الاقمشة والملابس على انواعها فتكسبها رائحة ذكية

(الغلافات القورنثية)

مسحوق السوسن ٠ مع مسحوق الورد ٠ والصندل الليموني وحب القرنفل المسحوق وقرفة ناعمة و بخور جاوي وآس مع جوزة الطيب يؤخذ من هذه الاصناف اجزاء متساوية المقدار وتسحق في هاون حتى تنعم جيداً ثم تغربل وتملأ بها الغلافات وتوضع في الحزامات والجيوب

(الحمامات)

كانت العادة عند قدماء اليونان ان يستحموا في كل يوم والاغنياء منهم كان لهم حمام خصوصي في منازلهم كانوا يغتسلون به يومياً عدة مرار اما

النساء فكن يغتسلن بماء معطرة ولما يخرجن من الحمام يعطرن انفسهن بالروائح الذكية التي تنعش الفؤاد وفي اثيناوقرنتية كانت النساء يغتسلن دواماً لينعم جلد جسمهن و يكتسب رائحة ذكية وهاك نوعين من الحمامات حفظهما لنا التاريخ وهما

الاول الحمّام الجمالي

شعير مع ارز مقشران	١٠٠	جرام
نخاله مع عود الند المبروش	٢٠٠	كليو جرام
زهرة الخبيزه مع لبيدة بيضاء (نبات)	٨	حفنات يد
لسان الثور (نبات)	٤	حفنات يد
حبوب الكتان مسحوقة	١٠٠	جرام

اغل هذه المواد بكمية كافية من الماء واطرحها في الحمام

حمام ثاني

العير مقشر	١٥٠٠	جرام
ترمس مسحوق	١٠٠٠	« «
ارز مقشر	٥٠٠	« «
لسان الثور مع الحصالبان	١٠٠٠	جرام
سعتر ناعم	١٠٠٠	« «

اغل هذه المواد بكمية كافية من الماء واسكب هذا المغلى بماء حمام عادي . ومن رغب الاسهاب في هذا الباب فعليه بمراجعة كتاب (المودة والزينة) وحفظ الجمال وكتاب روائح الزينة وصحة المستحمين فانه يرى في هذه الكتب ما تتوق اليه نفسه وخصوصاً السيدات اذا اردنَ ان ينهلنَ

من هذا المنهل العذب ·

(الصبغات المسحوقة)

امتازت النساء اليونانيات قديماً بكيفية عقص شعورهن وصيانتها فكن السابقات في هذا المضمار باجماع الاراء واتفاق الاهواء · فاذا اصيبت المرأة بالصلع بالغت في التستر عن الاعين بالاسراع الى مداواة نفسها واذا عبث البياض بشعر رأسها من وقر السنين او ركوب متن الشهوات طلت شعرها بصبغات مختلفة هاك تركيب بعضها ·

« ١ » ثمر البيلسان المسحوق · مع رغوة حديد سماقية اللون وصمغ مستكي · وكمية من الماء كافيه يترك هذا المزيج عدة ايام ليذوب

« ٢ » زاج اخضر «سلفات الحديد» مع مغلي العفص ومغلي السماق ضاف اليها كمية كافية من الماء و يدهن بها الشعر و يلفّ الراس بقطعة قماش لحفظ الحرارة المسببة لنجاح العمل اه

الفصل الخامس

ليلة اولى

قصة السيبياد

وهي تتضمن صباهُ وذكاهُ وما جرى له من الحوادث الغريبة و زواجه بهيباريت وموته الشنيع ·

في قاعة الاستقبال بقصر لايس ملكة الجمال وسيدة اللطف والكمال كان مجتمعاً لعدد وافر من العلماء والعالمات من كل اقطار اليونانية ليسمعوا قصة السيبياد التي سيقصها عليهم كليون ولما استقر بهم المقام قامت لايس وقالت لاخدى جواريها ان تضفر اكليلاً من

الفار وتضعه على رأس كليون وامرت بقية الجواري ان يقدمن الكؤوس للضيوف فصدعن جميعهنّ بما أُمرت وللوقت وقفت لايس بين ذلك الجمع و بيدها كأس مترعة من الخمر فوقف الحضور اجلالاً لها فقالت لهم ارفعوا كؤوسكم ايها السادة ونشرب نخب السيبياد الذي هو موضوع حديثنا هذه الليلة وليت اصوات المسرات تصل الى قبره ليبتهج قلبه الذي لم يزل حيًّا فابدأ يا كليون بقص قصته لنشنف آذاننا بذكر حوادثه الغرامية ونطرب باستماعها· فوقف كليون على سرير عالٍ وقال : يا ايها المواطنون الاعزاء و يا شرفاء امة اليونان المجيدة لم يسعني الا اجابة ملكتنا لايس الى ما سألتني من سرد قصة الشهير السيبياد وها الان اشرع بقصها عليكم — قد ساعدني الحظ مرارًا ان ارى السيبياد وانا صغير السن واسمع حوادث غرامه فهو ولا ازيدكم به علماً جميل الوجه ذكي الخاطر غنيٌّ يلبس الانيق من الثياب جوادًا ينثر الذهب من يديه الى الفقراء والمعوزين · ولفرط جماله كان يجتذب القلوب اليه الاّ انه رغماً عن نسبهِ الشريف لانه من سلالة الشهير اجاكس وله ببركليس القائد صلة قرابة · قد انطرح منذ صباه في الموبقات وارتكب المحذورات حتى تألب عليه عدد من الشبان يتملقونهُ و يبالغون في اكرامه طمعًا بنوال شيء من فيوض كرمهِ ونعمائهِ

· ولم ترَ عين في كل اليونانية اجمل منه وجهاً ولا افصح لسانًا على امتلاك القلوب وقد شهد لهُ اعداؤه وحساده بذلك على رؤوس الاشهاد وقد طار صيتهُ في الآفاق حتى ان اشراف اليونانية وسراتها كانوا يدعونه الى الولائم والاحتفالات فكان اول من يأتي وآخر من يخرج من المدعوين واذا جلس بين القوم يسايرهم و يظهر لهم لطفاً زائداً وخصوصاً للسيدات

حتى صار امر الدخول الى مجاس الاشراف سهلاً عليه وايقاع الغانيات بشراك جماله ولطفه اسهل منه لكنه كان متقلب الافكار لا يعلق قلبه بحب غادة حتى يهجرها بعد قليل ويهيم بغيرها ولفسادخلق الخير فيه رغماً عن نصائح سقراط استاذه وارشادات بركليس قريبه ودموع والدته وحسرتها على انتهاجه طرق الشرور من كل الوجوه والاسباب فكان آية الفساد في اثينا عاصمة اليونانية

وحوادث السيبياد العشقية كثيرة لا تقع تحت حصر ولا يأخذها عدّ فلا يمكن سردها كلها بل اجتزيء بقولي انه كان مرموقاً بعين السعادة والحظ لان النساء والفتيات كنّ يحببنه حبّاً عظيماً رغماً عن كثرة شروره . الاّ انهنَّ انحرفنَ عن حبه اخيراً وابتعدنَ عنه كما يبتعد الصحيح عن الاجرب ولم يخلص له الحب سوى تلك الفاضله سومندرا التي قاسمته الشقاء والاتعاب ورافقته الى منفاه ولما فاضت روحه كادت كبدها تتصدع عليه حزناً

واني اذكر لكم الآن من حوادث غرامه اثنتين الاولى حبه لكليسريون والثانية لميدين وفي كلا الحادثتين موعظة له على شروره .

— ان كليسريون سليلة عائلة اثينية شريفة كانت يتيمة الأب والأمّ ولها اخ اسمه بتيموس وقد صادف السيبياد كليسريون مرةً في محل الالعاب الأولمبية اثناء غياب اخيها عن اثينا فطارحها الغرام واباح لها مايكنهُ نحوها من الحبّ والهيام اما هي فاستاءت من وقاحته وامرت خادمتها سنتي ان تبعده عنها وتنتهره فالتهب قلبه بغضاً واقسم باغلظ الايمان ان يخضعها لسلطان جماله ومن ذلك الحين اخذ يستعمل اساليب المكر والخداع لايقاعها بشراكه اما كليسريون فكانت تتقي سهام دهائه بدرع الصبر وقد

فازت مراراً برد كيده الى نحره باغضائها عنه واحتقارها له انما لما رأى السيبياد ان ما استعمله من طرق الحيل لم ينجح رشا الخدام بالمال وافاض فيهم العطاء الجزيل فخانوا مولاتهم وادخلوه يوماً الى منزلها سرًّا · وقد كانت كليسريون وقتئذٍ في الحمام ولما خرجت رأت السيبياد مختبئاً وراء الستار فكادت تتميز غيظاً على هذه الوقاحة فاستجارت بخدامها واستنجدتهم فلم ينجدوها ولم يبالوا بصراخها فالتفتت اليه وقالت له اخرج يا ايها الذل الجبان اخرج وفارق هذا المكان الطاهر ولا تدنسه بقدميك النجستين ولا تلزمني ان استنجد بقوة الحكومة على طردك

— خففي عنك الغيظ يا حبيبتي ولا تخافي شرًّا ممن وقع بشراك جمالك الباهر واضناه لطفك الساحر وها انا اقع على قدميك ملتمساً لرضى والصفح عما سببته لك من الكدر ·

— ياله من شرير وقح يطلب مني الصفح عن فعله القبيح المنكر ·

— تبصري ياحبيبتي ماعسى ان يعقب خروجي من منزلك في مثل هذه الساعة فالناس يتقولون عليك الاقاويل الباطلة ويرمونك بقوارص الكلام وهذا ما لا يرضاه عاشق نظيري لفاتنته

— انا لا اخشى كلام الناس عني بل اخاف من شرورك فاخرج من امامي

— يامسكينة الا تعلمين انك بكلامك هذا تجبرينني على اذاعة هذا الامر عنك في ارباض اليونانية فاذا شاع هذا الخبر كان به تلاف حالك وخسارة صيتك الحسن ·

— الناس لاتصدق كلامك عني لانهم يعرفون اني فتاة طاهرة الذيل لم اعمل عملاً يستوجب قولاً او ملاماً وانت تعرف من الجميع انك لئيم

شرير تدنس الاعراض الطاهرة بجرأتك و وقاحتك

— النميمة غالباً تتغلب على الحقيقة يا عزيزتي وتمحقها فصدّقيني ودعيني هنا الى ان يرخي الليل سدوله

— لضعفي النسائي بلغت بك الجسارة والقحة الى هذه الدرجة فاخرج من هنا دون تردد

لاتزيدي حرفاً على كلامك فها انا خارج انما لست ملوماً اذا كنت سبباً في اذاعة ما اعلمه عنك

ثم تقدم السيبياد الى الباب ليخرج فاستوقفته كلسريون فرجع وقال لها ماذا تريدين من رجوعي

— لا تخرج من هذا الباب بل من باب الحديقة السري

— هذا الامر فيه بلاؤك وشقاؤك لان الباب السري هو باب العشاق يدخلون و يخرجون منه الى دار الحبيبة فاحذري من عاقبة هذا الامر الوخيم وها انا طوع امرك ذاهب لاخرج منه ولما خطا خطوة استوقفته باشارة وقالت له · قد تبصرت بامر خروجك من هنا ملياً فعلمت انه وخيم العاقبة لا سيما وانت مشهور بالقحة والدناءة فابق هنا الى ان يخيم الظلام

— نعم ما قلته فقد عملت عملاً صائباً اهنئك به لعلمك العلم اليقين انى بخروجي ادنس عرضك بالكلام البذي

— اني اخاف منك جسارتك على انتهاك حرمة الادب واستعمالك جميع الوسائل التي تبلغك مناك واني اعجب كيف ان السيبياد الجميل المنظر

الرقيق الشعور يتسلح بهذا السلاح الردي للوصول الى نوال مرامه فكم هو مشين بشرف السيباد سليل الشهير كليناس ان تبلغ به الدناءة هذا المبلغ السافل

دعي عنك ياحبيبتي هذا الكلام الجارح فلا ذنب لي سوى حبي لك واعراضك عني

— حبك لايدوم قط فهو كسحابة صيف سريعة الزوال وجمالك الباهر يقربك من النساء ولطفك الساحر ياسر قلوبهن فيقعن في شراك حبك ولما تقضي وطرك تنحرف عنهن مبتعداً ما امكن ٠

— لا تصدقي ايتها الحبيبة كل ما يتقوله عليّ الناس من الاقاويل السيئة واعلمي انى صادق الولاء والحب اذا علق قلبي بالغانيات نظيرك اما مايذيعه عني الاعداء والحساد من ابتعادي عن بعض النساء فهذا لا بدّ منه لانهنّ لا يرغبنَ في جمالي بل يطمعنّ في مالي وثروتي واني اقسم بحق المعبودات ان حبي لك صادق لا تشوبه ادنى شائبة واذا كنت كاذباً في قولي فلتقتصّ مني الالهة افظع قصاص

— ولِمَ تقسم هذه الاقسام

— لاؤكد لك حبي الصادق الشريف

— تريد ان تبرهن لي عن حبك الذي يعلمه اهالي اثينا عموماً ٠

— لم ار في عمري من هي اجمل منك واقرب الى قلبي فاقسم ثانيةً بجبيتر اله الالهة ان لا احول عن حبك مدى عمري وليس لي مطمع الاّ رضاكِ وقربك ايتها الحبيبة

— الا تطلب مني سوى ذلك

— اطلب اذا تنازلت بكرمك الى اجابة سؤالي ان الثم يدك البيضاء النقية

— فرجعت كليسريون الى الوراء مندهشة وقالت بصوت الغضب وانا بدوري لا اطلب منك سوى ان تخرج من بيتي عاجلاً ولا تعودتريك وجهك

— تبصري ملياً لم نتفق قولاً على ان ابقى الى ان يرخي الليل سدوله فانسل تحت جنح ظلامه

— قد نسيت ان الوقح الذي تجاسر على الدخول الى بيتي هو من اوقح شبان اثينا وابذاهم لساناً فابق كما تريد اما انا فاحتجب عنك الى ان يأتي وقت خروجك من هذا المكان الطاهر

— يا قاسية القلب كيف لا ترثين لحال السيبياد المنطرح على قدميك والذي لا يريد سوى ان يفوز برضاك

— يالك من ماكر خائن كلامك هذا المزوق بالصدق الممزوج بالرياء قد اوقع كثيراً من النساء المخدرات في اسرك

— قد قلت لك واعيد الان ما قلته وهو اني لا اهزأ الا بمن لا يستاهلن حبي اما انت ايتها النقية الشريفة فحبي لك شديد ووجدي بجمالك الفتان عظيم

— اني اصم اذني عن سماع كلامك هذا وعبثاً تحاول ان تصطادني بسلاسل جمالك وطلاوة كلامك فمت كمداً

فانطرح السيبياد على قدمي كلسيريون وقال

يامن جمالها يضاهي جمال المعبودة افروديته « المتناهية اللطف »

وحكمتها منيرفه آلهة الحكمة انك تبقين مرسومة في قلبي وحبك يزداد ويتراقى فانت حبيبتي ومنية فؤادي ثم تناول يدها فقبلها بلهفة ولم تبدِ كليسريون ادنى ممانعة بل انهضته قائلة: ايها الشاب الجميل انهض وتأكد اني قد ملت اليك بجوارحي

— هل كلامك هذا كلام حب وولاء فالتمس ان يكون هذا اليوم من ابهج الايام واحلاها ايتها الحبيبة

· وقد مضى قسم كبير من الليل على ذينك العاشقين · · · · · ·

· ·

ولما انصرف السيبياد من منزل حبيبته كليسريون ودعته وخرجت معه الى الباب باكية وهي تقول:

— احلف لي ايها الحبيب انك لا تخون عهدي ولا تعلق فتاة غيري مدى عمرك — وما مضى على ذلك ثمانية ايام حتى نسي ما كان منه مع كليسريون وهام ذلك الخؤون بحب غادة اسمها نايس فلما علمت كليسريون التعيسة بذلك حزنت وشقت جيوبها ودعت عليه بالهلاك عاجلاً · وقد كان لنايس حظ كليسريون من السيبياد حتى ان بركليس قرينة اقصاه عن حفلات اسبانية بناء على الحاحها الشديد وما زال على تلك الحالة يستعمل دهاءه لايقاع النساء بشراك جماله حتى تعرف بفتاة اسمها ميرين وهذه اخذت بثار بنات جنسها من معاملته السيئة وها كم قصتها بايجاز ·

كان بركليس قد اناط السيباد بمهمة خارج اثينا فقضاها له ولما عاد الى اثينا عن طريق مدينة مغار والفسيس عثر بطريقه على فتاة ترعى غنماً في

سهول مغار فهام بها وجداً واسره جمال عينيها ولطف كلامها وثاني يوم اتى
بها الى اثينا فابتنى لها قصراً بديعاً وزينه بافخر الرياش الثمينة واشترى لها
من الحلى والجواهر ما كاد يستنفذ ثروته الطائلة وكانت ارادتها واوامرها
تنفذ عند صدورها منها وقد اخلص لها الحب خلافاً لما كان يفعله مع غيرها
وصمم ان يتخذها لنفسه حليلة وقد استشار اقرباءه بذلك وعزم على اتمام هذا
الامر فدخل مرة الى قاعتها فرآها معانقة اكراتس الغني الشهير وهما في
خلوة يتلذذان فهلع قلبه لما شاهد ذلك ولكنه لم يعمل شيئاً للاخذ بثاره لانه
كان قد دنس عرض هذا الرجل في سابق الايام وعدّ عمله انتقاماً لفعله معه .

فقال في نفسه كيف توصلت هذه الفتاة الفقيرة الى خرق حرمتي بهذه
الفعلة الشنعاء وكيف ان هذا الرجل الذي معها قد سلب منها عقلها وهو قبيح
المنظر سيء الاخلاق ولكن فعلها هذا هو من قبيل الاطوار الغريبة العجيبة التي
تتخلق بها النساء احياناً ثم ضحك ضحكاً عالياً وصرخ باكراتس قائلاً

نعم ما تفعل يا اكراتس فقد لعبت دورك جيداً في هذه الرواية الهزلية
الجديدة وقد كلت لي الصاع بالصاع ورددت لي نفس الشيء الذي
سلبتك اياه ......

ومن ذلك الحين علم ألقيبياد علم اليقين ان النساء جبلن على المكر
والخداع وانه لا يشقّ لهنّ غبار في هذا المضمار وقد شاع هذا الخبر وذاع
بين سكان اثينا ذيوعاً عظيماً حتى اصبح موضوع الحديث في كل نادٍ والسيبياد
ايضاً كان لا يستنكف من قصه على اصحابه ومنهم سقراط الذي نصح له ان
يتزوج بفتاة عاقلة تعلمه حب المعيشة الراضية وسعادة الزواج فقرر انه على ان
يتزوج بابنة هيبونيكوس واسمها هيبارتيت ولكن لم تطل مدة هذا الزواج لان

السيباد كان خلق الخير قد فسد فيه ولم يغنه طيب عنصره وذكاء اصله ولا افادتهُ نصائح اقربائه واصدقائه شيئاً فخان عهد زوجته وانغمس في بحار الملذات الدنيئة وقد سكبت زوجتهُ هيباريت دموعاً غزيرة من جراء ذلك ورجتهُ مراراً ان يكف عن امثال هذه الدنايا و يعكف على حبها وصرف نفسه الى عيشته الزوجية السعيدة فلم يجد كل هذا البكاء والضراعة نفعاً ولما قنطت من صلاح حاله وخافت سوء العاقبة وانثلام صيت عائلتها طلبت الى مجمع الاريوس باوس ان يطلقها منه . وفي تلك الاثناء كان زوجها ببيت المحظية (فينيه) فلما علم بما فعلت امرأته بادر الى المجمع ومثل امام رئيسه فسأله هذا ان يدافع عن نفسه و يقول اذا كان الباعث له على هذا النفور سبباً جوهرياً فاجابهُ ليس لي شيء اقوله فقط اطلب ان احصل على رضى زوجتي العزيزة وللوقت طوق عنقها بذراعيه وهو دامع الطرف حزين القلب واخذ يقبلها امام ذلك الجمع المزدحم فصفقوا له فرحاً وامراته تنازلت عن طلب الطلاق

واني الآن شارع بقص لمعة من حوادث السيبياد المجهولة لدى العموم لاظهر لكم ما اتصف به من الخلال

لما كان السيبياد صغيراً رآه استاذه يلعب بالمدرسة مع رفاقه التلامذه فنظر الاستاذ الى من حوله وقال لهم سيصبح هذا الولد في مستأنف الايام نادرة امثاله ويكون كثير الاساءة الى من يحبه من النساء محباً للهو والانبساط ميالاً للمجد والفخر ، علا . شأن وطنه

ولما بلغ من العمر اشدَّه قالت لهُ امهُ ان يتعرف من العرَّاف اباريس ما ستؤول اليه حاله فذهب اليه مسرعاً وقالت له اعلمتني امي انك تعلم علم

الغيب فارجوك ان تخبرني ما سيحدث لي في مستقبل الايام · قال له الشيخ العرّاف : دع ايها الشاب المستقبل وشأنه ودع ماتريد معرفته على الخفاء فقد علمتنا الحكمة ان لا نحاول معرفة ماتريده لنحصل على سعادة هذه الدنيا

— انما انا اريد ان اعرف ذلك

— ربما كلفك ذلك كثيراً من المتاعب

— لا يسهو عن بالك انك تكلم ابن كلينياس العظيم

— اعلم ذلك جيداً ولكن حباً بك وبأبيك اكتم عنك ماتودّ معرفته

— قل ايها الشيخ ولا تخشَ لومة لائم

— سيأتيك يوم تندم على ذلك ولا يجد يك الندم نفعاً

— اعلم ان السيبياد لا يندم قط الاّ على ما اسالهُ من الدموع بهجره وعدم وفائه للنساء

— فهل تسمع اذا ما اقول ولا تلومني

— لا يؤثر بي ما تقوله عني مهما كان رديئاً

— اذا هات لي يدك لأراها فمدّها له فاخذ العرّاف يمعن نظره في خطوطها ثم قطب حاجبيهِ وقال له بصوت خشن — السعاده متقلبة مع مريديها فانت الآن حائز عليها انما سيفقدك اياها المستقبل

— ماذا تعني بذلك

— اعني بذلك انك الآن موضوع محبة الاثينيين وحديثك بيت قصيدهم ولكن غداً سيلعنوك بكل شفةٍ ولسان وتموت منفياً

— الموت كأس وكل الناس تشربه

— ستموت اشنع ميتة ،

— افي ساحة القتال حباً بالوطن

— كلاً بل عند مانفى تلقَ منيتك بسيف خائن

— انت تهرف بما لا تعرف ايها الشيخ ومن يصدق كلامك يكون اقل منك عقلا

— كف عن الهزء بي ايها الشاب واذا وددت تحقيق كلامي فاذهب الى الوحي في بلد دلف فهو ينبئك شيئاً لا اعلمه عنك

— اذاً ساموت مقتولاً

— نعم

— ستعلمك الايام انك كاذب لا محالة فاستودعك لله

— مع السلامة يا ابن كلينياس تأكد ان المستقبل سيعلمك صدق كلامي

واني اضيف على ماسبق قصة فتاة احبته حباً مبرحاً لكونه عمل معها معروف فرافقته اينما سار في كل ادوار عيشته الغريبة

كان السيبياد مرة خارجاً من وليمة مع بعض اصدقائه فرأى على باب الحظية فرينيس فتاة تنتحب فدنا منها وقال لها

— سيدتي المعبودة فينيس ان تخبريني ايتها الجميلة ما هو سبب بكائك

— ضربتني سيدتي فرينيس وطردتني من عندها

فصرخ السيبياد وقال : يافرينيس افتحي لي الباب لأدخل انا السيبياد وللوقت فتح باب المنزل فدخل السيبياد مع زملائه والخمرة ترنح اعطافهم ولما استقر بهم المقام قال السيبياد لفرينيس لما كنت اعهد بك هذه القسوة قبل الآن كيف ضربت خادمتك وطردتها وتركتها باسفل المنزل تبكي وتنتحب

— هي حمقاء · ياعزيزي حمقاء اجرتها فاحشة وخدمتها غير مرضية

— الا تعلمين يافرينيس انها صبية لا يجب ان نكسر خاطرها اذ قصرت بهذا الشأن ·· بل يلزم ان نكرمها ونحترم عفتها

آه آه يا ابن كلينياس تتفوّه بكلام الحكمة وانت سكران تطوف الشوارع ليلاً

— دعينا من هذا الكلام واخبريني ما اسم هذه الفتاة

— اسمها تيمندرا

— بكم اشتريتها

— بالفي وزنة

— اني اعطيك ضعفها

— قبلت ذلك

فالتفت حينئذٍ السيبياد الى تيمندرا وقال لها يا عزيزتي انت مطلقة الحرية منذ هذه الساعة فلكِ ان تذهبي كيف شئتِ وتحبين من اردتِ وليكن عشقك مجلبًا لك السعادة · فقالت له انني اسيرة فضلك ولا اعشق سواك يامالك الحسن والمعروف فقد طوقتني منة لا انساها ماحييت لأني كنت اسيرة الدراهم قبلاً اما الآن اصبحت غريقة فضلك واسيرة حبك

ولقد صدقت بقولها لانها عاشت معه كل عمرها ولم تخنه قط جزاء المعروفه معها ·

وهاكم ايضا بعض الشيء عن زينة السيبياد وادلاله ولطفه

· ضرب المثل بحسن نبرة السيبياد وتفننه بحسن انتقائها ·

وهو اول من استعمل الموسى لحلق عذار الخدين والحديد لكي الشعر

وهو الذي كان يمشي الاثينيون على اثره في ملابسهم وعاداتهم وكان يمشي دائمًا مع اصدقاء له يقلدونه في الملابس والحركات اللطيفة وقد زاد كرمهُ حتى عدَّ اسرافًا وكان ينفق من سعةٍ من المال الذي ورثه عن ابيهِ ولم يكن يخرج من منزله الاّ بعد ان يغيّر ملابسهُ فكنت تراهُ صباحًا مرتديًا لباسًا مخططًا ومحتذيًا حذاء عليه دبابيز من الذهب ولما تراه المرّة الثانية تجدهُ لابسًا ثوبًا جميلاً بقباء ابيض بطرر وردية اللون ومطرز بخيوط فضيه وفوقه غلالة من الحرير الازرق كلون السماء وعليها شريط مذهب وبرجليه حذاء اشراكهُ ارجوانية مطرزة وموشاة بالوشي الذهبي وفي وسط النهار يلبس رداء وقباء جديدين وعند المساء كان يلبس ثوبًا حربيًا لأن الحذاء من جلد النمر والغلالة على كتفهِ اليسرى فيبين تحتها قباء مخطط بوشي مذهب

· اما زينة رأسه فجميلة جدًّا لانه كان يكوي شعره بقطعة حديد يحميها في النار ويسبل الشعر الجعد على ظهره بعد ان يفرغ عليه زجاجة من الروائح اللطيفة وكل يوم كان يأتيه حجام يأخذ الشعر الزائد من رأسه ويعطره بالروائح الزكية المختلفة الاشكال · وقد قال عنه الشهير انتشين ان السيبياد يحمل على راسه وكان بائع عطور ·

لما حصل حصار بوتيده وقد كان السيبياد في الجيش فرز الاثينيون ثيابه فكانت كما يأتي

عشرة اردية مختلفة الالوان والقياس وخمسة عشر قباء منها ما هو مزخرف كثيرًا وبعضها قليلاً وكل منها ذو زي مختلف عن الاخر — وخمسة وار بعون حذاء منها ثمين لان بها حجارة كريمة · ومن انواع القبعات عشرة ومن الاحزمة كل الالوان وخواتم واساور وغير ذلك كثير من ادوات الزينة

التي كانت المحظيات الغنيات يحسدنه عليها وقد اجتمع النقيضان بابن كلينياس فقد كان اجمل والطف شاب في وقت الرخاء وفي وقت الجد ابسل قائد في كل اليونانية ·

« سياسة السبياد ومواقعه ونكباته ثم نفيه ومونه »

لم تكن ثروة السبياد وجماله المفرط من الاسباب التي سودته وزادت شهرته وعلته الكر في الحروب و لاقدام في السياسة · بل جسارته وعلو نفسه علتاه ذلك وصيرتاه رجلاً هماماً وسياسياً فاضلاً · وقد كان يفرغ في كل ما كان يعهد اليه من المهام السياسية تارةً انواع الحذق والذكاء وطوراً الحيل والدسائس حتى يحصل على مشتهاه و يفوز بالنجاح اما خفة الشبيبة ولهوها فما كانا ليحجبا به عن اقتحام الاخطار والاهوال بل كان يعطي لكل وقت حقه من الجد والهزل — ولما نزل الطاعون باثينا وذهب باهلها كان بركليس عم السبياد من جملة من ذهب الطاعون بهم فحاول هذا ان يخلف عمه في الشؤون السياسية الاّ ان نزق شبيبته وطيشه الزائد في حدة ايام صباه جعلتا السواد الاعظم من ارباب الحل والعقد يقيمون في وجهه سداً منيعاً · وقد ظهرت مخائل مهارته في ما عارض به ادعياء الصلح لما عرض نيسياس المعاهدة على مجلس الامة ليضع بذلك حداً الحرب الموره المنتشبة وقتئذٍ وقد كان الاثينيون يطمعون في الاستيلاء على جزيرة سيسيليا الاّ انهم كانوا يحجمون عن الاقدام خوفاً من الفشل فحرضهم السبياد بخطبه الرنانة واستفزهم الى ارسال حملة عليها ففعلوا وعينوه من جملة القواد عليها وفي اثناء الاستعدادات الحربية وما كان يجود به الاثينيون من النفيس لتسليح مائة وعشرين سفينة حربية حصل في اثينا امر اشغلهم زمناً واعاق التجهيزات وذلك سحق تماثيل

الاله هرمس وتدنيسها وقد عزا اعداء السيبياد وحساده هذا الامر الفظيع
اليه والى رفقائه بدليل انه كان معهم خارجين من وليمة وسمعوهم يسبون الالهة
وينكرون على الكاهن الاعظم درجته الدينية وفضله العميم فلذلك شكل
مجلس لمحاكمة السيبياد ولتهيج الرأي العام عليه كان لا بد من سجنه او نفيه انما
الجند لم يسعه الانتظار على الحرب فاختطفه من بين الجموع واقامه عليه قائداً
فأجل المجلس صدور حكمه وعما قليل ركب السيبياد البحار ولم يكد يصل بجيوشه
الى حدود جزيرة سيسيليا حتى استولى على بلد قطان انما لم يتقدم قليلاً
للاستيلاء على الجزيرة حتى اتت مركب من اثينا تدعوه الى الرجوع لان
اعداءه كانوا قد هاجوا الشعب عليه فطلب لاثبات براءته في مسألة سحق
التماثيل فعلم بحذقه ودهائه ان برجوعه هلاكه لا محالة اذ كان عالماً بما كان
عليه الاثينيون من الحسد وما عندهم من المزاعم الخرافية ولذا دعا رسل الحكومة
الى مركبه وعمل لهم وليمة فاخرة دارت بها كؤوس الراح حتى ترنحت
الاعطاف وعندئذ انسل خارجاً وركب مركباً وامر ربانها ان يسير به الى
رأس تينار فصدع بالامر ·

ولما علم رسل الحكومة بفراره رجعوا طالبين اثينا بينما كان السيبياد قد
وصل اسبرطه واستقبله اهلها بالترحاب وقد بلغ الغيظ بالاثينيين مبلغاً عظيما
وتأكدوا من فراره انه مجرم يخشى العقاب فحكموا عليه بالموت ولما علم السيبياد
بذلك قال سأعلمهم اني لم أزل ولن ازال حياً وقد اعتاد في اسبرطة لبس
الثياب البسيطة متخلقاً باخلاق اهلها وخدمهم ضد وطنه خدمات تذكر
وذلك لغيظه من معاملة مواطنيه له فسلخ جزيرة شيوعن اثينا وجملة مدن في
الارخبيل الرومي فضلاً عما احرزه من النصر المبين بحروبه مع السبرطيين

وقد حاز على محبة الشعب وكاد يحصل على درجة سامية في الجيش لو لم تلجأه ظروف الاحوال الى الفرار وذلك انه عشق امرأة الملك و باضعها فخاف سوء العاقبة فهرب ودخل بحمى تيسافرن مرزبان ملك الفرس فانزله على الرحب والسعة واعجبهُ منه فرط ذكائهِ وشدة دهائهِ وواسع عقله وامتلك حبة قلبه ومال اليه بكليته انما السيباد كان حنينهُ لوطنه يتراقى كلّ يوم فدارت الرسائل بينه و بين اصدقائه في اثينا على العودة اليها فنال بذلك تلك الامنية واستقبلهُ الشعب الاثيناوي بتهاليل الفرح وضفروا عليه اكاليلاً ذهبياً واوعز الى الكهنة ان يحلوه من الحرم الذي رجموه به ولما سار من الشاطئ الى منزله في اثينا كانت الطرق مفروشة بالازهار والشعب يهلل و يدعو له بطول البقاء

وقد كان السيباد يستاهل كل هذا الاعتبار لانه خدم بلاده خدمة جليلة بتحويل عزم مرزبان الفرس صديقه عن محالفة حكومة اسبرطة ولولا ذلك لحل البلاء باثينا واهلها وداست خيل الاعداء ارضها بسنابكها . فاجبرت اسبرطة ان تطلب الصلح بعد ان استولى السيباد على بيزانس وميزيك و بيرنت وعدة مدن اخرى من اسيا وقد كان هذا الفوز مجلبة لهنائهِ ونعيمهِ اذ عينهُ الاثينيون قائداً عاماً على الجيوش البرية والبحرية وخولوه سلطة عالية الاان دوام الحال من المحال لا سيما وقد كان الشعب الاثيناوي متقلب الاراء لا يستقر على حال من الاحوال فحدث ان السيباد اقلع بمراكب عديدة ليهاجم جزيرة اندروس ولما وصلها لم يتوفق الى الاستيلاء عليها من بادئ الامر ففوض الى انطيوخس قيادة المراكب موعزاً اليه الا يحرك ساكناً اثناء غيابهِ لانه ذهب لتحصيل اموالٍ من

البلاد المجاورة لكي يدفع رواتب الجيش الذي تحت قيادته ولكن انطيوخس لم يمتثل امر السيبياد بل امتشق الحسام في وجه العدوّ وحصلت موقعة هائلة دارت الدائرة بها عليه ولما علم السيبياد بما جرى سارع في المجيء وحاول أن يأخذ بثار انطيوخس فلم يقدر على ذلك لان العدو لم يحرك ساكناً بعد فوزه بل بقي مع مراكبه في المينا وقد اغتنم اعداء السيبياد وحساده هذه الفرصة فدسوا الدسائس وحركوا الاحقاد حتى توصلوا الى ما يطلبون اذ صدر الامر الى السيبياد بالاياب الى اثينا ليدافع عن نفسه امام الحكومة وعين مكانه عشرة قواد من ذوي القدرة والكفاءة — اما السيبياد فلم يرجع الى اثينا خشية ان تسوء العاقبة بل لجأ الى قلعة في بلاد ثراس مع مئة جندي وهناك لبث يرقب الحوادث . وقد توالت البلايا على اثينا وتعاقبت الانكسارات حتى انها فقدت مهرة قوادها وخصوصاً بعد موقعة اجوس بوثاموس ومما زاد الطين بلةً ان القائد ليساندرا الاسبرطي عدو السيبياد اللدود تحالف مع احشورش ملك الفرس فانجده هذا بالعساكر والمال وكثير من العدد والعُدد ولما انس من نفسه القوة هجم على جزائر اليونان بمراكب قليلة فلم يستطع كونون القائد اليوناني صده فاستولى على لمبساك بعد مناوشة صغيرة فلما رأى كونون ذلك سار بمراكبه الى اجوس لوثاموس قبالة لمبساك واستعد للقتال الا ان القائد الاسبرطي لشدة مهارته بالفنون الحربية كان يخدعهم بحركات مراكبهِ تارةً وطوراً بالتأهب للقتال حتى عيل صبر الاثينيين فنزلوا الى البر وانغمسوا في بحار الملذات والملاهي ومضى على ذلك اربعة ايام متوالية لم يحرك بهـا ساكن ولما علم السيبياد بما جرى لوطنه من الفشل وما لحق به من الذل والعار ترك قلعة بيزنت واتى الى

ساحة القتال ليطلع القواد الى سوء تدبيرهم وقلة تبصرهم في تنظيم عساكرهم وعرض عليه ان يسعفهم من جهة البر بالهجوم على العدو بما عنده من العساكر فابوا ان يسمعوا كلامه وزادوا في امتهانه واحتقاره ومساء اليوم الرابع بينما كان الاثينيون قد نزلوا الي البر على جاري عادتهم هجم القائد الاسبرطي بمراكبهِ القليلة فاغرق عدداً من مراكب الاثينيين ولم ينجُ منها الا عشر مراكب اقلعت الى البلاد اليونانية وبها القائد كونون ثم انزل عساكره الى البر وابلى في الاثينيين بلاء حسناً وشتت شملهم وفرقهم في اقاصي البلاد بعد ان اسر منهم ثلاثة قواد وجنوداً ذبحهم عن بكرة ابيهم آخذاً بثار من قتل من الاسبرطيين في حادثتي ميلوس وسسيون · وقد انتهت حرب المورة بهذه الموقعة المهولة اي موقعة اجوس بوساموس بعد ان استعرت نارها بين اثينا واسبرطة مدة سبع وعشرين سنة

وقد سقط مجد اليونان الى الحضيض بعد انكسارهم وضم ليساندر كل بلادهم الى اسبرطة وعصت عليه مدينة آلهة الحكمة فحاصرها ثلاثة اشهر حتى أخضعها ولما استولى ليساندر على اليونانية ابدل حكومتها الديموقراطية بحكومة الثلاثين ظالم فاطلقت هذه الحكومة يدها في انتهاب اموال الموسرين ونفتهم الى اقاصي البلاد · وقد كان السيبياد الهمام يراقب ما آلت اليه حال وطنه وما زال يرتقب دنو الفرص حتى علم ان احشوروش يأتمر باخيهِ اكتاسرخس ملك الفرس ليقتلهُ فذهب الى الملك واوقفه على بواطن هذه الدسيسة وجزاء لمعروفه طلب اليه المساعدة لانتشال وطنه من وهدة الذل الا ان حساده واعداءه ومنهم ليساندر كانوا واقفين على حركاته وسكناته فطلبوا الى مرزبان الفرس ان يرسل لهم رأس السيباد

ذا اراد ان يكسب معاهدتهم فقرر المرزبان قتل السيباد ولما تقرر قتله في ذهن المرزبان حاصر منزل السيباد جماعة من اعدائه وفي مقدمتهم تيمواس اخي كليسريون واضرموا به النار لما لم يمكنهم الدخول اليه

ولما اندلعت السنة اللهيب وتفرقعت الاخشاب من النار هب السيباد من نومه مذعوراً فاستل سيفه وانحدر على السلم طلباً للنجاة الا انه لم يكد يصل الى اسفل المنزل حتى رماه الاعداء بالنبال فوقع على الارض يتضرج بدمه وهكذا كانت وفاة هذا الرجل العجيب الذي جمع بين نزق الشبيبة وحكمة الشيوخ وغرور الحياة وفضائلها فقد كان تارة منقذ وطنه وطورا عدوه الالد وقد سكبته العناية الالهية بقالب الجمال واودعت فيه من الحذق والشجاعة اوفر نصيب فكان خطيباً مصقعاً وقائداً شهيراً وسياسياً محنكاً وجواداً لا يبخل بعطاء لمن يمد اليه يد السؤال طماعاً بارتقاء سلم المجد ميالاً للهو والتأنق في الملابس مطلقاً لنفسه العنان في ميدان الشهوات على قدر ما تسمح به ظروف الاحوال · وقد كان متقشفاً بمأكله اذا دعت الحال لذلك كما رأيناه في اسبرطة التي ادهش اهلها بخفة حركاته العسكرية وقوة عضلاته وكما شاهد اهالي اسيا من كرمه وكيفية عيشته ولما اقيمت الالعاب الاولمبية صفق له الحاضرون مراراً لما رأوا الى شجاعته وشدة جماله

وقد دار مع دوران الزمان في تقلباته وصادف من الحظ والنحس شيئاً كثيراً ومن محبة السيدات له شيئاً اكثر وخلاصة القول انه كان واحد اهل زمانه بما ناله تارة من المجد الباذخ وطوراً من الذل والانحطاط ولتقلب الزمان عليه لا يمكننا ان نحكم عليه بخير ام بشر

وقد طلبت الصادقة الولاء تيمندرا من الخائن فارناباز الفارسي الاذن

بدفنهِ باحتفال عظيم وقد سمح لها بذلك

ولما انتهى كليون من سرد قصته وقضى الجماعة وطرهم من سماعها مدت لايس ملكة الجمال يدها اليه علامة على امتنانها فقبلها بلهفة ثم التفتت لايس الى الجمع الحاضر وقالت لهم

يامواطني الاعزاء وشرفاء أمة اليونان الكرام قد شرفتموني بزيارتكم لي هذه الليلة وقد سمعتم قصة الشهير السيباد و بعد ثمانية ايام انتظر قدومكم الي لتسمعوا قصة ارستيبس دي سيرين استاذي وصديقي الحميم الذي ذهب الى بلاط مملكة سيراقوس ليمضي بضعة أيام وستعلمون من سرد قصته في الليلة الثانية ما كان عليه من الوداد لاصدقائه والكرم لمواطنيه وللغرباء وما اتصف به من رقة الجانب والتواضع لكل من عرفه من الناس ·

انتهت الليلة الاولى

الفصل الخامس

(الليلة الثانية)

ارستيبس

« حياتهُ وفلسفتهِ · كما دونتها ملكة الجمال لايس تلميذته »

· قالت لايس ملكة الجمال لمدعويها الذين اتوا من اقصى البلاد لسماع قصة ارستيبس الفيلسوف ·

ايها الاصحاب الادباء ونخبة رجال اليونان الفضلاء قد وعدتكم وعداً

صادقًا في الليلة الماضية ان اشرح لكم قصة استاذي ارستيبس وها انا مغتنمة الآن فرصة غيابه لا نجز وعدي معكم · فاعلموا ان ارستيبس استاذي ولد في مدينة شيرين بمقاطعة ليبيا من ابوين غنيين وفاضلين وكان منذ صباه ميالا للعلم حتى انه عزم على السفر الى اثينا لسماع حكمة سقراط الشهير وهو لم يكد يبلغ العشرين من عمره

وحدث ان اباه توفي فباع ارستيبس جزءا من املاك ابيهِ ليستعين بها على السفر الى مهبط الحكمة اثينا وقد كان ذلك · وبعد وصوله اخذ يتردد على مدارس الفلسفة دون انقطاع شأن محبي العلوم والمعارف مجالسًا الفلاسفة وخصوصًا سقراط فحكم بغرازة عقله وقوة حجته بعد الاختبار الطويل ان كلا منهم متصف بصفة مخصوصة فسقراط قال عنه ان الالهة خصته بالحكمة وافلاطون وصفه بالشاعر الخيالي المعجب بافكاره الخيالية وفيدون بالرجل المنخدع بكل ما يسمعه من المزاعم الخرافية والاوهام · الباطلة وقد كان يرى بدبوجانس الرجل ذا المجون لحاد الذهن والبطيء العزم · وقد انكب استاذي على تحصيل العلوم بجملتها انما كان موجها اهتمامه الى درس فرع منها كان ملائمًا لروح عصره ولما برع فتح مدرسة وتقاطرت عليه التلامذه من كل حدب وصوب الى ان امتلأت بمدة وجيزة اما المبادىء التي كان يعلمها فهي ·

« اولاً » الشعور والشهوات

« ثانيًا » الخير والشر

« ثالثًا » الاسباب

« رابعًا » الاعمال

« خامسًا » المدح والاطراء

اما عن الوجه الاول فقد كان استاذي يعتبر الشعور كمبادي للحقيقة وقاعدة لمعارفنا الاجتماعية اذ بواسطتها نقدر ان نميز النافع من الضارّ والمسرّ من المكدر والجميل من القبيح وهلمّ جرًّا

وقد قسم الشعور الى ثلاثة اقسام . رقيقة وخشنة وهاجعة واعني بها التي لا تهتم بشيء سارًّا كان ام مكدرًا كانها في هجوع عميق ثم ان فقدان السرور لا يولد الكدر اكثر مما يولدفقدان الكدر السرور اذ السرور الحاضر للانسان هو سلطان الخير كما ان الكدر الحاضر هو سلطان الشر . وبما ان المرء ميال بفطرتهِ الى البعد عن الشر وتطلب الخير بكل قواه ومجهوده كان من المتعين عليه ان يسير على خطةٍ في معايشته تنقص اكدارها الكثيرة وبنقصانها يزداد سروره

. اما عن الوجه الثاني اي عن الخير والشر فهذان لا يمكن لنا ان نحدّهما تمامًا لانهما نسبيان الى ظروف الاحوال وعوائد الشعوب اذ ما يحسبهُ هذا شرًّا ربما كان لغيره خيرًا عميمًا كما قال الشاعر العربي

بذا قضت الايام ما بين اهلها . مصائب قوم عند قوم فوائد

ومع اعتقادنا بوجود الخير والشر يجب علينا الاّ نعتبر شرور الدنيا كما نراها من وجهها الحقيقي اذ ربما كانت سببًا لسعادتنا لان الالهة قد اوجدت هذا الكون لسعادتنا لا لشقائنا وضرنا لانها هي معدن الخير والصلاح وما نعتبره خيرًا وشرًا هو لضعف تصورنا وقصر ادراكنا بمقاصد الالهة الخيرية ففي عصر نرى شيئًا من الاشياء محض خير وسعادة ونراهُ في عصر ثانٍ بحت شر وشقاء . اذن الخير والشر والعدل والظلم ليست الا نتائج ما نعتقده بها ومن بنات افكارنا وتصوراتنا وعوائدنا فالحرب مثلاً هي خير للظافر وشر

للمقهور والاسترفاق خير للسيد وشرٌ للعبد . وعن الوجه الثالث اي الاسباب يقول استاذي ارستيبس ان كمال البشر لهُ اسباب ماسة بالصالح الشخصي والفائدة الذاتية فالاثراء والشرف والمجد كلها اسباب للعيشة الراضية المنيئة ودوام السرور وهو ما تصبو اليه النفوس

اما عن الوجه الرابع ايّ الاعمال فمن العبث البحث عن الاسباب الاولية لها وان مايعامهُ الفيلسوف منها قطرة من بحر محيط انما الاسباب الثانوية تقع تحت ذهننا فيمكننا ان نخوض فيها ونستجمع قوانا العقلية لها توصلاً لزيادة سرورنا ونقصان اكدارنا وقد قال تاليس ان معرفة هذه الاسباب مفيدة للناس ومخففة لاكدارهم

اما عن الوجه الخامس اي المدح والاطراء فقد كان يعتبرهما استاذي سببين لسعادتنا بمساعدة الممدوح لنا فلا يجب ان نمتهنهما ونحط من قدرهما فالمدح الظريف حرفة شريفة بعيدة المنال لا يصل اليها الا المتعمق المتضلع ومن مذهب استاذي ان الخيرات الارضية لا توازي قيمتها قيمة ما نتكبده من الاتعاب ونسكبهُ من قطرات العرق اذا لم يكن الحصول عليها مجلبة لسعادتنا الدنيوية ومزيلة لاكدارنا المعاشية وان القناعة والاعتدال وتحمل الصبر في ابان النوازل ونسيان الاكدار الماضية كما ان الاعتصام بالفضائل كالعفة وتجنب الوقيعة بالناس والابتعاد عن الغضب السريع والحقد ومحبة الانتقام والشح كل ذلك من ضروريات السعادة الدنيوية ومن اعتقاداته انه لا يجب ان نهتم للماضي ولا للمستقبل اذ ان الماضي فات بخيره وضيره والمستقبل لا يعلمه احد انما يجب علينا الاهتمام باحوالنا الحاضرة

وكان ارستيبس يهزأ بدعاة الفيلسوف انتستين ويصفهم بذوي الجنة

لانهم كانوا يتقشفون كثيرًا بمأ كلهم وملبسهم وكان يقول لماذا لا نأكل تينًا اذا كان عندنا شجرة تين شهية ولماذا نحرم على انفسنا لبس الانيق من الثياب اذا كان ذلك في طوقنا واليس من الخرق في الرأي ان نقطع عن الاغرام باحدى الانسات او العقيلات اذا كنا نستميت في حبها وهي تميل الينا بلطفها الساحر وجمالها الباهر واليس من الحماقة ايضًا ان نفطم انفسنا عن رضاع الملذات المباحة التي هي حلال لنا اذا لم يكن بذلك ضرر للغير اذن هؤلاء القوم المتظاهرون بالتقشف الزائد في حده ليظهروا بمظهر حسن في اعين الناس ليسوا عندي سوى اولاد قد اعمى الكبر بصيرة باصرتهم لان الفلسفة الحقيقة هي التي تعلمنا ان نعيش عيشة لا تشوبها الاكدار واقذار الشهوات النفسانية وتعلمنا ايضًا ان نتطلب السعادة الدنيوية وهي تنحصر في هذه الجملة وهي الا نطلق لانفسنا عنان الشهوات لانها تذل النفس والجسد وان نملك قياد انفسنا ونقاوم كل ما من شأنه ان يحيد بنا عن الوجهة التي نتطلبها وهذه هي الفلسفة الحقيقية . فقل لي بحقك لماذا انقطع عن احتساء كأس من الصهباء اذا قدمتها لي فتاة جميلة على راسها اكليل من الورد اذا كان ذلك يسبب فرحًا وسرورًا فالحكماء انفسهم ليسوا بالغي الحد الكمالي من الحكمة والسعادة انما يمتازون كثيرًا عن غيرهم بعدم تصديقهم للمزاعم الخرافيه وعدم رهبتهم للموت

وعليه ترون ايها الكرام ان فلسفة استاذي ارستيبس ليست واهنة كما اشاع ذلك حساده وعذاله بل هي مبنية على اساس حكمي متين حسبما يدعوان اليه حال الانسان وعقله . وعليه فالفلاسفة الذين تطاولوا عليه بالسب والثلب وسلقوه بالسنة حداد ليسوا سوى اصنام مزخرفة لا روح لها اذا

هبت عليها الريح هوت وتحطمت ولفقدانهم لذة الشعور كانوا يودون ان يكون كل امرئ مثلهم في زيه واعتقاداته

• وهنا اقف عن وصف مبادئه الفلسفية بالاسهاب اذ ان من يكون منكم له رغبة في الوقوف على ذلك عليه بقراءة مؤلفاته وها كم اسماءها.

كتاب الباحث والمنتقد

« بحث عن الرق

« بحث عن الشحاذين

« بحث عن سقاة الراح

« بحث عن الرؤيا

« بحث عن الغرق

وقد كنت اود ان لا ابوح بوجود كتاب من تاليفه عنوانه لايس ومرآتها لانني انا كنت السبب بتأليفه فهو ملآن برسائل مدح وذم ويحتوي على افكار جليلة الفائدة بشأن درجة المرأة في الهيئة الاجتماعية وذوات الخدور وافكارهن وخرافاتهن وخيانتهن الخ

والآن وقد علمتم بالايجاز مبادي ارستيبس فها انا ابدأ بذكر بعض نوادر جرت له في حياته

(نوادر ارستيبس)

قد اعتاد ارستيبس الرخاء منذ صباه لانه ربي في ماء النعيم فكان يحب الثياب الجميلة والولائم الفاخرة وكذلك الزهور على اختلافها والروائح العطرية على انواعها ومما انقل عنه انه كان يقول « خير للمرء ان يرتدي رداء حسنا ونظيفا من ان يلبس اطمارا بالية وخير له ان يأكل المآكل

المغذية اللذيذة الطعم من ان يأكل اطعمة غير شهية للأكل وعسرة الهضم كل ذلك اذا كان في طوقه ومقدرته · ولا خلاف في ان استاذي ارستيبس من اعظم رجال اليونان واكرمهم واعقلهم اذ انه كان يدور مع الزمان كيفما دار و يلبس لكل حلة لبوسها وهو ممن خضعوا لسلطان الغرام انما كان سريع التقلب كثير التهتك عظيم الصبابة والوجد وقد كان صديقاً حميماً لمن صادقهُ ووالاه كثير المران والحنكة في ادب السلوك ميالاً للعيشة الزوجية كما تدلنا محبته لذوات الجمال ور بات اللطف والدلال ولذلك تزوج كهلاً بابنة احبها فولدت له جملة بنين وابنة اسمها اريسي اخذت العلم عن ابيها وعلمته لبنات جنسها ولا اذكر مطلقاً اني رأيت ارستيبس مرة مقطب الوجه غائب العقل كما هم عليه الفلاسفة والسبب في ذلك انه كان راضياً بحاله الحاضرة مكتفياً بالموجود وتاركا التشوق الى المفقود ومع قناعته كان كريماً حميد الخصال ولذلك احبهُ اليونان كثيراً رغماً مما اشاعه حساده وعذاله عنه واني اسكت عن تفنيد مدعياتهم تاركة ذلك الى من عرف افضاله من ذوي العقول السامية والافهام الواسعة : ومما يحكي عنه انهُ كان مرة راجعاً من منزل احد اغنياء اثينا طالباً منزلهُ ووراءه خادم يحمل كيسين من النقود اجرة تعليمه لذلك الغني فصادف فلاحاً في طريقه يتنهدُ و يتلهف فقال له ارستيبس هل اصابك سوء يا صاحبي لاني اراك تتنهد وتشهق شهقات تكاد تصدع كبدك · فاجابه الفلاح لست كما تظن انما انا فاكر بانهُ يوجد كثير من الاغنياء يتنعمون بخيرات وافرة واكثر منهم فقراء لا يملكون شروى نقير فقال له ارستيبس قل الصواب ولا تخف ملاماً فانك تفكر بشيء آخر اجابهُ الفلاح الحق اولى ان يقال اني افكر في هذين الكيسين اللذين

يحملها خادمك وان في الحصول على احدهما سعادتي وهناء عائلتي الى الابد — اجابه ارستيبس اني اود ان تكون سعيداً وتعيش عيشة راضية مع عائلتك وللوقت أمر خادمه فاعطاه كيساً وسار ارستيبس الى منزله دون ان يهتم بما فعل او يسمع دعاء ذلك الفقير ومزيد تشكراته ولما درى الناس بكرم ارستيبس الزائد في حده عده بعضهم ذا جنة ومنهم من لامه على فعله هذا والبعض الآخر لم يكن يصدق ما سمعه عنه لندارة حصول مثل هذا الكرم من رجل فقير نظيره • ومن نوادره ان اسباسية صديقة سقراط اخبرت ارستيبس ان سقراط شديد العوز الى الدراهم فارسل له مبلغاً • فكتب اليه سقراط يقول لم اعتد ان انقد ثمن دروسي التي علمتك اياها فانكسر خاطر تلميذه ارستيبس فذهب اليه وقال له يا استاذي المعظم ابعد عن فكرك ما ظننته بي من الوقاحة والجسارة اذ لما علمت من اسباسية بانك محتاج الى الدراهم اردت ان اسعفك بشيء ومهما تقوله عن تلميذك فقله لاني كثير الخطاء قليل الدراية انما لا اظنني وقحا بهذا المقدار • فلما سمع سقراط منه ذلك الكلام صافحهُ وقبله دفعات متواليه وشكره على ذلك شكرا جزيلاً • وحدث مرة ان ارستيبس تكدر من صديقه اسشين رفيق صباه وكان الذنب في ذلك على اسشين • ولما علم ارستيبس ان صديقهُ الصدوق الذي كان يمحضه الود قد اصبح مبغضاً له وجفاه مدة ذهب اليه بنفسه وقال له : يا صاحبي الا تريد ان تغمد ذنبي بحلمك وحبك اما كفانا هذا الجفاء فصالحه اسشين • وقال له يا ايها الشهم الفاضل ان عملك هذا قد برهن لي عن سلامة طويتك وصدق ودادك واعلمني ان قلبك ارق من قلبي كثيرًا واعطف منه لاني انا كنت المسيء اليك وانت البادي بالخير والمصالحة • وكان ارستيبس

لا يعبأ بالاصفر ذي الوجهين لفرط كرمه وسخائه فحدث مرة انه كان مع خادمه راجعين من المدينة طالبين المنزل وعلى عاتق الخادم كيسان من الذهب الوهاج و بينما هما سائران رأى ارستيبس خادمهُ يخط تعباً من وقر الكيسين فالتفت اليه وقال له انقص من الكيسين ما لا قدرة لك على حمله في هذه الحفرة التي امامك ·

ومن نوادره انه كان مسافراً من ايجين الى جزيرة ساموس على مركب و بينما هو على ظهرها اتاه احد المسافرين وهمس في اذنه قائلا ان هذه المركب هي للصوص البحر فلما سمع ارستيبس ذلك حل كيس دراهمه واخذ يعدها ادرها فدرهماً ولما انتهى من ذلك رمى بكيسه الى البحر متظاهراً بالصراخ والتحسر على فقده ثم قال لذلك المسافر أرى ان الافضل لارستيبس ان يفقد دراهمه من ان تكون هي السبب في فقدان حياته لو بقيت معه·

ومرة ابتاع جملا بخمسين دارخمة فعيره احدهم بقوله انه ثمن فاحش فقال له يا صاحبي لو كان هذا الجمل يساوي فلساً فما كنت اشتريته انت اجابهُ هذا مؤكد فقال له ارستيبس اعلم انني احتقر الخمسين دراخمة التي دفعتها اكثر مما تعتبر انت الفلس الواحد

وحدث ايضاً انه اشترى شيئاً من الحلويات بثمن فاحش فلامه احد الفلاسفة على اسرافه فقال له ارستيبس لو دفعت انت بضع دريهمات ثمن هذه الحلويات واكلتها اما كنت ترى باكلها لذة · اجابه نعم فقال لهُ ارستيبس: اعلم ياهذا اني لست نهماً بقدر ما انت بخيل ومرة دعا ارستيبس الفيلسوف افلاطون الى الطعام وكان على المائدة شيء كثير من الاسماك فقال لهُ افلاطون ان السمك كثير يزيد عن الحاجة · اجابه ارستيبس كل

هذه الاسماك لم تكلفني سوى فلسين وان رخصها حملني على شراء كمية وافرة منها فقال افلاطون اذا كان ذلك كما تقول لم اتأخر انا عن شرائها بهذا الثمن فهمس ارستيبس في اذن افلاطون قائلاً انك ذو ذوق سليم كثير الشعور مثلي انما انت بخيل اكثر مني وحدث ان السفسطي بوليكسين ذهب الى ارستيبس يزوره فرآه بين عددٍ من الغانيات على مائدة الطعام والقصاع مصفوفة بترتيبٍ حسن وحولها الشموع والزهور ورائحة الطعام تفوح فتشحذ شهية الأكل فاراد بوليكسين ان يلومه على هذا الاسراف الزائد في حدّهِ فظل ارستيبس مصغياً الى ملامه حتى انتهى منه واخيراً دعاه الى الجلوس معه على المائدة فلم يسع ذلك السفسطي سوى الاذعان وكان اول من مدّ يديه الى الأكل فحينئذٍ التفت اليهِ ارستيبس وقال له : هل تستطيع الآن بان تفتق لسانك بلومي وتعنيفي ايها الصديق بعد ان ظهر لي انك قد اعتدت أكل المآكل الشهية والتلذذ بها فكأن لومك كان لوفرة اثمانها لا لكثرتها وتعدد الوانها .

وقد اشتهر عن ارستيبس في اثينا انه لطيف نهم يحبّ المآكل اللطيفة والاجتماعات الانيسة فمرة رآه اكسونكراتس يسعى مسرعاً الى وليمة كريذيتس المثري الشهير فوقف اكسونكراتس في الطريق يوبخهُ على سرعته في الذهاب وعدم تبصرهِ بدرجته العلمية فقال له ارستيبس ان ضيق الوقت يمنعني عن اجابتك الآن فدعني اذهب فقال كسونكراتس ماذا اقول عن فيلسوف لابس ثياباً جميلة ومعطرٍ بانواع العطور ومسرح شعرهُ بالزيوت العطرية لا يجتمع الاَّ بالنساء في الاجتماعات ولا يدع اللذات تفوتهُ ولا ساعة واحدة يدّعي انه تلميذ سقراط وهو على هذه الحال من الطيش والغرور اجابه ارستيبس اقرّ

باني افضل المآكل اللذيذه على مآكلك الغليظة يا اكسونكراتس وسروري على كدرك وانيق ثيابي على ثيابك الرثة الملآنة بالاوساخ وافضل ان اكون رجلاً انيس المحضر في مجالس الاغنياء والادباء من ان اكون نظيرك مقطب الوجه خشن الكلام فهل قولي هذا صائب ام لا اسأل من من يسمعنا من الحضور حولنا ·

· ولما اراد كسينوكراتس ان يجيبه قاطعهُ الحضور بضحكهم وهزئهم فصمت صمتاً معيباً وعضّ اصابعه ندماً وحدث ان ارستيبس كان مرة راجعاً من منزل احد الاغنياء طالباً منزلهُ فصادفه الفيلسوف ديوجانس وهو يغسل الاعشاب التي يأكلها فقال هذا لارستيبس لو تعلمت ان تكون قنعاً نظيري لوفرت عنك كل العناء بمخالطتك للاغنياء وتكليف نفسك الاتعاب الجمة في الملبس والمأكل · فاجابه ارستيبس وانت ايضاً ياديوجانس لو تعلمت ان تكون نظيري انيساً لطيفاً مع الناس لاحتقرت هذه الاعشاب التي تأكلها ورغبت عن هذه العيشة · ولما وصل ارستيبس الى منزل صديقه كريذيتس لامه الجمع على تأخره فقال لهم · كفوا الملام يااصحابي فالذنب كل الذنب على كسينوكراتس وديوجانس فالاول يريد ان اكون متقشفاً نظيره والثاني ان آكل العشب الذي يتقوت به وادع هذه الولائم والمآكل الشهية ومن خصال ارستيبس الحميدة انه كان ذا طبع حسن باسم الثغر حاضر الذهن صبورا على امتهان العظماء وجرحهم له بالكلام القارص فكان يجيبهم على قوارص كلامهم بجواب لطيف رفيق يلين غلاظتهم وهذه الصفات اكسبته صداقة دنيس ظالم سيراقوسه الذي اضافه عنده اشهرا عديدة وكان لما يسأم من معاشرة ملك اوامير يتركه و يذهب

الى خلافه فيقيم عنده اياما على الرحب والسعة وهكذا كان يقضي عمـره تارة بين الملوك والامراء وطورا بين الجميلات من النساء واونة بين المحابر والاقلام

• فمرة سأله دنيس بقوله : لماذا نرى الفلاسفة عند الملوك والعظماء ولا نرى العظماء عند الفلاسفة اجابة ارستيبس ذلك لان الفلاسفة يعلمون ما ينقصهم فيطلبونه من العظماء وهؤلاء لا يعلمون ذلك فيقعدون عن البحث عنه •

• وكان دنيس قداولم وليمة دعا اليها كثيرا من الفلاسفة ولما انتهى وقت الطعام امر دنيس ضيوفه ان يلبس كل منهم رداء ارجوانيا فرفض افلاطون بحجة انه رجل لا امرأة اما ارستيبس فلبس الرداء علما منه ان لا تأثير له على اللابس •

• ومرة انكب ارستيبس على قدمي دنيس ليطلب منه الصفح عن صديق اقترف ذنبا فعيره الحضور وخصوصاً افلاطون على صنعه هذا فقال لهم ليس العار علي اذا كانت اذنا دنيس موضوعتين في رجليه فضحك دنيس واجابه الى ملتمسه •

وحدث ان دنيس اتى الى ارستيبس بثلاث جواري كأنهن الاقمار وقال له ان يختار منهن واحدة له فاخذهن كلهن زاعما ان ما عمله باريس قديماً من التفضيل قد جلب الويل وجر البلاء الى اليونانية لكنه لم يكد يصل بهن الى عتبة منزله حتى ارجعهن الى دنيس بحجة انه يود ان يذوق لذة العفة والتسلط على الاعمال النفسانية من ان يتمتع بلذة الشهوات الزائلة وقد كان ارستيبس مرة جالسا على مائدة دنيس فاخذ هذا يجادله و يباحثه

بامور فلسفية حتى ادهش الفيلسوف بقوة حجته فقال له ارستيبس ان من الغرابة بمكان ان اعلمك انا ما ذا ينبغي ان يقال وانت تعلمني الآن متى يجب ان يقال فاستاء دنيس من ذلك واوعز اليه ان يجلس في مكان قصي من المائدة ففعل الفيلسوف دون مبالاة وقال لدنيس باسما اظن انك اردت ان تجعلني اشرف مكاني الاخير بجلوسي فيه

· ومرة طلب من دنيس شيئاً من الدراهم لقضاء بعض الحاجات فقال له دنيس ان الدراهم تكسو الفلاسفة الاهانة عوضاً عن المهابة اجابه الفيلسوف اعطني منها ما طلبته و بعدئذ نبحث فيما اذا كانت دعواك صادقة ام لا ولما اعطاه قال اعلم الآن اني لا احتاج الى دراهم مطلقا — ويحكى ان دنيس اهدى كتابا الى افلاطون ودراهما الى ارستيبس ثم عيره لقبوله الدراهم وهو عالم فيلسوف فاجابه كف الملام يا صاح واعلم ان افلاطون تعوزه الكتب لتهذيب اخلاقه وانا محتاج للدراهم لا تفنن في ملذاتي ·· وقد انتقد عليه مرة احد الفلاسفة لكثرة تردده على دنيس دون سقراط فاجابه لما اكون بعوز الى الدراهم اطلب رفد دنيس متذرعا لذلك بالمدح والاطراء

· وسئل مرة ما ذا تفيد الفلسفة لمن يتعلمها · فاجاب تفيد المقدرة على الجدل مع العلماء بطلاقة لسان وقوة حجة وتعلمنا ايضاً ان نعيش دون ان نطرح جانباً الشرف والشهامة وان نتجنب الوقيعة بالناس ونحافظ على حقوقهم حتى نستغني بها عن الشرائع الادبية والسياسية

وسئل ايضاً باي شيء يمتاز العلماء عن الجهلاء · فاجاب : بما يمتاز به الحصان السلس القياد عن الجموح · هذا واني افضل الفقر على الجهل لان الفقير يعوزه المال انما الجاهل ينقصه العلم وهو المميز للانسان عن الحيوان

ومرة اخذ احدهم يسب ارستيبس فابتعد هذا عن ذلك الوقح دون ان يعبأ بكلامه فناداه قائلا عار عليك ان تهرب من وجهي ولا تجيبني الى كلامي فاجابه ارستيبس قائلاً انت لك قدرة على سبي انما آدابي لا تسمح لي بان اسمع شتائمك

• وحدث ان فلاحا اتى اليه بابنه ليعلمه وسأله كم يطلب اجرة تعليمه اجابه ارستيبس مائة دراخمة عن عشرة دروس فصاح الفلاح قائلا اني اقدر ان اشتري بهذا المبلغ عبدا فاجابه الفيلسوف نعم ما تصنع اذ يصبح عندك عبدان في المنزل •

وقد دخل ارستيبس مرة الى منزل من منازل العهر مع احد تلامذته فاحمر وجه التلميذ خجلا فقال له ارستيبس العار ليس بدخولنا الى هذا المنزل بل بعدم مقدرتنا على الخروج منه ومرة حدث نوء شديد بينما كان مسافرا من ايجين الى قرنثية نخاف واخذت اوصاله ترعد ولما رآه احد النوتية ضحك ساخرا وقال له نحن الجهلاء لانخاف شيئاً وانت العالم العظيم ترتجف وتكاد تسقط من شدة الرعب فاجابه الفيلسوف ذلك لاني اذا فقدت افقد شيئا ثميناً اما انت فلست على شيء من ذلك •

• ورأى سابحاً يفتخر بسباحته فقال له الاتستحيي يا صاحبي من فخرك هذا وسمك البحر يسبح احسن منك بكثير وعيره احدهم مرة باتخاذه خليلة عمومية بدلا عن حليلة تكون عذراء فاجابه ان السكنى في دار سكنها اناس قبلا كالسكنى في دار لم يسكنها احد من ذي قبل اجابه المعير قائلا ان في ذلك بونا عظيما قال له الفيلسوف أليس السفر على مركب قد سافرت جملة مرار كالسفر على مركب جديدة لم تخرج بعد من الميناء اجابه ذلك اني اوافقك

على رأيك هذا قال له الفيلسوف والامر الذي تعيرني لاجله هو كما وصفته لك الآن

وسأله مرة رجل عما يستفيد ابنه من الشعر اذا تعلمه اجابه الفيلسوف يستفيد ان لا يجلس في المراسح كالخشب المسنده

ومرة لامه احدهم لاتخاذه خطيباً ليدافع عنه فقال له ارستيبس ما وجه الخطاء في عملي هذا اني اكل الى الطاهي اصلاح طعامي وتهيئته ولا انيط ذلك بالنجار ام خلافه ومن الادلة على تسلط ارستيبس على شهواته هو هذه الجملة التي شاعت عنه وذاعت «اني كنت متسلطاً على لايس ولم يكن للايس سلطة عليّ قط» وكان حقه ان يقول ان ارستيبس ولايس كان كل منهما مرتبطا بالآخر بعرى العقل والقلب وصداقتهما متبادلة ومتينة حتى انها لا تنفك منهما الا بعد الموت

وكان ارستيبس يعتبر الصديق كخير عظيم يتملكهُ الانسان في هذه الحياة الدنيا ومنه تعلمنا هذا المثل الثروة تكثر الاصحاب والنكبات تقللهم وكان استاذي متسلطاً على افكاره حتى انه كان يديرها كيفما اراد اوارادت الظروف حتى انافلاطون قال عنه ليس في كل الفلاسفة من هو لائق نظير ارستيبس لانه يلبس لكل حالٍ لبوسها وان يأكل المآكل اللذيذة وقت الرخاء والغليظه اذا ذهبت عنه النعماء

وطلب اليه احدهم مرة ان يحل معنى لغزٍ فاجابهُ ان ايام الدنيا قلائل فلا لزوم انتضيعها بما لا طائل تحته ولا منفعة منه ومرة ادعت عليه احدى الفاسقات انها حامل منه فقال لها هازئاً ان ما تقولينهُ لي هو ضرب من الجنون لان من يسير في طريق ملآنه بالاشواك ويدعى ان شوكة

صغيرة ادمت جسده لا اعدّه سوى احمق يستحق ان تذاع نفسه السخرياء — و يوماً اذ كان مسروراً والخمر قد رنحت عطفيه اخذ ينكت على كهنة القسيس فاعترض عليه احد اصدقائه بقوله ان يرغب عن مثل هذه الامور لان بها البلاء اجابه الفيلسوف نعمَ ما قلته يا صديقي فقد اضاعت الخمر صوابي وافقدتني رشدي وانستني تعاليم سقراط وما جرى لدياغوراس دي ميلوس والسيبياد من المحن والبلايا اذ قد اعموا باعمالهم باصرة المزاح وغيره من الامور المرغوبة حتى انه يعسر عليّ ان انيرها بشكاة علمي واختباري و بعد ذلك طرح عنه اكليل الورد ولبس رداءه وخرج حالاً من اثينا وكان يجري على هذا المثل و يعلمهُ لغيرهِ وهو يجب على الحكيم الا يبغض احداً بل عليه ان يعلم الناس العلوم والفضائل لان قلب العاقل يجب ان يكون كمحراب للفضائل الاجتماعية و بابه مفتوحاً حتى تخرج منه مُتجسمة بالاعمال الخيرية والادبية. هذا ما وعيته من امثال وآداب استاذي ارستيبس قصصتها عليكم وهي على ما ترون لا تخلو من بعض الانتقادات لان الكمال للآلهة وحدها واظنكم لا تجهلون ان ارستيبس هو الفيلسوف الوحيد الذي كان محبوباً من الجميع والرجل العالم الذي كان يميل الى الملذات الادبية والاجتماعية ليخفف بها بعض البلايا الانسانية المجلبة لتعاسة الانسان في هذه الدنيا وقد حاول حساده ان يشيعوا عنه اخباراً هي من الحقيقة بمكان بعيد و يتقولوا عليه الاقاويل الجمة حتى يحطوا منزلته بين الفلاسفة و بئس ما عملوه لان ذكر ارستيبس سيخلد في التاريخ الى انقضاء العالم وتبقى اعماله ونوادره الادبية مسطورة على صفحات الصدور لانه جمع في صدره العلم والتواضع وحرية الضمير وصدق المحبة والوداد وكان عمل

الخير فيه خلقياً قد رضعه مع اللبن منذ كان صغيراً حتى صار له الفاً وعادة وحسناته الكثيرة تستر هفواته وتغطي على طياشته وغروره في بعض الاحيان لان الكمال من صفات الآلهة وليس من صفاة الانسان ·

(الليلة الثالثة)

قصة حياة دياغوراس الميلوسي كما رواها ليونتيذس

فلما كان في الليلة الرابعة اجتمع الفلاسفة والعلماء في حديقة لايس واقترحوا على ليونتيذس ان يقصّ عليهم تاريخ حياة دياغوراس الميلوسي الشهير فوقف هذا على منصة عالية وقال ·

يا شرفاء امة اليونان وعظماءها قد طلبتم مني ان اقص عليكم تاريخ حياة رجل من اعظم رجال اليونان شهرة · وهو كما لاخفاكم الفيلسوف الاجل ربيب العلم وسليل الكفاية وناقد قيم العلماء وكاشف حجب الحق وناشر الوية الفضل ·

ولد هذا الفيلسوف الفاضل في جزيرة ميلوس وكان ابوه من تجار الجزيرة الاغنياء ولما شب وترعرع ظهرت عليه مخائل النجابة والميل الى ارتشاف العلوم والفلسفة الطبيعية فعكف على المطالعة والاخذ عن ديموكريتس ولما اخذ منه بمقدار ما يؤهله للتوسع في العلوم دخل مدرسة اثينا وعكف على درس الفلسفة العصرية ولما نبغ فيها رأى ان الاساتذة قد اضاعوا الفائدة الجوهرية منها بما كانوا يدخلونه من الخرافات والاوهام الباطلة التي تضر الانسان ضرراً بالغاً لاسيما المزاعم الدينية التي لا يقبلها العقل السليم ولذلك قام يناضل عن الحق مناضلة الابطال المحبين لترقي بلادهم في سلم المدنية الحقة ولكي يطلع على معتقداتهم وما كان يشيعه كهنة القسيس من الاوهام

عمل ما يورعه للدخول في مصافهم والاشتراك معهم بالاحتفالات الدينية السرية ٠

واذا كان دياغوراس على جانب عظيم من سعة العقل وقوة الحجة ورأى ما رآه من تلاعب الكهنه بالضعفة العقول من الناس لايهامهم وارهابهم حتى يرسخ في عقولهم سطوة اولئك الكهنه وسلطتهم وصولتهم اندفع بما له من قوة العارضة وفصاحة اللسان الى تفنيد مدعياتهم فسأل مرة احد الكهنة وهو الحامل للمصباح (دادوكس)قائلاً

لاي سبب قد اطلعتني على هذه الاشباح المخيفة وهذه الشهب والنيران الهائلة وهذه المهاوي التي لاقرار لها وهذه الظلمات المتكاثفة بعضها فوق بعض وتلك الروائح المخنقة ولماذا اسمع هذه الاصوات الممزقة للاذان والمرعبة الابدان لاي شيء كان ذلك

فاجابه قائلاً : ذلك لنمتحن شجاعة الانسان اذ لا يخفاك ان العاقل الحكيم يجب ان يظهر بمظهر القوة ولا يعبأ بمثل هذه الامور ولا يهلع قلبه منها خوفاً والا لم يكن اهلاً للانخراط في سلك الكهنة والاطلاع على هذه الاسرار الدينية ٠ فقال له اذا كان الغرض من هذه الامور معرفة الفضائل الدينية كما تقول وكان الدين اعظم مرشد لما كان الضعيف القلب الجبان غير اهل للعمل بها و بالتالي محرّمة عليه معرفتها لخوفه ولا اعهدك الا عالمًا بان كل الناس على اختلاف عقولهم وتباين علومهم يستأهلون الاطلاع عليها لتستنير عقولهم فيرغبون عن الشر و يعملون الخير فما قولك اذن بهذا المبدأ الفاسد الذي يضلل اكثر الناس عن طريق الحق والصلاح

اجابة مبدأنا سرٌ لا تعيه الا صدور العقلاء اما الجهلاء فيذيعونه

في كل صوب وناد و بذلك يصبح مبتذلاً مهاناً

فقال له ان هذا خطأ فاحش اذ العالم وكل محب للانسانيه اذا اكتشف حقيقة تعين عليه افشاؤها للعموم للافادة لان الحقيقة يجب ان يعلمها كلٌّ منا ليصلح المختل من اموره اما اذا أُخفيت عن الناس استمروا في ظلمات الجهل يعمهون . اجابهُ الجاهل او قليل العلم ميالٌ لكل ما يراه من الغرائب والاّ لم يصدق ما نقوله ونعلمه اذا كان مجرداً عنها بسيطاً بحدّ ذاته وهذا هو السر في اخفاء اسرارنا عنه والظهور لديه بمظهر القوي المحيط بمحجوبات الغيوب والعالم بمضمرات قلوب الآلهة العظيمة الشان حتى لا ينفك عن احترامها واحترامها لا يكون الاّ بكهنتها . فقال له اني علمت من هذا انكم تتلاعبون بعقول الناس وتموهون عليهم الحقيقة التي يجب ان يعلموها و بذلك تسودون عليهم وتسترقونهم لكن الا تخشون يوماً يسطع بهِ نور الحقيقة وتمزق بهِ حجب الاوهام .

اجابهُ صه يا ايها الكافر .. واعلم من الذي تكلمهُ واعرف جيداً ان من يتجراء علينا بمثل ما تجرأت عليه لا يساعنا لهُ في مجالسنا واطلاعه على اسرارنا كان عقابهُ شديداً تكاد السموات ينفطرنَ منهُ وتنشق الارض وتخرُّ الجبال هدّاً

. فصمت دياغوراس هنيهة لما رأى الى شهب انظار ذلك الكاهن وتغيرّ ملامح وجهه الى ما يذيب القلب خوفاً ثم قال لهُ : اشكرك الفاً على ما قدمته لي من النصائح واعلمك باني ساعمل ما بوسعي لتغيير افكاري هذه ومساء ذلك اليوم جهز دياغوراس امتعته وسافر الى جزيرة ميلوس مسقط رأسه الاّ انه لم يكد يركب متن البحار حتى حكم عليه رئيس كهنة الفسيس

بانه كفر بحق الآلهه وطلب من المجمع المقدس ان يجتمع ليصدر حكمه بما يستحق دياغوراس من الجزاء فحكم عليهِ بالموت وهذا المجمع الذي كان مولف من ثمان مئة عضو كلهم من ذوي الجهالة وكبار المتعصبين قد حكم على سقراط بالموت بعد حكمه هذا على دياغوراس

ولما علم الاثينيون بفرار دياغوراس بثوا عليه العيون والارصاد وارسلوا الرسل الى اقاصي البلاد والجزائر التابعة لاثينا وزودوهم الاوامر الصارمة بالقبض عليه وارجاعه عنوة الى العاصمة حتى ينفذوا عليه الحكم فانبث الرسل في انحاء البلاد اليونانية واجهدوا النفس و بذلوا النفيس حتى يقفوا على خفي مكانه فلو كان مجرماً جرماً كبيراً وخائناً لوطنهِ لما عومل هذه المعاملة السيئة واستحق هذا العناء والبحث ولكن خرافات اليونان الدينية رغماً عما اتصفوا به من الذكاء والفهم كانت كالماء السارب اذا سد طريقه خرق في الارض خرقاً وجعل لنفسه طرقاً وكثيرًا ما كان يتسلح رئيس الكهنة على اهلاك الفلاسفة والعظماء كسقراط وارسطو والشاعر المجيد ابو نيس والبطل المشهور السيبياد وغيرهم بالسعاية لان السعاية كانت اليد اليمنى التي بها يتطاول على اهلاكهم والسلاح الذي به يقاتلهم و يقتلهم فويل لمن جرَّ لنفسه سخط الكاهن العظيم

ولما علم اهالي ميلوس بذلك الحكم قرروا تسليم دياغوراس مواطنهم خيفة غضب الاثينيين الا ان الحظ قيض له ان يعلمه احد الاصدقاء بالمكيدة و ينصح له ان يهرب و ينجو بنفسه لكن دياغوراس ابي ولم يصغ الى كلام صديقه فاندفع هذا بحمية الصداقة الى اخذه عنوة الى مركب اقلعت به حالاً الى اسيا باسم مستعار لكنها لم تتجاوز الساحل حتى هاجت الانواء

وتلاطمت الامواج وكاد آله البحر يغرقها بمن فيها على سواحل ابديروس فضجت اصوات النوتية بالضراعة الى نبتون لتنقذهم من الغرق وكان بين المسافرين احد دعاة الكاهن العظيم فاوعز اليهم ان اله البحر ناقم عليهم لوجود دياغوراس بينهم وهو مشهور بكفره فلما سمع دياغوراس بذلك اجابه بكل رزانة قائلاً : انظر ايها الغبي الى هذه المراكب التي قبالتنا وهي تكاد تبتلعها الامواج فهل كان دياغوراس على كل منها حتى نقم عليها آله البحر فما اتمّ كلامه حتى حمل عليه النوتية بالشتائم وهموا برميه الى افواه اللجج لولم ترتطم المركب بصخر هائل وتحطم اما الركاب فغرقوا ولم ينجُ الا ثلاثة منهم دياغوراس لانه كان يحسن السباحة فوصل الى البر سالمًا انما كان منهوك القوى ولذلك سقط على الارض مغمياً عليه مدة ساعات ولما افاق قال هذا الكلام : يا ابسيدون « نبتون آله البحر » هل رأيت انّ كل الذين خافوا منك وتضرعوا اليك لتنقذهم قد هلكوا عن آخرهم وانا الذي لم يعبأ بك ولم تلفظ شفتاه صلاة قد نجوت بقوتي وذكائي ولما استراح هنيهة قام يسعى نحو داخل الجزيرة ولم يتجاوز غير بعيد حتى رأى بعض الصيادين فاستهداهم طريق البلد ولما وصلها سأل اين يسكن استاذه ديموغريت فدلوه عليه لكن هذا كان غائبًا عن منزله في ذلك الوقت فذهب الى ساحة المدينة يتنزه و بينما كان ماشياً تقابل مع احد رفقاء صباه واسمه تيموكرات وهو من موظفي الحكومة فاخبره ان حكم المجمع المقدس عليه قد وصل مؤخرًا الى مدينة ابادير وحكومة اثينا قد طلبتك رسمياً فانصح لك ان تتأهب للسفر الى منزلي في مكدونيه وتقيم فيه الى ان انبئك بما اصمم عليه لارسلك الى جبال تساليا حيث تكون بأمن من الخطر والآن سأذيع عنك انك هلكت غرقًا

وتحطمت السفينة التي كنت فيها وقد اتم الفيلسوف كل ما اوصاه به صديقه وسافر الى مكدونية فمكث فيها مدة ثم اتخذ له احدى مغائر جبل اوسا سكنًا الى ان ابتنى لهُ تيموكرات بيتًا جميلاً وسط حديقة فيحاءوروضة غنا وعين له عبداً من اتباعه يقوم بخدمتهِ و يقضي حاجته ·وفي عزلته هذه الف كتاباً سماه «آلهة اليونان وفظائعهم» وضمنه كثيرًا من ظلم خدمة الدين واستبدادهم بالشعب بما كانوا يستعملونه من ضروب الخداع والحيل لاخضاع الناس ولم يقف احد على هــذا الكتاب النفيس بعد موت الفيلسوف لان الكهنة احرقوه وذروا رماده في الهواء انتقامًا من مؤلفه ولكن علم من تيموكرات الذي كان يذهب في فسحة الالعاب الاولمبية الى جبال اوساليزور صديقه الحميم دياغوراس ان كتابه هذا قد احدث انقلاباً عظيماً في عقائد اليونان واصلح كثيراً من امور دينهم وهاك بعض ما رواه لنا شفاهياً من مواضيع ذلك الكتاب ·

خرونوس — اي زحل وهو من آلهة اليونان —قد طرد اباه اورانوس ليملك مكانه وقتل اولاده كلهم الا ان ريا امرأته بغية منها في انقاذ جوبيتر ابنها رمت له حصاة فابتلعها وهزل جسمه الى ان تغلب عليه ابنهُ جوبيتر فطرده من الالمبوس واقصاه الى الارض حيث عاش عيشة ذليلة

(ابس) اي ريا زوجة زحل· هــذه المرأة كانت شديدة التهتك وقد نبغ البغا والتخنث منها لانها كانت مولعة بحب الغلمان ولعاً عظيماً حتى انها لم تكن تستحيي ان تتنزه بمركبتها التي تجرها الاسود والى جانبها اتيس الذي كانت تستميت في حبه

زيس — اوجوبيتراله الآلهة — هذا الآله جبل من طينة الخنا

وعرفت عنهُ المظالم والرذائل لانه كان يميل الى الغلمان والفتيات وثلب الاعراض الطاهرة وهو اذا لم يصل الى نوال مرامه كان يقذف النار بصواعق الغضب فويل لمن تعرّض لسخطه لان طرفة واحدة من عينه كانت تندك لها الجبال وتنشق الارض فتبتلع سكانها فاحذروا عباده ان تقدموا لهُ الهدايا والضحايا من افلاذ اكبادكم او ان تتوسلوا الى كهنتهِ ليجيروكم من سخطه لانهم كذبة خداعون ·

وكان هذا الآله وهو اشبه منه بوحش كاسر يتلون كابي براقش في زيهِ واحواله طمعاً في ارواء ظمأهِ من حياض الشرور التي كان يردها ونوال مرامهِ ممن يميل اليه من الالهات او فتيات الناس وقد ولد له منهنّ عددٌ غفيرٌ من الابناء الذين تلقبوا بنصف آلهة وملأُوا الارض فسقاً وتقضوا فيها جوراً وشراً واشتهر عن هذا الوحش الضاري ميله الى الغلمان والدليل الشاب (غانميد) الذي اختطفهُ ليفترسه و ينهش عرضه

وعرف هذا الآله بادمانهِ على المسكر فكان يشرب النبيذ المعتق حتى يفقد صوابه وتغتنم امرأته هيرا هذه الفرصة لترسل صواعق غضبها على الابريا الذين لم يطابقوها على الشرور فهل كان هذا الوحش ليستحق لقب آله الآلهة وموجد الكائنات وهو على ما قدمنا من الشرور وسوء السيرة التي يترفع عنها اسفل السفلة من الناس ·

(هيرا) او يونون) جو بيتر عرفت بفظاعة اعمالها وحسدها وحب التهتك واتيان المنكرات التي ان اتيت على شيء منها لعافت النفوس قراءتها فاكتفي بما جرى لاهالي ترواده وحريق مدينتهم دليلاً على توحشها واغراقها في لجة الظلم والجور ·

(بليتون) قد بلع زحل ابنه هذا ولفظه من فيه فساعد اخاه جو بيتر على طرد ابيهما زحل من الالمبوس واشتهر عن بليتون حبهُ للفتيات الذي ورثه عن ابيهِ وقد ملأ الالمبوس والارض من شرورهِ وحوادث فسقهِ واخيرا خطف بروزبين الجميلة ولقبها بملكة الجحيم بعد ان تزوج بها ومع كل ذلك لم ينثن برهة عن مغازلة الفتيان ومراودتهن ٠

« بسيديون » اي محطم المراكب ٠ هو اله البحر نبتون احد ابناء زحل الثلاثة وقد ساعد اخويه على طرد ابيهم من الالمبوس واخيراً تآمر على اخيه جو بيتر الا انه لما جبن عن طرده من الالمبوس وخشي العاقبة سأل اخاهُ ان يسلطهُ على البحار فسلطه فطغى و بغى وحدث له مع الالهة من العراقيل والضغائن ما يكل عنه الوصف نخافه الالهة لشدة بأسه وبطشه

« هفستس » او فولكانوس ٠ هو احد ابناء يونون امرأة جو بيتر من احد عشاقها كان اعرجاً قبيح المنظر جدا حتى ان جو بيتر اقصاه الى ابعد مكان لكنه لم يلبث ان زوجه بافروديته آلهة الجمال لمجرد رغبة منهُ بزواجه هذا العجيب الغريب وافروديته لم يسعها سوى امتثال امر اله الآلهة خوفا من غضبه الا انها مالت الى عشق غيره من الآلهة وبعض من الناس ايضاً لكن زوجها حبا منه بالانتقام منها ادخلها مع احد عشاقها ضمن شبكة من اسلاك الفولاذ وجمع الالهة ليريهم كيف انها وقعت بشراكهِ

« ابولون اوفيبوس » هذا الاله كان ظالمًا وحسودا متكبرًا يحب الانتقام ويرغب في زخارف الاقوال وقد قتل الشاب هياسنت وأمر بسلخ جلد مرسياس حياً لانه يضرب على الشبابة احسن منه وبعد ان طرد

من الالمبوس بعد مذبحة السيكلوب اوصله الظلم الى ان يرعى غنم ادميتوس ملك تساليا ثم ذهب الى بلاد فريجيا وخدم لاوميدون ينقل الخزف لبناء المنازل فما احقر هذا الاله وما اشد ظلمه

« مينرفا آلهة الحكمة » قد حذت حذو ابويها بالشرور واحبت الشاب انديسيون وقد نال منها هفستس القبيح المنظر ابن يونون ما كان يطلبه وقد اتاها غيره ونال منها ما يرغب ·

وهذه الالهة استسلمت كثيراً لعوامل الغضب والسخط واهلكت كثيراً من الادميين مثال ذلك ما انزلته ببلاد كاليدونيا واتوليا من النوازل والمحن لان سكان هذين البلدين لم يدعوها الى وليمة اينوس فيا لحكمة هذه الآلهة ومزيد جورها ·

افروديته · او وينوس الهة الجمال · هذه كانت اشد الهات الالمبوس شروراً وتنازلت لمباضعة الادميين فولد لها منهم كثير من الاولاد تلقب كل واحد بلقب (نصف آله) وقصارى الكلام انها كانت عنوان الدناءة وقلة الحياء ·

اديس ـ اي المريخ · هذا كان اكثر الالهة الاثنى عشر جورا فقد تلطخ بدماء الابرياء من الادميين وحوادث عشقه كثيرة لاتقع تحت حصر منها ماجرى له مع وينوس امرأة القبيح هفستس ولتعدد فظائعه عُدَّ من جملة الالهة الجهنمية التي ملأت سلطنة الجحيم بالموتى ·

هرمس — او عطارد ـ كان هذا الاله قواداً لجوبيتر وحامى حمى اللصوص الذين اتخذوه الهاً يستجيرون به ليدرأ عنهم البلايا ويسهل لهم سبيل السرقة كما هو ديدنه بافساد الاخلاق وامحاق المودة من صدور

الاصدقاء فياعجباً كيف ان اليونان يعبدون مثل هذا الاله الزنيم·

ـ باكوس اله الخمرـ هذا اله السكارى والفاسقين يغري النساء على فعل المنكر ثم ينحرف عنهن باسرع من طرفة العين وارتداد النفس ولاعجب فقد ورث هذه الخصال السيئة عن ابيه وتمادى في اتيانها حتى ان ادعياءه واصفياءه كانوا من السكارى المنغمسين بحمأة الرذائل والقبائح فيا ايها اليونان هلا تسعون بعد ما علمتم الان قبائح الهتكم الى هدم المذابح وقتل الكهنة·

واني لاود ان ادنس قلبي هذا زيادة عما دنسته بوصف هذه الالهة الكثيرة الشرور ولا اذكر ماأعلمه عن فظائع الاله (پان و برياب) وغيرهما لئلا يتولاني الملل فاكتفي بما ذكرته على سبيل الاستشهاد فهل بعد كل ذلك تريدون ايها اليونان ان يصدق دياغوراس بخرافاتكم الساقطة ويؤمن بالهتكم هذه الدنيئة المالئة للاولمبوس حاشا لي ان افعل ذلك لاني لم ازل املك صوابي وانتم قد فقدتموه من زمن طويل ·

هذه هي عاقبة التعصب الذميم المؤدي الى القتل والظلم ·

ولكن سيأتي يوم ايها الجاهلون به تعلمون ما اقوله وتفتحون اعينكم لنور الحق فتندبون حينئذٍ افعالكم وتندمون على الجرائم ·

فهل تظنون ايها العميان عن نور الحقيقة ان الالهة محتاجة الى حماية اناس مثلكم اني لالعن اولئك الذين اسقطوا درجة فهمكم الى هـذا الحدّ ونفخوا في قلوبكم ريح التعصب الديني واعلموا اني قد ناصبتهم العداوة واردت لهم الهلاك لانهم كرهوا الحقيقية وتعاموا عن مرأى نورها الساطع

واليك يا محبّ الحق وبشير الخير قد خضت بحار المنايا في الدفاع عنكما

لاهدي ابناء وطني الذين ضلوا عن جادة الصواب ذلك لاني رأيت بعد الاختبار الطويل واعال الفكرة ان اعظم مسبب لانحطاط الافكار هو ذلك التعصب الذي يضل الناس عن سواء السبيل هذا ما رواه تيموكرات عن دياغوراس الميلوسي اما المقالات التي عثرت عليها في اثينا فيختلف بعض الاختلاف عنها لان منهم من كان يقول ان سبب هذا الكره الشديد للآلهة هو خسارة دعوى اقامها الفيلسوف على رجل سرق له مؤلفاً من مؤلفاته ولما مثل السارق امام المجلس اقسم باغلظ الاقسام ان ذلك المؤلف له لا للفيلسوف فبرأ المجلس ساحة السارق ولذا احتدم دياغوراس غيظاً وصرخ قائلاً . ما دام القضاة يبرأون ساحة لص من لصوص الافكار عوضاً عن ان يعاقبوه شر عقاب على سرقته وما زالت الآلهة تسمح بذلك فالاولى لي الا اعتقد بوجودها عوضاً عن ان اعتقد بها واجعلها هدفاً للسلب والسب وقوم يزعمون ان سبب كفر هذا الفيلسوف هو اسفاره العديدة واشتراكه بالاسرار الدينية القاضية باشد العقاب على المشترك بها لا سيما ما رآه من سوء معاملة الكهنة واستبدادهم بالشعب اذ يعمل الكاهن اقصى جهده و يستنفذ قواه العقلية والمادية لاجبار الناس على الاعتقاد بالآلهة و بان هذه الآلهة لم تكن سوى بشر اوصلها حبها للكهنة الى درجة الالوهية وان سطوتها استمدتها من الكهنة دون سواهم ومما عني بكشف الحجاب عنه هو عدم معرفة ما يصير اليه الانسان بعد الموت وان ما يزعمه الكهنة من وجود جحيم ونعيم ليس الا بدعة احدثوها للتمويه على العقول واذلالها كي يسوقوها بخزائم الاسر الى اكرامهم وتأدية الطاعة والرضى باعمالهم مها كانت مجحفة ظالمة فكأن لسان حالهم كان

يقول للضعفة العقول من الناس ايها العبيد الامناء افعلوا ما نوصيكم به لتنالوا نعمة الخلود في دار النعيم والا كنتم طعمة لنار الجحيم و بئس المصير وقد زعم المضلون ان تخويف الناس بعذاب الجحيم يثني عزم القاتل عن ارتكاب القتل والسارق عن السرقه والزاني عن فعل المنكر و بئس ما زعموا لان خوف العقاب في حياة فطرية لا يتسلط الا على عقول الساذجين وهؤلاء لسلامة قلوبهم وضعف عزيمتهم يجبنون عن اتيان المحرمات وارتكاب المحذورات اما ذوو العقول الحصيفة المطلعون على كنه الحقيقة فهؤلاء لا يرهبهم شيء وهمي كالعقاب بعد الموت ولا يرد جماحهم الا الشرائع المدنية وما تقضي به كالسجن والموت الخ ... فيتضح اذًا ان خوف العقاب ورجاء الثواب في الدار الاخرة ليسا الا من بدع اولئك الاشرار اللئام الذين باعوا دينهم بدنياهم فما ربحت تجارتهم وكانوا من القوم الظالمين ·

وقد قسم دياغوراس ازمان الاعتقاد بالاديان في بلاد اليونان الى ثلاثة اقسام · القسم الاول يبتديء من العهد الذي به كانت الارض خالية خاوية من آثار الانسانية وسكانها لا يفرقون شيئًا عن الحيونات العجم فكان الاعتقاد بالدين وقتئذٍ من تخرصات الاوهام الا ان حدوث الزلازل الارضية وهياج البراكين النارية والرعود والبروق وكل عوامل الطبيعة دفعت باولئك الهمج الى الالتجاء من هذه النوازل والكوارث الدهرية وساقهم جهلهم الى الخوف من كل طاريءٍ واشاعة المزاعم الخرافية عن كل حادث طبيعي فنبغ بينهم جماعة كانوا اشدهم حذقًا واكثرهم مكرًا لان الاحلام متفاوتة والافهام متباينة فقاموا بينهم

انبياء كذبة يدعون انهم يناجون الالهة القادرة العظيمة البطش ويعلمون الغيب مما يوحى اليهم من اله الالهة فصدقهم اكثر القوم وكذبهم آخرون وكان هؤلاء الكهنة الأول لالهة اليونان . والعصر الثاني يرجع الى استيلاء امم التينان القوقاسية على جزء من بلاد اليونان واقامة معاهد العلم والتمدن على اطلال الجهل والهمجية وكان الفضل كل الفضل لهم في انتشار العلم ودك الجهل الى الحضيض انما لم ينم عنهم الدهر بل قام اليونانيون فلموا شعثهم وطردوهم من بلادهم وقد نجم من وجود هذه القبائل باغريقية شيء كثير من الاقاصيص والروايات والاخبار الملفقة التي سموها « شيوجونيا » بهروا بها عقول اليونان الضعيفة فعدوهم من جملة الالهة واشاعوا عنهم مالذ وطاب من الحوادث والنوادر وعنهم اخذوا عبادة الكواكب والنجوم والشمس والقمر .

والعصر الثالث تهذب الدين وقام على اس متين بفضل خدمته الكهنة وهم الذين رتبوا درجات الآلهة واذاعوا بين الناس ان النعيم اعدّ للصالحين والجحيم مصير الكافرين الذين ملأوا الارض فسقاً ونقضوا فيها شراً وجوراً وانه مهما كان عقاب الكافرين الاشرار شديداً فالضحايا والتقدمات تمهد غضب الالهة وتمحق سخطها وانتقامها ولذلك بادر الرجال والنساء الى تقديم الضحايا فتناولها الكهنة بايدي الطمع والتقموها لقمة هنية حتى امتلأت بطونهم شبعاً ورياً فزادت شوكتهم وامتدت سطوتهم وخاف شرهم القاصي والداني

ولما يتأمل العاقل الحكيم بابتهالات الناس الى الالهة لنوال مناهم وما يقدمونه من النذور يقهقه ضاحكاً آسفاً على الدرجة التي وصلت

اليها العقول والافهام فمن الناس من يضرع اليها طالباً نوال المجد والثروة وهؤلاء هم ذوو الطمع والجشع ومنهم من يتطلب الحصول على الصحة والجمال والقوة و بعضهم يلتمس من الالهة ان تصب النكبات على رؤوس اعدائهم اخوانهم في الانسانية وان تجرد الاغنياء عن اموالهم وتعطيها لهم ومن الناس من يضرع الى هذه الالهة بان تظلل بحمايتها بنيهم المكافحين في ساحات القتال وغيرهم ان تمدهم بالمطر الغزير لتروى القيعان وتسيل الوديان وغير هؤلاء وهؤلاء ان تكف عنهم المطر وتجفف اراضيهم المنزرعة

اناشدكم الله ايها العقلاء مَن من هؤلاء يجاب طلبه و يمن عليه آله الالهة باجابة ملتمسه لا ريب في انه يصم اذنيه عن سماع اقوالهم المتباينة وطلباتهم المختلفة ولكن والحمد للآلهة لم يكن جو بيتر من الذين قد اعماهم الكذب وزاغوا عن الحق والف حمد للآلهة على ان الطبيعة تجري على سننها الى ان يصير الحق والفهم يسطعان في سماء عقول اليونان كما تسطع شمسنا على وجه البسيطة ممزقة حجب الظلام وتبقى الالهة مترفعةً عن مثل هذه السفاسف وتلك الضراعات الواهية الصبيانية

هل يعقل ايها العقلاء ان الالهة الجالسة على مائدة الطعام في الالمبوس تحتسي كؤوس الراح لاهية عن البشر واعمالهم مطلقة لانفسها عنان الشهوات وملقية نفسها على مهاد اللذة والسرور تنظر من حجب السماء الى طلبات الناس وابتهالاتهم ان هذا الا محال في محال فكيف لنا بكهنتهم اللصوص الفساق الذين دأبهم الغش والخداع وهم يدعون انهم رسل الخير قد بعثتهم الآلهة ليقودوا الناس الى طريق الحق ومحامد الاعمال بالله عليك يا شموس العلم حتى متى تسطعين وتمزقين حجب الجهل المنزلة على

العقول الكثيفة المتلبدة في سماء الافهام

ثم يأتي العصر الرابع وهو عصرنا الحاضر الذي ترقت درجة الفهم الى غاية ليس وراءها غاية اذ لم يعد يؤمن الناس بآلهة هي من صنعهم حتى ان الكهنة اصبحوا لا يبالون بما ينالونه من الانتقادات و يحتملونه من مر الوعيد والتهديد غير مبالين الا لانماء ثروتهم وزيادة سطوتهم وصولتهم وهم لو هذبوا الاعتقادات الدينية الاولية وحذفوا بعض ما لا تقبله العقول لسادوا وخضعت لهم الرقاب ولكنهم ما كانوا بفاعلين حتى يصبحوا عنوان الاحتقار وهدف الهزء والسخرياء الا عند نفر قليل من الجهلاء الذين ضربت عليهم المذلة وتعبدوا للمهانة فسامهم الكهنة الخسف وعاملوهم بالقساوة والغلاظة واكلوا على ظهورهم وشربوا

هذا كان اعتقاد الفيلسوف دياغوراس الميلوسي وانت تعلمين يا مليكتنا لا ريب ما آلت اليه حاله من النفي والعذاب حيث عاش سنينا طوالاً في بلاد الغربة والف من الكتب ما انار به العقول ودفع في صدر الحساد والعذال وحمل ذوي الفهم الى اقتفاء اثره وهذه الكتب اتلفتها ايدي الكهنة وامرت كل من يعثر على جزء منها ان يطعمه النار والآبات هو طعمة لها وقد توصل تيموكرات بحذقه ودهائه الى الاحتفاظ بنسخة منها اودعها مكانا خفيا من منزله وكان يعيد تلاوتها مراراً ليقف على مكر الكهنة وخبثهم ومما زانها في عيون العلماء انها حوت اسرار الفسيس وطرائق الفتن التي كان يأتيها الكهنة عن رضى واصفاق ليبهروا عقول الضعفاء بقوتهم وصولتهم وخصوصا المشترك بتلك الاسرار وسنأتي على وصف هذه الاسرار ان شاء الله

(الليلة الرابعة)

فلسفة ديوجانس وطريقة معيشته ونوادره الحكمية كما رواها كليون صديقه

ولما اجتمع الفلاسفة والعلماء على جاري عادتهم في الليالي الماضية حكموا باتفاق الاراء على كليون ان يقص عليهم تاريخ حياة ديوجانس الفيلسوف المعروف بالزاهد المتقشف ويشرح نوادره الكثيرة وكل مايعرفه عنه لانه صديقه فامتثل كليون للامر ووقف في محل الخطابة واتجهت اليه الانظار من كل ناحية فقال — ايها الرجال العظام قد طلبتم الي ان اقص عليكم تاريخ رجل مشهور وكل واحد منكم يعرفه مثلي لان اسم ديوجانس ولا خفاكم شائع بين الناس كلهم حتى اصبح دلالة على كل من انفرد عن الناس بطباعه وامياله وها اني اقص عليكم مايهمّ الاطلاع عليه من اعمال هذا الفيلسوف وحركاته الغريبة ونوادره العجيبة ونبسط الكلام عن حياته النادرة المثال — ولد هذا الفيلسوف المنقطع النظير في مدينة سينوب من مدن اسيا الصغرى من اب كان يحترف حرفة الصيارفة على مذهب بعضهم او حفر المعادن وصبه على راي غيرهم وقد خانه الدهر مذ كان وليداً اذ نفي مع ابيه الذي اتهم بتزييف النقود فامتلأ قلب ديوجانس حقداً على اولئك القضاة الذين قضوا عليه وهو بريء مما يستحقه ابوه وحده من العقاب اذ توضح انه مزيف للنقود وليس من العدل ان يؤخذ الابناء بجريرة الاباء ولكن العدل ليس من شيم الدهر الخؤون · واتصف هذا الفيلسوف بصفات طبيعية وعقلية جعلته يفوق على اقرانه واودعته الالهة بقالب حسن السبك من الظرافة واللباقة · فكان جسوراً عظيم الهيكل مشيد الاركان وثيق البنيان فصيح اللسان حاد الذهن جريء الجنان على جانب عظيم

من الهمة والاقدام ميالاً لكسب العلى طموحاً لاحراز المجد واعتلاء ذرى الفخر في العلوم ولذلك لم يكد يترعرع حتى حدا به حب العلم الى السفر الى اثينا لياخذ عن الفيلسوف انتستين مايؤهله لان يعد في عداد العلماء ومصاف الفضلاء ولما وصل الى قرنتية نزل في احد فنادقها وكان معه عبدٌ ولما كان صباح اليوم التالي ذهب ديوجانس ليتعهد بعض آثار هذه المدينة ويتفرج على عجيبها وغريبها فاغتنم ذلك العبد فرصة غيابه وفر هارباً وعند رجوع ديوجانس الى الفندق ظل ينتظره حتى اعياه الانتظار واضناه الاصطبار فشكا امره الى صاحب الفندق وسأله اذا كان له علم بفرار العبد اجابه هذا كلا لم اعلم امر فراره الا منك فانصح لك ان تشكو امرك الى الشرطة وهي تبث العيون والارصاد على الهارب حتى تقف على خفي مكانه وتقوده ذليلاً مهاناً اجابه الفيلسوف لست بفاعل ذلك ياصاحبي لانه مجلبة عار عليَّ اذ يعلم الناس بان عبدي كان في غنى عني وانا لم استغن عنه وعند وصوله الى اثينا اصبح صفر اليدين لان الدراهم التي كانت معه لم تكن تكفيه مؤونة شهر فضلاً عن اشهر عديدة قضاها في الحل والترحال ولذلك احترف مهنة حقيرة ليسد رمقه وهي بيع الاثمار والاصداف البحرية التي كان يتقوَّت منها ويبيع ما زيد عن حاجته لكنه سئم من هذه الحالة الدنيئة والحرفة القليلة الكسب فقال في نفسه ما احمقني واسخف رأيي كيف اني ابيع عمري ببضع دريهمات لا تكاد تكفي بلغة عيش ومن وقتها ترك تلك الحرفة وصار يجمع لنفسه البقول واصداف البحر ويأكلها وفي تلك الاثناء كان الفيلسوف انتستين مؤسس مذهب الظرافة قد شاد مدرسة لتعليم مبادئه فانضم اليه عدد من التلامذة لكنهم لم يلبثوا كثيراً حتى تفرقوا عنه وتركوا استاذهم وشأنه فاقفل هذا المدرسة واخذ يندب سوء

حظه الى ان اتاه ديوجانس يطلب التخرج عليه فرفض انتستين طلبهُ ولما الحّ عليه ديوجانس هدده بالعصا فقال له هذا لست بلاقٍ عصاً اضخم من هذه لتؤثر بي ويؤلمني الضرب بها ولست بقادر على الاصرار ما دمت انا ميالاً للعلم وانت بمشكاته فضحك انتستين واجابه الى ملتمسهِ ومن ذلك الوقت طرح ديوجانس عنه الرداء العادي الذي كان يلبسهُ وادرع لباساً خشناً ووضع على عاتقهِ كيساً وبحزامه قدحاً من الخشب ليشرب به ومسك بيده عصاً واخذ يتجول في شوارع اثينا بهذا الزي الغريب ولما كان متقشفاً بعيشتهِ ومخالفاً للزي العام بملبسهِ كان الناس يهزأُون بهِ ويعدونه ذا جنة الآن نكاتهِ ونوادره العلميةِ قسمتهم اخيرًا الى قسمين منتقد عليه ومدافع عنه وعلى ممرّ الايام ألفوا طباعه وصاروا يصبون لرؤياه بحالته الغريبة وزيه العجيب وكان ديوجانس متخذاً لهُ سكناً قناطر الهياكل واروقة الامكنة العمومية وكانت اول نادرة من نوادرهِ الحكمية انهُ رأى مرة ولداً يشرب الماء بيدهِ من ساقية جارية فدهش عجباً وقال في نفسه لقد علمني هذا الولد ان وجود هذا القدح الخشبي معي لا فائدة منه وللوقت رمى القدح من حزامه واشار بيده لذلك الولد فاتى هذا اليهِ مرعوباً فسكن روعه واعطاه شيئاً من التين كان معه والثانية انه كان يطوف الشوارع في رابعة النهار وبيده مصباح موقد وكان لما يسأله احدهم عما يصنع بالمصباح في ابان النهار كان يجيب اني افتش على رجل بينكم . وقد اكسبتهُ نوادره الهزلية الحكمية وعيشتهُ هذه الحقيرة شهرة بعيدة في ارباض اليونانية تفوق شهرة اعظم الفلاسفة وقد كان اكثرهم يهزأُون به ساخرين ويفندون اقواله فكان يقابلهم بالمثل ويكيل لهم الصاع بالصاع مستجلباً انظار السامعين اليه والنادرة الاتية قد الجمت لسان افلاطون

عن سب ديوجانس وتعييره وهي ان افلاطون كان يتباحث مرة في حدائق مجمع العلوم مع تلامذته على استنباط تحديد فلسفي للانسان لان التحديدات اللغوية لم تكن كافية على زعمه فاخذ كل من التلامذة يشحذ ذهنه لايجاد ذلك التحديد فلم يحل احدهم بطائل اما استاذهم افلاطون فبعد ان انضى مطية البحث في حل هذا المعمى قال لهم: قد وفقت الى تحديد فلسفي فهمت منه ان الانسان طائر لا ريش له فلما علم ديوجانس بذلك بادر يوماً الى قاعة المجمع ومعه ديك نتف ريشه وكان افلاطون يلقي على تلامذته درراً من البلاغة ولما دخل الى القاعة صوبت نحوه الانظار اما هو فرمى الديك من يده وقال لذلك الجمع (خذوا انسان افلاطون) ولما قال ذلك استشاط هذا غيظاً وامر تلامذته ان يخرجوه وقد كان لهذه النادرة صدى في انحاء اليونانية ورنة شديدة زادته شهرة في كل البلاد . وكان يجري على هذا الاسلوب في علاقاته مع الفلاسفة زملائه باحثاً عن عيوبهم ومنتقداً عليها مر الانتقاد ولبعد صيته في الفلسفة كان يمكنه ان يفتح مدرسة و يعلم الناس مبادئه الفلسفية لكنه فضل العيشة البسيطة والفقر المدقع على التمتع بعيشة سعيدة كزملائه وقد عاش وحده منقطعاً عن الناس ما امكن مكتفياً باقل من القليل حتى انه كان يستغني عن اشد الضروريات حاجة للانسان وكان فراشه ارض الهياكل ودثاره القبة الزرقاء لكنه عاد اخيراً الى السكنى ببرميل قديم كان ملقى على شاطىء البحر وهناك كان يطلق للهجو العنان دون ان ينقطع دقيقة عن الانتقاد وقصارى الكلام ان حياة هذا الفيلسوف كانت سلسلة نوادر حكمية خلدت ذكره في بطون التواريخ .

(اسر ديوجانس)

في ليلة من ليالي الخريف كانت الغيوم السوداء مالئة الجوّ وكان النوّ شديداً والبحر مزبداً والامواج تعلو وتتلاطم على الصخور بقوة فحدث ان ديوجانس كان على شاطيء البحر في تلك الساعة فاقبلت مركب للقرصان الى ناحية الشاطيء احتماءً من النوء وتخلصاً من هياج البحر فرأى القرصان ديوجانس هناك فاسروه بعد مقاومة عنيفه جرت بينهم و بينه واقلعوا به الى جزيرة ساموس وهناك باعوه كعبدٍ لاحد اغنياء الجزيرة فسأله ذلك الغني ماذا يعرف من الاشغال اجابه ديوجانس لا اعلم سوى احتقار الغنى وتثقيف العقول فاعجب الغني بذكائه ووكل اليه تعليم ولديه فقام بهذه المهمة خير قيام ففرح ديوجانس بحالته وغبط نفسه على وقوعه في الاسر مع هذا الرجل الحكيم الذي قدَّر العلوم قدرها البعيد عن المزاعم الخرافية المحبّ للمبادي الحكمية والاقوال الفلسفية وكان ديوجانس اغلب الاحيان يتباحث معه بامور فلسفية فمرة قال له : اليس من الحمق والظلم ان يباع الانسان و يشرى مثل سلعه وهو حرّ الوطن حرُّ النفس واليس من الحماقة بمكان ان تتغاضى الشرائع المدنية عن ابطال هذا الامر المشين للانسانية والمجلب لها البلاء والشقاء وتدع اللصوص يتنعمون بنعمة الحرية لاغضائها عنهم عوضاً عن ان تذيقهم مرَّ العذاب بما كان يفعلون متى ترتقى الانسانية بترقي عقول ابنائها الى درجة من العلم تجعلهم شديدي الكراهية لهذه التجارة الدنيئة فيعملون ما بوسعهم لابطالها و يضربون على يد مريديها . اجابه اني اوافقك على قولك هذا يا ديوجانس انما يكون ذلك متى ترقت العقول وكبرت النفوس

فقال ديوجانس اني تلميذ اسكيلاب وفيتاغورس وارسطو وقد تخرجت عليهم في مبادئي الفلسفية فرأيتهم يذمون مذهب الاسترقاق لانهم يحسبون البشر اخوانًا في الجنسية الاَّ الفيلسوف الموهوم افلاطون الذي كان يدافع عنه بيديه ولسانه والآن وقد علمت انك معي على مبدأ واحد فقد عولت على خدمتك وتثقيف عقل اولادك ليكونوا يوما ما رجالا يفتخر بهم الوطن وابنائه ومن ذلك الحين بدأ ديوجانس بانجاز ما وعد به فعلم اولاد ذلك الغني العلوم اللازمة وزاد على ذلك الحركات الجسدية كركوب الخيل والقمز ورمي السهام والصراع والصيد والسباحة وغير ذلك من العلوم الجسدية والمبادى الفلسفية التي كانت من مذهبه ليشبوا على احتقار الغنى و يعتادوا العيشة البسيطة والتقشف حتى اذا دار عليهم الدهر او نزلت بهم ملمة ما يكونون بمأمن من الموت جوعًا اذان النعم لا تدوم والحال دوامها من المحال ·

وقد احبهُ كسينياد وامرأته واولاده حبًا مفرطًا حتى انه اعتقهُ من العبودية وافاض فيه العطاء الجزيل واسداه الشكر العظيم على ما اصطنعهُ اليه من المعروف ورغب اليه ان يقضي حياته معه كأحد افراد عائلته فشكره ديوجانس على كرمه وطيب اخلاقه ضارعًا اليهِ ان يسمح له بالذهاب الى اثينا ليتفقد حال اصدقائه وزملائهِ فاجابه كسينياد الى سؤله واشترط عليه ان يرجع اليه بعد مدة وجيزة فوعده الفيلسوف بذلك لكنه لم يكد يصل الى اثينا حتى علم ان الطاعون قد نزل بها وفتك باهلها فتكاً ذريعاً وتلته حرب الاسبرطيين وتحطيم الاسطول اليوناني وموت سقراط و بركليس واستاذه انتستين وهجرة ارسطو وارستيبس واسباسية وغيرهم مما قبض نفسه

وجعله يندم على تركه جزيرة ساموس فيوماً ما اذ كان راجعاً من صيد الاسماك رأى ان برميله الجديد قد حطمته الاولاد فاستشاط غيظاً ورفع صوته لاعنا الاثينيين بقوله يا ايها الاثينيون الجهلاء انتم لستم اهلاً لان يعيش ديوجانس بينكم ولما شفى غليله من السباب بات ليلتهُ تحت رواق الهيكل و بكر في صبيحة اليوم الثاني فسافر الى قرنتية عن طريق مغار

(في قرنتية)

ولما وصل الى هذه المدينة اتخذ له سكناً رواق هيكل الآلهة وينوس لكنهُ لم يبت هنالك ليلتين حتى علم صبية المدينة بامره فاتوا اليه في اليوم التالي واجتمعوا عليه يسبونهُ ويمزقون ثيابه حتى اصبح عاري الجسم وكاد حراس المدينة يسوقونهُ الى المحكمة لولم تخرج امرأة حسناء من داخل الهيكل وتقول لاولئك الحراس دعوا هذا الرجل وشأنه فهو ليس شريراً كما تظنون وانا الضامنة لكم فتركه الحراس اما ديوجانس فدهش لما بدا له من لطف هذه المرأة وجمالها فقال لها هل انت الهة هذا الهيكل حتى اقدم لك واجبات العبادة والاكرام اجابتهُ المرأة الجميلة قائلة : انا كاهنة المعبودة افرودية من مدة اربعة ايام كرست نفسي لخدمتها واليوم الخامس ساعود الى ماضي عيشتي وانا شديدة الميل الى مصاحبة الفلاسفة نظيرك قالت ذلك واشارت الى حارس الهيكل بان يخلع عنهُ الرداء و يعطيه للفيلسوف فصدع بالامر دون تردد وكاد ديوجانس يرفض قبوله لكنه انحنى امام تلك المرأة وقال لها اني اقبلهُ بكل سرور منك لانكِ انتِ ملاك الجود والكرم فقسماً بالمعبودة افرودية التي تمثلينها بجمالك وحميد فعالك لا قومنَّ بواجب خدمتك ماحييت وان امت فعظامي في القبر تبتهل الى الآلهة بحفظك سالمة من البوائق فاجابت

تلك المرأة « التي لم تكن سوى لايس ملكة الجمال » يا ديوجانس قسما بآله الآلهة لم امل لاحد من الناس ميلي اليك لاني علمت انك سليم النية حسن الطوية كثير المعرفة والفهم ولذلك ادعوك غدا الى قصري اذا حاز ذلك لديك قبولا ثم دخلت الى الهيكل ولما بقي ديوجانس وحده قال في نفسه ما اجمل هذا الرداء فكانه رداء اله الحب ومما يزيدني عجبا انهُ هدية احدى الهيتيرات حقاً قد برهنت لي هذه المرأة عن كرم النساء وحنوهن وصلابة قلوب الرجال وخصوصاً الاغنياء منهم الذين يتيهون كبرا وخيلاء وقد اطلق لافكاره العنان وهو متوكئ على سلم الهيكل ولما نهض قائماً رأى بجانبه كيساً مملوءاً من الخبز الطري واللحم اللذيذ فصاح مندهشاً ما اشهى هذا الآكل في هذا الوقت الذي به يكاد بطني يلتصق بظهري من فرط الجوع وقلة الهجوع وكل هذه الافضال قد انهالت عليَّ من معدن كرم لايس التي لم ينفك اعظم الفلاسفة عن هجوها وسبها فوحق الالهة العظام لاسحقن رأس كل من يتطاول عليها بالسب والثلب بحذاءي هذا البالي وفي تلك الاثناء دنا منه رجل جميل الخلق وثغره يفتر عن ابتسامة لطيفة وقال له انت هنا يا ديوجانس يا للعجب . . اعلم ان امرأة بعثتني اليك لابلغك ان تذهب لتراها وهذه المرأة اظنك تعرفها معرفة تامة قال ديوجانس هذا انت يا ارستيبس اني ملبٍ دعوة تلك الفاضلة الصادقة الولاء عن طيبة خاطر ولوقت مسك عصاه واحتمل كيسه وتبع ارستيبس الى قصر لايس فلما رأته استقبلتهُ احسن استقبال و بالغت في اكرامه والحفاوة به وطلبت اليه ان يسكن معها اما ديوجانس فلاعتياده الشظف وخشونة العيش والانزواء عن الناس ظن انه برفضه طلبها تسرّ به اما هي فالحت عليه قائلة اني عالمة بان مذهبك الفلسفي

ينهاك عن قبول طلبي لكني لما علمت باساءة الاثينيين اليك وتحطيم برميلك في اثينا اردت ان اعيضك باحسن منه في قرنتية اجابها ديوجانس بلهفة يالايس · يا من هي اجمل من المعبودات تأكدي ان فضلك ولطفك يبقيان مرسومين في قلبي وانا ليس بطوقي قبول طلبك فدعيني اخرج وللوقت قبل يدها وخرج · وبعد ان خرج ديوجانس من عندها قال لها ارستيبس ما اشد لطفك يالايس واعظم سطوتك كيف قدرت ان تخضعي للطفك من قلبه اقسى من الصخر الصلب فهنيئاً لك فقالت له لايس كف عن التمليق ايها الصديق واعلم اني لا اعمل عملا الا وداعي المروءة يدعوني اليه

وقد كان ديوجانس يزور قصر لايس مرارًا وفي كل مرة كانت تقابله بمزيد الرقة واللطف وتعرض عليه ان يسكن بقصرها و بلازم حديقتها حتى لم يعد يمكنه الرفض فقبل منها ذلك بعد ان شكرها كثيرا واشترط عليها ان يكون سكنه في برميل كما كان في اثينا فقالت له لايس اني اقبل ذلك غير اني اشترط عليك ان اغير هيئة ذلك البرميل · وللوقت امرت باحضار احد النجارين فعمل صندوقاً مستديرا من طرفه وعمل له ابآ وقسمه الى قسمين ثم اتى بديوجانس اليه ليراه ولما راه هذا صاح قائلاً ليس هذا برميلاً بل هو قصر فخيم تكرمت به علي لايس ولولم تكن ملكة الجمال والدلال متفضلة علي به لرفضت السكنى به ولكني اقبل على الرغم عني حتى اذيع بين الملأ ان ساعة من حياة لايس الكريمة افضل من حياة الشحيح ذيوستين برمتها « كان هذا ينهك قوى عبيده بالشغل طمعاً في تنمية ثروته وزيادة سطوته » وانه يوجد كرم بقلب هيتيرة اكثر بكثير من الكبر المالي قلب افلاطون « كان هذا ينتقد اعمال لايس بايعاز من عشيقته ارشياناس العجوز

حتى جر اليه هجو ديوجانس " وفي غضون ذلك دخلت لايس سراً الى حيث كان ديوجانس وقالت له شكراً لك ايها الصديق انا لا استحق كل هذا المدح اجابها ديوجانس : تاكدي يالايس باني مع المدح والتمليق على طرفي نقيض وان ما اتفوه به يصدر عن قلب صادق الولاء لا يعرف المراوغة ولا الكذب واعلمي ان مادام لديوجانس عرق ينبض فهو عبد رق لك لا يهمه سوى القيام بخدمتك . وقد جعل ديوجانس نفسه من تلك الساعة وقفاً على خدمة لايس القورنثية ملكة الجمال مؤيداً اخلاصه ووداده لها باعظم البراهين واصدق الادلة (انتهت الليلة الرابعة)

﴿ الليلة الخامسة ﴾

(مقتطفات من نوادر ديوجانس وهزلياته الحكمية)

ان حياة هذا الفيلسوف كانت مملوءة بالحكم والنوادر اللطيفة التي جعلت صيته يطبق الخافقين واكسبته حسن الاحدوثة وطيب الذكر بين معاصريه وقد كان متخذاً خطة الاندفاع في الانتقاد على الفلاسفة والعظماء غير هياب ولا وجل حتى فاق بذلك اشد الشعراء هجواً واكثر الفلاسفة انتقاداً انما انتقاده هذا لم يكن ليخلو من غاية ادبية يرمي اليها لتثقيف العقول وانارة الاذهان وخلاصة القول انه كان مقداماً جسوراً لا يضارعه احد في هجوه لخرافات اليونان وطعنه باعتقاداتهم الدينية الواهنة سوى دياغوراس الميلوسي ومع شدة طعنه كان سعيد الطالع اذ لم ينله من الجزاء ما نال دياغوراس وغيره ممن سب وقدح فمن ذلك ان بعض اصدقائه من ادعياء كهنة الفسيس اطمعه بنوال مركز عال في مصاف الكهنة اذا رضي بقبول الاشتراك معهم بالاسرار الدينية الا ان ديوجانس لم يكن ليعبأ بمثل

هذه الاوهام الفارغة والمزاعم الخرافية ولذا اجاب ذلك الصديق بقوله :

انا لا اريد الاشتراك باسراركم ولست مصدقاً ما تدعونه من ان غير المشترك بها يصير الى الفناء في عالم الظلمة و يصبح الجحيم مقرّاً له اذ لا يقبل العقل بان اعاظم رجال اغريقية غير المشتركين كفيثاغورس وارسطو وسقراط وغيرهم يكون مصيرهم العذاب والبلاء وهم نخبة الفلاسفة والعلماء بيد ان اللصوص والفجرة الاثام كاللص باتسيون والناسجين على منواله من المشتركين بها ينالون الخلود في جنات النعيم

وكان يمشي ديوجانس حافي القدم على الجليد والرمل المحرق فكان يستهين بالحر صيفاً و بالقر شتاء معانقاً تماثيل العظماء المكسوة بالجليد وكان يأكل و ينام اينما كان وايان حل فتصادف مرة انه رأى ديموستين داخلا الى احدى الحانات فاختبأ هذا لئلا يراه ديوجانس فصاح به لا تختبئ يا ديموستين لان الاختباء والتواري عن الانظار يجدد الناظر عليك فينكشف امرك وتسوء عقباك . وكان اليونان يعطرون رؤوسهم بانواع العطور الاّ ان ديوجانس كان يفرغ زجاجة الطيب على قدميه فكان اذا سئل عن سبب ذلك يجيب السائل بقوله . ان رائحة العطر تصعد من القدمين الى الأنف فيستنشقها اما اذا كانت في الراس فتتلاشى في الهواء وتتطاير في الفضاء . وحدث ذات مرة انه اراد الدخول الى قاعة عمومية كان فيها عدد من الشبان يلغطون فلما راوهُ زادوا الصياح والجلبة حتى اجبروهُ على الخروج من القاعة واذ كان يعرف كل منهم كتب اسماءهم على ورقة وعلقها بظهره مارًّا بها بشوارع اثينا الكبيرة

ومن حكمه انه كان يقول . ينبغي للانسان الا يهتم لنكبة نزلت به بل

عليه ان يلهم نفسه الصبر والعزاء عوضاً عن ان يطوح به الحزن الشديد الى الانتحار او يصيبه منه نكد في معيشته . وكان يهزأ بمن كان يعلق قلبه بالاوهام والاشياء الخارقة للتصور كالنعيم والجحيم مما لا تدرك كنهها العقل ولا تقع تحت فكر بقوله . ان الاولى للمرء البحث في ما يجديه البحث نفعاً مادياً كان ام دينياً .

وكان لا ينفك برهة عن هجو الخطباء الذين ينمقون الالفاظ ويجمعون النصائح لالقائها على الناس هم لا يعملون بها

وفي ذات ليلة اخذ يصرخ بملء صوته قائلا : ايها الرجال انجدوني . فاجتمع عليه عدد غفير من الناس ليعلموا ما ألمّ به فكان يردهم بعصاه قائلا «انا لا اخاطبكم بل اخاطب الرجال» . ومرة صدمه احد العملة بخشبة كان يحملها و بعد صدمه صاح به حذار حذار فما كان من ديوجانس سوى انه ضربه بعصاه قائلا تصدمني وتقول لي حذار فهل ستصدمني مرة ثانيه لحذار انت من ضرب عصاي ومرة صادفه احد الاغنياء ولكمه بجمع كفه لكمة شديدة وقال له . انك امرك الى الحاكم ليحكم لك بمبلغ تعويضاً للاهانة التي لحقت بك فاجابه ديوجانس : لم اكن اعلم ايها الغر الغبي انه يجب علي ان البس درعاً اتقي بها صدماتك في وسط المدينة وعلى مرأى من الناس . ولما كان اليوم التالي البس ديوجانس يديه درعاً من الزرد وظل ينتظر ذلك الغني قرب منزله حتى رآه وللوقت وثب عليه ولكمه لكمة كادت تودي بحياته وقال له اذهب بدورك واشك امرك للحاكم فيذيقك مثلما ذقت من يدي . ورأى مرة شاباً من ذوي اليسار يستخدم عبداً ليلبسه الحذاء فقال له ايها الكسلان لا تكون قرير العين الا اذا مضغ لك العبد اللقمة

والقمك اياها وكان الاولى بالالهة الا يخلقوا لك يدين وفمًا · وكان يقول ديوجانس لمن يعتقد بصحة الاحلام انتم لا تعلقون شأنًا على ما تفكرون به وانتم في اليقظة وتزيدون البحث وتبالغون في التنقيب عما تحتلمون به وانتم نيام ان هذا لمن اشد ضروب الجنون هولاً واقواها حطًا من كرامتكم ان كنتم لا تفهمون ورأى مرة احد المسرفين على باب حانة يأكل خبزًا وزيتونًا فقال له · لو كنت اعتدت مثل هذا الطعام دوامًا لما كنت تأكل الان مثل هذا الاكل

ومن نوادره انه كان يقول «الغني الجاهل كالحمار المسرج بسرج ذهبي» وكان الناس يحسدون الفيلسوف كاليستونس لاكله دوامًا على مائدة الملك فيليب ملك مكدونيا·

اما ديوجانس فكان يقول : انا ارثي لحال كاليستونس اذ لا يقدر ان يأكل الاَّ لما يأمره له الملك فيليب بذلك ·

وكان احد اغنياء اثينا يجهد نفسه ليحمل ديوجانس على السكنى معه اما هو فكان يقول اني افضل اكل البقول والنوم على التراب من السكنى مع رجل غني ·

وكان الناس يعيرونه على طرده من وطنه فكان يجيبهم بقوله اني اشكر الآلهة على ذلك اذ اصبحت فيلسوفًا في ديار الغربة — وفي الشتاء لما كان البرد يشتد بقره وزمهريره كان ديوجانس لضيق ذات يده يستعطي من اي انسان كان من المارين الظاهرة عليهم دلائل النعمة بقوله لهم اعطني من فضلك شيئًا اسد به الرمق نظير ما تجود به على الفقراء وان لم تكن قد احسنت لاحد منهم بعد فابتدئ بي · ورأوه مرة يصلي الى تمثال منصوب فسألوه

عما يريد بذلك فاجابهم لاعود نفسي الرفض اذا ساقتني الظروف الى رجل شحيح منكم

وسأله مرة احد الاثينيين (اي حيوان يعض وضرره اكثر من غيره) اجابه الفيلسوف ذلك الذي دأبه السعاية والنميمة وتقول الاقاويل و بين اصحاب المجالس والمقامات العالية المتملق الخداع فسر السائل من هذا الجواب المقنع واعطي الفيلسوف بضع دريهمات فاخذها ديوجانس قائلاً الحمد للآلهة قد ابتدأت انتفع من دروسي كافلاطون ·

وقال له سفسطي يا ديوجانس انت لست نظيري لاني رجل وانت لست رجلاً فاجابه الفيلسوف ان ما قلته الان يدل دلالة واضحة على انك احمق قليل الادراك

ودخل مرة الى حمام وكانت المياه عكرة فيه فقال اذا استحم الانسان هنا فاين يغسل جسده من قذارة الماء

وكان دائماً يتفوه بهذا الكلام المملوء من الحكمة · وهو اني لما ارى عظام الرجال كالوزراء والعلماء والفلاسفة اعلم حقاً ان الانسان من ارقى المخلوقات ولكني لما انظر الى اولئك المشعوذين كالضاربين بالحصى ومفسري الاحلام وغيرهم ارجع عن كلامي الاول · وكان يقول ان انفع الاشياء ارخصها ثمناً فالتمثال مثلا يكلف وزنتين من الذهب بيد ان وزنة الدقيق لا تساوي اكثر من ثلاثين درهم واتاه مرة رجل يريد ان يتخرج عليه فاعطاه الفيلسوف كيسه ليحمله ولكن الرجل لم يكد يضع الكيس على عاتقه حتى رماه وفر هارباً ولما صادفه ديوجانس قال له : يا صديقي بئس كيساً كان سبباً في انفصالنا وفصم عرى صداقتنا · ولما كان ديوجانس بعيشته الحقيرة يقول في

نفسه حقاً ان البلايا والرزايا قد نزلت بي لان لاوطن لي ولا دين ولا مأوى انما الحمد للالهة التي انعمت علي بعقل نير اخفف به بعض هذه البلايا · واتاه مرة رجل في الخمسين من عمره و برفقه شاب فسأله الرجل متي يجب على الانسان ان يتزوج

— اجابه الفيلسوف لا يجب الزواج في زهرة الشبيبة ولا في سن الشيخوخة

وانتخبه محام ومراب ان يكون حكماً بينهما فاصلح ذات البين بقوله · انكما لصان انما كل منكما يختلف اسلوباً عن الآخر

وعيره رجل بقوله انه كان يزيف النقود فيما مضى من الزمن فاجابه الفيلسوف نعم ما قلته لاني كنت نظير ما انت عليه الآن لكن البون بيننا انك لا تصبح مطلقاً نظيري الآن · وسأل احدهم من اي بلاد انت اجابه انا ابن كل وطن ومراده بذلك ان الناس اخوان في الوطنية اينما كانوا ·

ومرّ مسرف ذات يوم من امام برميله فطلب منه مبلغاً وافراً من النقود فقال له ذلك المسرف لماذا تطلب مني هذا المبلغ الوافر وتكتفي من غيري باقل من القليل · اجابه ديوجانس ذلك لانك ستعدم مالك قريباً وتصير مثلي فقيراً ·

ورأى رجل قليل الدراية يوتر قوساً فركض ووقف ازاء الغاية التي يرمي اليها فساله احدهم قائلاً ولماذا تصنع ذلك · اجابه لانه سيخطئ المرمى ولا يصيبني وكان مرة ياكل في اعظم شوارع اثينا فمر به جم غفير من الناس ووقفوا يتفرجون عليه و يسبونه ملقبينه بكلب جائع فاجابهم خسئتم ايها

الاثام فانتم الكلاب الجائعة لانكم تجتمعون حول رجل يا كل ! كلا بسيطاً وكان ببلاد لاسيد يونية ولما عاد الى اثينا سأله بعضهم ماذا رأيت بتلك البلاد فاجابهم رايت رجالاً وعدت الى بلد يسكنه اولاد . « وكان يسمي الحظيات ملكات الملوك لانهن كن يحصلن على مشتهاهن وينلن رغائبهن »

ورای مرة ابن احدى الحظايا يرمي جمهوراً من الرجال بالحجارة فقال له حذراً ايها الغر ان تصيب والدك وقال له احدهم كيف انتحلت لنفسك لقب فيلسوف على حين انك لست له اهلا اجابه ديوجانس اذا لم اصلك بغير احمق ومجنون فهذا كاف لان استحق هذا اللقب . وعلم مرة ان افلاطون يجالس بعضاً من ندماء حاكم سيراقوسه فدخل عليه وداس برجله على بساط ثمين وقال انني اسحق كبرياء افلاطون تحت قدمي فاجابه افلاطون نعم ولكن تسحقها بكبرياء اعظم منها قال له ديوجانس نعم ما قلت انما من المؤكد انك لا تبادلني ابهتك بابهتي اي البساط الثمين الذي دسته بقدمي بكيسي هذا البالي

يريد بذلك ان افلاطون كان اشد منه كبرياء بكثير والدليل على ذلك حبه للفخفخة وانيق الاثاث اما هو فلم يكن على شيء من ذلك

واتى اليه مرة رجل بابنه ليعلمه فاخذ اب الولد يطنب في مدحه ووسع عليه فقال له ديوجانس بعد ان استوعب كلامه اذا كان ابنك على ما وصفته لي من العلم فلماذا اتيت به الي" ؟

ولما طرد دنيس حاكم سيرقوسه من مملكته لظلمه اتي قرنثية واحوجه الدهر ان يفتح مدرسة للقيام بأود معيشته فاتاه ديوجانس وقال له انني اعجب كيف انك لم تزل باقياً على قيد الحياة على حين انك تستاهل الموت من

زمن مديد اذ لا نفع منك يرتجى ان كنت ملكاً او معلماً ·

وكان يتفوه باقوال غاية في البلاغة والحكمة هاك بعضها·

« الناس عبيد في هذه الدنيا لان الخدام يخدمون مواليهم وهؤلاء يخضعون لشهوات انفسهم»

« الملذات التي تخدش الآداب هي سبب تعاستنا وشقائنا»

الخطاب المنمق مصيدة من عسل »

« الحب شغل البطالين الشاغل»

« العلم في زمن الشيخوخة خير من الجهل»

« الامل هو حلم الناس المستيقظين »

« احسن وسيلة للانتقام من الاعداء هي مسامحتهم عن هفواتهم وتغمد ذنوبهم »

« معرفة الجميل تهرم قبل كل فضيلة »

« لا تعدم شريعه الاَّ بالهيئة المدنية ولا تقوم هيئة الا بالشريعة »

« حب الدراهم ينبوع العلل والشرور »

— والح عليه مرة احد الاغنياء ان يقبل دعوته الى العشاء فقبل الفيلسوف ذلك وذهب معه · ولما دعاه مرة ثانية رفض قبول دعوته بتاتاً بحجة انه لما ذهب في المرة الاولى لم يسده الشكر فضحك الغني وقال له ان الامر واقع على العكس ياديوجانس اذ المدعو واجب عليه الشكر لا صاحب الدعوة فاجابه قائلاً

اعلم ايها الغني ان رجلا نظيري واجب اداء الشكر له لانه ببلاغة اقوالي اتحصل على الما كل التي ا كلها وازيد

ورأى مرة احد اللصوص يغطس في ماء النهر المقدس ليبرأ من خطاياه فقال لمن حوله اليس من الحماقة ان يعتقد الانسان انه بمجرد دخوله الى ماء النهر ودفعه شيئاً للكهنة حراسه يبرأ من وصمة الآثام التي اجترمها

ولما أسر في معركة شيرونه وأتي به الى فيليب المكدوني فسأله هذا من انت فاجابه الفيلسوف انا الناظر الى طمعك وجشعك فعفا عنه الملك واطلق سراحه

ودخل به مرة وكيل رجل غني شهير ليريه الجواهر الموجودة عندسيده فكان ديوجانس يقول كلما رأى شيئاً انني في غنى عن كل هذا ثم بصق في غرفة الحلي والجواهر فلامه الوكيل على ذلك وقال له كيف تبصق في محل نظيف كهذا · فلما سمع ديوجانس كلامه بصق في وجهه وقال له لا تخجل يا صاحبي اذ لم ارَ محلاً قذراً اقدر ان ابصق به سوى وجهك

وادعى احد الكهنة ان رجلاً سرق بعض الحلي من مذبح الآلهة فقال له ديوجانس كف عن الكلام اذ انك لص اكبر منه بكثير · وراى اعلاناً ملصقاً على جدار منزل معد للبيع وصاحبه من كبار النهمين فقال اني اعلم ان بطن هذا المنزل لم يسع صاحبه فلفظه منه — وساله احدهم مرة اذا كان يحق للفلاسفة ان ياكلوا من الحلوى فاجابه احضر لي منهـا شيئاً وبعدئذٍ اجيبك . ومرة كان رجل نحوي يحل مسالة لغوية فاخرج ديوجانس قطعة من الخبز من كيسه واخذ ياكلها فنظر اليه تلامذة ذلك النحوي متعجبين فقال على الفور انظروا كيف ان كسرة خبز قد حلت مسالة لغوية

وساله جندي كان يتمرن بسيفه على باب خشبي عما اذا كان شجاعاً ليلقى العدو ويصرعه فاجابه نعم تقدر على ذلك اذا كان عدوك من خشب

وكان يقول « اجمل وانفع الفضائل عمل الخير · واقبح الرذائل نكران الجميل » وهنا وقف كليون عن الكلام قليلاً ثم قال اني اخشى الزيادة في الشرح خوفاً من الملل ولكن يجمل بنا ان نقول على سبيل الايجاز ان تحسن حال ديوجانس ابتدأ من زمن وجوده بقرنتية مغموراً بنعم لايس رغماً عما اتصف به من حب التقشف والزهد في ملذات العالم وقد كان هذا الفاضل لا يهتم لشيء ولا يخاف من عقوبة ام نازلة دهماء ولذلك كان دواماً ضاحك الثغر قرير العين فلم يكن له اعداء بين الناس لانه كان يسايرهم ويرشدهم بنصائحه الى طرق الحق ومحامد الاعمال وقد كان ايضاً رغماً عن مجونه وزهده شديد الانتقاد على الحكومات وعظماء الناس اذا اتوا امراً فرياً ام ارتكبوا محرماً وشدوا على عضد ظالم ولم يعف عن كهنة القسيس بانتقاداته رغماً عما كانوا عليه من البطش والصولة

وكان يعتبر القواد وابطال الحرب كسفاحين وشاربي دماء اخوانهم في الانسانيه وانه كان من الممكن أن تستغني الامة عنهم لوكان افرادها ذوي عقول حصيفة وكان يقول ان الحروب هي من اكبر البلايا على بني الانسان

ورغماً عن تقشفه الزائد في حده كان شديد البنية وثيق الاركان كثير التودد لمن يسأله عن شيء يجيب السائل بطلاقة لسان ويظهر له الاكرام والاحترام مهما كانت درجته في الهيئة المدنية · هذه بعض صفات ديوجانس اوردتها لكم على سبيل الفكاهة لان كلا منكم واقف على كنهها وازيدكم انه فضلاً عن لياذه بلايس وكرمها الزائد نحوه وتمتعه بخيرها لم يزل يلبس الثياب الرثة ويحمل الكيس البالي على عاتقه كما كان في اول دور من عيشته وقد حذا ديوجانس حذو رفقائه الفلاسفة فألف وصنف كتباً كثيرة العدد

جزيلة الفائدة واهمها كتاب اسمه «الجمهورية» الفه رداً على كتاب افلاطون واودعه من الانتقاد المسند الى البراهين الناصعة ما احجم لسان افلاطون وابكمه «ومن الاسف ان مولفات ديوجانس الكثيرة ذهبت طعاماً للنار في حريق مكتبة الاسكندرية»

«ايضاحات عن ديوجانس اوردها بعض المؤلفين»

توفي هذا الفيلسوف الذائع الصيت بعد ان عاش تسعين سنة كانت كلها مملوءة من نفائس الاقوال ودرر النصائح وبقي قوي البنية هماماً ذا قوة خارقة لآخر حياته وذلك لعدم اهتمامه بالامور التي تضني الجسم وتنحله وتورث الخلل والخبل كحب الاثراء عاجلاً والاهتمام للنوازل وحوادث الدهر ولما دنت منيته اتى اليه كثير من عظماء القوم ليؤاسوه في ملمته فساله بعضهم اين يريد ان يدفن فاجابهم في عرض الفلاة ومهب الريح فقالوا له ان جسده يبيت هناك طعمة للنسور قال لهم اذن ضعوا بجانبي عصاً لاطردها عن جثتي فاجابوه ان المرء اذا مات لا يبقى له حراك ولا شعور فاجابهم عندئذٍ اذاً ماذا يهمني لو مزقت لحمي النسور ام نخرها الدود في القبور . وكان ذلك آخر كلام فاه به . ولما فاضت روحه دفن باكرام واحترام ورجع اهل اثينا من الدفن آسفين عليه مرددين فضائله

﴿ الليلة السادسة ﴾

«اسرار الفسيس كما راوها الفيلسوف دياغوراس الميلوسي»

«الفسيس مدينة تدعى اليوم لبسينا كائنة على خليج سلامينة غربي بلاد اتيكه مابين اثينا وبرزخها يحيط به سهل خصب يخترقه نهر سفيز واشتهرت قديماً بين مدن اليونان لاعتقادهم بذلك الوقت ان الالهتين

العظمتين « دميترو برسفونه » كانتا تسكنان بها واليها تنسب اسرار كهنة اليونان القدماء «للمعرّب»

• قال دياغوراس : يروق لي كثيرًا ان اشرح لكم عن اسرار الفسيس التي لم تكن الا صورة من اسرار ثيموثراس وقد كان يعتقد قدماء اليونان ان معرفة هذه الاسرار مدعاة الى عمل الفضائل والمبادي الصحيحة الا اني اعتقد ان الغاية منها هي تعمية الحقيقة على بسطاء الناس لايهامهم بان الكهنة هم رسل الآلهة وانبياؤها حتى يؤدوا اليهم الطاعة العمياء والاحترام الكلي •

وكلمة « تسموفوركيس » التي تطلق على اعياد الفسيس يعني بها بداية ومغزاها ان يذكروا المشتركين بالشرائع الاولى والاعتقادات التي وضعتها سيريس الهة الحقول ليمشي اليونان على اثرها •

• وتقسم اعياد الفسيس الى قسمين كبيرة وصغيرة • فالصغيرة هي توطئة للكبيرة وتقام عادة في شهر انتستيريون وباثنائها يتطهر مريدوا الاشتراك بنهر سيفيزو ويتقشفون بالمآكل ويواظبون على الصلاة والزكاة وتقديم الضحايا لآلهة الحقول وهذه الضحايا لابدّ للمشترك عنها لانها الزامية وكلما كانت الهبات التي يقدمها المشترك ثمينة كانت الفروض التي يفترضها عليه الكهنة خفيفة الوطأة وهذا الامر لايجهله ذوو العقول الحصيفة من المشتركين فكانوا لذلك يؤتونها عن رضى واصفاق • اما الاسرار العظيمة فكان يحتفل بها مرة كل ثلاث سنوات في شهر (بيودروميون) ومدة الاحتفال لاتزيد عن تسعة ايام وهنا مجال يقدر الانسان ان يتصور ماكان يصنعه الكهنة من ضروب الغرائب وغرائب العجائب ليبهروا عقول المشتركين مستعملين ما اتصل

اليه العلم من الاكتشافات والاختراعات بعد ان يضنكوا اجسادهم بالتقشف والعبادة و يضعفوا عقولهم بما يظهرونه لهم من الغرائب ·

ومما علمنا العلم عن هذه الاسرار ان غايتها الوحيدة هي تسلط الكهنة على الناس وامتداد اعناقهم الى امتلاك اموالهم وكفانا بغنى هولاء الكهنة برهاناً على ذلك · ولكن الكهنة اشاعوا ان غايتها معرفة الفضائل وتجنب الرذائل واداء الطاعة للالهة التي كان يمثلها الكاهن الاعظم و يعرف (بهيروفانت)

فكان هذا يظهر بغتة في وسط نور ياخذ الابصار ضياؤه و يخطف العقول رواؤه و يخاطب المشتركين بقوله :

«انحنوا ايها المشتركون امام عظمتي التي استمدها من الآلهة العظيمة الشأن واني باسم الآلهة تسموا فورا اقبلكم بسرور وادخلكم في مصاف المقربين اليها فاعلموا اليوم انكم اعلى المخلوقات شرفاً متازون عنهم بما ستطلعون عليه من اسرار الآلهة حتى تعيشوا عيشاً هنياً في هذه الدنيا وتنالوا في الاخرة السعادة الازلية والنعمة الابدية فتشاركون الالهة في الالمبوس بانواع المسرات والملذات فاوصيكم ببعضكم خيراً و بطاعة الكهنة مرشديكم اذهم رسل الكهنة الناطقين بلسانها · »

· وقد قلنا ان الاحتفال بالاسرار الكبيرة يستديم تسعة ايام متوالية ونزيد الان ان الثلاثة ايام الاول تخصص للعبادة وتقديم الضحايا وتطهير النفوس بالاغتسال بماء سيفيز وكان ذلك يجرى عادة على شاطيء البحر · واليوم الرابع كانوا يرقصون رقصاً مقدساً يمثلون به اختطاف احدى الآلهات ثم يولمون الولائم في الحدائق النضرة و يقتلون الوقت بالمسرات

· وفي اليوم الخامس كانوا يحملون المشاعل ويطوفون بها سكوتاً ثم

يبادلونها من بعضهم بنقلها من يد لاخرى ·

· واليوم السادس كان مكرساً لالهالخمر باكوس ابن آلهة الحقول فكانوا يضعون اكاليل الغار على تمثاله ثم يحتملونه بين تهاليل الفرح والاناشيد المقدسة مع تمثال امه من مذبح الاليزونيوم في اثينا حتى مذبح الفسيس وكانوا يخرجون به وهو في عربة فخيمة ملآنة بالازهار من باب ديديل في اثينا و يسيرون الى مدينة الفسيس عن الطريق المقدسة المعدة له وكان الكهنة يرتلون والناس تعيد ذلك الغنا وترتفع بين الجمهور تهاليل الفرح — اما في اليوم السابع والثامن والتاسع اي الثلاثة ايام الاخيرة من الاحتفال فكانت تخصص لاطلاع المشتركين على الاسرار شيئاً فشيئاً حتى اذا اطلعوا عليها كلها اطلقوا العنان لشهواتهم وتلذذوا بانواع الملاذ ·

« وقد قال القديس غريغوريوس عن هذه الاسرار مانصه »

« اغلقوا ايها الجهلة ابواب ظلماتكم وابعدوا الناس عن الطريق التي يدلكم عليها كهنة الفسيس الحالكة الظلام حتى اهديكم طريقاً مستقيماً يقودكم الى النعيم والا ساكشف عن وجـه خرافاتكم القناع ايها الكهنة اللئام واسود وجوهكم بسواد تعاليمكم ومزاعمكم » وكان المترشحون للاشتراك يخلعون رداءهم و يلبسون جلد ظبي ثم يتركون هذا الجلد ويلبسون اللباس الذي به يشتركون باللاسرار وفي خلال ذلك كان يخطب الكاهن الاعظم خطاباً عن الكواكب وعن الزراعة ثم كان يرفع يديه الى السماء و يشكر آلهة الحقول على نعمائها و بعدئذ يعلن ان المشتركين نالوا نعمة الاشتراك واستناروا بنور العرفان

وكان ذلك يجري في الظلام الحالك والمشتركون كانوا ينتظرون خارج الهيكل فتح ابوابها وما يعتمون ان ينتظروا ذلك حتى كانوا يسمعون اصواتاً

مزعجة مخيفة كقصف رعود وارتجاج الارض وميد الهيكل وتزعزع جدرانه ثم يتلو ذلك اصوات تذيب القلب فرقاً وارتياعاً كانت تأتي من اعماق الارض كفحيح افاعي وزئير اسود وصراخ يمزق طبقات الهواء ثم يزيد الرعد قصفاً والارض ميداً فترى من خلال نور ضئيل خيالات مزعجة وجثث قتلى مخضبة بالدماء ومن عجم الحيوانات اشكالاً لها رؤوس بشر وبعد ان يرى المشترك كل ذلك تهدأ الاصوات ويعقبها ظلام حالك يستولي عليه سكوت تام وبعد برهة يزاح ستار معدني فترى الجحيم بعذاباته وروائحه السامة المخيفة وانهاره النارية تملوها لجج من اللهيب ذي الضرام ثم يتلو هذه المناظر المخفية النعيم بجنانه الجارية من تحتها الانهار بين رياض اريضة واشجار باسقة يتفيأ تحت ظلالها الوف من المؤمنين وينساب بينها الوف من الجداول الفضية وهناك اشباح الصالحين تتنزه وتخطر بين تلك الخمائل وهناك العاشق الولهان مع معشوقته يتلذذان بسماع انغام موسيقية سماوية تكاد تأخذ بالعقول واكل مالذ وطاب من المآكل الشهية وشرب الخمور الالهية المعتقة وبعدئذ يتقلبون على اسرة من الديباج ويتطيبون بانواع الطيوب .. فياعجبا لقوة كهنة القسيس وسطوتهم ومزيد مكرهم .

وبعد كل هذه الاحاديث والالهامات كان يؤخذ بالمشتركين الى سرداب عميق ينيره كثير من المشاعل وهناك كانوا يطلعون على مالا يليق من حوادث آلهة الحقول وآلهة الحب والخمر وبعدئذ يرجع بهم الى فسحة الهيكل الخارجية حيث يظلون منتظرين في ذلك الظلام الهائل ثم تفتح فجأة أبواب الهيكل فيرى الوف الالوف من الانوار المضيئة والمشاعل المتقدة التي تاخذ بالابصار فلا يعود المشتركون يرون تمثال آلهة الحقول المتلألئ بالحلي

والجواهر الا بالكاد . ومما يزيد في رونق هذه الحفلة زينة الكهنة الجالسين امام التمثال وملابسهم تتألق فيها الجواهر وكذلك انغام موسيقية شجية يتخللها اصوات مطربة تذيب القلب حنانًا ثم رائحة البخور المالئة للفضاء . وهناك يمثل الكاهن الاعظم اله الالهة والكاهن الملقب بدادوكس يمثل الشمس والقمر يمثلهُ الكاهن هيروسركس . والارض بالكاهن يا كوجوج و يمثل البشر جمع غفير من الكهنة الثانويين .

ثم يومئ الكاهن الاعظم ايماءة فتظهر الآلهة الواحد تلو الآخر على مذبح الهيكل وحينئذ يعتبر المشتركون لائقين للتمتع بمرأى الالهة ومخالطتها وما يلبث الكاهن حتى ينتصب واقفًا ازاء تمثال الهة الحقول و يقول للمشتركين ما يأتي .

يا ايها المشتركون لم تكن حياتكم سوى سلسلة اتعاب مشبوكة الحلقات اما الان فانتم سعداء تنعمون بسكنى الفردوس على ضفاف الانهار في جنات تحت ظلال الاشجار وتذوقون ما طاب لكم من الملذات البدنية ثم انتم تدعون الى ولائم الآلهة بيد ان الكفرة يتيهون في ظلام حالك وفي بوادٍ مقفرة لانهاية لها و يشربون من نتن الماء الراكد فافرحوا وتهللوا لان الآلهة قد جعلتكم فوق مراتب البشر وافاضت فيكم وافر نعمائها ثم يضع سبابته على فيه و يقول . قد اقسمتم ايها المشتركون باغلظ الايمان ان لا تبوحوا باسرارنا وتطلعوا الناس على ما رايتم وسمعتم من اعمالنا واقوالنا فالويل ثم الويل لمن يبوح بذلك لان جزاءه يكون القتل والحرمان من ملذات النعيم . فيعيد المشتركون اقسامهم امام الكاهن الاعظم ثم يخرجون ازواجًا من الهيكل وهم صامتون كأن على روسهم الطير و يؤمون هيكل الاليزونيوم في اثينا وكان

يسمح لهم في اليوم التالى ان يقيموا الافراح و يتلذذوا بانواع الملذات وكانوا يدخلون في اليوم التاسع كل من لم يشترك في الثمانية ايام ويخصص هذا اليوم ايضاً لقبول الهدايا النفيسة التي كان يقدمها اللائقون للاشتراك ٠

والان نسالكم ايها السامعون هل دري احدا منكم لماذا يعاقب بالقتل المفشي لاسرار كهنة الفسيس وما هي هذه الاسرار فاذا اجبناه بلسان بعض القائلين بان غاية هذه الاسرار معرفة الفضيلة فلماذا اذن يعاقب من يبوح بها باشد الجزاء على حين انه يجب ان يكافئ و يعد من جملة المحسنين الى الانسانية ولكنني انا دياغوراس الميلوسي المشترك بتلك الاسرار سابوح لكم بها واكشف القناع عن خفاياها واول ما ابدأ به هو عدم التصديق بوجود سر عظيم اذ لو كان ذلك لما بقي مدى هذه الاحقاب مدفوناً في صدور المشتركين لانهُ يعسر ان يكونوا جميعهم كاتمين لذلك السر مهما كان عقاب افشائه عظيماً لاسيما عند النساء وقد علم واضع الاسرار ذلك بناقد فكرته وقوة رويته فاشترط على المشترك ان يقسم ايماناً محرجة بان لا يبوح بما يطلع عليه والا فيقع تحت طائله العقاب ٠

وساطلعكم على شيء من هذه الاسرار لاني قد كنت على مسمع ومرأى منها يوم كنت منقطعاً في زاوية غرفتي للعبادة اعدُّ نفسي للاشتراك السري٠ امام الكهنة العظام الذين يخدمون في الاحتفالات الدينية فهم «اولاً» ٠ كبير كهنة الفسيس ٠ «ثانياً» المكلف بالتطهير من الاثام ٠ «ثالثاً» المنادي المقدس ٠ «رابعاً» منظم الحفلات الالهيـة ٠ «خامساً» الموكل بقبول الهدايا التي تقدم للآلهة «سادساً» خادم الهيكل المقدس ٠ ثم يتلو ذلك الكهنة الثانويون وعددهم غير قليل واهمهم الكاهن العازف بالشبابة المقدسة٠ ثم الكهنة الحاملون للمركبة المجازية و بعده المشتركون الذين ترقوا الى درجة

مساعدين · ثم القائمون على صيانة النار المقدسة · ثم الكاهن المكلف بتوزيع ماء التطهير وبعده الكاهن القائم بخدمة الالهة بروزربين والكهنة الملحنون للاناشيد المقدسة

وهناك اسماء بعض النساء اللواتي يشتركن بالحفلات المقدسة الكاهنة العظمى «الهيروفنتيد» ثم كاهنات ميليس بروفتيدس وثيسياد · ويتلو ذلك عدد غفير من العملة كالميكانيكيين والحدادين والنجارين والنقاشين والموسيقيين والراقصين والراقصات ·

ويبدأ باعداد المعدات لاقامة الاحتفال بالاعياد الايلزنية او اعياد الفسيس من قبل اليوم المعين لذلك بثلاثة شهور ويتمرن الممثلون والممثلات ايضاً على تمثيل ادوارهم بدقة حتى يجيدوا تمثيلها في اليوم الموعود

قال دياغواس : ومما كان يسرني ويزيدني انبساطاً وانا ملازم صومعتي ومنقطع لعمل ما يفرضه علينا الكهنة هو اني كنت اعلم ما كان يدبره الكهنة من الامور السرية ليبهروا بها ابصار المشتركين ويزيدوهم ضلالاً وجهلاً وها اني آت لكم ببعض ما كان يحدث بين العملة الماجورين من الاشكالات مع الكهنة طمعاً في زيادة شيء على اجورهم وما كان يفعله الكهنة معهم · ذلك انه عندما كان يضرب احد العملة عن العمل كان يأتيهم الكاهن الملقب بياكوجوج اي مرتب الحفلات المقدسة ويقول لهم

باي شيء تضيعون الوقت الثمين ايها اللئام فان المفروض عمله عليكم لم ينجز بعد فها الدولاب الكبير لم يتحرك والكير فارغ والقساطل مسدودة والمياه قد نشفت والنار قد انطفأت ايها الطغام الذين يأكلون من خيرات الهيكل وتقدماته اذهبوا حالاً كل منكم الى وظيفته واعملوا بما آمركم به

دون تردد

فيجيبه احد العملة قائلا : قد تعبت قواي من ادارة الدولاب ويجيبه الآخر وانا قد كلت من تمثيل الوحوش التي لها رؤوس النسور وآخر يقول وانا ايضاً تعبت من تشخيص دور الصنم الخشبي · يقول الكاهن عجباً ماذا تقولون «العملة» نحن نقول اننا لسنا براضين من اجورنا الطفيفة · «الكاهن» كيف ساغ لكم ايها اللئام ان تضربوا عن العمل وقد ازف وقت الاحتفال وكيف سولت لكم نفسكم الخبيثة ان تضادوا ارادة كهنة الآلهة العظيمة

«احد الفعلة» نحن لا تتعصب عليكم ولا نضرب عن العمل الا لقلة اجورنا (غيره) نعم ما قاله الصديق : نحن لا نريد سوى الحصول على جزء طفيف مما تحرزونه لانفسكم من النعم وتذخرونه من الخيرات العميمة ·

(الكاهن) ايها الملحدون اللئام الستم عائشين برخاء بين ظهرانينا ان على اجسادكم من انيق الثياب وفي بطونكم من لذيذ الطعام ما يجعلكم على الدوام شاكرين لنا وحامدين على ما اوليناكم من النعم وانت يا شيوتيم الصائح باعلا صوته الصاخب اللاعن للكهنة اليست قد كظتك البطنة وبشمتك النعمة فعلى مَ هـذا الصراخ المزعج فليعد كل الى مكانه ويقوم باداء وظيفته حتى اكافئكم على اتعابكم واعلي شأنكم بين الناس

يتقدم اليه ثلاثه من العمله ويقولون له : سنصدع بما امرت ولكن اذا لم تف بوعدك ندع الآلات التي نحركها تظهر للعموم ومنها يعرفون خداعكم

الكاهن يخاطب نفسه قائلا : يا لهم من قوم ادنياء لاجل كسب شيء زهيد يفشون اسرار الكهنة العظام ويكشفون الستار عن اعمالنا

﴿ فصل ثان ﴾

(بين الكاهن الاعظم والكاهن المكلف بقبول الهدايا)

يتقدم الكاهن المكلف باخذ الهدايا الى امام الكاهن الاعظم ويخاطبه قائلا : مولاي ان ماقدمه المشتركون من الهدايا لما يفوق الوصف ونقصر عن اداثه الملوك والامراء فقد اهدي الى الالهة كثير من التماثيل والاكاليل الذهبية والاواني الفضية ومما لا يقع تحت حصر من الماكولات والمشروبات الروحية وزد على ذلك ماجاد به المشترك دينوكس وهو خمسون وزنه من الذهب لكي يتحصل على تخفيف بعض تجاربه وامتحاناته ٠

يجيبه الكاهن الاعظم قائلا : هذا مما يسرني جدا واني بغاية السرور لتقدمنا السريع الى اوج المجد والعلاء لان بهذا زيادة صولتنا وتاييد سطوتنا ومزيد هنائنا ٠

ثم ماذا حدث غير ذلك اجابه انت تعلم يامولاي ان الرجلين اللذين تطاولا على الدخول عنوة الى الهيكل قد اعدما كما امرت

فقال له وهل حدث شيء خلاف ذلك ؛

اجابه قد تجمهر عدد غفير من الناس حول الهيكل وقت الاعدام وكانوا يصخبون ويلعنون بايعاز من بعض الفلاسفة الحاضرين فاستشاط الكاهن العظيم غيظاً وقال لقد زاد الامر اشكالا فويل لمن يجر لنفسه البلاء بسبنا وتقبيح اعمالنا فاذهب حالا ايها الكاهن وابحث عمن تراه واقفاً مع الجمع المزدحم وائتني باسماء العظماء وخصوصاً الفلاسفة حتى امر مجمع الهيلياست ان يجتمع غداً ويصدر حكمه باعدام هولاء اللئام ٠ فاجابه سمعاً وطاعة يامولاي

فقال الكاهن الاعظم في نفسه — ايها الفلاسفة الملاعين انكم تحاولون

باعلمكم ان تطلعوا الشعب على فظائعنا وتنيروه بنور العرفان نخستم ايها اللئام لانكم ستشربون السم الزعاف كرهاً ويكون موتكم الشنيع عبرة لكل من يجسر على مس الاشياء المقدسة بالسب والذم

(قال الفيلسوف دياغوراس) كانت جبهتي تندى بالعرق خجلا مني على الاشتراك بهذه الاسرار التي ليست سوى سلسلة قبائح وجرائم ولكني قسما بالحقيقة لافضحنّ الكهنة بقلمي ولساني وبذا اكون قد قضيت اقدس فرض علي

﴿ فصل ثالث ﴾

في احد الايام اغمي على احد المشتركين المعروف ببراسيدس وهو ذو قلب جبان فاحتمله الموكلون بخدمته واتوا به الى الغرفة المحاذية لصومعتي فسمعت مادار بينهم من الكلام وهذا نصه ·

قال احد الخدمة اني اشفقت على هذا المسكين فانه لما اغمى عليه احتمله بعضهم على لوح خشبي فانكسر به ووقع ببركة الماء ولولم ابادر الى انقاذه لمات لامحالة

فيجيبه الآخر: هو اولى بالاحتقار منه بالشفقة ايها الصديق لانه جبان فاني لما مثلت لديه بصورة وحشية وسمع فحيح الافاعي الاصطناعية ورأى مارآي من الاشباح المجازية وقع على الارض مغمياً عليه وكادت تخمد انفاسه فقال الثالث: وكذلك انا لما اردت ان امرّ به على نهر النار التصق بي وطلب الي ضارعاً ان ابعده عن ذلك فما اولى الكهنة برفض مثل هذا الجبان النذل فقال احدهم لايمكننا هلاكه الان الا ياذن الكاهن الاعظم · اجابه الاخر ان مات رجلٌ او عاش لايهم رئيس الكهنة

قال دياغوراس — وقد كنت ملصقاً اذني بالباب استرق السمع واذا باحد الخدمة قد اقبل وامرني بان اهيي ءنفسي للامتحان المقدس فقمت للحال وتبعت رجلين منكرين اوصلاني الى قاعة سفلية مكسوة بقماش اسود وهناك رايت نفسي امام ستة رجال لابسين ثياباً سوداء وعليها خطوط فضية من اسفلها ورايت على طاولة امامهم شيئاً كثيرا من روؤس الموتى والخناجر والاقداح الملآنة بالسم ولما مثلت بين ايديهم خاطبني زعيمهم بقوله : ايها المشترك قبل ان آذنك بدخول الحظيرة المقدسة هل اتممت ما فرض عليك من الواجبات كالصوم والصلاة والطهور بالمياه المقدسة وتقديم الضحايا والقرابين لالهة الحقول ؟

ـ نعم قد اتممت كل ذلك ·

— فقل اذن الكلام المقدس الذي تعلمته ·

· قد شربت من يد الكاهن الاعظم مما هو لازم لمن كان مثلي مستعداً لقبول اسرار الكهنة واكلت مما يقدمونه من الماكولات لهذه الغاية ثم ذبحت خنزيرة سمينة ووضعت قدمي على جلد تيس وتضرعت الى جوبيتران يقبلني في مصاف كهنته الابرار ·

ـ حسناً فعلت لانك لم تنسَ شيئاً فاصغ الان لما اوصيك به وافتكر جيداً انك ستقاسي اهوالا مخيفة قبل ان تحصل على اللقب السري

— قد افتكرت بذلك بامعان وروية

— فهل انت شجاع جسور وهل تكتم السر مهما كلفك ذلك من العذاب ·

— انا لا اهاب الموت ولا ارهب الردي كتوم للسر صادق المقال

حر النفس لا اخاف ولا اخشى ·

— انظر هذه الجماجم والخناجر والاقداح المملوءة بالسم

ـ اني ارى ذلك كله

ـ ان هذه الجماجم هي رؤوس بعض المشتركين الذين باحوا باسرارنا اما الخناجر والاقداح السمية فهي عقاب من يحنث بيمينه ·

ـ انا لا اخاف كل ذلك لاني صادق كتوم للسر

ـ اقسم اذاً بالالهة سيريس و بروزر بين واله الخمر باكوس بانك تقدم نفسك فدية عن الاسرار المقدسة وان العقاب الاليم والوعيد وانواع العذاب لا تثني عزمك ولا تزعزع ارادتك اقسم ثلاث مرات وليت الشياطين الجهنمية والاشباح المخيفة تتبعك اينما سرت اذا حنثت بيمينك المقدسة ·

ـ اني اقسم بذلك ·

— اقسم ايضاً بالمعبودات الثلاث انك تحترم وتجعل غيرك ايضاً يحترم كهنة الفسيس وتشد على عضدهم في كل ملمة وتصدع بما يامرونك به دون احجام · وعليك ايها المشترك ان تتسلح بالشجاعة اذ ستقدم على الامتحان الاول ودع نفسك اهلا للدخول في مصاف السعداء ···

وانتم ياخدام اسرارنا المقدسة سيروا بدياغوراس الميلوسي الى محلات الامتحان · فللوقت تقدم اربعة اشخاص وقبضوا على يدي وعاتقي ونزلوا بي الى نفق مظلم سمعت به من الاصوات المزعجة والصراخ المفتت للاكباد والنواح المتواصل مايذيب القلب خوفاً وارتياعاً فظللت امشي على غير هدى في ذلك الظلام الحالك الى ان بهر ابصاري حريق هائل تطاير شرره الى الفضاء فرايت على ضوء اللهيب اشباحاً مخيفة ووحوشاً ضارية

قبيحة المنظر وكثيرا من الخفافيش الكبيرة الحجم والافاعي الضخمة التي لما راتني فغرت فاها وحاولت ان تمنعني عن المسير ولكني كنت اتقدم بجاش رابط وجنان ثابت وما زلت اتقدم حتي وصلت الى ممر ضيق كان اجتيازه عسراً وهناك رايت جبارين بعين واحدة في جبهتيهما وبيد كل منها هراوة تقدما مني ليسحقا بها راسي فلم اعبأ بهما بل استمررت على التقدم وللوقت ضربا صخرا امامها فانفتح وسقطت الى فسحة واسعة رايت في الجهة اليمنى منها الآت معدة للعذاب وهي ملطخة بالدماء وفي الجهة اليسرى جثث قتلى ملقاة على الارض ومهشمة الاعضاء وامامي وجوه وحوش باجساد آدميين فلم اتمالك عن الضحك والهزء بهذه الاعمال الوهمية ثم شعرت بان ذينك الجبارين امسكا بي وكان الواحد منهما حاملا خشبة طويلة والاخر منشارا ثم هجما عليّ واراد طرحي على الارض وسحق اعضائي او نشري بالمنشار ولكني دافعت عن نفسي دفاعاً لم يكونا لينتظرانه ، وفي اثناء ذلك لطمني احدها بجمع كفه على عينيّ لطمة كادت تضعضع حواسي فصحت بهما قائلاً

هل ما تفعلانه بي الان كان بامر رؤسائكما فكفا عن اللطم والضرب والا سحقت راسيكما وللوقت تناولت هراوة من حديد وضربت بها احدهما ضربة طرحته صريعاً بين قدمي فلما راى الثاني ذلك فر هارباً وللوقت سمعت قصفة رعد قد زلزلت قباب ذلك النفق وتبعتها بروق تبهر الابصار فاغمضت عيني قليلا من الخوف ولما فتحتهما رايت امامي عددا من الجن والخيالات الشيطانية كانت تعيقني عن المسير ولكني داومت على التقدم حتى اتاني منها رجل واطلق احدى الافاعي على وجهي وفر هارباً فاردت اللحاق به

لاذيقه اشكال العذاب لكني رايت نفسي مختطفاً بيد قوية انتشلتني من الارض ووضعتني على قمة صخر شامخ محدد الراس مخيم عليه الظلام من كل جهة وباسفله سيل عرمرمي كان يجري وله قصف وهدير فتساءلت عما يجب علي ان اعمل فسمعت صوتاً من اعماق الارض يقول لي الق بنفسك من حالق او فتكون غير مستحق لقب مشترك الهي فصحت قائلا يا كهنة الفسيس انتم ستؤدون حساباً عن حياتي اذا فقدتها امام الآلهة العظيمة · «انتهت الليلة السادسة»

(الليلة السابعة)

قال دياغوراس وللوقت هممت بالقاء نفسي من قمة الصخر واذا به قد اندك الى الحضيض فرايت نفسي جالساً على الارض ولم يصبني ادنى ضرر ثم رايت جسداً محنطاً يبسم لي ويقول ·

قد اتممت يادياغوراس كل الامتحانات المقدسة التي ستهديك الى نور الحق ولكن هنالك امتحاناً اخرا اظنه اشد هولا من كل ماعاينته وهو ان تطرح نفسك في هذا السيل الجاري امامك دون ان تعبأ بما تسمعه وتراه من الامور المخيفة فخذ هذا المصباح وهذه الكعكة · فالمصباح يضيء لك الطريق والكعكة تطعمها كلباً مفترساً يحرس الباب الذي ستجتاز منه فاذا وصلت الى ذلك الباب فاضغط على زر فينفتح امامك فتدخله الى قاعة فسيحة فاذا عملت ذلك استحقيت لقب «مشترك الهي» ويقام لك احتفال عظيم وتلبس الرداء الرمزي الذي سيكون سبباً لسعادتك مدى العمر وهذه هي العلامة التي تميزك عن غيرك من الناس الادنياء من غير المشتركين فاخذت المصباح والكعكة شاكراً لفضل ذلك الشخص المحنط ونزلت الى تلك الهاوية

وكنت اسير مهتدياً بنور المصباح دون ادنى عائق الى ان دنوت من الباب فسمعت نباح ذلك الكلب الهائل وكان النباح يتزايد كلما دنوت قليلاً ولما صرت بالقرب منه نظرت اليه واذا هو بانياب محددة الرؤوس وهو يتحفز للوثوب على من يراه ليمزقه ارباً ارباً فاسرعت ورميت له الكعكة وفقاً لما اشار به عليَّ ذلك الشيخ فالتهمها باقل من طرفة العين وارتداد النفس ثم لم يلبث حتى سقط الى الارض كمن اصابه دوار وتمدد على عتبة الباب فتقدمت على مهل وضغطت على زر فانفتح مصراعا الباب واحدثا صوتاً مزعجاً وللوقت نهض الكلب من سباته ووثب عليَّ ليفترسني ففررت مسرعاً حتى تجاوزته وقد كان مربوطاً بجنزير ضخم وما تقدمت قليلاً حتى رايت نهراً من نار ذات ضرام فترددت قليلاً بما اصنع لاني ان تقدمت ذهبت طعمة للنار وان رجعت على اعقابي اصبحت فريسة للكلب وبعد ان اعملت الروية تقدمت الى الامام لاني لو رجعت لكنت هالكاً لامحالة اذ ان الكلب كان حيواناً حقيقياً اما النهر الناري فليس الا صورة مجازية ولذلك القيت بنفسي في النهر فلم يصبني منه ضرر ولم تمض برهة حتى وصلت الى الضفة المحاذية وكان عليَّ ايضاً ان اجتاز نهرين آخرين هما الستكس والكوسيت حتى اصل الى الجحيم المخيف • وقد رايت من الوحوش الضارية والاشباح المخيفة ماكان يعترضني عن المسير ولكن لما اكن اعبأ بها وهكذا كنت اسير الى ان اعترض لي شخصان ليرجعاني على اعقابي فقاومت اشد مقاومة وتغلبت عليهما ثم استانفت المسير في تلك الهاوية المخيفة فرايت جثث موتى مطروحة في زاوية منها وهي لم تدفن بعد وخيالات الاشرار تئن في بيداء الهاوية وهي تنتظر ان يخفف عنها مايقدمه اقرباؤها لكهنة القسيس بعد العذابات •

وما تجاوزت بعيد حتي سمعت صوتاً صادراً من اعماق الارض التي اطأها
بقدمي وهو يناديني قائلا – قد انتهت امتحاناتك ايها المشترك وسر منها
الكاهن العظيم ولكن قبل ان تصل الى النور الآلهي عليك ان تجتاز الجحيم
مقر الكفرة الجاحدين واني اذكرك يا دياغوراس انك اذا حنثت بيمينك
ولم تحترم الالهة وكهنتها العظام يصيبك من العذاب ما ستراه الآن عياناً وقد
منحك الكاهن الاعظم ميزة على غيرك من المشتركين الذين لم يسمح لهم برای
الجحيم ماخلا هرقل وكاستور وبوليكس فاقسم بالنهر الجاري امامك ان
تقوم بواجباتك نحو خدمة الكهنة واداء الطاعة لهم فاقسمت وللوقت فتح
باب الجحيم امامي فدخلته بين رعود وبروق تذيب القلب رعباً ورايت
ماكنت اسمعه من الاقاصيص والنوادر وانواع العذابات كالاشرار
المقيدين بالسلاسل النارية والفجار المصعوقين بالصاعقة الجهنمية ونظرت
« برومثه » المسكين مطروحة جثته الممزقه على صخر عظيم هائل وكانت
النسور تفترس حشاه وتمزق جسده وكذلك الجاحد (سالمونه) المحكوم عليه
بعذاب الدولاب الناري (وشنتال المحروم من الطعام والشراب وكثيراً
من الاشرار التائهين بين الارواح الخبيثة الشيطانية وكنت اسمع اينما سرت
اصوات نواح وعويل تفتت الاكباد مشوبة باصوات السلاسل والقيود
وهناك كان الظالمون والقتلة اللئام والفساق ينالون ما استحقوه من القصاص
ومما سرني من هذه المناظر المخيفة التي يظنها المشترك كون حقيقة لا ريب فيها
هو ان الغاية منها كانت تعليم الناس الفضائل والبعد بهم عن الشرور والآثام
بما يرونه من انواع العذاب . وقد سمعت ذلك الصوت الذي سمعته لمافتح الباب
يناديني قائلا : ليت هذه العذابات التي تراها عياناً والآلام التي يقاسيها

المذنبون امامك تحيد بك عن طرائق الشر وتقودك الى محامد الاعمال ٠

وها انا مطلعك الان على النعيم بجنانه وانهاره العذبة لاذهب عنك بعض ما ألم بك من العناء برأى الجحيم وآلامه الشنيعة واعلم بان الصالحين كلهم لا ينالون هذه النعمة الا بعد وفاتهم انما قد اذن لك الكاهن الاعظم بان تراها الآن وقد خصك بهذا الفضل العميم لما رآه من استقامة سيرتك وواسع عقلك وشدة حرصك على كتم الاسرار فمتع الطرف برأى هذه المناظر الجميلة وسبح بحمد الالهة مااستطعت اليه سبيلا ٠

وبينما كنت مصغياً لما يقول رأيت ستارا قد ازيح وبانت من تحته سماء صافية الاديم تلمع الكواكب في قبتها الفلكية ورايت مروجاً خضراء بها من الاشجار الباسقة الكثيرة الاغصان وحولها من الازهار الجميلة مايأخذ بالعقول رواء والنسيم العليل يلعب بالغصون فتحنو على بعضها وتسترق القبلات الغرامية والانهار الفضية تجري بين هذه الرياض ولها خرير يطرب ومنظر يفتن ويعجب وعلى ضفتها الاشجار ذات الاثمار الناضجة ويتفرع من هذه الانهار جداول تسير على حصباء مثل الماس وتتمرج بين دوالي العنب المذهب والعصافير تغرد باصوات التسبيح وبينما انا سائر رأيت من خلال الاوراق ارواحاً جالسة على موائد الطعام تتلذذ بانواع المآكل والمشارب وتشرب النبيذ المعتق في اقبية آله الخمر وغير هذه وتلك منزوية عن تلك الارواح تتشاكى الغرام وتطلق لنفسها عنان الحب وترقص في منبسط من الارض رقصاً مقدساً على نغمات شجية تذيب القلب وتاخذ العقل وقصارى الكلام ان كل مارأيته كان يدل على السلام والراحة والطمأنينة ٠ وقد سرحت النظر طويلا في تلك المناظر البهجة وكنت حاضر الشخص غائب العقل او كمن هوت به الريح من مكان

سحيق لشدة مانالني من الدهشة والسرور ومن ذلك الحين اعتقدت بما الكهنة الفسيس من القدرة والصولة ولكني لم ازل اسائل النفس عن الغاية التي يرمون اليها من هذه الاعمال ولماذا جعلوا هذا الامتحان الصعب الاحتمال الذي يجبن عنه الضعيف القلب فلا ينال لقب السرالالهي مع ان ضعف قلبه لايجب ان يكون سبباً في ابعاده عن الفضائل الالهيه كما ان الشجاع لايبعد يكون شريرا قاسي القلب فكأن الكهنة يعتبرون ان الرجل الشجاع في الحروب التي لاتلوي عزمه هيل الحراب ولايخاف بطش الاعداء وليس له شغل سوى قتل اخوانه في الانسانية دون شفقة ان يلقب باللقب السري مع ان البسيط الفطن الذي دأبه حب السلام وعمل الخير لايلقب به لكونه لم يتمم الامتحانات السرية لضعف قلبه · وبينما انا غائص في هذه التأملات انزل الستار فجأة فبت في ظلام حالك وشعرت بيد من حديد قد مسكتني وسمعت صوتاً يقول ستنال لقب مشترك بالاسرار المقدسة ياذياغوراس بعد ان تخرج من الجحيم فكن اهلا لهذا اللقب باعمالك وحسن نواياك واني انبئك بانك سترى من عظيم الاحتفال بك مايبقى راسخاً في ذهنك ماحييت فاتبعني

فتبعت ذلك الدليل ولما خرجت من ذلك الدهليز سمعت اصوات بشر ترتل انغاماً مطربة ففتح دليلي باب الهيكل وادخلني الى حيث كان الكهنة يرتلون بملابسهم الثمينة وكانت الانوار كثيرة حتى انه كان يخيل للرائي ان الهيكل شعلة من نار وكان تمثال الهة الحقول بوسط ذلك المذبح وهو مخطط بخطوط ذهبية تتألق فيه الجواهر الثمينة والاحجار الكريمة ومن حوله الانوار تنعكس على صفائح من المعدن الابيض اللماع فتزيد رونق ذلك التمثال · وكان الكاهن الاعظم لابساً رداء طويلاً مخططاً

بالذهب وعليه نجوم ذهبية تلمع وهو جالس على عرش من العاج امام تمثال الالهة وعلى راسه لفائف مقدسة وله دقن مستديرة تتدلى الى خزامه و بيده اليمنى صولجان فضي . وكان على يمينه الكاهن الممثل للشمس وعلى يساره اليروسركس و بيده هراوة وهو المبلغ الناس ارادة الكاهن الاعظم وكان يرى وراء العرش الكاهن خادم الهيكل و بيده رمز القمر وعلى درجاته عدد جم من الكهنة الثانويين والكاهنات كن واضعات على رؤوسهن اكاليل من الآس والغار اما الكهنة فكانوا يلبسون اردية من الارجوان والكاهنات ثيابًا من الكتان الناصع البياض وكان الكهنة واضعين على عاتقهم مفاتيح مدلاة الى صدرهم دلالة على سلطتهم على الجحيم ورمزًا الى ان الصدر يجب ان يكون مغلوقًا على ما وعاه من الاسرار و يتلو ذلك عدد غفير من العازفين والعازفات بآلات الطرب

وما استقر بي المقام حتى نهض الكاهن الاعظم على قدميه وقال . ايها الدنسون الاشرار اخرجوا ولا يبق احد منكم هنا وانتم ايها المشتركون المؤمنون اهلا بكم وسلاما عليكم وتحية فاعاد المنادي باعلا صوته ما قاله الكاهن الاعظم وزاد عليه قوله اعلموا ان كل من يتجرأ على الوقوف هنا من غير المشتركين فالموت يكون له عقابًا . نخرج كل الناس الذين لم ينالوا لقب مشترك الهي . و بعد ان قيل ذلك ادناني احدهم من الكاهن الاعظم الذي استحلفني بالآلهة العظام الا ابوح بالسر ثم البسني الرداء السري وقال : باسم الآلهة العظيمة القادرة التي جعلتني اول كاهن لهـا اشركك يا دياغوراس الميلوسي باسرارنا المقدسة الطاهرة فاوصيك ان تسير كاخوانك على جادة الحق والصواب ولا تنسى ان تقدم لكهنة الالهة مايجب لها من الاكرام .

اما انا ففهت قائلا يا رئيس كهنة سيريس العظيم اسمح لي ان اسالك امرا مع احترامي لدرجتك السامية وهو ان تقول لي ماهو سر هذا الاشتراك الالهي اذ اني لم ارحتى الان سوى هذه الانوار الطبيعية اما نور الحق والهداية فلم اره للآن . فاجاب رئيس الكهنة : ايها المشترك اصغ الي فانبئك بما انت سائل فاعلم ان سر الاشتراك هو معرفة الشرائع الطبيعية ولنا طريقتان نتبعها الاولى للجهلة . والثانية للحكيم الفيلسوف نظيرك فالاولى مبنية على ما يخترعه الناس من الاقاصيص نلبسها ثوباً من الحقيقة فيصدقها ضعاف العقول من الناس . والثانية نبنيها على قواعد فلسفية وفلكية وغايتها ان تعلم استخراج النتائج المنطقية من اولياتها وتوضح غرائب الطبيعة التي يظنها العامة فوق التصور والادراك وبما اننا واقفون جلياً على كل شوارد العلم فهذا هو سبب مجدنا وارتقائنا على الناس ومذهبنا هذا يذلل صعوبات العلم ويسود المشتركين به و يصيرهم رجالا يخدمون الوطن و يعبدون الآلهة و يقفون على اسرارها العظيمة ثم اعلم ان الاشياء لا تفنى في الطبيعة بل تتغير صفاتها وهيئتها لان المادة حية ازلية انما هيئتها فقط تتغير .

ـــ هل هذا جوهر اسراركم ؟

هذا هو سرنا بعينه اذ لو كان يوجد غيره لافشاه كثير من المشتركين من ازمان غابرة ودهور خالية هل فهمت ذلك فاجبته نعم فهمت . . . .

وقد منح لقب مشترك لعشرين رجل وكان الكاهن الاعظم يلقي على كل منهم خطاباً يلائم امياله الفطرية ونوع عمله المعاشي فانه كان يقول للقائد . ان الحرب تمحص الظلم بنار الشهامة وان الشجاعة مقرونة بالمجد وان حب الوطن من اقدس الواجبات على الانسان . وللفلاح كان يبين له فضل

الزراعة وعظم فائدتها للانسان · وللغني كان يقول له ان الثروة دليل على النعم الآلهية التي تفيضها على البشر وان الصدقة والزكاة هما من اكبر الواجبات على الانسان حيث ينيلانه مكاناً رحباً في جنات النعيم · وكل هذا الكلام حكمي يحنك المرء ويهديه السراط المستقيم لولا ان الكاهن كان يزيد على كل ذلك هذه الجملة · «لا تنسَ ايها المشترك ان الالهة تقبل هدايا الناس وتفيض في المهدي انواع الحبور في جنات النعيم بعد وفاته» اي انه كان يتسول علناً وعلى مرأى ومسمع من كثير من الناس اذ لا مهنة له سوى خدمة الهيكل ليعيش بالرغد والسعة·

وقد علمت علم اليقين ان الكهنة لا يفشون مكنونات صدورهم الا الى الفلاسفة واذكياء القوم · فويل لمن تسول له نفسه ان يطعن في هذه الاسرار او يعلق عليها بعض ملاحظات اذ عقابه لا يكون سوى الموت العاجل فيتعين على كل ان يعتقد بصحتها مهما كانت فوق درجة التصور · ومن هنا ينتج على رأي كهنة الفسيس ان الجهل والطاعة العمياء ينيلان الخلود في النعيم وان الحكمة والعقل يقودان الى الجحيم ·

اما انا فرغماً عن كرهي الشديد لاعمال اولئك الكهنة فلا يسعني سوى الاقرار على رؤوس الملأ ان غاية هذه الشعوذة الالفسيسية تعليم الناس الفضائل الاجتماعية انما لسوء البخت كانت طريقة هذا التعليم تمازجها انواع الكبر والطمع التي يستعملها الكهنة ·

هذه هي اسرار الفسيس وغايتها وشعوذتها وقد كان يمكنني ان اطيل الشرح عنها واورد لكم جملة نوادر جرت بين الكهنة والناس ولكني اجتزيء بما اوضحته لان الغاية التي ارمي اليها قد بسطتها لكم باسهاب · ولما انتهى

دياغوراس من كلامه ضج الحضور ضجيج الاستحسان وتقدمت لايس ومدت يدها له وشكرته على حسن بيانه وطلاقة لسانه (انتهت الليلة السابعة)

الليلة الثامنة

(قصة افلاطون)

كما رواها الفيلسوف ارستيبس

كان الاجتماع تلك الليلة حافلا بكثير من تلامذة افلاطون الذين اتوا ليدافعوا عنه من مر انتقاد ارستيبس وكذلك حضر عدد غفير من اتباع ارستيبس حيث كانت غايتهم الهزء بقصص افلاطون ونوادره المضحكة واعتقاداته السقيمة · و بينما كان المكان غاصاً بالحضور دخلت لايس ملكة الجمال الى وسط الحفلة بين تهاليل الفرح وانغام الموسيقى وهي تقود بيدها حبيبها الفيلسوف ارستيبس · وقد كان لابساً افخر الملابس ولما وصلت به قرب السرير المعد للخطباء انحنى لها واعتلى مكان الخطابة بعد ان حيا الجمع وقال : لايخفاكم ايها الافاضل ان افلاطون سليل عائلة اثينية شريفة من سلالتها صولون الحكيم وقد كان يعرف من ذي قبل بلقب ارستوكلس جده الا ان استاذه في الرياضية الجسدية لقبه بافلاطون لاتساع كتفيه ولما ترعرع قليلا ظهر ميله الى تعليم الفنون وبدت مخايل نجابته لاساتذته وقد كان منكبّاً على تحصيل الشعر والموسيقى والرسم وغير ذلك فلما سمع بتعاليم سقراط الفلسفية ترك الفنون وتعلق قلبه بتعلم الفلسفة والاخذ عن سقراط الا ان الزمان عاكسه لان سقراط مات قبل ان يتم افلاطون علمه فغادر البلد الى مدينة مغار ونزل ضيفاً على اكليد صديقه ثم سافر الى مصر ليطلع على علوم الكهنة ولما قضى لبانته في مصر ذهب الى ايطاليا ليرى ماكان يذهب اليه

ادعياء فيثاغورس ثم امضى مدة في صقلية ورجع بعدئذ الى اثينا واقام امام حدائق الاكاديمية حيث فتح مدرسة كانت كمنارة سطعت في ظلام الجهل وهذه المدرسة اكسبته شهرة عظيمة ورفعت شانه بين اقرانه من العلماء

ومما يعجبني من افلاطون هو شدة ميله الى تقويم المعوج من اخلاقه انما كان على جانب عظيم من حب الاثرة والشهرة وهذا ما ابعدني عن صداقته ايام كنا نتخرج على سقراط فكان يهزأ بثيابي الانيقة ومزيد سروري وانا كنت ابتعد عنه ما امكن نظرًا لجده الزائد في حده ومزيد ادعائه بنفسه . وما مضى علينا زمن حتى اصبحنا دعياً مذهبين علمناهما اهالي اثينا وكانت غايتنا الوحيدة التي نرمي اليها تعليم الحكمة والسعادة لتلاميذنا وكل منا قد اتخذ لنفسه خطة مغايرة لخطة زميله توصلا الى تلك الغاية وسيحكم المستقبل وهو خير حكم في اي منا كان احق بالاعتبار والاكرام . فما كنت اعلمه بصراحة تامة دون ان اخشى في جانب الحق شيئاً هو ماتلقنته من استاذي سقراط كاطراح المكر جانباً وعدم استرسال الفكر الى البحث عما هو غامض من الخوارق الطبيعية اذ البحث في ذلك لايجدي نفعاً بل يجلب للباحث نحول الجسم وقلق الفكر ومما كنت اعلمه عنه هو ان السرور خير عميم اذا لم يكن مضرا للغير وان الحزن شر عظيم على اية حال كان وما اذهب اليه ان الافراح تقسم الى قسمين : الافراح النفسانيه والافراح الحسية واضيف على ذلك انه لاينبغي للمرء ان يفرط في شيء لان الافراط كالتفريط مضر والاعتدال خير الامور بل عليه ان يهرب من طمع النفس لان ذلك سبب تعاستنا وشقائنا و بذلك كنت اعلم تلامذتي اول العلوم وافيدها اي علم السعادة الدنيوية . اما افلاطون فكان يذهب الى ان لاسعادة حقيقية في الدنياء

وان اجسادنا كالهباُ المنثور وان افكارنا هي الكل في الكل وقد استند على التعليل الاتي في سبيل دعم مذهبه وهو · لايكون الشفع الا اذا كان الوتر لان الشفع هو جملة من وتر ولكن الوتر لايمكن ان يكون واحداً لان الموجود الواحد والوتر هما شيئان متناقضان و بما ان الوتر موجود فمن الضرورة وجود الوتران اي الشفع يعني وتر لنفسه ووتر موجود فاذاً الواحد هو اثنان ولكن بما ان الاثنين لايمكن ان يكونا واحدا لانه اذا كان كذلك لم يكن اثنان فينتج من ذلك اخيراً ان الواحد والاثنين والجملة لاوجود لها على الاطلاق · ولا اعلم ايها الفضلاء اذا كنتم قد فهمتم هذا التعليل السفسطي وعلى فرض انكم فهمتموه فهل استخرجتم منهُ شيئاً يكون سبباً لسعادتكم في هذه الحيوة الدنيا وها انا مورد لكم مثالا آخر يشابه الاول فعيروني سمعكم فلربما كان هنالك تعليم حسن يفيدنا جميعاً ويهدينا الى طريق السعادة وهو :

«اما ان يكون ابي غير ابيك او هو بعينه فاذا كان ابوك خلاف ابي فلا يمكن ان يكون ابوك اباً لانه (خلاف ابٍ) واذا كان ابوك هو ابي بعينه فاذاً هو ابي لانه نظير ابي ولكن بما انه من المحتمل الا يكون هذان الابوان لا ابوك ولا ابي فينتج من ذلك اذاً ان اباك ليس اباك وان ابي ليس ابي» وهذا التعليل حكمة خرجت عن ان تكون مدركة فضل العقل في بيدائها وطاح في مهواتها ·

ومما كثر اعداء افلاطون هو كثرة ادعائه واعجابه بنفسه واظنكم تعدونني من جملة الاعداء لكنني والحمد للآلهة لست منهم اذ اني افخر بافلاطون اذا كان هناك سبب للفخر وفوق ذلك فاني ادافع عنه من يدفعه والومهُ اذا كان لذلك داع تحمله عليه السفسطة التي ذهبت بثمين اوقاته

ضياعاً اما هو فاظنهُ لا يريد بها سوءاً الا اذا اعتبر انتقادي عليه بعد تعاليمه اوهاماً من الذنوب التي لا تغتفر ولست اعبأ بما الفه ضدي من اشعار الهجو لاني استخلص منها مايعود علي بالفائدة واطرح جانباً الكلام الجارح الذي لافائدة منه

وماذا يهمني اذا قال عني افلاطون اني جسد كثير الميل الى الزخارف الدنيوية اذ اقدر بدوري ان اقول انه كثير الاوهام شديد التخيلات والقياسات السفسطية واني اسالكم يااصحابي هل اذا اضاف ارستيبس على طعامه مرقاً ليسهل الهضم على المعدة الضعيفة ولقن ذلك امثاله يكون قد افاد الانسانية باقل مما يفيدها به افلاطون من زعمه الخرافي ان «الواحد ليس واحداً وان ابي ليس ابي»

ولما فاه ارستيبس بالجملة الاخيرة حصلت ضجة عظيمة بين ذلك الجمع ولما سكتت جلبة الاصوات استتلى ارستيبس قائلا :

والان وقد علمتم ايها الفضلاء اني لا اضمر لرئيس مجمع العلوم شرًّا بكلامي السابق عنه بل غايتي كانت لبسط الحقيقة فقط مجردة عن زخارف القول فها انا شارح بالاسهاب كل مااعلمه من احوال افلاطون .

لا يخفى عليكم ايها السادة ان العقول اذا كانت قاصرة الادراك مضروب بينها و بين الفهم والذكاء حجاب غليظ كانت سبباً لشقائنا ومبعدة لنا عن الشهرة التي يسعى اليها المرء جهده في هذه الدنيا . ولما كان افلاطون على اعظم جانب من الشهرة كان لذلك ذا ذهن متوقد وعقل راجح انما الذهول كان يستولي عليه في غالب الاحيان و يعمل للتعمق فيه مطايا فكرهِ كان مؤيداً للحقيقة التالية وهي انه كلما جنحت الفكرة الوقادة واستلبت عنانها من

يد التروي والتعقل كان ذلك الجنوح مولداً لاوهام متراكمة لا جدوى منها للهيئة الاجتماعية

وقد صنف افلاطون جملة تصانيف هاكم اسماء اهمها نفعاً

كريتياس او الآداب ـ او تيفرون او القداسة ـ ثياجس او الفلسفة تيمة او الطبيعة ـ ثياتيت او العلوم — فيدون او النفس — كريتون او الاعمال ـ لبنكه او الخير = الجمهورية والعدالة ـ السياسة والحكومة — الشرائع وكيفية تطبيقها — مينوس او الشريعة — ليزيس او الصداقة — شارميد او السيبياد الاول او طبيعة الانسان السيبياد الثاني او الصلوة — الدفاع عن سقراط — جيورجياس وعلم البيان بروتاجوراس او السفسطة — هبارکس او محبة الكسب — بارمنيد او الافكار فيدرا او الغرام — فيلاب او الشهوة ابينوميس او الاجتماع الليلي —

وقد طالعت كل هذه الكتب فرأيت ان افلاطون قد خلط بين سفاسف الاقوال وجيدها حتي ان المطلع ليرى لاول وهلة ان الحقائق فيها رسم خلو واثر بعد عين وانها محشوة من الخوارق وغير ذلك رسم سافل الاراء التي لو تأمل بها برهةً لما اضاع وقته في كتابتها ·

وماذا يظن المطلع على كتابه المعنون « العدد الهندسي » هل هو ثمرة كدح فكرة ام نتيجة تصور عقيم فقد كان افلاطون يزعم ان قوّة الظروف تحوّل حكم الجمهورية الى حكم مطلق يتناول عنانه اولو الطمع والجشع ثم يتحول هذا الحكم المطلق الى الفوضى التامة وقد اوحت اليه الآلهة ان كل حكومة تطرأ عليها التغيرات بما يؤثر فيها العدد في مواليدها ينتج عن ذلك نسل ضعيف قليل الحياة يكون ضربة قاضية على وجود الحكومة

ولكن هل اكتشف افلاطون على ماهية هذا العدد الهندسي الذي يطنطن بهِ فاذا كان ذلك فلمَ لم ينشره للعامة حتى يفيد الهيئة الاجتماعية ·
ولما كان الانسان عرضةً للنسيان والغلط فقد وقع افلاطون في الشطط المتناهي بما وهمهُ من وجود ذلك العدد

ومذاهب افلاطون جلها اذا لم اقل كلها ليست سوى خليط من مذاهب فيثاغورس وهركليت وسقراط فكان يرتكن على مذهب هركليت فيما كان يكتبه عن الشعور وعلى فيثاغورس فيما يتعلق بالاعداد وعلى سقراط فيما يختص بالآداب العمومية ·

وكتابهُ عن الجمهورية ليس سوى مجموع انتقادات على كتابَ بروتاغوراس وقد اسعدهُ الحظ ان يستخلص شيئاً كثيراً من اشعار ابيكارم وصفرون وهما شاعران اثينيان لم يكن لهما واسع شهرة في اليونانية فهل كانت اعماله هذه من قبيل التاليف الذي يفتخر به الفيلسوف ام هي سرقة افكار الغير ·

ولا انكر ان افلاطون قد برع في القاء الكلام وشدا في فن الانشاء وبلغ في صناعة التحرير شاواً ليس وراءه غاية لمزاحم ولذلك يجدر لي ان اقول انه كان يتحرى جهده في تنميق العبارات وهو نفسه لم يكن يخجل من ان يجهر بذلك على مسمعٍ من الناس فاذا كان عليه ان يبرهن عن امر علي انتحل الشعر واستند للبرهان عنه على اقوال الشعراء واذا طلبت اليه ان يقدم لك دلائل عن بحث او جدال ابرز لك من مخيلته قصصاً وحكايات واسندها باسانيد يعرض عنها ذوو العقول الحصيفة ورغماً عن ذلك فهو يطيل الشرح ويفيض في التعبير

عن شيء لايستوجب لبيانه سوى كلمة واحدة وهو في غالب احيانه يأتي لايضاح امر على الغاز واحاجي ينبه فكره في حلها فلا يهتدي سواء السبيل ·

ولم يدرك شوطه في ميدان الالفاظ الغريبة عن اللغة الا نفر قليل من الكتّاب لانه كان يحشو كتابه كثيرًا من الاستعارات والكنايات مخالفًا بذلك الموضوعات اللغوية وبناء الكلمات مما ينبو عنه الذوق لاستهجانها ولذلك لم يكن لادعائه وليجة عن الاعتراف بان هذه الامور لاتليق بمن كان مثله فيلسوفًا شهيرًا بل عليه ان يبحث البحث المدقق عن كشف الغوامض العلمية وحل الرموز الفلسفية لا ان يستسلم لالفاظه الغريبة في الانشاء ويطرح جانبًا كل ما من شأنه تثقيف العقول ·

ثم ان كل ماذاع عن افلاطون من الفلسفة الواسعة والافكار العلمية الصائبة لم يكن سوى صدى اقوال وتعاليم سقراط استاذه ولذلك كان اذا حاول ان يفوق استاذه بالفلسفة خلط وحدث باحاديث في الفضائل مبنية على اصول واهية ولا حاجة بي الى بسط اقوال الفلاسفة رفقائي في تضعيفها ومما كان يقول · ان الالهة قد مزجت الروح وهي غير منقسمة بالجسد المتجزئ ثم مزجتهما ثانية «بمزيج ولد الروح» فهل فهمتم ماذا يقصد بكلمة مزيج ثم يشبه الروح بعربة تجرها خيول ذات اجنحة ويقودها سائق فهل ترون هذا التشبيه جيدًا ام هو هذر من القول · وقد نفر عنه التلامذة فعدوه من جملة المجانين الذين يستحقون اذاعة السخرياء عنهم بما كتبه من الامور المخلة بالاداب في كتابه (بانكه) اي الوليمة من مسائل

الحب والغرام ·

وليس لي مقال كاف في هذا المقام لاستوفي جميع احوال هذا الفيلسوف المتأله بمبلغ طاقتي انما الحق الذي ينبغي ان يتقرر لديكم هو ان فضائله اذا عدت لم نر له منها واحدة يحمد عليها اذ ليست جميعها سوى مزاعم خرافية واشياء تخييلية وتعقيدات لغوية وقد قررت ذلك من قبل بالبراهين القطعية التي تلوتها عليكم هناك ثم انه لا يمكنني ان اغمض عيني عما كان يلقيه من سقيم الافكار في مذاهب سقراط استاذنا ومنطق ارسطو وما كان يضيعه من الوقت الثمين في امور لا تفيد الهيئة الاجتماعية بل ربما كانت سبباً في زيادة مصائب الكون وويلاته ·

ومما تؤاخذه عليه الفلسفة حدة ارائه التي ابداها في انتقاده على بني جلدته بكتابه عن الجمهورية ومما قاله « لا يجب على الهيئة الحاكمة ان تتغمد ذنوب الملحدين الذين لا يعبدون الالهة ولا يؤدون الطاعة لخدمتها بل يجب عليها ان تجرهم الى المحاكم وتحكم عليهم بالموت عقاباً على الحادهم فهل نسيت يا افلاطون العظيم ما لحق باستاذك سقراط من العذاب وما حل به من البلاء بتجرع السم ظلماً وقد كان من القوم المؤمنين بتلك الالهة

ومما لا تسامحه عليه الانسانية على ممر العصور هو ميله الشديد الى الغلمان فقد الف كثيراً من الشعر يتغزل بجمال · ديون وفيدر والكسيس · احبابه وها انا آتي لكم على ما قاله عن حبيبه استر دليلاً على ما اقول ونصه « يا حبيبي استرليتني اكون السماء لما تتفلكها وتعاين سير كواكبها لانظرك بعيون كعدد النجوم الثالثة لقبتها · يا منية الروح كوكب الصباح المضيء قد كنت تضيء كوكبنا الارضي بنور جمالك وانت الآن تنير النعيم ببهاء حسنك

وحسن بهائك

وقد اختلط عقله آخر عمره فمال الى الاغرام بالنساء الطاعنات في السن فتعشق ايضاً ارخيا ناسه الشيخة حظية كولوفون وهاك ما صنفه مدحاً لها «اني احب ارخيا ناسة رغماً عن هرمها وتجعداتها لان محبها في غضون شبيبتها كم قد اسال من الدموع وقرح من المآقي في سبيل رضاها فلم اعوض عنها الآن وانا حبيبها والشيخوخة ليست من العيب بشيء»

وبما انكم ايها الفضلاء تعلمون ما بقي من احوال افلاطون فلذلك آتي لكم ختاماً بلطيفة تخصني وهي انه كان يعيرني اخذي للدراهم على تعليمي الناس الفضائل وقد سهي عن باله ما اخذه هو من دنيس حاكم سيراقوسه من قناطير الذهب المقنطرة التي اشترى بقليل منها داره التي يسكنها قرب مجمع العلوم وفرشها بالاثاث الثمين والابسطة الفاخرة التي سببت له احتقار ديوجانس وخلاصة القول ان الفرق بيني وبين افلاطون هو انه كان يشد الضنانة على امواله اما انا فكنت احثو المال حثواً لاعتباري اياه سبباً للاستفادة وافادة الغير ايضاً فكنت اذا رايت مسكيناً بادرت اليه وتصدقت عليه بما حضرته من ذات يدي دون ان اتعاظم في نفسي ·اهـ· ولما انتهى ارستيبس من كلامه شكره الحاضرون وملأوا الكؤوس فشربوا نخبه وضجوا بالدعاء للايس ملكة الجمال وسيدة اللطف والدلال ·

(انتهت قصة افلاطون)

« حفلة عمومية في حديقة لايس »

لما عادت لايس من مدينة مغار بعد أن زارت صديقتها مليت التي كانت مريضة وتكاد تشرف على الهلاك تجمهر للقائها عدد وافر من سكان قرنتية رجالاً ونساء ولما ركبت هودجها أخذت الحماسة برؤوس الرجال فاوقفوا الهودج وفكوا الخيل ثم احتملوه على اكتافهم حتى وصلوا به الى سراي لايس ·

وما كادت تصل لايس الى الدهليز المزرعة به شجيرات الآس حتى وقفت بين ذلك الجمع المتهلل فرحاً وقالت لهم :

يا أصحابي أن هذه الحدائق وهذه السراي وكل ما امتلكه من الاموال سيعود اليكم يوماً ما والالهة تشهد أن قلبي يختلج سروراً لمرآكم البهج وانا افتخر بذلك لما انتم عليه من كرم الاخلاق واني ادعوكم من الآن الى احتفال اعده لكم غداً لمناسبة رجوعي الى قرنتية ·

فصفق ذلك الجمع استحساناً وصاح القوم فليحفظ جوبيتر لايس ويحرسها بعين عنايته لانها الملجأ الوحيد للمعوزين منا والمرهم الشافي لضمد جراح فقرهم ·

ولما كان اليوم التالي مد السماط وعليه مائة كرسي وسط غوطة خضراء في منتهى الحديقة (راجع الجزء الاول عن وصف حدائق لايس وما كان يجب على الانسان أن يعمل ليصرح له بالدخول اليها) فجلس عليها كبراء القوم ودار الجمع بالروض دور السوار ولذلهم شرب الراح على تلك الرياض فشربوا حتى ثملوا وملأوا الجو باصواتهم وتهاليلهم

وللوقت انتصب رجل بينهم على احدى الموائد وصاح باعلى صوته قائلاً :
أيها الاخوان أن الطعام شهي والخمور معتقه فلنشكر لطف مليكتنا ونشرب نخبها فملئت الكؤوس حالاً ووقف الجمع اجلالاً فقال ذلك الرجل نشرب نخبك يا مليكتنا لايس وليت الالهة تنعم عليك دوماً بالمال الذي تبدرينه لسرور الغير كما أنعمت عليك بالجمال المتناهي . فامن الجمع على ما قال واستتلى ثانية : يجب علينا ايها الاخوان أن نظهر لمليكتنا اننا أهل لكرمها ولطفها فاسمعوا ما أقول : النهمون منا يبقون على موائد الطعام اما الذين شبعوا أو قنعوا بما أكلوا فليذهب نصفهم الى الحديقة و يحضروا معهم الادوات اللازمة لنبني في مدخل الحديقة العمومية ايواناً من أحجار هيكل نبتون المتهدم ونكتب ما يأتي تحت تاج الجمال الذين سننقشه على ذلك الايوان

« للمحسنة لايس يقدم الشعب القورنثي واجبات الاكرام » . وغداً لما تنظر لايس الى هذا البناء تقول في نفسها دون ريب أن صدور هؤلاء القوم الفقراء تضم قلوباً مملوءة من الشهامة ولما تأتي بمدعويها من العظماء لتريهم ما صنعنا اكراماً لها يقول لسان حالها لهم — أن العظماء ينسون غالباً المعروف المصطنع اليهم ولكن العامة يحفظون ذلك الى الابد

فصاح القوم كلهم نعم ما قلت أيها الرفيق هيا بنا ايها الاخوان من يدبر أعمالنا فتقدم الخطيب وقال انا اذا تكرمتم بقبولي فصادق الجمع على اقامته رئيساً عليهم وقد كان ذلك الخطيب الشاب فيثاوس الذي شرقت شهرته وغربت في البلاد اليونانية وغيرها بفني النقش والهندسة

وكانت لايس تأتي غالباً الى رواق السراي الداخلي وتطل منه على ذلك الجمع المزدحم وكلما كانت تظهر اليهم كانوا يضجون بالدعاء لها و يظهرون

من الحماسة ما يفعم قلبها سروراً و يدلها على ان الانسان اذا تشبه بالكريمات نظيرها يكسب محبة الناس و يستعبد قلوبهم

(الصداقة والحب)

بينما كان الصناع مهتمين ببناء الايوان كان كبراء القوم جالسين في القاعة الكبرى يسمعون جدال شاب يعرف بدينيارك وهو تلميذ ذيوستين كان يبحث عن فلسفة الصداقة وماهيتها واسباب زوالها . ولما اكثر من الكلام عن ذلك وخلط قام بين الجمع رجل وقال باعلى صوته ملتفتاً الى الحاضرين ايها الفضلاء لايمكننا ان نبين تماماً ماهية الصداقة الحقة كما انه يتعسر علينا ان نجدها في قلوب الرجال وعلى الاخص في مدينة قرنتية

فاعترض دينيارك قائلا ايها السادة ان المنتقد قد حط من كرامة العالم باسره لنفيه وجود الصداقة وعلى الاخص مدينة قرنتيه . فاجابه المنتقد اني لم اقل سوى الحقيقة بعينها . قال دينيارك يمكنني ان اكشف الغطاء عن جهل المنتقد وابين له خطاءه الفاحش اجابه المنتقد تجبرني بكلامك هذا ان اعيد ماقلته ان لا وجود للصداقة الحقيقية وعلى الاخص في قرنتية . ساله دينيارك ولماذا قال المنتقد ذلك لان الشعب المؤلف افراده من تجار وصيارفة على اختلاف انواعهم وتباين اهوائهم لايهمه شيء سوى الكسب والفائدة الذاتية وانتم تعلمون ايها الفضلاء ان محبة الكسب تولد محبة الذات المضرة وهذه المحبة تطفيء نار الشهامة المنضرمة بقلب الكريم الشهم فسلوا عني هذا الصيرفي الجالس ازائي والمسند بظهره لذلك المقعد المخملي هل يعرف ماهي الصداقة اسألوه وانا الكفيل بانه يجيبكم ان اصدقاءه هم الذين يفيدونه بتنمية ثروته ثم انظروا لهذا الشاعر وذلك

القاضي وسلوهما هل لهما اصدقاء اوفياء فيجيبانكم انهما لا يعرفان من الاصدقاء الا الذين يمدحونهما و يتملقونهما من اصحاب الغايات . قال احد الحضور تعني بذلك ان الصداقة اسم بلا مسمى وانه يجب علينا ان نهزأ بمن يدعي بوجودها . اجابه المنتقد حكمك هذا صارم والحق الذي يجب ان يتقرر هو ان الصداقة التي تولدها الاحوال المعاشية من عسر و يسر ليست الصداقة التي انضي اليها مطية البحث لان هذه الصداقة هي قلب واحد يضمه صدران وروح واحدة تجمع جسدين وهي كناية عن تعلق شديد اساسه المحبة المتبادلة ووداد متبادل مبني على الاحساسات الفطرية يمثلها الاخلاص وحسن الطوية فاذا كانت كذلك لم يفصم عراها سوى الموت وهذه الفضيلة لم يتصف بها الا نفر قليل كصداقة كاستور لبوليكس واورست لبيلياد

اما صداقة هرقل لتيزه واشيل لبتروكل وثيزه لبزيتوس فلم تكن الاصداقة سطحية اساسها اجتماع الاهواء على طلب المجد والعلاء اما في عصرنا الحاضر فلنا على الصداقة مثال بما جرى لدامون وصديقه بثياس فقد حكم دنيس حاكم سيراقوسه بالموت ظلماً على دامون وقبل تنفيذ الحكم طلب هذا مهلة ينجز في اثنائها اشغاله الخصوصية ثم يؤوب فلم يمنح ماطلب الا بعد ان يقدم ضميناً يضمن رجوعه ولا فيموت مكانه فضمنه صديقه بثياس عن طيب خاطر ولما انتهت مدة الامهال طلب دنيس من الضمين ان يفي بضمانه فبينما الناس يموجون تلهفاً على ذلك الرجل الصادق ان يموت اذا قبل دامون من عرض الفلاة وسلم اتم سلام على دنيس وقال له قد بادرت في الاجل المضروب فاعدمني فعجب دنيس من صدقه

ووفائه واقدامه على الموت واجترائه فعفا عنه واستخصه مع صديقه بثياس (هذه الشهامة تذكرنا بشهامة العرب ووفائهم)

وما اشبه الصداقة في ايامنا هذه بعجوز شمطاء جالسة على طريق سابل بالادنياء تبكي وتنتحب على فقدها ابنائها الكثيرين الذين ماتوا للذود عن شرفها ان يثلمه القوم الاغرار الماكرين اذ ليست الان سوى وداد ظاهري تمحقه تصاريف الايام او افتراق الخلان حينًا من الاحيان او انتفاء الفائدة الذاتية من احد الصديقين ·

فها كم ايها الفضلاء قولي عن الصداقة راجيًا من الخطيب دينيارك ان يغامض عن انتقادي عليه اذلا اتوخى سوى اظهار الحقيقة بكلامي هذا ·

فلما سمع دينيارك هذا الكلام تقدم باشًا من مناظره وشد على يده علامة على المحبة والاخاء ·

وفي تلك الاثناء سمعت جلبة الرجال من الخارج وكلهم كانوا يطلبون ان تخرج اليهم لايس ليشكروها على حسن صنيعها معهم ثم يعودون الى منازلهم ·

فاجابتهم لايس الى ماطلبوا وبرزت اليهم تتيه دلالا ولطفًا فكان ذلك الجمع السنة تنطق بمدحها وشكرها ·

ولما مالت الشمس الى غروبها انعكس نور الشفق على جبال اكرو وجرى ذهب الاصيل على مياه الحديقة اللجينية فزادها سنًا وسناء وفي تلك البرهة خرج المدعوون ازواجًا وافرادًا وكلهم كانوا يلهجون بالاقوه من كرم لايس واكرامها ·

وبعد ان ودعت لايس ذلك الجمع رجعت الى ردهة الاستقبال

حيث كانت احدى وصيفاتها المدعوة نسيني وهي تلميذة افلاطون تلقي خطاباً عن فلسفة المحبة وما كادت تتم كلامها حتى تحمس شاب موسيقي وشاعر فقاطعها قائلا :

خطابك منمق يشبه كلام استاذك افلاطون لما كان عمره سبعين سنة ولكننا نحن الذين لنا جسد يجب علينا ارضاءه لانقدر ان نوافقك على ماتقولين اليس ما اقوله حقاً ياحبيبتي نليدا قال هذا لاحدى الغانيات الجالسات ازاءه وقد كان يستميت في حبها ·

فاجابته نليدا لا اقدر ان اوافقك على رايك والا فيتعين عليك ان تثبت ماتقوله بالبراهين الجلية الساطعة

فصاح الشاعر وقد فعل به الغرام ما لا يفعله الشعر الردي ولا اقول ضرب الحسام يا عزيزتي نليدا المحبة هي كامنه في هذه الشهب النارية المرسلة من كنانة عينيك الجميلتين التي تحرقني وتذيب قلبي والتي تدفعني ذليلا الى الانكباب على قدميك التمس رضاك فلوكان بقلبك نحوي ما بقلبي نحوك ايتها العزيزة لكنت علمت هول ما يقاسيه المحبون ورثيت لبلواي وتهتكي بدمع هتون ·

قالت نليدا اني متعجبة مما تقوله يا اروتيذاس فقد كنت اظن ان الفلسفة والآداب تعصم المرء عن الاستسلام لسلطان الغرام وفوق ذلك فانك قد عاشرت كسينوكراتس ذا القلب الصخري الذي لم يحب ولن يحب مدى عمره ·

— اعلمي ايتها العزيزة ان اسباب ابتعاده عن الخضوع للغرام هو اما كبر زائد او عاهة جسدية او طباع وحشية لان كل ذي قلب يحب

ان يكون هدفاً لسهام الغرام في ربيع الشبيبة والمحبة هي روح الطبيعة والسلطانة المطلقة على الكون لا يعاندها معاند ولا تقف في وجهها الاهوال والرزايا وهي تفعل بساكني شاهق القصور واحقر الاكواخ ما لا تفعله البيض الصفاح ·

قالت له نليدا يا عزيزي اروتيذاس يبين لي من مجمل كلامك ان كل امرئ يجب عليه ان يخضع لسلطان الغرام فلا يخلو من فتكاته احد

اجابها اروتيذاس يا عزيزتي نليدا الحب ناموس طبيعي يخضع لسلطانه كل ذي نفس حية ولذا كل من يدعي انه لا يؤثر به شيئاً فهو مخادع يجب الاحتراز منه والابتعاد عنه ما امكن وانت يا عزيزتي اراك تفهمين سر هذا الناموس والغرام يكاد ينحل جسمك ويلاشيك نفساً في نفس

قالت نليدا اذا لم اكن عاشقة فهل يجب ان استسلم لفواعل الغرام

اجابها اروتيذاس دون ريب لان في الحب لذة الحياة ولا يخفاك ان كلا يسعى الى الحصول على هذه اللذة

— ما هي لذة الدنيا .

— هي قبلة متبادلة يمازجها تنهد الحبيب وكلمة « زدني منها »

نليدا — ماذا يضرنا نحن النساء لو تبادلنا الهوى العذري مع من تحبه قلوبنا وتتوق اليه نفوسنا فاطلب اليك يا عزيزي اروتيذاس ان تنظم لي بيتين من الشعر على « قبلة المحبين » اذ يبين لي من كلامك ان قريحتك الشعرية متوقدة وذهنك حاد في هذه الليلة البهجة ·

اروتيذاس — انا طوع امرك فمريني ان انظم لك ما تريدين من الشعر ولكني اريد سلفاً مكافأتي على ذلك ·

نليدا — اهبك المكافأة بعد نظمك للشعر

اروتيذاس — لا بل في الحال

فبعد أن ترددت نليدا دلالاً مالت بوجهها الجميل الى اروتيذاس فلم يكد يلثم شفتيها حتى اعرضت عنه وخداها كالجلنار احمرارًا فتنفس اروتيذاس الصعداء كمدًا وقال هل تقدرين عظم محبتي لك بهذه القبلة فقط فجودي عليَّ يا منية الروح بقبلة اخرى ·

قالت له نليدا قل الشعر و بعدئذٍ تنال امنيتك فاجابها اروتيذاس هذا الامر يكاد يكون مستحيلاً اذ لا يمكني ان انظم الشعر ما لم تهج دمي حرارة قبلة اخرى من شفتيك الملتهبتين بنار الغرام ·

نليدا — يا لله من الرجال كم يكثرون من الهياج واللجاج لينالوا متمناهم وكم يطمعون في ضعف قلبنا فيتغلبون علينا بدهائهم قالت هذا ودنت منه ثانية وهي تتيه دلالاً فتزود منها بقبلة كادت تحرقه وتذيبه ثم صمت قليلاً من نشوة الحب وقال من الشعر ما معناه :

« ما احلى القبلات التي نسترقها من فم الحبيب كم تسكر بحلاوتهـا العقول ان قبلة من نستهيت في حبها كشرارة كهربائية تذيبنا وحياة المحب تتلاشى من نار تلك القبلة السماوية »

« اذا نظمت شعرًا بوصفها فالشعر يفتح لي ابواب السعادة والنار الغرامية تلتهمني شيئًا فشيئًا حتى اضمحل تمامًا فمني يا منية القلب التي امتلكت فؤادي بقبلة تورثني السعادة وتنيلني لذتها العظيمة ·

فصفق الشبان لهذه الكلمات وهز الشيوخ رؤوسهم استخفافًا ثم انشأوا يتجادلون وبيناهم كذلك سمعوا اصوات غناء من منتهي الحديقة اصوات نساء كن ينشدن اناشيد لوينوس الهة الجمال والعازفات بالشبابة يلحن

الاناشيد على نسب منتظمة معروفة يلذ سماعها فكف المتجادلون وانصتوا لتلك الاناشيد السماوية ·

وكانت السماء صافية الاديم مرصعة بالكواكب كما هي سماء قرنثية في ايام الربيع الزاهرة والنسيم العليل يعبث بغصون الاشجار والازدرخت مالئ الفضاء بالروائح العطرية التي تسكر الالباب ·

فاخذت لايس بيد حبيبها ارستيبس وذهبت الى الحديقة وتبعها المدعوون فداروا بها كالسوار واخذوا يتمتعون بتلك المناظر البهجة و يسرحون الطرف في المروج الجميلة ويسمعون اناشيد الجميلات يمازجها خرير المياه الجارية جداول على حصباء مثل الالماس بهاء ·

وقد هجرت المسرات تلك الليلة ربوع مدينة قرنثية لتسكن في حديقة لايس ملكة الجمال و بسطت ملائك السعادة اجنحتها فظللتها عن عين الحساد والعذال

ولما بزغ الفجر امت لايس هيكل الهة الجمال افروديته مارة بالعطفة المنزرع بها الآس فوقع نظرها على الايوان الذي بني اكراماً لها وقرأت باعلاه ما يأتي :

للمحسنة لايس

يقدم الشعب القرنثي واجبات الاكرام

فصاحت وقد طفح قلبها بالمسرات يا سكان قرنثية البقعة المباركة في افريقية اني ابقى اسيرة لطفكم ما حييت وان امت فعظامي تلهج بشكركم وانا اعدكم من الآن ان اعمل ما بوسعي حتى استحق ما شرفتموني به من هذا الاكرام الزائد في حده

(الليلة العاشرة)

« وليمة دينياس كما رواها فيلونيذس »

في الليلة العاشرة اجتمع الفلاسفة كجاري عادتهم في حديقة لايس فطلبوا من فيلونيذس ان يقص عليهم ما يعرفه عن وليمة دينياس فوقف على منصة عالية وقال : ايها النبلاء قد طلبتم مني ان اشرح لكم عن تلك الوليمة الحافلة التي اولمها دينياس وشاع ذكرها في اقطار اليونانية والحق يقال انها وليمة نادرة المثال لم يحدث مثلها في العصر الحاضر واليكم البيان عن ذلك بشرح كاف — كان دينياس احد عامة اثيناحقيراً في شبيبته فانتحل الصيرفة مهنة له حتى امتلأ وطابه وطابت اوقاته ونام عنه الزمان فاراد قبل موته ان يولم وليمة شائقة تخلد ذكره في التاريخ وقد كنت حاضراً تلك الوليمة ورأيتها رأي العين فاصفها لكم بكل اسهاب . مل دينياس من الانغماس في الملذات وركوب متن الشهوات فرغب في تخليد اسمه بوليمة عظيمة ثم يميت نفسه بعد الاحتفال بها فارسل لذلك مندوبين من لدنه ليبتاعوا له كثيراً من الخمور المعتقة واعد لذلك مائدة ثمينة واحضر عشرين طاهياً من صقلية واليونان وبدأت الاستعدادات قبل الاحتفال بها بستة اشهر بتمامها ليكون بها ما يلذ من الاشياء و يطرب ولما انتهت الاستعدادات دعا دينياس ثلاثمائة مدعواً من بلاد اليونان من طبقات مختلفة من الناس فكنت ترى الكبير والحقير والصانع والزارع والفيلسوف والشاعر وعدداً وافراً من الشحاذين وكثيراً من النساء الجميلات اللواتي يعجبن بجمالهن اما قبيحات الوجه فلم يكن لهن حظ من تلك الوليمة الحافلة .

وقد كان قصر ديناس بديع الاتقان متين البنيان مزخرفاً من الداخل والخارج احسن زخرفة مفروشاً باثمن الاثاث فكان بداخله تماثيل رخامية بديعة الصنع وصور زيتية وكؤوس نحاسية بها عروق من الفضة النقية واطباق مزخرفة ومباخر ذهبيه وطنافس ثمينة واكاليل بديعة ومصابيح جميلة وكانت المائدة من خشب الارز المرصع بالعاج والاسرة التي كان جالساً عليها المدعوون مكسوة باقمشة من الحرير ارجوانية اللون ومخططه بخطوط ذهبيه وكان في كل زاويه من زوايا القاعة تمثال رخامي بديع الصنع والنقش وقصارى القول انه لم يدع ديناس شيئاً من كماليات الجمال والغنى الا وضعه نيبهر به عقول مدعويه حتى انه اشترى مائة عبد واتى بخمسين راقصة وخمسين راقص كانوا لابسين ابهى الملابس واحضر كثيراً من المشعوذين وضاربي الرمل والحصى

وفي تلك الليلة فتحت ابواب قصر ديناس على عزف الشبابة ونغمات المطربين وازدحم الناس حول القصر يشاهدون دخول المدعوين وهيئة ملابسهم ومضت ساعة حتى تكامل عددهم فجلسوا على المائدة كل بالمكان الذي اعده له رئيس الحفلة ولما جلس كل في مكانه قام فيلونيذس (اي الراوي) بين الجمع وقال اعلموا ايها الفضلاء ان ديناس قد بدد قسماً وافراً من ثروته في سبيل دعوتكم الى هذه الحفلة الحافلة التي سيبقى ذكرها مخلداً الى الابد بما حوته من لذيذ الاطعمة والاشربه وحسن الخدمة واتقانها ولا يكون لها نظير في مستقبل الايام فاعلموا ان ديناس من وافر كرمه وحباً بسروركم يهب كلاً منكم ما لديه من الاواني الفضيه والذهبيه فارفعوا كؤوسكم اذاً لنشرب على سره فنهض المدعوون على اقدامهم واحتسوا

الكؤوس دفعة واحدة وللوقت ظهر دينياس بوسط الحفلة ومن حوله اخصاؤه فتقدم من الجمع مبتسماً وقال :

يا اعزائى قد نلت ما كنت اتمناه من زمن مديد باقامتي هذه الحفلة الحافلة واني اموت مسرورًا اذا ابقت في مخيلتكم اثرًا حميدا فاعلموا أن سروركم الان يسرني وذكراكم لحفلتي يرفع شأني في عيون العظماء ·

فنهض الجمع ثانية وملأ الكؤوس وشربوا نخب دينياس ثم ضجوا بالدعاء له ولما سكنت تلك الاصوات قليلا استتلى فيلونيذس قائلا استعدوا ايها الاصحاب والمدعوين لاكل الاطعمة الشهية وشرب الخمور المعتقة وانتم ايها العبيد قدموا لكل من الحاضرين اكليلاً واحضروا الطعام حالاً · فصدع العبيد بالامر وبادروا لوضع الاكاليل على رؤوس الحاضرين ثم احضروا القصاع ووضعوها على المائدة فاخذ المدعوون يلتهمون الطعام بشهية عظيمة وهاكم وصف الصنف الاول من المآكل التي قدمت لهم اطباق ملآنة من الاسماك المتبلة بالتوم والكمون وبيض الدجاج ولحوم الطيور البرية والطواويس ومعها ارجل خنزير واحشاؤه محشوة باللحم وافخاذ خنزير محمرة · ثم احضرت اكباد خنازير برية ورؤسها كانت كلها عائمة بالخل ومحاطة بالبقدونس · ثم خنانيص كاملة محشوة بالقطلب والاجاس ولحوم الماعز المقددة وتلا ذلك قطع كبيرة من لحم البقر والعجول عائمة بمرق ملآنة بالبهارات وصدور الضان مقلاة وألسنة عجول مفتولة فتلاً لولبياً وكثير من اللحوم المفرومة وحولها النباتات العطرية واكباد الضان مشوية ونعاج محشوة باليانسون والكمون ومبثوثة بالزبدة والعسل وكذلك ارانب صغيرة متبلة وسابحة بالمرق وملآنة بالروائح العطرية ·

ولما آكل المدعوون تلك اللحوم اللذيذة اتي لهم باصناف الاسماك المصطادة من كل البحور والبرك والانهار حتى انه ليعسر على الرائي ان يصفها تمام الوصف فمنها (التون) وسمك (الشبوط) وسمك كسيفياس والسراطين البحرية وسمك موسى · والملون والباطي · والبوري والسلطان ابراهيم · وكثير من الاسماك مما لا يقع تحت حصر

واذ كان فيلونيذس مهتماً براحة المدعوين يأمر الخدم باحضار الاطعمة حدث امر حول اليه انظار الناس وهو ان احد الحدادين خطف رأس خنزيرة سمينة ووقف بزاوية القاعة يأكله فدنا منه عبد واراد اغتصابه منه لكن الحداد دفعه بيده فالقاه طريحاً على الارض وقال وهو يتميز غيظاً يا عبد السوء هل نسيت أن لي فم زحل ومعدة هرقل فدعني أملي بطني من اطعمة دينياس اللذيذة فاستغرب الناس في الضحك واصلحوا بينهما · اما فيلونيذس فقال عافاك الله ايها الضيف الكريم انك تستحق اكليلا من الغار فهاتوا له اكليلاً ليضعه على رأسه وخنزيراً برياً يضعه في بطنه وقدموا له من الخمر المعتق ليشرب منه بقدر ما يرغب فانفذ امره حالاً

وبعد ذلك رفعت الاطباق ووضع على المائدة صنف المآكل الثانية من الطيور على اختلاف انواعها واما ما الخضارات المعطرة الشهية المنظر منها الدجاج المسمن · والبط الصغير · والسماني والقنابر والعصافير المدهنة والاحجال السمينة والكورلي (طائر مائي) وعليها مساحيق التوم والفلفل الاحمر والدقيق المذوب بخل حاذق ومن كافة اصناف الطيور

وبعد ان التهم المدعوون هذه الاطعمة اتى لهم باطباق كبيرة بها جراد كبير الحجم منها مقلي ومنها مطبوخ وهي عائمة في مرق حادة مؤلفة

من التوم والبهار والخل فلما حضرت تلك الاطعمة التي اعتاد اكلها البائسون فدعوها وطنية سر الفقراء منها سروراً عظيماً ومن كثرة سرورهم تخاصموا عليها وتلاكموا . و بعد الجراد اتى باصناف السلطة من خضروات ذلك الفصل على انواعها واعشاب وجزورها واثمار اعتيادية شمسية وظلية اي التي تنمو بالظل كالخيار والكوسي والكرنب والجزر واللفت والفجل والخس ومن الفطير انواع كثيرة محشوة باصناف عديدة وافخاذ خنازير (جنبون) وجبن ابيض وزيتون من اتيكه مشهور بحسن منظره ولذيذ طعمه .

اما الخمور المعتقة فقد صرف دينياس ما عز وهان من المال لاستحضارها من انحاء المعمور فمنها النبيذ الاحمر والابيض والاصفر وذو اللون الوردي والعقيقي والنبيذ السكري والعطري واللامع فشرب المدعوون من هذه الاصناف ومن انبذه قرنتية وايكارس و كورسير وزاسنت وتاكسوس وقبرص ومن نبيذ تاسوس الذي كان يشرب به اناكريون شاعر هزلي توفى ٥٦ (ق ٠ م) ومن نبيذ لبسوس وساموس .

وقد عم جميع الحاضرين السرور وكانت الخمرة تتدفق في الكؤوس فتدور سورتها في الرؤس فامتلات البطون وترنحت الاعطاف فظهرت نشوة السرور والطرب على تلك الاوجه وانحلت عقدت الالسن فانطلق القوم يتحدثون و يضحكون ويمرحون و يتجادلون وفي كل برهة يملأون الاقداح الذهبية ويشربون على سر دينياس ويصيحون قائلين فليحفظ جوبيتر دينياس الرجل الفريد في الكرم والشهامة الا أن بعضاً منهم كان يتحسر على هذه الاموال التي تذهب ضياعاً بحجة انها لو صرفت في وجوهها لغالت كثيراً من العائلات الفقيرة . وبينما هم على تلك الحالة صاح فيلونيذس قائلاً : ايها

العبيد والخدم جددوا الاكاليل على رؤوس المدعوين واحضروا الصنف الثالث من الطعام فعمل العبيد بأمره وباقل من طرفة عين اصطفت قصاع الحلوى على المائدة منها المعجنات كالخبز المعجون بالاثمار والشهد والقشدة وكثير من الحلواء وقد افرغ الطاهي (ثمبرون) فيه انواع الحذق والتجويد فكان طعاماً شهياً يبهج الناظرين ويلذ الآكلين ·

· والاشياء التي كانت تتألف منها هذه الحلويات كانت من عسل جبل هيميت والسكر المعصور من التين والعنب والدقيق النقي المستحضر من السمسم والقمح الجيد وهذه الاشياء مذوبة تارة بالزبده والقشده وطوراً بزيت الزيتون او اللوز واضاف الطاهي على ذلك مزيجاً من القشدة واللبن والجبن والاثمار المحفوظة وعصير الازهار العطرية ومواد ثانية سكرية فكنت ترى على تلك المائدة من هنا فطائر مصفوفة بجانب بعض وفوق بعض تفصلها قشدة مخفوقة ومعطرة ومبردة وهناك اثمار بسيطة ومركبة جامدة وممزوجة بمساحيق من اللوز النقي وكذلك من رب البرتقال والليمون والكباد وكعك معجون بروائح زكيه من خلاصة الزهور الربيعية واصناف كثيرة من الحلواء لا يحصرها عد

قال فيلونيذس · لا يغرب عليكم ايها الاصحاب ان الطاهي (ثمبرون) قد ابدى مهارة فائقة الحد في تهيئة هذه الاطعمة وتنظيم هيئتها ولا ريب في انه يعلم شيئاً من فن التصوير والرسم والنقش حتى اجاد في بناء هذه القصور الشوامخ من الحلويات وقد كان وسط كل مائدة قطعة من الحلوى تمثل قصراً او اشياء غيرها كاروقة هياكل ودهاليز مذابح وكثير من المسلات وحولها تماثيل هائلة او نسور جارحة باسطة اجنحتها

وغير هذه وتلك اسود ونمور وافيال مادة خراطيمها وخيول يعلو صهوتها فرسان مدججين بالسلاح وكذلك بعض تلك تماثيل كانت تمثل (ابلون) وو ينوس آلهة الجمال بعربتها يجرها سرب من القطا وآله الحب يؤتر قوسه وآلهة الحكمة مينروه لابسة خوذة وبيدها رمح طويل ورسم سقاة الراح في الالمبوس وكل هذه الاشياء عملت من مزيج الدقيق والعسل والصمغ السكري وكانت على المائدة الجالس اليها دينياس قطعة كبيرة هائلة الحجم من الحلوى علوها مترًا ونصف متر تمثل برجاً ذا ثلاثة ادوار كل دور تمثال صغير رمزي الى آله من آلهة الحب او الخمر وفوق تلك الادوار قبة هائلة عليها طائر باسط جناحيه وهو ينفخ في مزماره كان يضعه بفمه . فقال فيلونيدس ايها المدعوون ان دينياس يسر كثيرًا بما انفقه من المال لسروركم وهو قد اذهلكم بانواع الاطعمة واشكالها المتنوعة فانظروا الى المشهد الذي سيعمله اكم فهو مشهد جميل عظيم لامثيل له . وللوقت تناول دينياس مطرقة صغيرة وضرب بها ذلك الطائر السكري فسقط و برزت مكانه شجرة برتقال متهدلة الاغصان ملآنة بالاثمار وغابت تلك التماثيل دفعة واحدة فقام مقامها طاقات من الورد الجوري ذي الرائحة الزكية فتعجب المدعوون وتمتموا بعض كلمات واستعاذوا بالآلهة من شرمارأوا واذ ظنوا انفسهم في مكان قد سكنته ارواح الجان . ثم ضرب دينياس ايضاً الدور الثاني من تلك القطعة فخرج منه سرب من الحمام بعنق كل حمامة طوق من الحرير الوردي كانت تطير في تلك القاعة العظيمة . ثم دمر بفاسه الدور الثالث من قطعة الحلواء فبرز منها ولد لابساً رداء الحب و بيده اكليل زيتون وهو باسم الثغر بين ذلك الجمع الغائب العقل ففعل الاندهال ما لا تفعله سورة

الخمر بتلك الرؤوس النشوانة فاخذ الناس يصفقون طرباً وعجباً وصاحوا قائلين فليحي ديناياس الكريم الشرف والمجد لديناياس وللوقت ملئت الكؤوس على سر ديناياس وافرغت في جرعة واحدة فقال ديناياس الفخر والاكرام « لثمبرون » لانه هو المسبب لكل هذا السرور والحبور والطابخ لكل هذه الاطعمة الشهية التي ستخلد ذكري الى الابد

فصاح القوم كلهم بصوت واحد فليحي ثمبرون وللوقت اشار ديناياس الى ذلك الولد الواقف في قطعة الحلوا والممسك بيده اكليل زيتون ان يتقدم الى ثمبرون ويضفر ذلك الاكليل على رأسه ففعل بين تصفيق الحضور واستحسانهم . وفي تلك البرهة نهض القاضي الاكبر ميدون من مكانه فامسك يد ثمبرون وهو يقول له . اني اهنئ صناعة الطبخ برجل نظيرك واعدك اهلا ان تتبوأ مكاناً في مجمع العلوم فهل اذا سألتك عن كيفية اتقانك لتلك الصناعة تجيبني الى ما اريد . قال ثمبرون ايها الشريف ميدون اني راغب في اجابتك الى ما تود معرفته انما لا ارى هذا المكان لائقاً لمثل كلامنا وعلى الاخص لانه مهم جدا وليس كما يظن البعض ان لا فائدة منه فان شئت نبتعد عن هؤلاء الناس ونجلس على تلك المائدة المنزوية ونتباحث طويلا فذهبا وصحبهما اثنا عشر من المدعوين منهم فلاسفة ومنهم صناع ماهرون وبينما كان الجمع يشرب الخمر ويضج بالصراخ كان ثمبرون يقص على سامعيه ما يأتي :

اعلموا ايها الاصحاب ان فن الطباخة فن جليل يجب ان يحترمه ذوو الذوق السليم فاذا كان بناؤنا هيكلا او نقشنا تمثالا او وصفنا اعمال بطل يعد منا اقراراً بفضل الفضلاء فكم علينا ايضاً ان نقر بفضل الطباخين الذين يهيأون لنا من الاطعمة الشهية ما يلذ لنا اكله ويطيب لنا منظره خصوصاً لان ذلك

الا كل المغذي يعوضنا الخسارة التي نفقدها من دقائق جسمنا ولكن اخبركم آسفاً ان فن الطباخة محتقر جداً في اعين الناس والطاهي يبقى منزوياً في زوايا النسيان انما النقاش وصانع التماثيل يستحقان منهم اكاليل الغار فاعلموا ان فن الطبخ له قوانين واصول مقرره ويقتضي لاتقانه التضلع من بعض علوم حتى تكون الاطعمة شهية الذوق مغذية للجسم فالطباخ يجب ان يكون ذا المام بالعلوم الطبيعية فعلم النبات والحيوان لازمان له جداً اذ بهما يقدر ان يعرف الانواع النباتية والحيوانية الاكثر سهولة للهضم من خلافها عالماً بعلم الجغرافية والميترولوجيا ليمكنه معرفة احوال البلاد وطبيعتها ومناخها وما ينبت فيها من النباتات المشهورة ويعلم في اي فصل من فصول السنة يكون أكل هذا الجنس من اللحم او ذلك النوع من الخضر افيد للانسان ويجب عليه معرفة فن الهيجين ليعلم اي نوع من اللحوم والبقول اشد هضماً في المعدة من غيره لينتقي الاحسن منها ثم يلزمه ايضاً معرفة الكيمياء لكي يعرف كيف يكون مزج الطعام وتركيبه وتحليله ومزج هذا الاكل بغيره من المواد الاشد ملائمة له ونسبة كمية هذه الاجزاء الى غيرها نسبة دقيقة حتى ينتج عن المزج شيء لذيذ شهي الطعم ٠

ومن هنا يتضح ان هذا الفن جليل يجب على اولياء الامر ان يبجلوه ويضفروا على راس الطباخ الماهر مايضفر عادة على رؤوس العلماء من اكاليل الغار ثم استتلى قائلا ٠ لاخفا كم ان المآكل في اعصر الخشونة والبداوة كانت مؤلفة من بعض لحوم مشوية كانوا يضيفون اليها شيئاً من الملح والنبيذ .وقد كانت اغذية هرقل واشيل واغا ممنون مؤلفة من قطع كبيرة ثمن بعض لحوم الثيران ورؤوس ضأن كانوا يشوونها كما هي ويضعونها على صحن نباتي

مؤلف من اوراق نبات يعرف (بالقويسة) وغيره من النباتات الصحية ٠
وغير ذلك كانوا يسلقون لحوماً و يضيفون اليها زيتاً وخلا و بعض بهارات ٠
على هذه الصفة كان فن الطباخة في تلك العصور الخالية لكنه تقدم الان
بتقدم التمدن والعمران واتسع نطاقه فوضعت له القواعد الدقيقة مثل ان
يعلم ان لحم الحيوانات الداجنة اشد غذاء من لحم الحيوانات البرية وان
الحيوانات الصغيرة تغذي اكثر من الحيوانات الكبيرة وان الاسماك ذات
الجلد الاحمر الزيتي اعسر هضماً من ذوات الجلد الابيض وان الفواكه يجب
ان تكون ناضجة وتقطف في اوانها لتكون سهلة الهضم وان بعض اجناس
الطيور لا يؤكل الا مشوياً والبعض الآخر مطبوخاً وهذه الالمامات ليست
الا مبادئ لفن الطباخة اذ لا يظهر فضل الطاهي الا بما يصنعه من الامراق
والعطارات والتوابل وما يعمله من الحلويات على انواعها وكذلك مايضيفه
من البهارات كالملح والبهار والخل والزيت والعسل والثوم والقرة والانبذة
البيضاء والحمراء والزعتر والغار والبقدونس والكمون والخيار والشمر واليانسون
والسمسم والليمون وغيرها من الاعشاب العطرية ومن الزيوت خلاصة
الليمون والبرتقال والورد على اختلاف اشكالها ٠

والامراق تقسم الى اربعة اقسام حلوة وحاذقة ومرة وحامضة مثل
ان يضاف الى السمك المسلوق مرقة من الثوم والبصل ومن القبار المقطع
والقمح المبروش والخل والزيت واذا اريد عمل مرقة اقل حذاقة من تلك
يستعمل لذلك الكمون والقبار والعسل والزبيب المسحوق والنبيذ الحلو والزبده
ومزيج من مح البيض والدقيق واذا اريد شيء سمكة طرية توضع على
ورقة موز مطلية بالزبدة وتشوى على نار باردة ٠ والطباخ الماهر يجب ان

يعلم كيفية تطرية اللحم الخشن والخضارات وكذلك البذورات القاسية اللب . ومما يحبه الاثينيون هو الطعام الآتي . جدي محشو بالتين والبلح الطري والزيتون والبقدونس وغير ذلك من النباتات العطرية اما كيفية صنعها فتناط بالطاهي وهو اذا كان ماهرًا لا يعسر عليه عمل هذه الاطعمة كما يدله عليه ذوقه ومهارته في صناعته ومما يظهر براعة الطاهي في صناعة الطبخ هو الصنف الثالث من الطعام المؤلف من حلويات وكعك وغير ذلك وهناك يجب ان يجهد قريحته ويستعمل ما بوسعه حتى يعمل من هذه الحلويات اشكالا كثيرة تلذ الناظر والآكل مثل الكعك الناشف والطري والفطائر المحشوة بالمربيات كالفريز والموز واللوز والفستق وخلاصة العطور الزهرية فهذا ما يجب ان يعلمه الطباخ الماهر حتى يستحق ان يسمى بهذا الاسم وتضفر على راسه اكاليل الغار

قال ميدون القاضي الاكبر: مثل هذا الرجل يستحق اكرامنا واعتبارنا ونحن كعلماء وفلاسفة نعظم بشخصك ذلك الطاهي الحاذق وللوقت سمعت جلبة مشعوذين امام باب القصر كانوا يترامون على بعضهم ويظهرون من الالعاب الجسدية المدهشة ما يأخذ بالعقول ويحير الالباب فمنهم من كان يصف اقداحًا بعضها فوق بعض ثم يشير اليها فتختفي عن العيان ثم يؤمي ثانية فتعود ومنهم من كان يقرأ بكتاب وهو يدور على نفسه دورانًا سريعًا ومنهم من يقذف من فيه نارًا ومنهم من كان يطيل قامته ثم يقصرها كما يريد باسرع من لمحة الطرف وخطفة البرق وبعضهم كان يظهر قوة جسدية فائقة بالقمز والمشي على الرؤوس وكان يرى بين هؤلاء المشعوذين امرأتان احداها كانت ممسكة بيدها اثنتي عشرة طارة من النحاس كل طارة كان بها

عدد وافر من الحلقات النحاسية وكانت ترقص وترمي تلك الحلقات الى الفضا ثم تلتقطها كلها والمراة الثانية كانت تلقي بنفسها بين سيوف مجردة دون ان يصيبها ادنى ضرر ثم كانت تمسك بعضاً من تلك السيوف وترميها الى الهواء ثم تلتقطها وهي راكضة وقد كان كثير من الادباء والظرفاء يتفوهون بكلام ظريف لطيف يضحك السامعين ٠

ثم تقدم الموسيقيون والراقصات الى وسط القاعة حيث اعد لهم مكان رحب فاخذت الضاربات على العود يغنين هذه الادوار الآتية التي تنسب الى الشاعر المضحك اناكريون « لنشرب ونطرب فاله الخمر (باكيس) يطرب لسرورنا ورقصنا ويسمع غناءنا فالسرور يطفيء الحسد والغيظ ويمحو الاكدار ويولد الصداقة والمحبة فلنشرب اذن ونطرب »

« الماضي قد زال وامحت آثاره والحاضر يهرب منـــا لاحقاً بالماضي والمستقبل لم نره الآن فهذه الحياة اذن هي برهة السرور التي يجب ان ننتهزها فلنقطع وقتنا بالمسرات وندوس الغنى والمجد الفارغ باقدامنا لان الحب والخمر والجمال هي وحدها حظ الحياة »

فرقصت الراقصات وغنت ادواراً كانت تقولهـا الآلهة عند ولادة باكوس اله الخمر فكان الجمع يصرخ قائلاً ايتها الراقصات اظهرن ما يلذ لانا عيانه من الحركات الرشيقة والرقص الخفيف ٠ وكانت لايس من عداد المدعوين الى الوليمة فلما رأت ما آلت اليه الحال نهضت من سريرها وقالت لديناس لا يخفاك ايها الصديق ان الخمور ومناظر الحسان قد ألهبت الرؤوس بنار حامية من الشهوات الحسية فلذلك ارجوك ان تسمح لي ولرفاقي الفلاسفة ان نخرج فأذن لها فخرجت مع ارستيبس وكليون وغيرهما ٠ وقد كان وجود

لايس اسداً منيعاً دون انبعاث الشهوات والقبائح المنحصرة فما كادت تخرج حتى ترك المدعوون امكنتهم واخذوا يرقصون مع الراقصات وعلا ضجيجهم ونفثت الصدور نفثات الغرام والحب وازدوج الصراخ حتى مزق الاذان فخرج من خرج ممن ابت نفوسهم حضور تلك الافعال وانطلق الباقون يضحكون و يرقصون و بينما كانوا على مثل تلك الحالة نفخ في البوق فسكتت الاصوات برهة سمع بخلالها قول قائل يقول هل انتم مسرورون ايها الاصحاب من وليمة دينياس فاجابه الحاضرون اننا في غاية السرور من هذه الضيافة ٠ قال اذن فدينياس يطلب اليكم ان تأتوا غداً قبيل الغروب الى رواق قصره و بيد كل منكم مشعل وذلك لترافقوه الى منزله في البرية ٠ اجاب ذلك الجمع اننا نفديه بانفسنا ونرافقه ان اراد الى الجحيم قال لهم سنرى ذلك غداً اما الآن فاملأوا كؤوسكم من هذا النبيذ المعتق واشربوا على سره ولا تنقطعوا برهة عن المزاح والرقص بل تمتعوا بكل الملذات وقدموا المجد لآله الحب والخمر لان هذه الوليمة لا ترون مثلها في مستقبل الايام ثم لا تنسوا انكم وعدتموني بالحضور غداً الى هنا قبيل الغروب ٠ وللوقت اطفئت الانوار على تلك الجموع المختلطة بين رجال ونساء فباتت تلك القاعة الفسيحة في ظلام حالك وما جرى في ذلك الظلام لا يمكن التفوه به حياء ٠٠٠

انما اقول ان اولئك المدعوين خرجوا في غلس اليوم التالي صفر الوجوه خائري القوى خافضي الرؤوس كانهم ندموا على ما اتوه من المنكرات بعد ان ثاب اليهم عقلهم وقبيل الغروب اي في الاجل المضروب ام قصر دينياس القسم الاوفر من المدعوين وفاء بوعدهم و بيد كل منهم مشعل واتوا ينتظرون قدوم ذلك الرجل العظيم و بعد برهة اطل عليهم فيلوبنذس من ايوان القصر

وقال لهم لقد انجزتم ما وعدتم فاشكركم على ذلك بالنيابة عن مولاي ديناس شكرًا جزيلاً وارجوكم ان تشغلوا مشاغلكم وتستعدوا لتشييع مولاي الى قصره في البرية

وللوقت فتح باب القصر وخرج منه هودج محكم السد وعليه اكاليل من الزهور فمشى فيلونيدس امام الجمع وتبعه الخدمة واصطف المدعوون صفين ومشوا معاً حفافي ذلك الهودج حتى وصل الى مكانه وهناك وقف فيلونيدس بينهم وقال لهم اذكركم بما قلتموه امس من انكم تتبعون ديناس ان اراد الى الجحيم وها انتم قد وصلتم الى نصف الطريق لان ديناس قد سبقكم اليه وهو ينتظركم الآن على ضفة نهر الجحيم «ستكس» وقد دفع عنكم اجرة العبور الى كارون نوتي ذلك النهر ثم كشف فيلونيدس الستار عن ذلك الهودج واراهم جثة مولاه ديناس الباردة فذعر القوم من هذا المنظر المخيف ووقفوا في مكانهم حاضري الشخص غائبي العقل . قال فيلونيدس . اكرر عليكم القول ايها الاصحاب ان ديناس ينتظركم على ضفة نهر الستكس فاذا كان يوجد بينكم حر يفي بوعده فليذهب الى قصر ديناس و يشرب من السم الذي تجرعه مولاي حتى يلحق به الى الجحيم . مالي اراكم كالخشب المسندة لا تبدون حراكاً فتبصروا بالامر ملياً واني اعطيكم مهلة خمسة ايام اذ سيباع القصر ومتاعه في اليوم السادس وذلك لوفاء الديون الباهظة الذي تكبدها ديناس في هذه الوليمة الشائقة المعدة احتفالاً بكم . ما لكم قد صممتم عن الكلام وجمدت ألسنتكم عن النطق فمن منكم الشهم الذي يتبع سيدي الى الجحيم . اما الجميع فظل ساكتاً . الى ان تحمس من بينهم رجل وقال . ياخادم ديناس اللئيم انت الاجدر منا باللحاق بسيدك الذي كان

موته نعمة عظيمة على الاثينين لانه كان يمص دماءهم ويسلبهم اموالهم بطرائق الغش والخداع فلذلك لم يلبث ان اغمد سيف القدر في عنق حياته الاثيمة وانقص من الادنياء واحداً كانت حياته وصمة عار على التمدن والتقدم · قال فيلونيذس انك تكفر وتلحد احترم الموتى لان القبر يمحو الاثام والموت يغسل الاوضار ·

قال الرجل — كلا القبر لا يمحو الجرائم اسأل الناس الذين مص ديناس دماءهم وابتزهم اموالهم وايتم اولادهم ورمل نساءهم اذا كان كلامي هذا صواباً ام لا هل موت هذا الشقي يقيل عثار فقرهم وسل ان اردت ورثاء ديناس اذا كانوا يرضون ان يردوا الاموال التي سلبها ديناس من الفقراء تعلم ان ذلك بعيد المنال لان القانون لا يجبرهم على ذلك قط · ما افظع هذا الامر كيف ان القانون يسكت عن معاقبة امثال هولاء الاشقياء لان سرقتهم خفية ويعاقب المساكين الذين يسلبون رغيفاً من مخبز ليسدوا به الرمق بينما ورثاء ذلك السارق اللص يتنعمون باموال الفقراء ويلبسون الانيق من الثياب ويتقلبون على اسرة الخز والديباج فهل يمحو الموت مثل هذه الفظائع كلا ·· ثم كلا ·· اذن فلتحل بديناس النقم وتحيط به المصائب وتظلم جوانب قبره بظلمات مخيفة ثم التفت الى ذلك الجمع الواقف وقال لهم · ايها الاصحاب اظنكم مثلي خجلون مما اتيناه ليلة امس من الموبقات فليتكم تتعظون بما رايناه وعملناه في تلك الوليمة الدنسة واعلموا ان رجال الفضل هم مجد امتهم ومصابيحها المنيرة فلنرجع اذاً الى اثينا ونعيش عيشة فاضلة نقية وها انا ذاهب امامكم فمن اراد فليتبعني فتبعه الجميع

هذا ما جرى في وليمة ديناس الشهيرة قد بسطته لكم بايضاح وتكلمت

عن نفسي وما جرى لي بها مثل رجل غريب عنها لاني كنت من اتباعه كما ظهر لكم من سياق الحديث . وقد كانت تلك الوليمة حديث القوم زمناً يسيراً لان الاثينيين كثير والتقلب فحدث ان احد الاغنياء قطع اُذني فرسه والسيبياد الجميل ذنب كلبه فشغلتهم هاتان الحادثان زمناً طويلاً ونسوا ديناس ووليمته اه

ولما فرغ فيلونيدس من كلامه شكره الجمع على حرية ضميره وامرت لايس ان يضفر على راسه اكاليل من الغار وتفرق الجمع في تلك الليلة وهي آخر ليالي لايس القرنتية . (انتهى)

(تنبيه) قد وقع بعض اغلاط مطبعية في هذا الكتاب لاتخفى معرفتها على المطلع الاديب


Bibliotheca Alexandrina
01173735